

دكتورة نوال السعداوى

قضايا المرأة والفكر والسياسة

- رسالة مفتوحة إلى رئيس الدولة
- كيف يحدث التزوير في التاريخ
- أزمة الخليج والاستعمار
- محاكمة جورج بوش
- اختلاف الآراء ضرورة
- عولة من قاعدة الهرم .. والوعى النسائى العربى
- اكتاب المثقفين والحوار مع السلطة
- جوهر قضية المرأة العربية
- فلوس المرأة .. هل هى عورة ؟
- سيرتى الذاتية ومذكراتى فى السجن
- لماذا لا تدخل المرأة مجمع البحوث الإسلامية ؟

مكتبة مابولى

الناشر

مكتبة مدبولي

العنوان : ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ - فاكس : ٥٨٧٢٨٥٤
الكتاب : قضايا المرأة والفكر والسياسة
الكاتب : د/ نوال السعداوي
رقم الإيداع : ٢٠٠١ / ٤٩٥٣
الترقيم الدولي : 6 - 325 - 208 - 977
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ٢٠٠٢
تصميم الغلاف : محمد لطفى

عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٨٤٧ ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣ - فاكس : ٣٢٩١٤٩٧

قضايا المرأة والفكر والسياسة

دكتورة نوال السعداوى

2002

مكتبة مدبولي

المحتويات

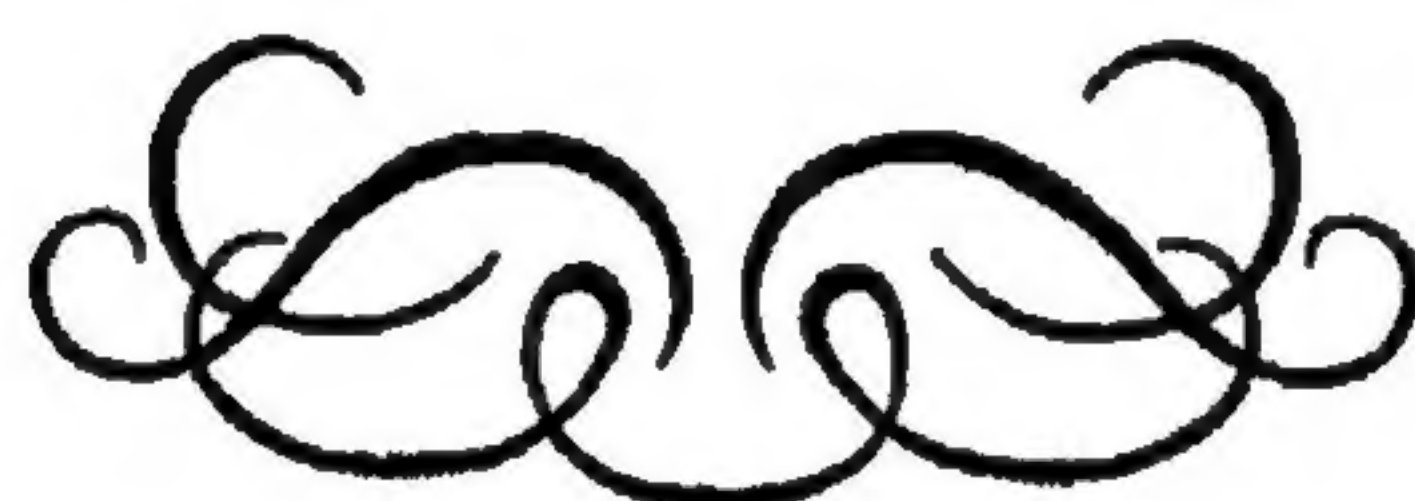
مسل	الموضوع	صفحة
	فن وإبداع	
١	الإبداع والتمرد فى حياة المرأة المصرية	١٣
٢	الكحل والجنس وقهر النساء على خشبة المسرح	٢٧
٣	اسئلة الإبداع المعلقة	٣١
٤	رواية السيرة الذاتية	٣٧
٥	كسر الحدود	٥٣
٦	عصر المجهول	٥٧
٧	لذة الإبداع	٥٩
٨	حرية التعبير تستيقظ	٦١
٩	رؤية نقدية لفن محمود سعيد	٦٣
١٠	الفن فى مواجهة السياسة	٦٩
١١	المرأة والنقد الأدبى	٧٣
١٢	الضرورة الحيوية	٧٧
	المرأة	
١٣	عن قضية تحرير المرأة المصرية	٨١
١٤	فلسفة المرأة فى القرن القادم	٨٥
١٥	عن شهرزاد ومى زيادة .. امرأة حرة وأصدقاء غير أوفياء	٨٩
١٦	الوعى النسائى العربى	٩٣
١٧	شهر مارس وتحرير المرأة فى أفريقيا	١٠٧

مستند	الموضوع	صفحة
١٨	الدكتورة سهير القلماوى كما عرفتھا	١١١
١٩	الوعى القومى بين الحركة الوطنية والحركة النسائية	١١٥
٢٠	فلوس المرأة هل هى عورة ؟	١٢١
٢١	طريقى ليس إلى بكين	١٢٥
٢٢	ماذا تقول المرأة فى القرن الـ ٢١	١٢٧
٢٣	المرأة لا تولد امرأة .. بل تصبح امرأة !	١٢٩
٢٤	مظاهرات النساء فى أوربا	١٣٥
٢٥	المرأة وتوازن القوى فى العالم	١٣٧
٢٦	فى الطريق إلى المؤتمر العالمى للمرأة فى نيروبي	١٤٢
٢٧	لماذا لا تدخل المرأة مجمع البحوث الإسلامية	١٤٥
٢٨	مى زيادة فى ذكراها الرابعة والأربعين	١٤٩
٢٩	إنجى أفلاطون	١٥١
٣٠	فدوى طوقان .. رحلة جبلية صعبة	١٥٣
٣١	رسالة إلى الشهيدة نعمات	١٥٧
٣٢	محاولة عزل قضية المرأة	١٥٩
٣٣	المرأة المصرية والمشكلة الاقتصادية	١٦٥
٣٤	جوهر قضية المرأة العربية	١٦٩
٣٥	آخر قلاع الملكية الخاصة (امتلاك الرجل لزوجته)	١٧٧
	فكر وثقافة	
٣٦	إعادة تاريخ مصر القديم	١٨٣
٣٧	تأثيم المعرفة لماذا حدث فى التاريخ ؟	١٨٧
٣٨	اكتئاب المثقفين ومسئولية الحوار مع السلطة	١٩١

مسلسل	الموضوع	صفحة
٣٩	الأرض مقابل الختان .. أوقفوا ختان الذكور	١٩٥
٤٠	تأملات على بحيرة مارينا	٢٠٣
٤١	الاغتصاب ومفهوم الشرف	٢٠٧
٤٢	لماذا لا يدور حوار فكري خلاق ؟	٢١٣
٤٣	العدل مطلوب في جميع القوانين	٢١٧
٤٤	أنا لا أفكر إذن أنا موجود	٢٢١
٤٥	عن انتحار الكتاب والكاتبات	٢٢٥
٤٦	نقد موجه إلى جريدة الدستور	٢٢٧
٤٧	التخويف والترغيب والجوائز	٢٣١
٤٨	حديث مع توفيق الحكيم	٢٣٣
٤٩	الفرق بين الراقصة المحجبة والراقصة الشقراء	٢٣٩
٥٠	الحنين إلى الدفء والعدل	٢٤٣
٥١	لماذا لا يكون في بلادنا وزيرة للعدل ؟	٢٤٩
٥٢	خمسمائة رسالة إلى النخبة الثقافية	٢٥٥
٥٣	التمرد وثقافة الصابون	٢٥٩
٥٤	التناسب العكسي في الثقافة والفكر	٢٦٧
٥٥	على موسيقى الشعر ترقص الخيول	٢٧١
٥٦	حول جائزة نوبل	٢٧٣
٥٧	الكاتب الكبير والكاتب الحر	٢٧٧
٥٨	الكاتب المبدع والفصل بين السلطة والمسئولية	٢٨١
٥٩	ماذا يقول هؤلاء الكتاب ؟	٢٨٥
٦٠	طفل الأنبوبة وصراع العصر	٢٩١

مستسل	الموضوع	صفحة
٦١	أيتها السنة كوني جديدة سياسة	٢٩٧
٦٢	عولة من قاعدة الهرم	٣٠٥
٦٣	تأملات على شاطئ فلوريدا	٣١١
٦٤	رحلة الصيف إلى الجنوب الأفريقي	٣١٧
٦٥	أشياء صغيرة مفسدة للفرح	٣٢٢
٦٦	في ذكرى مرور نصف قرن على حقوق الإنسان	٣٢٩
٦٧	اختلاف الآراء ضرورة	٣٣٧
٦٨	ثلاث رحلات إلى بغداد	٣٤١
٦٩	تحت عيون الجميع	٣٤٧
٧٠	حول الحوار الفكري مع الرئيس	٣٤٩
٧١	رسالة إلى رئيس الدولة	٣٥١
٧٢	كيف يحدث التزوير في التاريخ	٣٥٥
٧٣	الصمت جريمة .. ومعاً نكسر باب السجن	٣٥٩
٧٤	الاستخراب وليس الاستعمار	٣٦٧
٧٥	آلهة ورجال	٣٦٩
٧٦	عودة إلى الوطن	٣٨١
٧٧	المواطنون في الظلم سواء	٣٨٧
٧٨	بين الطب والأدب	٣٨٩
٧٩	سمعة مصر	٣٩٥
٨٠	مأزق الصحافة الرسمية في مصر	٣٩٧
٨١	أزمة الخليج والاستعمار	٤٠١

صفحة	الموضوع	مسلسل
٤٠٥	محاكمة جورج بوش	٨٢
٤٠٩	أيهما نلوم . الكبار أم الصغار ؟	٨٣
٤١٣	رحلة الأيام الست	٨٤
٤١٩	المبالغة في مدح رئيس الدولة	٨٥
٤٢٣	الطاعة والمعارضة في السياسة وغيرها	٨٦
٤٢٩	حدث صباح ٢٥ نوفمبر ٨١	٨٧



فن وابداع

١٢ مقالاً

الإبداع والتمرد فى حياة المرأة المصرية

١ - مقدمة :

أكتب هذه الورقة للمؤتمر الذى يُعقد بالقاهرة من ٢٣ - ٢٤ أكتوبر ١٩٩٩ تحت عنوان « مائة عام على تحرير المرأة » أكتبها هنا فى بيتى فى ولاية فلوريدا ، إصبع صغير من الأرض محدود فى جوف المحيط الأطلنطى وبحر المكسيك شمال جزيرة كوبا ، تبعد عن الوطن عشرين ألف ميل ، واليوم الثلاثاء ١٣ سبتمبر ١٩٩٩ ، إجازة فى الجامعة وكل المدارس والمحلات مغلقة ، وآلاف الناس تركوا بيوتهم هرباً من العاصفة المسماة « هوريكين فلويد » القادمة من المحيط بقوة لم تحدث منذ ثلاثين عاماً تهدد بتعطيم البيوت والأشجار ، لم أعرف إلى أين أذهب ، بقيت فى البيت وحدى أتابع أخبار الهوريكين على شاشة التليفزيون وعيناي تتابعان حركة الرياح خارج النافذة تضرب الأشجار ، تخيلت أن الشجرة الضخمة المجاورة للنافذة سوف تسقط على البيت تهدمه وأموت تحت الأطلال .

بدت الكوارث السياسية والاجتماعية فى الوطن أقل خطراً من الكوارث الطبيعية فى أمريكا الشمالية . عجز العلم والتكنولوجيا الحديثة عن التصدى للهوريكين أو التورنيدو وغيرها من العواصف القادمة من المحيط الأطلنطى . المذيعون والمذيعات فى القناة رقم ٢ المحلية يذيعون لحظة بلحظة اقتراب الهوريكين من شاطئ فلوريدا ، يبدو الرعب على وجوههم ، صور السيارات المتزاحمة على الطريق تحمل الرجال والنساء والأطفال بعيداً عن الشاطئ ، يسمونه بالإنجليزية « بالم بيتش » إنه الشاطئ الذى أسكن فيه ، شاطئ بديع تظله أشجار النخيل ، كان هادئاً منذ أيام قليلة ، مشيت حافية فوق الرمال وسبحت فى المياه الدافئة تحت أشعة الشمس ، وسمعت إلى جوارى صوتاً يقول « أكون الجنة أجمل من هذا » .

أطرد من رأسى فكرة الموت بالهوريكين فى ولاية فلوريدا ، أفكر فى الورقة التى أكتبها لمؤتمر المرأة فى القاهرة ، إذا كان الموت يقترب لحظة بعد لحظة فلماذا أسرع بكتابة الورقة بعنوان التمرد والإبداع فى حياة المرأة المصرية ؟

لكن فكرة الموت تطرد الأفكار الأخرى من رأسى ، لا أكاد أذكر إلا أننى جئت إلى هنا منذ عشرين يوماً فقط ، غادرت القاهرة فجر يوم ١٤ أغسطس ١٩٩٩ حلقت فى الجو أربعة وعشرين ساعة داخل ثلاث طائرات ، هبطت الأولى فى فرانكفورت ، والثانية هبطت فى شيكاغو ، والطائرة الثالثة حملتني جنوباً إلى مطار ميامى ، ثم حملتني السيارة السوداء الطويلة الليموزين إلى بيتى على شاطئ النخيل ، تشبه السيارة التى يركبها رؤساء الدول ، من الداخل الصالون الأنيق . بار صغير من البلور تطل منه زجاجات وكؤوس صحون صغيرة بها أنواع من المكسرات والبندق واللوز والفستق وأشياء أخرى لا أعرفها . موسيقى حالمة تنبعث من سقف السيارة . أتمدد فوق الأريكة الناعمة الوثيرة . أذنى مسدودتان بفعل الضغط الجوى داخل الطائرة النفائة . السائقة امرأة أنيقة تبدو كأنها أستاذة بالجامعة ، قالت لى : « ويلكام (يعنى أهلاً) بروفوسير إل ساداوى » .

انتهيت إلى صوت المذيع فى التليفزيون يقول : إذا ضربت العاصفة نوافذكم الزجاجية ابتعدوا بسرعة وادخلوا الحمام . أعدوا من الآن البطاطين داخل البانيو حتى لا يصيبكم الزجاج المكسور بأذى ، ربما تخلع العاصفة سقف البيت ، حينئذ اخرجوا من البيت ، اتركوا باب البيت مفتوحاً ، احملوا معكم زجاجات ماء وطعام وبطاطين ، ربما تقطع الكهرباء عن المدينة عدة أيام بعد العاصفة ولا بد أن يكون معكم طعام وماء وأدوية للمرضى أو العجائز ، خذوا أيضاً لعب الأطفال ليلعبوا بها .

ضحكت وقلت : لعب أطفال ؟ تذكرت طفولتى وطفولة الناس فى قريتى التى خلت من لعب الأطفال ، لكننا كنا نركب الحمير ونجد متعة كبيرة فى القفز على ظهر الحمار ، نضرب بطن الحمار بأقدامنا فتنتلق بنا تسابق الريح على شاطئ النيل . بدت طفولتى أجمل طفولة فى العالم . لابد أن موتى أيضاً سيكون أجمل موت فى العالم . سأموت على شاطئ النخيل . أجمل شاطئ فى العالم . يضعوننى فى صندوق منقوش عليه الاسم واللقب العظيم « بروفوسير إل ساداوى » . لم يعد اللقب يبهرنى

ولا الاسم ولا أى شيء ، لا أرغب إلا فى شيء واحد : أن أعود طفلة فى السابعة من العمر . تجرى فى الحقول الخضراء الواسعة وراء الفراشات الملونة . الطفولة هى عمري الذهبى . هى النهر الذى تتدفق منه كل أفكارى . هى منبع الإلهام والإبداع فى حياتى كلها حتى هذه اللحظة التى سوف تضرب فيها الهوريكين سقف البيت وأموت تحت الشجرة وفى يدي لعبتى .

بين أصابعى فى تلك اللحظة كان القلم ، يتحرك فوق الورقة بأشكال غريبة ورسوم أطفال ، أشجار نخيل ساقطة على الأرض ، البيوت بلا سقوف ولا نوافذ ولا جدران ، الأطفال يلعبون خارج البيوت ، تذكرت أننى كرهت البيوت فى طفولتى ، والجدران الأربعة والسقف و كنت أحلم بأن الجدران سقطت والسقف انخلع وخرجت لألعب مع الأطفال . كنت أبكى داخل الجدران أطل من بين قضبان النافذة على الأطفال وهم يلعبون ومنهم أختى .

لماذا يخرج أختى ليلعب خارج البيت مع الأطفال وأنا أبقى مع أمى لأطبخ وأنظف المرحاض ؟ وبدا هذا السؤال مناسباً لأبدأ به ورقتى عن التمرد والإبداع فى حياة المرأة المصرية .



٢ - الأسئلة الطفولية :

فى طفولتى دارت فى رأسى أسئلة طبيعية ترد لكل الأطفال الذكور والإناث . كنا نتطلع إلى السماء فى الليل يبهشنا ضوء النجوم ، ونسأل بالفطرة والطبيعة : مين خلق النجوم دى كلها ؟ ويأتى الجواب : ربنا خلق النجوم . ويأتى السؤال الطفولى طبيعياً بعد ذلك . « ومين خلق ربنا ؟ » . لكن هذا السؤال يبدو للأهل كأنما هو غير وارد . أو المفروض ألا يرد ، ولا بد من سد الطريق على عقل الطفل أو الطفلة حتى لا يسأل مزيداً من الأسئلة قد تمس المحرمات .

تحت اسم المحرمات يتوقف عقل الأطفال عن طرح الأسئلة الطبيعية ، وإن كان الطفل أنشئ فإن المحرمات تكون مضاعفة ، لأن القيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية التى تحكم الذكور ليست هى القيم التى تحكم الإناث . بسبب هذه الازدواجية يتوقف

عقل البنت عن التفكير فى أشياء قد يفكر فيها أخوها الولد . قد يحلم الولد أن يكون طياراً يحارب الأعداء لكن أحلام البنت تختلف . قد تحلم البنت بالزواج وولادة الأطفال دون أن تشعر بإثم اللذة الجنسية .

يرتبط الإبداع فى حياة الإنسان بالحلم الطفولى : ماذا أريد أن أكون فى حياتى ؟ السؤال الأول الذى يُبنى عليه الحلم . قالت إحدى البنات لأبيها وهى فى السابعة من العمر : « عاوزة أكون طيارة أضرب الإنجليز بالقنابل من الجو » كان الأب يحكى لأطفاله عن الأعداء الإنجليز وكيف ضربونا بالقنابل من الجو . وكان من الطبيعى لفتاة طبيعية أن تحلم بركوب الطائرة وضرب الإنجليز كما ضربونا . كان أبوها يقول الضارب يُضرب ، والقاتل يُقتل والعين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم .

وقالت طفلة أخرى فى السابعة من عمرها لأمها : « عاوزة أكون كاتبة زى بابا » كان الأب كاتباً يمسك القلم ويكتب أشياء تثير خيال الطفلة ، لكن الأم كانت فى المطبخ معظم الوقت تقشر البصل والثوم ولم تكن الطفلة البنت تحلم أن تكون مثل أمها .

وماذا تفعل البنت بأحلامها الطفولية غير المقبولة من أمها وأبيها أو المجتمع من حولها ؟ ولماذا يحلم أخوها بأن يكون كاتباً مثل أبيه وعليها هى أن تحلم أن تكون مثل أمها ؟ ويأتى الرد الشائع الذى تصمت بعده البنات : لأنك بنت وهو ولد . وإن سألت البنت سؤالاً آخر يقولون : ربنا قال كده لما أن تسمع البنت كلمة « ربنا » حتى تصمت تماماً . وكيف عقلها عن التفكير فى الأمر . إن ما يقوله الله هو الحق ، والله لا يُسأل عن شيء . وتكف الطفلة تماماً عن الأسئلة وترضى بالمصير الذى أراده الله لها .

ومنْ هى الطفلة التى يمكن أن تتمرد على إرادة الله وتختار لنفسها مصيراً آخر ؟ يحتاج الأمر إلى شجاعة وثقة بالنفس حتى تتحدى إرادة الله وتحلم بمصير آخر غير مصير البنات مثيلاتها ، يحتاج الحلم إلى خيال وأمل وإصرار على تحقيق الحلم ، لكن الإنسان لا يمكن أن يتخيل شيئاً لا يعرفه ، وإن لم تعرف الطفلة أن لها عقلاً مثل أخيها الولد وأنها يمكن أن تكون كاتبة مثله أو مثل أبيها فإنها سوف تعجز عن الحلم بما لا تعرف . فكيف تعرف الطفلة أن لها عقلاً مثل أخيها الولد ؟

إن هذه المعرفة تولد مع الإنسان أو الإنسانة . يدرك بالفطرة أنه إنسان مثل الآخرين ، أو إنها إنسانة قادرة على التفكير مثلهم . حين ذهبت إلى المدرسة وأنا طفلة أدركت أنني أفهم مثل أخى وزملائه الأولاد بل أتفوق عليهم . لماذا لا أحلم إذن بأن أكون أستاذة أو كاتبة أو دكتورة أو طيارة أو فنانة فى السينما أو المسرح أو أى شىء آخر أحبه .

تحتاج الطفلة فى أول حياتها إلى مَنْ يساندها فى حلمها فى البيت أو فى المدرسة أو أى مكان آخر . كالنبت الأخضر الصغير يحتاج إلى سند يحميه من الرياح التى يمكن أن تقضى عليه . إن حرمت الطفلة هذا السند ، إن لم تجد أحداً يشجعها ، فسوف يموت الحلم وتنشأ كما يريدون لها أن تكون .

لكن الحلم لا يموت تماماً طالما هى تعيش . إنها تدفنه فى جزء عميق من عقلها ، كالصندوق المغلق تخفى فيه أحلام الطفولة والأسئلة الطفولية ، تدفن فيه الوعى الطفولى الذى ولدت به ، الوعى الفطرى الذى يشكل الأنا الحقيقية ومما تريد أن تكون . ربما يظل الصندوق مغلقاً طوال حياتها . تتزوج وتتجب وتعيش وتموت دون أن تفتح الصندوق . قد تتسرب من الصندوق أشياء أثناء نومها تراها فى الأحلام ثم تتساها حين تصحو وتصحو معها الأنا الاجتماعية المصنوعة غير الطبيعية .

هذه الأنا الاجتماعية المزيفة أصبحت تحمل فى العلم والطب النفسى لقباً رفيعاً هو « الأنا العليا » أو الأنا الواعية ، أو (الوعى) ، وأصبحت الأنا الحقيقية حبيسة الصندوق المغلق هى الأنا الدنيا أو الأنا غير الواعية أو (اللاوعى) .

انقلبت الأوضاع فى العلم والطب النفسى . وأصبحت الأنا المزيفة هى الأنا العليا الواعية ، والأنا الحقيقية هى الأنا الدنيا غير الواعية . وتسعى وسائل التربية والتعليم (منذ نشوء العبودية) إلى تثبيت هذا الوضع المقلوب وفرضه على النساء والعبيد ، باعتباره الوضع الطبيعى أو القانون الإلهى .

أقدم العبيد والأجراء على ثورات امتدت فى التاريخ البشرى حتى يومنا هذا . إلا أن ثورة النساء لم تحدث بعد فى أى بلد من بلاد العالم . إن الثورة تبدأ بالتمرد ، وقد أصبح التمرد صفة ذكورية قد تتطوى ميزات الرجل ذى الرجولة الصبحية على

القوة والشجاعة والإقدام والتمرد والثورة . قد يصبح الرجل المتمرد أو الثائر بطلاً شعبياً يحترمه الناس . لكن المرأة الثائرة المتمردة تبدو للناس شاذة غير طبيعية أو ناقصة الأنوثة .

وهذه إشكالية لا يفتن إليها الرجال الثوار أو الأحزاب السياسية التقدمية التي تحارب الظلم أو العبودية أو الاستعمار القديم أو الجديد ، وكذلك أطباء النفس ونقاد الأدب .

٣ - تحطيم الأنا العليا المزيفة :

ترتبط صفات الأنوثة منذ نشوء العبودية بالخضوع والطاعة والاستسلام للمصير الأنثوى الذى فرضه الله والمجتمع . منذ الولادة تدرك الطفلة بالوعى الطبيعى الفطرى أنها لا تقبل الخضوع ولن تستسلم للظلم . منذ الطفولة الأولى تدرك البنت القيود التى تفرض عليها ، وهى تقاومها على نحو طبيعى تلقائى ، إنها تتمرد على القيود بالوعى الذى ولدت به ، ولكن هذا التمرد سرعان ما يتوقف حين يختفى الوعى الطبيعى تحت طبقات الوعى المزيف مع نمو الأنا العليا الاجتماعية المزيفة ، المضللة بالقيم الأنثوية السائدة ، والقيم الأخلاقية التى يؤمن بها المجتمع . تتحول الطفلة إلى زوجة خاضعة يحكمها قانون الطاعة ، وإلى أم مثالية مضحية من أجل أطفالها وأسررتها تملأ الرفوف فى بيتها بالمساحيق والكتب التى تشيد بالأنوثة الكاملة ، والأمومة العظيمة ، تردد ما تقوله أمها والنساء من حولها ، قد تفوز بجائزة الأم المثالية ، أو الطيبة المثالية ، أو الأدبية المثالية ، وكلها جوائز تؤكد بها أنوثتها وأمومتها وقدرتها على الخضوع للقيم التى يحترمها الناس فى المجتمع .

فى الحلم قد تتضخم الأنا الاجتماعية المزيفة وتصبح عملاقاً كبيراً يشبه الصنم الضخم أو الإله المعبود تحمله فوق رأسها كالتاج ، يتحول فى الحلم إلى حيوان مفترس أو ثعبان يهبط من رأسها ويلتف حول عنقها . تصحو من الحلم مذعورة ثم تنام وفى الصباح تنسى الحلم ، إن لم تنسَهُ وحكته لأحد أطباء النفس يفسر لها الحلم على الطريقة الفرويدية الحديثة ، هذا الثعبان هو اللاوعى أو الأنا الدنيا أو « الإد » غير الواعى حيث تكمن غريزة الحياة أو شهوات الجنس ، ينصحها الطبيب النفسى أن ترقى

بنفسها إلى القيم العليا أو الأنا العليا لتكون امرأة مثالية محترمة من الجميع ولا يتهمها أحد بالتمرد أو عدم التكيف مع المجتمع . وتقول لها جدتها : هذا الثعبان في الحلم هو عدوك فاقتليه قبل أن يقتلك . وتتسى الفتاة أحلامها وكلام جدتها لأنها تخاف من الثعبان ولا تعرف كيف تقتله ..

النسيان هو المقبرة الذي يُدفن فيه الإبداع أو الوعي الحقيقي الطفولي الذي أصبح يحمل اسماً علمياً لا يدل عليه وهو « اللاوعي » ، والذي أصبح يشتمل على غريزة الحياة ومعها غريزة الجنس والشهوات وكل ما يبعث على الخزي والعار في حياة المرأة المثالية ذات الأنا العليا المتضخمة .

هذا التناقض هو أساس الفكر العبودي السائد في العالم حتى اليوم . إن غريزة الحياة التي هي أقدس شيء في الحياة تحافظ على حياة الإنسان هي نفسها شهوة الجنس أحط شيء في نظر الناس خاصة بالنسبة للمرأة . هذا التناقض نفسه موجود في العلم والطب النفسي . إن أقدس شيء في الحياة (غريزة الحياة أو شهوة الجنس) يكمن في اللاوعي أو ما يسمونه اللاوعي ، أو الأنا الأدنى ، أو الشيطان محطّم الإنسان ، والحقيقة أن الأنا الأعلى هي التي تقتل في الإنسان أقدس ما لديه وهو حياته وعقله وإبداعه الفطري الطبيعي .

وأصبح على الإنسان (امرأة أو رجل) ، أن يحطّم هذه الأنا الأعلى المزيفة من أجل أن يكون مبدعاً . أصبح على المرأة المبدعة أن تحطّم هذا الصنم المزيف المصنوع اجتماعياً منذ الطفولة حتى الموت .

إنها عملية صعبة ، قد تبدو مستحيلة في حياة النساء ، لهذا تعيش وتموت أغلب النساء دون أن يُسَهَمْنَ في الأعمال الإبداعية ، ويتساءل نقاد الأدب : « لماذا يزيد عدد الأدباء المبدعين عن عدد النساء ؟ لماذا يزيد عدد العباقر من الرجال عن عدد النساء ؟ » لا يدرسون التاريخ منذ نشوء العبودية ، لا يعرفون شيئاً عن القيم الطبقيّة الأبوية السائدة حتى اليوم ، لا يعرفون شيئاً خارج تخصصهم (النقد الأدبي) ويردون على أنفسهم قائلين : « العبقريّة صفة ذكورية » .

إن أفلتت امرأة من القيود وحطمت الأنا الأعلى المزيفة ومعها القيم التطبيقية الأبوية السائدة وأبدعت شيئاً في مجال العلم أو الأدب فإنهم لا يفهموه ، يبدو لهم إبداعها نوعاً من الخروج عن القيم ، يحكمون عليه حكماً أخلاقياً أو سياسياً دون أن يفهموه . وكم تُدفن الأعمال الإبداعية للنساء لهذا السبب . يتم تجاهلها باعتبارها غير أخلاقية أو غير وطنية أو غير مؤمنة بالدين ، وقد يشخصها أطباء النفس بأنها غير معقولة أو غير عاقلة ومكانها الصحيح هو المستشفى النفسي .

٤ - عملية الكبت « المكبوت منذ الطفولة » :

يسعى الوعي أو الأنا العليا الاجتماعية المزيفة (خاصة في حياة النساء) أن تجعل نفسها غير واعية بشهوة الحياة أو غريزة الجنس أو غيرها من الرغبات القوية في حياة الإنسان . بمعنى آخر تصبح الأنا العليا غير واعية بالقوة الإنسانية المبدعة في أعماقنا التي تحافظ على حياتنا . تصبح الأنا العليا غير واعية بالنهر المتدفق في أعماقنا منذ الطفولة ، ويمكن لهذه الأنا العليا أن تؤلف العديد من الكتب والمقالات التي يهمل لها النقد وتحظى بالجوائز ، إلا أنها تظل أعمالاً خالية من الإبداع لا تمس وجدان الناس ، أو لا تصل إلى النهر المتدفق داخل الإنسان المكبوت منذ الطفولة .

إن هذا النهر الطفولي المبدع موجود لدى كل إنسان امرأة أو رجل . إنه منبع الإبداع يتدفق مع صحوة الذاكرة . إنه ليس صفة يحظى بها فقط العباقرة . إنه ليس إلهاماً يسقط علينا من السماء . إنه موجود داخل صدورنا وعقولنا منذ ولدنا من بطون أمهاتنا . إنه حقيقة لا يعرفها العلماء والأطباء الذين يطلقون عليه اسم اللاوعي ، أو الأنا الأدنى .

إنه حقيقة لا يعترف بها أصحاب وصاحبات الأنا العليا المتضخمة اجتماعياً ، أو الناجحة سياسياً واقتصادياً ، وثقافياً ، لأنها تتعارض مع إحساسهم بالتميز أو العبقرية .

عملية الكبت تحدث في حياة جميع الأطفال ذكوراً وإناثاً . لكنها تحدث بدرجة أشد في حياة البنات . فالبنات تشعر بالعار وإن كانت ضحية اعتداء أو اغتصاب . البنات تشعر بالإثم وإن كانت طفلة لا تعرف ما هو الإثم . تحاول البنات التكفير عن ذنوبها

بمزيد من الطاعة والصلاة والخضوع . منذ السابعة من عمري وأنا أركع وأصلي وأطلب من الله أن يغفر لي ذنوبي ، ثم بدأت أدرك أنني بريئة ولم أقترف ذنباً . كنت أتصور أن ما يحدث في أعماقي جريمة وما يدور في رأسي من أفكار وما يظهر على جسدي كلها آثام تستوجب دخول النار . ثم تحررت من الإثم حين سمعت أمي تقول : « مافيش نار ولا حاجة » لقد فتحت هذه العبارة الصغيرة الطريق أمامي . تحررت من الخوف من نار الآخرة وبدأت أفكر في حياتي التي أعيشها في الدنيا .

ما درجنا على تسميته اللاوعي هو الوعي الأعلى ، منبع الإبداع . ما درجنا على تسميتها الفرائز الدنيا هي غريزة الحياة العليا ، هي نهر الوعي الغزير الذي نسد عليه الطريق تحت الضغوط الاجتماعية . تبدأ عملية الإبداع بالكف عن عملية الكبت ، بإزالة الأحجار التي سدنا بها مجرى النهر .

الإبداع هو اكتشاف هذا النهر وفتح الطريق أمامه ، نحن لا نخلق هذا النهر ، إنه موجود في أعماقنا منذ الطفولة .

الإبداع ليس إلا اكتشاف ما هو موجود ، وإعادة اكتشافه في ضوء جديد . الإبداع هو العودة إلى المعرفة الفطرية التي عرفناها في الطفولة .

أدركت مؤخراً وبعد أن تجاوزت الستين من عمري أنني لم أكتب شيئاً لم يكن كامناً في صدري منذ الطفولة . همست بهذه الحقيقة في أذن أحد الشعراء في جنوب أفريقيا فصاح قائلاً : « كنت أظن أنني الوحيد الذي أشعر بهذا » .

يحتاج الأمر إلى شجاعة لطرح السؤال الطفولي الأول من نوع : من خلق ربنا ؟ . هذا السؤال الطفولي المكبوت هو الذي قاد إلى أعظم الاكتشافات في عالمنا الحديث ومنها الكمبيوتر والإلكترون والكويكر وعلم الكون الجديد . منذ أدركنا أن الأرض كروية وليست مسطحة وأنها تدور حول الشمس وليس العكس ، وأن الكون لم يخلق في ستة أيام بل في ملايين السنين ، وأن المرأة لها عقل وذكاء مثل الرجل ، وبالتالي لا يحق له أن يسيطر عليها أو يحبسها في البيت لتطبخ له ، أو يفرض عليها الحجاب والعزلة بعيداً عن الحياة العامة .

إلا أن المؤسسات السياسية والدينية في المجتمع تقاوم هذه الأفكار المتدفقة من المخزون الطفولي القديم ، وإلا انهار النظام الطبقي الأبوي ، وتحررت الأغلبية الساحقة من البشر من قمع الطبقة الحاكمة أو الأقلية التي تملك النفوذ والمال . وكيف يمكن للأقلية أن تسيطر على الأغلبية الساحقة وتسرق قوتهم وعرقهم ؟ كيف يمكن للرجال أن يسيطروا على النساء ويسرقوا منهن الشرف بالإضافة إلى العرق والجهد ؟ كيف يمكن أن تستغل الحكومات شعوبها ، وكيف يمكن أن يسيطر منطق القوة المسلحة على الحق في السياسات الدولية والمحلية ؟ كيف يتحقق ذلك دون تخويف الأغلبية الساحقة من النساء والرجال بالقوة المقدسة في السماء والقادرة على البطش بالمتمردين والمتمرديات الذين يرفعون راية العصيان ضد إرادة الله والوطن والملك .

في طفولتنا في المدارس كنا ننشد كل صباح في الطابور قبل الدخول إلى الفصول : الله . الوطن . الملك . نطق الثلاثة في نفس واحد . كأنما الثلاثة شيء واحد ، ومنّ يعص أحدهم فقد عصى الآخر ، أو منّ يهتف بسقوط أحدهم فقد هتف بسقوط الآخر .

بعد سقوط الملك عام ١٩٥٢ ، خطر لي السؤال الطفولي : أيسقط معه الاثنان الآخران ؟ وظل السؤال مكبوتاً في المخزون الواعي العميق المسمى باللاوعي حتى بلغت الخمسين عاماً ودخلت السجن حيث أدركت أن الملك لم يسقط . فقط تغير اسمه .

٥ - الإبداع والشيطان :

مع تصاعد القوى السياسية الدينية في بلادنا منذ السبعينات من القرن العشرين اشتدت القيود على النساء والفقراء . لقد زاد الفقراء فقراً ، وحُرمت الأغلبية الساحقة من الضرورات المادية ، ولابد من قمعهم بالوسائل الروحانية ومزيد من المواعظ الدينية . انتشرت ظاهرة التدين بين الرجال وظاهرة الحجاب بين النساء . اشتدت عمليات التخويف من عذاب القبر والحرق في نار جهنم الحمراء ، وتعليق المرأة من شعرها يوم القيامة إن خالفت الله أو الأب أو الزوج . تختلف القيم التي تحكم الذكور عنها عند الإناث . يهتف الذكور : الله . الوطن . الملك ، لكن الإناث يهتفن : الله الأب الزوج .

فى ندوة بإحدى كليات جامعة القاهرة عام ١٩٩٢ وقفت إحدى الأستاذات الكيبرات تعارض ما قلته عن العلاقة بين التمرد والإبداع ، كانت تلف رأسها بحجاب سميكة وهتفت بغضب : طاعة الزوج من طاعة الله ! ثم أضافت أن ما أقوله ينتمى إلى الشيطان .

وتساءلت : لماذا ارتبط الإبداع بالشيطان ؟ لماذا نقول مثلاً شيطان الفن أو شيطان الشعر ؟ ولماذا نشعر بلذة حين نقرأ قصيدة من الشعر ؟ أو حين نسمع قطعة موسيقية ؟ أو نرى لوحة فنية ؟ أو نقرأ رواية ؟ أو نشهد رقصة بديعة ؟

إن ارتباط الشيطان بهذه اللذة الفنية لا يمنعنا من الإحساس بها . وبالمثل إن ارتباط الشيطان باللذة الجنسية لا يمنعنا من الإحساس بها . فهل توجد علاقة بين لذة الإبداع ولذة الجنس ؟

حاول العلم أو الطب النفسى حل هذه الإشكالية أو هذا التناقض ، بالنظرية القائلة إن منبع هذه اللذة هو اللاوعى ، أو الأنا الأدنى ، حيث تكمن الشهوات الشيطانية والفرائز (منها غريزة الحياة) ، ولابد أن منبع الإبداع هو هذا اللاوعى ، ومن هنا ترابط الإبداع بالشيطان .

كيف إذن نشجع أطفالنا من الذكور والإناث على الإبداع وهو يرتبط بالشيطان ؟ كيف نصور لهم أن لذة الجنس آثمة وفاسدة مع أنها هى غريزة الحياة الواعية القادرة على حمايتنا ؟

لولا غريزة الحياة القوية المبدعة لاندثرت الحياة من فوق الأرض . لولا الإبداع الإنسانى المستمر ضد الموت والقيود والقمع لاندثرت الحياة فوق الأرض . لهذا يبدو الرجل المبدع متمرداً ثائراً ضد كل القيود التى يمكن أن تضعف وعيه وإبداعه ، ومنها القيود الجنسية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية . وقد يغفر المجتمع للرجال المبدعين لأنهم رجال ، ولأن الرجل لا يعيبه إلا جيبه ، أما النساء أو الفقراء من الرجال المبدعين فإن المجتمع لا يغفر لهم شيئاً ، بل إن حسناتهم قد تنقلب إلى سيئات ، ويحظى بالجوائز قلة من الرجال يحملون لقب عباقرة ، يضربون مثلاً شائعاً للإبداع بأنه الفوضى وعدم المسئولية والتعددية الجنسية . وكم اشتهر هذا الشاعر

الكبير بأنه زير نساء ، أو اشتهر هذا الأديب الكبير بأنه يشرب الخمر أو مدمن على الفساد ولا يحافظ على مواعيده أو وعوده ولا يكاد يفيق من غيبوبة الإبداع أو اللامعى .

إلا أن هذه الغيبوبة وهذه الفوضى أو اللامسؤولية لا تحدث له مع أصحاب النفوذ والسلطة . إذ سرعان ما يفيق هذا العبقري الكبير ويصل قبل مواعده المحدد مع الوزير أو الرئيس . نحن نعيش هذه الازدواجية فى القيم كل يوم دون أن ندركها ، لكنها تمر علينا ، نتقبلها صاغرين لأنها القيم السائدة ، قد يعتبرها بعض المفكرين الكبار جزءاً من هويتنا الوطنية الأصيلة يجب الحفاظ عليها كما نحافظ على ختان الإناث وفرض الحجاب عليهن حفاظاً على الفضيلة والعفة والأخلاق .

حقيقة الأمر أن الإبداع لا يعنى الفوضى واللامسؤولية والعريضة فى حانات الليل أو الانتقال من امرأة إلى امرأة أو من رجل إلى رجل . إن صفة « الدون جوانية » نقيض الإبداع فى الرجال والنساء . إن هذا الأديب الكبير الدون جوان لم يعرف لذة الجنس ولا لذة الإبداع ، وبالتالي فهو دائم البحث عنهما دون جدوى . كالمعدة المريضة لا يزيدها الماء إلا ظمأً . قد تظهر لنا صورة هذا الأديب (أو الأدبية) فى الصحف كل يوم أو كل أسبوع . قد يكتب الآلاف من المقالات والمئات من الكتب . قد يمارس الجنس مع نساء العالم . قد يحظى بالجوائز الكبرى والصغرى . إلا أنه يظل دائماً كالمعدة المريضة لا يزيده الماء إلا عطشاً .

إن انتشار هذه الصورة عن الشخص المبدع لا تعنى أنها الحقيقة . إن انتشار القيم المزدوجة فى بلادنا لا تعنى أنها القيم الإنسانية الصحية . لأن الازدواجية فى حد ذاتها مناقضة للأخلاق . إنها تعنى الكذب ، وتعنى الظلم ، والسبب فى انتشارها آلاف السنين واستمرارها حتى اليوم (ومنذ نشوء العبودية) ليس لأنها صحيحة وعادلة، بل لأنها تُفرض بالحديد والنار على الأغلبية الساحقة . بقوة البطش السياسى والدينى معاً . وقد يكون هذا البطش خفياً مستتراً وراء كلمات جميلة من نوع الطاعة والفضيلة والإيمان والمثالية والوطنية والشرف والأخلاق والأمومة والأنوثة .. إلخ .

٦ - لذة الإبداع :

ترتبط قوة الإبداع باللذة الكبيرة المصاحبة لعملية الإبداع ذاتها بصرف النظر عن العواقب أو النتائج . وهى تشبه قوة غريزة الحياة . بل إنها هى قوة غريزة الحياة ذاتها . إنها الوعى الأعلى الإنسانى الذى تم تجهيله وتأثيره وتسميته اللاوعى .

هذه اللذة يحسها الأطفال فى بداية الطفولة الأولى حين يلعبون ، ينتفض كيانهم بلذة طاغية تشمل الجسد والعقل والروح فى كيان واحد كلى لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر . هذه اللذة تفوق اللذة الجنسية ولذة الأكل ولذة النوم ، ويعرف المبدعون والمبدعات هذه اللذة ، التى تجعل الواحدة أو الواحد منهم ينسى الأكل والنوم والجنس ويستغرق فى الكتابة أو الرسم أو أى عمل آخر .

هذه اللذة الطاغية تتضاءل إلى جوارها ملذات الدنيا والآخرة . هذه اللذة الطاغية قادرة على تحويل أى خسارة إلى مكسب ، وأى يأس إلى أمل ، وأى ضعف إلى قوة . هذه اللذة تصاحب العمل الإبداعى وتنتهى بانتهائه ، وهى التى تجعل المبدعة أو المبدع يبدأ ويعمل من جديد ، لا يتوقف عن الإبداع حتى الموت . يتلشى الماضى والحاضر والمستقبل فى لحظة واحدة هى لحظة الإبداع ، هى اللحظة الحاضرة الممدودة إلى الأبد ، هنا والآن .

«أنا أكتب رواية» تنطقها الكاتبة الأدبية بلذة أكبر من أن تقول «أنا كتبت رواية» . إن الفعل فى الحاضر هو اللذة وهو الإبداع وليس هو الفعل الماضى .

لهذا السبب يبدو كل عمل إبداعى ناقصاً لا يكتمل أبداً . إن العمل الإبداعى ما هو إلا إشارة إلى عمل إبداعى آخر أكثر إبداعاً .

إذا ركزنا على العملية الإبداعية ذاتها أثناء حدوثها هنا والآن فإنها تبدو موحية أكثر ، تصبح مفامرة ممتعة فى المجهول وليست إنتاجاً من الأعمال أو الكتب أو اللوحات، التى تبدو ناقصة عقيمة .

إن لذة الإبداع مثل لذة الحياة تبلغ ذروتها هنا والآن .

نوال السعداوى

بوكا راتون / فلوريدا / ١٣ / ٩ / ١٩٩٩

الكحل والجنس وقهر النساء.. على خشبة المسرح(*)

جاءتني دعوة لمشاهدة مسرحية جديدة تعرض في مسرح الطليعة . كنت قد شاهدت للمخرج ذاته مسرحية منذ أكثر من عشر سنوات ، حاول فيها التجديد من خلال منهج المسرح الصوتي المتعدد الصور والمستويات ، محاولة فنية معروفة باسم « المسرح البولوفوني » تنبع من تعدد الأصوات والإيقاعات الجسدية والصوتية في التعبير عن أعماق الإنسان أو الإنسانية .

اسم المخرج انتصار عبد الفتاح . واسم المسرحية مخدة الكحل . قال لي في الدعوة : إن المسرحية رحلة داخل عالم المرأة العميق بآلامها وأحلامها ، والمسرحية زمنها ساعة واحدة فقط ، وأنا أحب هذا الإيجاز في التعبير الفني أو البلاغة في توصيل الفكرة دون حشو وإطناب .

كانت الرحلة من بيتي إلى مسرح الطليعة بميدان العتبة مؤلمة ، لم أشهد ميدان العتبة الخضراء منذ أكثر من عشر سنوات ، لا أذكر أن رائحة المراحيض العامة كانت تفوح بهذا الشكل ، كان هناك رصيف أمشي عليه حول حديقة الأزيكية ، أصبح الرصيف أكواماً من الطوب والحجارة وبرك الماء أو المجارى مع الزحام الشديد كأنه يوم الحشر ، مواقف أتوبيسات وميكروباصات وعربات أجرة .

معظم الحوائط في العتبة الخضراء ملزوق عليها إعلانات شوييس وصور ممثلات نصف عاريات في أيديهن مسدسات ، وجوه النجوم أو ما يطلق عليهم نجوم ، بعضهن سمينات ممثلات باللحم والشحم ، وأنا أمشي أتعثر في أطفال شحاذين راقدين على الأسفلت ، وطفلة بلا ساقين تزحف فوق قطعة خشب لها عجالات ، وامرأة عجوز تحتضن طفلاً ضريباً ، وبياعين البخور والمصاحف والمسابح وأحجية وكتب الجان وتسخير الشياطين لإعادة الرجل إلى زوجته المهجورة ، وشابات واقفات في الطابور يشتري هذه الكتب ، ورؤوسهن ملفوفة بالأحجية ، عيونهن مرسومة بالكحل يطرقعن باللبان والضحك .

(*) روزاليوسف - ١٨/١/١٩٩٩ - (٣٦٨٤) (٦٣)

قال لى المخرج : أن المسرحية ستبدأ فى العاشرة مساء بالضبط ، ويُفلق الباب بعد ذلك فلا يدخل أحد ، وصلت المسرح أنا وزوجى (الدكتور شريف حتاتة) الساعة التاسعة والنصف .. تركنا السيارة فى مكان آمن بجوار بنك مصر ، ثم سرنا على الأقدام هذه الرحلة إلى المسرح ، شاهدنا فيها ما يمكن الكتابة عنه عدة مقالات أو مسرحيات ، حرصنا على الذهاب قبل الموعد لنضمن عدم التأخير ، وبحثنا عن مكان نستريح فيه قبل أن يفتح المسرح أبوابه ، عثرنا على ما يسمى « كافتيريا » بالقرب من مسرح الطليعة ، شريت فيها فنجان شاي مع قطعة من البسكويت ، أصابتنى بالتسمم الغذائى لعدة أيام وليال ، لابد أنه البسكويت ذاته المستورد الذى وزع على المدارس فأصاب المئات من التلاميذ والتلميذات بالتسمم الشهير .

لم تبدأ المسرحية إلا الساعة الحادية عشرة تأخرت « النجمة » عن الحضور فى موعدها ، أصبح المخرج غاضباً وهو يشكوها إلى مدير المسرح ، واعتذر لنا ، وقلنا الكلمة الشهيرة فى القاموس المصرى « مغلش » وانتظرنا فى مكتب أمين شلبى مدير المسرح ، الذى قدم لى قدحاً ساخناً من الينسون خفف قليلاً من الآلام المعوية إثر قطعة البسكويت .

ثم بدأ العرض بوصول النجمة متأخرة ساعة كاملة عن الموعد ، باختصار انتظرنا ساعة ونصف الساعة لنشهد مسرحية زمنها ساعة واحدة ، إلا أن الغضب تلاشى مع بدء العرض .. ربما تلاشت أيضاً بعض الآلام الجسمية الناتجة عن التسمم العضوى والنفسى خلال الرحلة إلى المسرح ، استرخى جسمى فى المقعد تماماً وأنا أتابع هذا العرض المسرحى البديع . ساعة واحدة من الفن المقطر ، خلاصة مركزة من العطاء الفنى ، خاصة الأداء الحركى الراقص الرفيع المستوى للفنانة « يسار عنتر » وهى النجمة التى تأخرت ، وقد غفرت لها هذا التأخير حتى آخر قطرة ، كانت ترقص بكل خلية من عقلها وجسمها وروحها ، التجمت الثلاثة ، روحها وجسمها وعقلها ، فى كيان واحد ، يتحرك بمرونة السائل الشفاف داخل إناء ليس له جدران ، فإذا بالرقص مثل الفكرة الفلسفية الجسدية تصيب الجسد باللذة بمثل ما تصيب العقل .

والفنانة القديرة سميرة عبد العزيز كانت تروى الحكاية وهى تدير ماكينة الخياطة ، لهجتها صعيدية حميمة ، ملامحها مصرية صميمة ، صوتها دافىء قوى حنون يدخل القلب ، ليس مثل تلك الأصوات المعدنية لبعض النجوم المشاهير أو الفنانات النجمات اللائى تطاردنا أصواتهن وصورهن ليل نهار . لقد استطاع المخرج انتصار عبد الفتاح أن يوظف عدداً من الطاقات الفنية ، رقصاً وغناءً وموسيقى وإيقاعاً متعدد الأصوات فى تقديم عرض فنى جميل ، استطاع أن يجمع فريقاً من الفنانين والفنانات ، ويصور من خلال حركتهم وأصواتهم القهر الواقع على البنات والنساء .

هنا تظهر براعة المخرج فى تحريك هذا العدد الكبير من الفنانين والفنانات بطريقة مبدعة سهلة وممتعة ، مثل قصيدة شعرية تترايط أجزاءها فى انسجام كامل كأنما هى عبارة واحدة أو لحظة مكثفة بإيجاز وبلاغه ، تهز الوجدان ، وتقدم من خلال رؤية صوتية موسيقية تشكيلية لآلام المرأة فى بلادنا .

إلا أن نهاية المسرحية جاءت مفاجئة ، بعد كل هذا الصراع الذى شهدناه للخروج من القهر وكسر القيود وتمزيق الخباء ، والدوس بالقدمين على طشت الغسيل ، والصمود القوى فى وجه الشهوة أو الجنس أو الخضوع للرجل ، وهذا الصوت القوى الدافىء لأحمد حجازى ، مع دقائق التخت ، القانون والنأى والرقص ، وضربات مغرطة الملوخية ، ودوران ماكينة الخياطة ، والثورة النسائية الجماعية ضد الخنوع والإذلال ، ضد التفرغ للتزين والتكحل وإشباع شهوات الرجل ، بعد كل هذه الثورة ضد الألم والظلم تعود المرأة إلى ما كانت عليه ، تعود وتقبل كل ما ثارت ضده ، بما فى ذلك مخدة الكحل والناموسية والجنس والولادة .

يمكن القول أن المسرحية نجحت من الناحية الفنية ، لكنها فشلت من الناحية الفكرية .. عجزت المسرحية عن الخروج من آلام المرأة إلى أحلامها وطموحاتها الجديدة فى الحياة .

بعد هذا العرض الشيق وبعد هذا الصراع النسائى الجماعى للتحرر من بؤرة القهر ، وهى الكحل والجنس وجسد الرجل والولادة والخياطة ، بعد كل هذا تعود المرأة إلى سجنها بكامل إرادتها ، تعود إلى الكحل والولادة وإدارة ماكينة الخياطة كأنما هذا هو مصيرها المحتوم ولا أمل فى التغيير .

ربما تعبر المسرحية عن هزيمة النساء في صراعهن الطويل المرير ضد القهر الطبقي الذكوري عبر آلاف السنين ، ربما هي تعبر عن الواقع في حالات كثيرة ، حين يحدث النكوص والارتداد إلى الخلف بدلاً من التقدم إلى الأمام .

ربما لهذا السبب خرجت من المسرحية بقلب ثقيل ، وعادت إلى الآلام الجسمية منذ أكلت قطعة البسكويت المسممة ، أحسست ثقل الواقع والهزيمة ، خرجت صامتة على غير عادتي حين أشهد عملاً فنياً جميلاً . وسألني زوجي : ما رأيك في المسرحية؟ قلت : كان يمكن أن تكون عملاً عظيماً لولا تخلف الفكرة التي قامت عليها . فالفن العظيم يحتاج دائماً إلى فكر عظيم يتجاوز آلام الواقع إلى آمال وطموحات أكبر .



أسئلة الإبداع المتعلقة(*)

هل يكتب المبدعون ما يجول في أذهانهم أم ينصتون لأراء الآخرين ويضعونها في اعتبارهم ؟ ولماذا يفرق النحاتون والرسامون في المعاملة بين الموديل الأنثى والموديل الذكر ؟ وهل يخشى الناس الإبداع لأنه يخلخل لهم قناعات ثابتة وموروثة ؟ في معارض الفنانين الرواد ممن يطلق عليهم العباقرة كان يصدمنى دائماً ذلك العدد الهائل من اللوحات لنساء عاريات كنت أسأل نفسى دائماً : لماذا يكون جسد المرأة العارى هو الموديل لهؤلاء الفنانين الرجال ؟

كنت أحرص على رؤية معارض الفنانات من النساء ، ولم يكن لى (مهما حاولت) أن أعثر على لوحة واحدة لرجل عارٍ ! وأسأل نفسى : لماذا تعطى الفنانة للرجل (الموديل) الحرية فى أن يبقى بملابسه ، على حين يفرض الفنان الرجل على الموديل أن تكون عارية ؟



أحياناً يأتينى بالبريد إنتاج شابات أو شباب يكتبون الشعر أو القصة أو يرسمون اللوحات أو يؤلفون الموسيقى أو الأغانى ، وغير ذلك من ألوان الإبداع المتعددة ، وقد التقى بهم وأسمع منهم حكايات تذكرنى بنفسى حين كنت فى مثل عمرهم ، فتاة صغيرة قادمة من الريف لا تملك سوى كشكول أزرق وقلم رصاص ، وحلم كبير أكبر من الهرم الأكبر ، يتلخص فى جملة واحدة بسيطة : « أن أعبر عن نفسى بالكلمات المكتوبة أو المنطوقة أو الرسم أو بالموسيقى ، أو أى شئ آخر موجود فى هذا الوجود » .

إذا عدت بذاكرتى إلى الوراء أكثر من أربعين عاماً حين كنت فى العشرين من العمر ، كيف كانت الطرق مسدودة ، كيف كان أغلب الناس من حولى يقولون لى : لا يمكن أبداً أن تكتبى ما يجول فى دماغك ! اقرئى ما كتبه العباقرة والرواد واكتبى مثلهم ! لا يمكن أن تكتبى الأدب إذا لم تدرسى الأدب ! حين يعرفون أننى أدرس الطب وليس الأدب يصيحون : مش معقول ! إيش جاب ده لده ؟

(*) الأهالى ١٢/٩/١٩٩٨

لو سمعت كلام الناس من حولي لما أقدمت على الكتابة ، فما بال أن أكتب ما يجول في دماغي ؟ لولا الثقة التي أعطتها لي أمي وأبي منذ الطفولة لفقدت الثقة تماماً في ذلك الشيء الذي أسميه دماغي ، ربما توقف دماغي عن العمل واعتمدت في حياتي على دماغ الآخرين ، ممن يسمونهم العباقرة أو الرواد أو كبار المفكرين .

في أعماقي كنت أقول لنفسي : « هل هؤلاء العباقرة لهم دماغ أعظم من دماغي ؟ ألم تلدهم أم مثل أمي ؟ » إنها عبارة كنت أسمعها من أمي . ومن جدتي لأبي الريفية ، سمعتها ذات يوم وأنا في الخامسة من عمري تقول لابنها : « ويعنى هو الملك أحسن منك في إيه يا ابني ، مش والداه بطن زى بطنى دى ؟ وتخبط جدتى بيدها الكبيرة المشققة على بطنها الضامر وتضحك بصوتها المنطلق ، تؤكد بصوتها وحركتها القوية أن بطنها مثل بطن المرأة التي ولدت الملك !

كنت في الخامسة من العمر ، وانحضرت في ذهني فكرة أن بطون كل النساء واحدة ، وأن أبي مثل الملك ، ولد من بطن من هذه البطون ، ويمكن لأبي أن يكون الملك أو أفضل من الملك كما تقول جدتي ، المهم هو الإرادة والإصرار والجهد !

في العاشرة من عمري حين سمعت الناس من حولي يقولون إننى بنت ولا يمكن أن أفعل ما يفعله أخى لأنه ولد ، كنت أثور عليهم وأقول لهم عبارة جدتي : ويعنى هو الولد أحسن منى في إيه ، مش والداه بطن أمي زى ما ولدتنى ؟

أصبحت هذه العبارة في دماغي ، أداق بها عن حقى في الحياة والإبداع ، وكل شيء مثل أخى وأكثر ، إذا كنت أكثر منه إرادة وتصميماً وجهداً ، المسألة إذن هي الإرادة والتصميم والجهد وليس أى شيء آخر .

عادت إلى هذه الذكريات وأنا أجلس مع عدد من الشابات والشباب المبدعين الذين يسمعون من الناس كل يوم ما يثبط همتهم ، ويقتل حماسهم ، ويفقدتهم الثقة في أنفسهم ، هذه العبارات التقليدية التي تعود الناس في بلادنا أن يقولوها للشباب أو الشابات :

- قصائد شعر إيه يا ابني خليك في الكيمياء والعلوم !

- يعنى إيه ترسمى يا بنت ؟ اطلعي دكتورة في الطب تكسبي فلوس !

- يعنى إيه تكتب من دماغك يا ابنى؟ لازم تقرأ اللي كتبوه غيرك اللي أحسن منك؟

- فاكّر نفسك عبقري ؟! كان غيرك أشطر !



دار الحديث بينى وبين هؤلاء الشباب والشابات ، قالوا لى : لا أحد يساعدنا ، والجميع يضعون أمامنا العراقيل ، قلت لهم هذا طبيعى ، فالإبداع فى حد ذاته شىء جديد يفزع منه الناس لأنه يختلف عن القديم الذى ورثوه عن الأسلاف .

أحد هؤلاء الشباب اسمه « هانى طنطاوى » طالب بكلية الصيدلة لكنه يكتب الشعر ، يقول له الناس من حوله ما علاقة الصيدلة بالشعر ؟ ويرد عليهم هانى بأبيات من الشعر فيقول : لأنى أحب الشعر ، وشىء فى صدرى يتفجر ، هو حياة كالماء ، فى حيوية هو يتحرك ، وفى قوته كالداء ، ترى هل يكون حباً حقاً ، أم هو سراب فى الهواء ؟

جاءنى شعر « هانى طنطاوى » بالبريد ، قصائد تتفجر كالنافورات ، أحاسيس مكبوتة من الحب والحنين والرغبة فى التعبير عما يجول فى قلبه ودماغه . لا أحد يريد أن ينشر كلماته الساخنة الخارجة لتوها من القلب الموجوع ، قلت له : اكتب واكتب واسكب نفسك على الورق ولا يهملك ما يقوله الناس لك ، أنت تريد أن تكون شاعراً وهم يريدون لك أن تكون أجزجى أو صيدلى ، لكن إرادتك أقوى من إرادتهم ، فالمهم هو الإرادة والتصميم والجهد وليس أى شىء آخر ، ويمكنك أن تكون صيدلياً وشاعراً فى الوقت ذاته .

وفتاة شابة من الريف الفقير اسمها « ناهد العاصمى » ، تدرس العلوم السياسية ، لكنها تحب الأدب والقصة ، أرسلت إلى بعض قصصها القصيرة ، سألتنى هل يمكننى الجمع بين الأدب والسياسة ؟ قلت لها : إن الفاصل بين الأدب والسياسة غير موجود مثل الفاصل بين الطب والأدب ، مثل الفاصل بين العلم والفن ، إن أردت التعبير عن نفسك بصدق فسوف تكتشفين أن كل هذه الفواصل مزيفة ومصنوعة .

وشابة من القاهرة اسمها « أمل محمود » ، درست الفن التشكيلي ، أرسلت إلى صورا لبعض لوحاتها ، تريد أن تنزع الأقنعة عن الوجوه . إحدى لوحاتها تقول : لا نعرف أنفسنا ونخشى النظر في المرأة ، لأننا قد نجد صورا مشوهة تعكس صراعات عالم قبيح ، أو قد لا نجد صورة على الإطلاق ، لتكن هذه اللوحة دعوة لمحاربة مسوخ المستقبل « أنفسنا » دعوة لمواجهة عالم قبيح ، دعوة لمعرفة الحقيقة ، دعونا ننظر في المرأة بلا أقنعة .

هذه ليست إلا نماذج قليلة لما يأتيني في البريد من إبداعات الشابات والشباب ، إبداعات تشق طريقها بصعوبة في عالم قبيح لا يفهم إلا لغة المال أو الربح ، وفي مجال الفن لا يفهم إلا « العرى » باسم الحداثة أو ما بعد الحداثة ، أو « التغطية » باسم الأصالة أو القيم الأصيلة .



بين هذين الاتجاهين يتمزق الشباب والشابات ، خاصة في مجال الفن التشكيلي . سألت أحد الفنانين المعروفين من رواد الحداثة أو ما بعد الحداثة : لماذا لا ترسم إلا المرأة العارية أو المرأة المحجبة ، ألا توجد امرأة ليست عارية وليست محجبة ؟ ابتسم وشرط طويلاً ثم قال : مش عارف ليه !

معظم هؤلاء الرجال الفنانين يرون المرأة مودياً صامتاً وعارياً . الصمت والعرى هما اللوحة الغالبة عند هؤلاء الرسامين ، أو المرأة المتوارية وراء حجاب ، المختزلة إلى خطوط تجريدية دينية ، ترمز إلى الملاك الطاهر ، السيدة مريم العذراء ، أو واحدة من نساء النبي المقدسات ، أو تكون العكس تماماً المرأة الشيطان حواء الآثمة العارية .

لم أجد نفسي ولا أمي ولا جدتي في أية لوحة من لوحات هؤلاء الفنانين الرجال العباقرة الرواد ! لم أجد بنات البلد الشغالات في البيوت والحقول والمصانع والمدارس والمستشفيات ، وجدت نساء عاريات جالسات في وضع ساكن صامت أمام الفنان الرجل .

أنا لست ضد التعرية من أجل الكشف في الطب أو العلم والفن . لكن في هذه اللوحات لماذا لا يحدث العرى إلا للموديل الأنثى الشابة ؟ لم أشهد لوحة واحدة لرجل عارٍ ! لم أشهد لوحة واحدة لعجوز عارٍ أو عارية .

لماذا يدور هذا الفن دائماً حول جسد الأنثى الشابة الموديل الأثيرية عند معظم الفنانين ؟

ألا يمكن للمرأة المرتدية ملابسها أن تشغل خيال هؤلاء الفنانين من الرجال ؟ وهل الرجل العارٍ هو الموديل عند النساء الرسامات الفنانات ؟

نحن هنا أمام مشكلة تاريخية منذ نشوء العبودية ، حين انفصل جسد المرأة عن روحها ، وأصبحت المرأة مجرد الجسد ، يُعرى أو يُغطى حسب الحاجة . إن الرجل لا يُعرى في الفن ولا يُغطى بالحجاب ، لأنه لا يعتبر نفسه مجرد جسد .

إن المرأة الفنانة لا تفرض على الرجل الموديل أن يتعري من ملابسها ، كما يفرض الفنان الرجل على الموديل الأنثى أن تتعري . ترسم المرأة الرجل في أدواره المختلفة في الحياة وهو يزرع وهو يحارب وهو يتكلم .. إلخ .

تنظر المرأة الفنانة إلى الرجل كإنسان متعدد الأدوار في الحياة . أما الرجل الفنان فهو ينظر إلى المرأة داخل دور واحد محدود بحدود الجسد العارٍ أو الجنس .

هذا عن الرواد وعباقره الماضى ، أما اليوم فإن الشباب يثورون على هذه النظرة التقليدية في الفن . بدأت عين الرجل أو الشاب الفنان الجديد تتجذب إلى نساء غير عاريات وغير محجبات ، إلى نساء يشتغلن ، أيديهن وعقولهن ويكافحن في الحياة مثل الرجل .

لم تعد الموديل المثالية هي ذات الأنامل الناعمة الرقيقة العاطلة عن العمل ، بل الأصابع القوية التي تمسك القلم كما تمسك المشرط وتفتح البطن المريض ، أو التي تمسك الفأس وتزرع لنا ما نأكل ، تشبه يد جدتي الفلاحة الكبيرة المشقة ، تخط بها على بطنها وتقول : كلنا خرجنا من البطن دى !

• • •

رواية السيرة الذاتية

١ - البدايات :

منذ علمتني أمي الحروف عرفت تكوين كلمة ذات معنى هو اسمي ، بدأت أكتبها كل يوم ، أربع حروف متشابكة « نوال » ، أحببت شكل الاسم ومعناه النوال أو العطاء ، ارتبط بي . أصبح جزءاً مني ، عرفت اسم أمي « زينب » كتبتة إلى جوار اسمي فوق كراستي الصغيرة ، أحببت شكل الاسمين معاً ومعناهما كما أحببت نفسي وأمي . أكبر حب في حياتي منذ ولدت كان لنفسي ولأمي ، بعد ذلك يأتي الآخرون ، منهم أبي ، شطب على اسم أمي ، وضع اسمه إلى جوار اسمي ، ثم وضع اسم أبيه « السعداوي » ، رجل مات قبل أن أولد .

ودار في عقلي السؤال : لماذا يشطب أبي اسم أمي ؟ ولدتني . أرضعتني . علمتني الكتابة . ترعاني كل يوم ؟ يضع مكانه اسم رجل غريب لم أره في حياتي . مات قبل أن أولد ؟ كرهت اسم الرجل « السعداوي » يلغى اسم أمي من الوجود ، سألت أبي عن السبب فقال لي : إنها إرادة الله .

كلمة « الله » سمعتها لأول مرة في حياتي من أبي ، عرفت أنه يسكن السماء هو المسئول عن شطب اسم أمي ، لم يكن لي أن أحب من يشطب أمي واسمها زينب ، أحبها باسمها ، جسمها ، شكلها ، أصابعها الحانية الدافئة تداعب وجهي كشعاع الشمس ، صوتها يناديني في الصباح ، كل يوم جديد تعلمني كلمات جديدة .

كان لي أخ أكبر مني بعام واحد ، كان بليداً في المدرسة وفي البيت ، لا يفعل شيئاً إلا اللعب والصراخ والنوم والأكل ، لا يرتب سريريه ولا يغسل صحنه ، أنا أصغر منه . مع ذلك أرتب له سريريه وأغسل صحنه ، أتفوق عليه في واجبات المدرسة وأعمال البيت .

أبي كان يخبه أكثر مني ، يدلله ويشترى له طائرة بزنبلك ، وبسكليتة . في العيد يعطيه ضعف ما آخذ من قروش أو ملاليم ، حين أسأل أبي لماذا . يقول : الله قال في كتابه الكريم « البنت نصف الولد » .

أصبح الله هو المسئول عن التفرقة بينى وبين أخى دون وجه حق ، كما أصبح المسئول عن شطب اسم أمى دون وجه حق أيضاً . قال أبى إن الله هو الحق ، لم أفهم هذه العبارة فكتبت رسالة إلى الله أسأله ، كانت أول رسالة أكتبها فى حياتى كالآتى : يا ربى إذا كنت أنت الحق فلماذا تفرق بينى وبين أخى ولماذا تفرق بين أبى وأمى ؟ .

قالت أمى : إن الله لا يقرأ ولا يكتب ، كنت أظن أنه كتب القرآن ، أبى يسميه كتاب الله ، لم أرسل إلى الله رسالة أخرى ، أصبحت أوجه الرسائل إلى أبى ، كنت أدرك الصلة بينه وبين الله . كانت رسائلى إلى أبى لا تصل إليه أحرقها قبل أن أرسلها ، كما حرقى رسالتى الأولى إلى الله . بدأت أدرك أن الله يملك ناراً حمراء تحرق جلود الناس ، تتجدد الجلود بعد الحرق لتحرق مرة أخرى ، يستمر الحرق إلى ما لا نهاية . عرفت أن مصيرى النار لأنى أسأل الله ، المفروض أن الله لا يسأل عن شيء ، فهو يفعل ما يشاء دون أن يحق لمخلوق أن يوجه إليه سؤال .

قال أبى إن الله هو الخالق الكامل ، جميع أعماله كاملة ، خلق أجسادنا على أحسن تقويم ، وجاءت الداية بالموس فى ليلة مظلمة وأنا فى السادسة من العمر ، قطعت عضواً من جسدى قالت : أنه أمر الله ، لم أستطع أن أسأل الله كيف يأمر بقطع عضو خلقه فى أجسادنا ، سألت أبى فقال أن عملية الختان سنة عن رسول الله وليست فرضاً لأنها لم ترد فى كتاب الله ، ولم أعرف ما الفرق بين السنة والفرض ، ورقدت فى الفراش أنزف بعد انصراف الداية صاحبة الموس ، نزفت أكثر من أسبوعين ، الألم كالنار التى تحرق بعد الموت ، شفيت بعد ثلاثة أسابيع ، نسيت الحادث ربع قرن من الزمان ، حتى تخرجت فى كلية الطب واشتغلت طبية فى الريف ، بدأت أرى الدايات بأمواسهن الملوثة تقطع فى أجساد البنات الأطفال ، ينزف الجرح حتى الموت أو ينز الدم والصدید ، يترك فى جسد كل طفلة عاهة مستديمة .

لم نتعلم فى كلية الطب شيئاً عن الختان . لم تكن أعضاء المرأة الجنسية ضمن المقرر ، فقط الأعضاء التناسلية والمجارى البولية ، أما تلك الأعضاء التى تتعلق باللذة الجنسية أو الرذيلة فهى غير موجودة فى كتب الطب الإنجليزية أو العربية .

فى طفولتى المبكرة لم أعرف ما هى الرذيلة ، قال أبى : إن الشيطان مستول عنها واسمه إبليس ، أصبحت أراه فى الحلم على شكل رجل يهمس فى أذنى باللذة المحرمة ، التى تحولت إلى ألم يرتبط على نحو ما بالعضو المبتور بالموس فى جسدى . كنت أرى الله أيضاً فى أحلامى على شكل رجل يحذرنى من إبليس ، لم أعرف كيف أفرق بين الله وإبليس ، كلاهما أراه فى الحلم على شكل الرجل .

فى التاسعة من عمرى وقع لى حادث آخر مؤلم ، نزيف دموى أصابنى من حيث لا أدرى ، أشد خطورة من حادث الختان ، لأنه يتكرر لمدة أربعة أيام كل شهر ، لا ينقطع عنى إلا بعد أن يبلغ عمرى نصف قرن ، ورد ذكره فى كتاب الله أنه « أذى » بمعنى النجاسة ، على الرجال أن يهجروا النساء فى هذه الأيام حتى يطهرن .

كنت أنكمش فى الركن بعيداً عن الناس أخفى الألم ، لم يكن لى أن أسأل سؤالاً دون أن أمس المقدس ، الله فى سمائه العلياء ، أما إبليس فقد قرأت قصته فى المدرسة . أمره الله بالسجود لآدم فرفض ، قصة لا علاقة لها بالختان أو المحيض أو آلامى الجسدية والنفسية . أدركت وأنا فى العاشرة من العمر أن إبليس برىء على نحو ما ، لم يصل هذا الإدراك إلى عقلى الواعى أو ذاكرتى الإرادية التى أحفظ فيها ما يرضى الله وأبى والمدرسين فى المدرسة .

ومضى نصف قرن من الزمان تقريباً ، كنت أزور ابنة عمتى فى قريتنا ، سمعت حفيدتها الطفلة تسألها عن الله وإبليس ، الجدة تلسعها بالعصا الخيزران ، كانت الطفلة فى العاشرة من عمرها ، بشرتها سمراء بلون بشرتى ، عيناها السوداوتان الواسعتان تتطلعان إلى السماء فى حيرة ورهبة كأنما تبحثان عن موقع الله . تذكرت نفسى فى مثل عمرها . الحركة نفسها والحيرة نفسها . عادت إلى ذاكرتى المفقودة . فى الخمسين من عمرى لم أملك الشجاعة التى ملكتها بعد أن تجاوزت الستين من العمر . لم أكتب سيرة ذاتية فى ذلك الوقت . ترددت طويلاً فى الكشف عن ذاكرتى الطفولية ، كتبت رواية جعلت الطفلة فيها تسأل جدتها الأسئلة نفسها التى راودتنى فى طفولتى ، أعطيتها اسم « جنات » ، لم يقدم أى ناشر فى مصر على طبعها ، أخذتها إلى ناشر فى بيروت ، وافق على نشرها بعد حذف وتغيير عنوانها من « براءة إبليس » إلى « جنات وإبليس » .

تعرضت الرواية للهجوم من بعض النقاد . قالوا : إنها لا تنتمي إلى الرواية أو السيرة الذاتية أو الشعر أو النثر أو أى شيء من هذه الأجناس الأدبية المعروفة . أحد النقاد قال : إنها تنتمي إلى قلة الأدب أو الرذيلة .

٢ - مذكرات طفلة اسمها سعاد :

فى الثالثة عشر من عمري كنت تلميذة بالمدرسة الثانوية فى حلوان . طلب منا أحمد أفندى مدرس اللغة العربية أن نكتب شيئاً من الذاكرة فى كراسة الإنشاء . كانت ذاكرتى الطفولية قد اندثرت تحت اسم المحرم ، الجنس أو الدين ، نسيتهما مع أحداث طفولتى بما فيها الحب الأول وأنا فى العاشرة من العمر ، ومفهوم الشرف يتعلق بغشاء خلقه الله فى أجساد البنات فقط ، لم يخلقه فى أجساد الأولاد لأن الذكور ليس لهم شرف يتعلق بشيء فى أجسادهم .

كتبت لأحمد أفندى فى كراسة الإنشاء سيرة ذاتية لطفلة اسمها سعاد . غيرت اسمى واسم أبى وجدى السعداوى حتى لا يدرك أحمد أفندى أننى أكتب عن نفسى ، تفاديت المحرمات الكبيرة التى تتعلق بالرؤوس الكبيرة مثل أبى والله وجدى وعمى الشيخ محمد وخالى يحيى وزكريا وغيرهم من الذكور .

إلا أن ذاكرتى اللاإرادية كانت تتسرب من بين السطور ، فى المساحات الخالية بين السطر والسطر ، كنت أكتب على سطر وأترك سطرًا خاليًا يتسع لأى شيء ، وقد سألت سعاد أبها سؤالاً لم أسأله لأبى . وهو : كيف ينفذ الله من خلال الجدران ويراهنا فى دورة المياه ؟ كانت سعاد تخجل من رفع ملابسها ، تتصور أن الله رجلاً يطل عليها من السقف ، وقال لها أبوها : إن الله ليس ذكراً أو أنثى وهو روح بلا جسد ، كان أبوها يخاطب الروح بصيغة المؤنث فيقول الروح لا يعلمها أحد ، وبدأت سعاد تخاطب الله بصيغة المؤنث باعتباره روحاً ، غضب أبوها ، أمرها أن تشطب على صيغة المؤنث ، مع ذلك كان يؤكد لها أن الله روح فقط يختلف عن الإنسان الذى يملك الروح والجسد ، تصورت سعاد أن الإنسان يملك أكثر مما يملكه الله ، لأن عنده الجسد أيضاً بالإضافة إلى الروح .

كانت سعاد تحب المدرسة إلا أنها تكره المدرسين والجلوس ساعات طويلة وراء التخت الخشبي ، وحفظ الآيات عن ظهر قلب دون فهم شيء ، وإن نسيت كلمة أو أخطأت في حرف لسعها المدرس بالعصا الخيزران ، لم يكن يلسع زميلاتها مختارة ابنة المأمور ، كانت بليدة لا تحفظ شيئاً ، لكن المأمور كان عنده عساكر تضرب الناس ، وأبوها لم يكن عنده عسكري واحد .

قرأ أحمد أفندي مذكرات الطفلة سعاد وأعطاني صفرًا في كراسة الإنشاء ، بقلمه الأحمر كتب بجوار الصفر « التلميذة في حاجة إلى تقوية في اللغة والدين » . أخفيت الكراسة في درج سفلي بغرفتي . كنت أخشى أن تقع في يد أحد خاصة أبي . كان يهددني بإخراجي من المدرسة إن لم أحصل على درجات التفوق . كانت المدرسة رغم أحمد أفندي والمدرسين هي الأمل الوحيد أمامي للانعتاق من عبودية المطبخ وجدران البيت الأربعة . كانت الكتابة هي حلم حياتي . لم أر نفسي في أحلامي طييبة . رأيت نفسي كاتبة أو شاعرة أو موسيقية .

منذ هذا الصفر الأحمر تحولت الأحلام إلى كوابيس على شكل دوائر حمراء ، السنة من الذهب ، وتوقفت ذاكرتي عن العمل ، أحمد أفندي لم يتوقف عن أن يطلب منا أن نكتب من الذاكرة في كراسة الإنشاء . أصبحت أعتمد على مصادر أخرى غير الذاكرة ، منها كتاب المطالعة الرشيدة ، والكتب المقررة في المدرسة من تأليف رجل مثل العقاد ، ومكتبة أبي في البيت ، وكتاب الله الكريم وأحاديث الرسول ﷺ .

لم تعد الكتابة ممتعة ، لكن أحمد أفندي أصبح يعطيني درجات التفوق ، أفرح بها وأفخر أمام زميلاتي ، ينقلب الفرح في أعماقي إلى حزن غامض ، كأنما فقدت شيئاً غالياً ، أغلى مما بتره الموس من جسدي ، شيء في الرأس ، في الخيال وليس بين الفخذين .

كان يمكن أن أستمع على هذه الحال لأصبح مثل أغلب النساء ، امرأة فاقدة الذاكرة والخيال ، وربما أصبحت كاتبة تحصل على الجوائز ، لقب كاتبة كبيرة ، وزيرة ، أو وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى .

إلا أن مذكرات الطفلة سعاد وقعت بالصدفة فى يد أمى . كانت أمى تقرأ وتكتب . جذبها العنوان فقرأت الكراسية كلها . حين عدت من المدرسة رأيتها ترمقنى بعينيها العسليتين يكسوهما بريق ، صوتها فى أذنى له رنين الفضة : عندك موهبة يا نوال . كان ذلك فى صيف عام ١٩٤٤ . مضى على هذا اليوم نصف قرن وأكثر ، لكن صوت أمى يرن فى أذنى كأنما بالأمس ، وصورتها أمامى بلحمها ودمها داخل قميص نومها الأبيض المنقوش بالزهور ، أراها فى الحلم وأعلم أنها ميتة .

سمعت العبارة ذاتها من أبى بعد أن قرأ كراستى ، إلا أن عبارة أمى كانت الأسبق ، والأعمق ، والأكثر حرارة ، ذاكرتها تشبه ذاكرتى ، حين ولدتها أمها لم تتطلق الزغاريد ، أصبح وجه أبيها كظيماً ، كان يريد لها ذكراً تحمل اسمه واسم أبيه .

كرهت أباهما وأمها وجدتها وكل النسوة . لم تشأ أن تكون مثلهن راكدة فى البيت . لم تحلم بالزواج أو فستان الزفاف . كانت تنام وتحلم إنها تطير فى السماء ، تركب الخيل والطائرة ، تعزف الموسيقى وتؤلف الألحان . أخرجها أبوها من المدرسة بالعصا . كانت فى السادسة عشرة من عمرها . زوجها لأبى . عاشت حياتها ما بين المطبخ وغرفة النوم . ولدت تسعة من الأطفال ثم ماتت فى ريعان الشباب ويدها فى يدى ، اتسعت عيناها لحظة الموت بالدهشة الطفولية كأنما عادت إليها الذاكرة فجأة . لولا أمى ربما ضاعت حياتى ما بين المطبخ وغرفة النوم . إلا أنها قرأت مذكرات الطفلة سعاد ، أرادت أن تنقذ ابنتها بعد أن عجزت عن إنقاذ نفسها ، وتعوض فيها أحلامها المجهضة .

٣ - مذكرات فتاة غير عادية :

كنت فى أول الشباب حين ماتت أمى ، مات أبى بعدها بشهور قليلة . قبل أن يموت بأيام قليلة قال لى : أنت مسئولة عن إخوتك وأخواتك من بعدى . لم يقل هذه العبارة لأخى الأكبر . أصبحت ربة أسرة كبيرة العدد ، أقوم بالدورين الأب والأم ، والرجل والمرأة ، الإنفاق والرعاية والحنان .

بدأت فى تلك الفترة من شتاء ١٩٥٩ أكتب سيرتى الذاتية تحت عنوان « مذكرات فتاة غير عادية » . كنت أشتغل طبيبة جراحة فى مستشفى الصدر بالجيزة ، وعيادتى الطبية فى ميدان الجيزة ، أتعمل فى البيت مسئولية لا يتحملها الرجال ، فى المستشفى والعيادة أعالج الرجال والنساء ، أنقذ أرواحهم وأجسادهم من الموت ، إلا أن القانون والشرع يرانى نصف رجل ، لا أستطيع أن أدلى بشهادة فى المحكمة كإنسانة كاملة ، ليس لى حق الولاية على أخواتى القاصرات ، لا يمكن لى السفر دون إذن مكتوب من زوجى ، يملك حقوقاً لا أملكها . منها الطلاق ، تعدد الزوجات ، ما سمي « قوامة الرجل » على المرأة رغم أننى أتعمل مسئولية الإنفاق .

رفضت كل هذا . كان معى المنطق والعدل والحق . إلا أن الشرع والدين لم يكن معى . هنا اصطدمت بالمقدس . بدأت أبحث كيف نشأ هذا المقدس فى التاريخ . وصلت إلى الحضارة المصرية القديمة ، كانت الإلهة الأنثى رمز المعرفة والعدل والصحة ، الإلهة « سخمت » نقيببة الأطباء فى مصر منذ سبعة آلاف عام ، « معات » هى رئيسة القضاة وإلهة العدل ، لا يمكن للمرأة أن تكون قاضية اليوم .

فى طفولتى سمعت أبى يقول : الجنة تحت أقدام الأمهات ، أحد النصوص المقدسة . بعد موت أمى رأيتها فى الحلم تعاني الوحدة والحزن فى حياتها الجديدة بالجنة . كان أبى مخلصاً لها طوال حياته ، فى الجنة تخلى عن هذا الإخلاص تركها وحيدة وانشغل بالعذراوات والهوريات ، يشف بياضهن من تحت الساق ، له منهن اثنان وسبعون حورية ، تعود الواحدة منهن عذراء بعد تمزق الغشاء ، ليتمزق من جديد كالجلود المحروقة فى النار تتجدد .

كان أبى رقيق الطبع فهل يتحول بعد الموت إلى آلة ذكورية شديدة القسوة والغباء لا عمل لها إلا تمزيق أغشية العذراوات ؟ أمى حكى لى آلامها ليلة الزفاف ، هذا الألم تعرفه كل امرأة ، فكيف تتكرر هذه المأساة كل ليلة ؟

ألا تكون النار أفضل للنساء من الجنة ؟ وكيف تتحول أمى إلى عذراء بعد أن ولدت تسعة من العيال ؟

راحت مذكرات فتاة غير عادية إلى العدم . لم ينشرها أحد في مصر أو بيروت . لم يبق منها ضمن أوراق القديمة إلا قصة قصيرة بعنوان « ليس لها مكان بالجنة » بقيت في الدرج الخفى خمسة وثلاثين عاماً ، وافقت على نشرها إحدى المجلات الأسبوعية بمصر بعد الحذف والتعديل عام ١٩٨٩ .

أما مذكرات الطفلة سعاد فلم ينشرها أحد . بقيت كامنة في الدرج أكثر من أربعين عاماً ، ثم نشرتها عام ١٩٩٠ دار جمعية تضامن المرأة العربية ، قبل أن تغلقها الحكومة بعام واحد .

٤ - مذكرات طبيبة :

إنها رواية تأخذ شكل السيرة الذاتية ، فيها بعض أجزاء من حياتي ، وأجزاء أخرى من حياة زميلاتي الطبيبات وصديقاتي ، نشرت الرواية على شكل حلقات في إحدى المجلات الأسبوعية في مصر عام ١٩٥٩ بعد الحذف والتعديل ، ثم صدرت على شكل كتاب عام ١٩٦٠ ، نشرته إحدى دور النشر في مصر بعد الحذف والتعديل أيضاً ، خرج الكتاب كالطفل المبتور الأعضاء ، أو الطفلة يستأصلون بمقص الرقيب أجزاء من جسدها ، لم ينشغل النقاد إلا بسؤال واحد : أهى رواية أم سيرة ذاتية ؟ وسؤال آخر كان يشغلهم : ما علاقة الطب بالأدب ، كيف أكتب أدباً وأنا طبيبة ؟

مذكرات طبيبة كتبتها بلغة مختلفة عن لغة الأدباء والأطباء . لم تتدرج تحت العلم أو الفن ، وأنشغل بعض النقاد باللغة فحسب ، هل هى أدبية أو علمية ، فصلوا الكلمات عن معناها ، فصلوا العلم عن الفن كما فصلوا الطب عن الأدب . وأنشغل بعض النقاد بالمعنى فقط ، تساءلوا ما معنى ما كتبت ؟ ولماذا يخرج عن المفاهيم الموروثة مثل إباحة المحرمات ؟ وقد حكيت عن خادمة صغيرة فى الرابعة عشر من عمرها جاءت إلى عيادتي تطلب منى إجهاضها . لم يكن للطفلة الحامل سفاحاً أن تعود إلى أبيها فى القرية فيقتلها . لقد اغتصبها فى ظلمة الليل سيدها البیه العجوز ، وابنه الشاب كان يتدرب على إثبات ذكوره معها ، وطردتها سيدتها خوفاً من الفضيحة وحماية لرجل العائلة الكريمة ، وكتبت فى مذكرات طبيبة أقول : كيف لا أنقد هذه الضحية البريئة والمجتمع يطلق سراح الجانى ؟ حين دخلت الطفلة عيادتي تذكرت طفلة تشبهها كانت

خادمة فى بيت جدى ، طردتها خالتي فهيمة من البيت ، أخذتها إلى القطار وعادت بدونها ، لم أعرف هل قتلها أبوها أم ألقت نفسها فى النيل ؟ كنت طفلة صغيرة وعجزت عن إنقاذها ، وفتاة أخرى عجزت عن إنقاذها فى القرية وأنا طبيبة بالوحدة الصحية عام ١٩٥٧ ، رأيتهم ينتشلون جثتها من النيل فى يوم رمادى أغبر ، وحين جاءتنى تلك الخادمة إلى عيادتي قررت إنقاذها . كان الإجهاض ممنوعاً فى القانون ، وفى نقابة الأطباء نقسم عند التخرج القسم الموروث منذ أبقرط : « وألا أجهض حاملاً » ، وطلبت تغيير القسم ، إلغاء هذه العبارة ، واستبدالها بعبارة أخرى نقسم بها نحن الأطباء « ألا نستأصل من جسد الطفل الذكر أو الطفلة الأنثى أى جزء سليم تحت اسم الختان » . ورفض أطباء النقابة طلبى بالإجماع .

كنت كأنما أمشى فى حقل من الألغام ، والأطباء فى التاريخ هم ورثة الكهنة الذين آمنوا أن الماء المقدس يشفى الأمراض ، والأزدواجية فى القوانين هى القاعدة ، والعدالة عمياء ، فهذا الرجل الكبير الذى اغتصب الفتاة تسقط عنه التهمة ولا يعاقب إن تزوجها . هكذا يكافىء القانون الرجل المغتصب بالزواج من البنت التى اغتصبها ، ويعطيه القانون الحق فى تطليقها فى أى وقت يشاء ويخرج من الجريمة بريئاً طاهر الذيل ، أما الفتاة فهى تروح ضحية جريمتين : الاغتصاب والزواج بالرجل الذى اعتدى عليها ، ثم الخروج إلى الشارع بعد الطلاق لتمارس البغاء أو تعود إلى الخدمة بالبيوت لتعيش الاغتصاب مرة أخرى .

كانت مهنة الطب تكشف لى أمراض المجتمع ، عن مآسى الناس خاصة النساء الفقيرات ، وأصبح القلم كالمشرط ، والطب كالأدب يسعى نحو الثورة ضد الظلم ، ينشد العدل أو الحرية أو الحب أو الجمال أو الفضيلة ، وكلها شئ واحد ، ينسكب رغم إرادتى فوق الورق على شكل كلمات لم يألّفها النقاد ، والمعانى أيضاً لم يألّفوها ، لا تتسق مع الموروث أو التراث ، لا تدخل ضمن القوالب النقدية ، هل هى رواية أو سيرة ذاتية ؟ هل تنتمى إلى الأدب الواقعى أو غير الواقعى ؟ هل هى أدب نسائى أم غير نسائى ؟ ما هى علاقة النص بالمنصوص ؟ ما مرجعيات النص وما علاقة الذات بالآخر ؟ هذا النوع من الأسئلة التى تشغل عقول النقاد .

٥ - مذكراتي في سجن النساء :

كتبت هذه السيرة الذاتية في خريف ١٩٨١ ، على مدى ثلاثة أشهر قضيتها في سجن النساء بالقناطر الخيرية . في بلادنا يتمتع رئيس الدولة بقداسة الآلهة ، لا يمكن أن ينقده أحد إلا بعد موته . وكان رئيس الدولة حينئذ قد أعلن أن الحكم في بلادنا أصبح ديمقراطياً ، وأن المعارضة أصبحت شرعية والنقد مباح . بدأت أنقد وأنشر رأيي فإذا بي داخل السجن .

تجربة السجن ضرورية للإبداع الأدبي . سواء كان رواية أو سيرة ذاتية ، شعراً أو نثراً ، هذه الفواصل تسقط مع سقوط الفاصل بين الجسد والروح والماضي والحاضر والزمان والمكان .

كنت أخاف السجن قبل أن أدخله ، نحن لا نخاف السجن ولكننا نخاف المجهول . فإذا أصبح الموت معلوماً ربما فقدنا خوفنا منه . تصحو الذاكرة اللاإرادية حين نتحرر من الخوف .

حين نخرج من قبضة الحاضر . حين نتخلص من المشاغل اليومية ومشوشات العقل مثل قراءة الصحف أو متابعة خطب الرؤساء .

في السجن شعرت بحرية الخروج من قبضة الحياة اليومية ومطالبها ، لم أعد مسئولة عن شيء في حياتي ، أصبحت حياتي في يد الآخرين ، وتفرغت أنا لكتابة سيرتي الذاتية . أصبحت أعيش كأنما خارج الكون ، أطل عليه من بعيد دون أن أكون جزءاً منه . نحن في حاجة إلى هذه المسافة لنرى أنفسنا والآخرين .

لم يكن في الزنزانة ورقة وقلم . كل يوم يأتينا المسئول البوليسى ويقول مهدداً « الورقة والقلم أخطر من الطبنجة » إلا أنني حصلت على قلم صغير ، من إحدى الفتيات السجينات في عنبر الدعارة المجاور لنا ، وحصلت على لفة من ورق التواليت من إحدى النساء القاتلات ، كنت أكتب في الليل ، وفي النهار أخفي القلم والورق داخل علبة صفيح تحت الأرض . كانت الكراسي من الممنوعات ، أجلس فوق قعر صفيحة مقلوبة ، وأمامي قعر صفيحة أخرى مقلوبة أجعلها مكتباً . كان الليل طويلاً ممدوداً إلى

ما لا نهاية ، والقلم يمشى تلقائياً على الورق ، تحركه ذاكرتى اللاإرادية ، عدت فى الزمان والمكان كما أشاء فى القرية وعمري خمس سنوات ، فى المدينة وعمري أربعين عاماً ، جدتى تنهض من قبرها وتمشى أمامى ، أمى وأبى أيضاً ينهضان من الموت ، زميلاتى فى المدرسة الثانوية وكلية الطب ، الأقارب والقريبات ، الزوج الأول والثانى أيضاً ينهضان من العدم . لم يكن الأول راضياً عن نجاحى فى الطب ، كان يفضبه أن تتفوق زوجته عليه ، أما الثانى فلم يكن راضياً عن كتاباتى ، وجاءنى فى يوم يقول « عليك أن تختارى أنا أو كتاباتك » وقلت « كتاباتى » . موقف غريب لا يعيشه الرجل الأديب ، وإن جاءته زوجته وقالت « أنا أو كتاباتك » تصبح الزوجة مجنونة أو شاذة فى نظر الناس ، وإذا اختار الرجل الأديب كتاباته فهو إنسان طبيعى مبدع ، أما المرأة الأدبية التى تختار كتاباتها فهي غير طبيعية أو شاذة ، والمفروض أن تختار زوجها ، فهو حياتها ، لا حياة للمرأة بدون الرجل ، تعيش من أجله وتموت من أجله ، تخلص له فى الحياة وبعد الموت ، أما الرجل فهو يعيش للأعمال الكبرى فى العلم أو الأدب ، والمرأة فى حياته تشغل جزءاً صغيراً من أجل الترفيه عن العمل ، لا يخلص لها فى حياته أو بعد موته ، يندرج « عدم الإخلاص » تحت بند الرجولة والقانون والشرع .

كانت حياتى عندى أثمن من رجال العالم أجمعين ، وحياتى هى أوراقى أكتبها بلفتى وقلمى وعقلى وذاكرتى ، أعشق موسيقى الكلمات ، وعبيرها يشبه الزهور تتفتح فى الصبح ، كلمة « زواج » تثير نفورى ، تعيد إلى ذاكرتى رائحة المطبخ والبصل والثوم ، وقال أحد النقاد عن كلماتى إنها غير طبيعية . فالمفروض أن « الأنا العليا » عند المرأة ناقصة ولا يشغلها الأدب أو الثقافة .

فى مذكرات السجن تذكرت أحداثاً تاريخية هزت الوطن ، مثل ثورة ١٩٥٢ ، والمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية عام ١٩٦٢ ، وجدت نفسى جالسة مع الرجال فى القاعة الفسيحة ، فوق المنصة رئيس الجمهورية من حوله رجال الدولة ، إنهم يبحثون عن تعريف للعامل والفلاح ، وأنا فى مقعدى ألفت حولى فى اندهاش ، من هو الفلاح ؟ السؤال يرن فى أذنى غريباً ، منذ ولدت فى القرية وأنا أعرفه ، الجلباب الأجرب القديم ، الوجه الضامر الممصوص ، اليدان المشققان المحروقتان بالشمس ، يأكل الجبن الحادق مع المخلل ، يبول الدم فى البول . منذ الطفولة سمعت جدتى الفلاحنة تقول « البول الأحمر دليل الصحة والعافية » .

كل الفلاحين كان بولهم أحمر فى مصر ، لم يكن فلاح واحد ينجو من مرض البلهارسيا . إلا أن السؤال كان يرن فى أذنى : من هو الفلاح ؟ الرجال فى الصفوف الأمامية يتبارون للرد أمام رئيس الدولة، فى حضوره يصبح الرجال أكثر أدباً. أكثر رقة، صوته يصيح ناعماً كأصوات النساء ، وجاء دورى للكلام ، كنت أجلس فى الصفوف الخلفية ضمن الشباب الصغار المجهولين ، كعب حذائى متآكل قديم ، وجهوا إلى السؤال: من هو الفلاح ؟ قلت : الفلاح هو الذى بوله أحمر ، وقال أحد رجال الصحافة أن مثل هذه الكلمات غير أدبية خاصة فى حضور كبار رجال الدولة ، رأيت فيما بعد يركب سيارة طويلة سوداء ، بين شفتيه سيجار ضخمة ، لقد دخل مجلس الشعب ضمن الفلاحين ، أما أنا فقد دخل اسمى القائمة السوداء لم يخرج منها حتى اليوم .

فى مذكرات السجن كانت الأحداث العامة تذوب فى الأحداث الخاصة ، لا يمكن الفصل بين حياتى العامة وحياتى الخاصة . وهل يتغير الإنسان لمجرد خروجه من باب بيته ؟ إلا أن الأحداث الخاصة كانت أكثر حميمية ، فهى ترتبط بجسدى وعقلى وغرفة نومى وحياتى وموتى . إن أكبر حدث فى حياتى هو موتى ، أما موت رئيس الجمهورية فهو أقل أهمية ، وقال أحد النقاد : هذه كاتبة تكتب عن ذاتها وتتشغل بها عن الهموم الوطنية الكبرى ، وقال ناقد آخر : هذه هى الطبيعة الأنثوية ، فالمرأة ذاتية أما الرجل فهو موضوعى .

لم يكن يشغلنى هذا الفاصل المصنوع بين الذات والموضوع ، أو الأنا والآخر، أو أدب المرأة وأدب الرجل ، أو أدب الشرق أو أدب الغرب ، كنت مشغولة بالتعبير عما يجول فى خاطرى دون تفكير فى العواقب ، وأكثر ما يرضينى هو أن تصلنى رسالة من قارئ أو قارئة تقول لى : قرأت مذكراتك فى السجن وتغيرت حياتى .

٦ - أوراق حياتى :

بدأت هذه السيرة الذاتية فى شتاء عام ١٩٩٣ ، بعد أن تجاوزت الستين عاماً من العمر ، وأصبحت أعيش المنفى ، فى مدينة صغيرة تشبه القرية اسمها « ديرهام » على بعد أكثر من عشرة آلاف ميل من الوطن .

تجربة المنفى تشبه تجربة السجن ، التحرر من قيود الزمان والمكان وسقوط كثير من الأقنعة أو المحظورات والمخاوف . أكبر خوف فى حياتنا هو الخوف من الموت . هربت من الموت بعيداً عن الوطن . لقد دخل اسمى ما سميت قائمة الموت ، وهى شىء غامض يزيد غموضاً عن القائمة السوداء ، إلا أننى رأيت الحراسة المسلحة أمام بيتى فى إحدى الليالى الحارة الغبراء من شهر يونيو ١٩٩٢ ، وبودى جارد يرافقنى أينما ذهبت ، واندعشت ، كيف تتحمس الحكومة لحماية حياتى ولم يجف مداد قرارها بإغلاق الجمعية التى أنشأتها ومجلتها « نون » . كنت فى ذلك الوقت أكتب رواية طويلة جديدة . شبح الموت طرد الرواية من خيالى . تضاءلت أحداثها إلى جانب الحدث الذى يهدد حياتى . وهل فى حياتنا حدث أهم من موتنا ؟

ربما يكون لموتى فوائد جمة ، إلا أن أهم فائدة هى إدراكى لقيمة حياتى . فالحياة مثل أى شىء فى حياتنا لا ندركها إلا حين نفقدها أو نهدد بفقدانها .

أغلب الناس . خاصة النساء لا يقدمن على كتابة السيرة الذاتية لسبب بسيط هو عدم الإدراك لقيمة حياتهن . إن حياة الرجل أو المرأة العادية مليئة بالتجارب الثرية ، إلا أننا نتربى على احتقار ذواتنا وتجاربنا . منذ الطفولة نفقد الإحساس بقيمة حياتنا ، رغم أن كل حياة لها قيمتها وأصالتها وتميزها مثل البصمة لا تتكرر وليس منها نسخة أخرى .

إن حياة الإنسان فى بلادنا رخيصة ، خاصة إذا كان فلاحاً فقيراً ليس عضواً فى الطبقة الحاكمة ، أما المرأة الفقيرة فإن قيمتها تهبط إلى نصف قيمة الرجل الفقير من طبقتها ، وإن كانت هذه المرأة زوجته فإن قيمتها تهبط إلى الثمن حسب الميراث فى الشرع .

فى المنفى أصبحت أستاذة للإبداع الأدبى فى جامعة ديوك فى ولاية نورث كارولينا ، على الشاطئ الشرقى الجنوبى للمحيط الأطلنطى بأمريكا الشمالية ، وأنا لا أحب التدريس أو المدرسين ، كنت أطلب من الطلبة والطالبات أن يكتبوا عن طفولتهم ، مع الكتابة تنمو الذاكرة . فى أول العام كان بعضهم لا يكتب شيئاً . إحدى الطالبات وهى أمريكية قالت إنها لا تذكر شيئاً هاماً فى طفولتها وليس فى حياتها شىء يستحق الكتابة . وفى نهاية العام كتبت هذه الشابة وعمرها عشرين عاماً قطعة أدبية من

السيرة الذاتية . تذكرت أنها فى السادسة من عمرها تعرضت لحادث اغتصاب ليلة الكريسماس ، وارتبط مولد المسيح فى ذاكرتها بحادث الاغتصاب الجنسى ، إلا أن الفاعل ظل مجهولاً ، فى الليل حين تنام يأتيا على شكل رجل له لحية طويلة يشبه بابا نويل ولم تعرف ما هى الهدية ، إلا أنه يهمس فى أذنها بصوت رقيق : سوف تحملين بالمسيح ليكون ابن الله الذى ينقذ العالم من الظلم !

قرأت هذه القطعة على الطلبة والطالبات فى نهاية العام ، وتشجع الجميع ، لم يعد الاغتصاب فى الطفولة مبعث خزي أو عار ، إنه حدث عام ، يحدث لأغلب الأطفال ذكوراً وإناثاً ، وكان فى الفصل طلبة وطالبات من القارات الخمس من آسيا وأفريقيا وأوروبا وأستراليا والأمريكتين ، رغم اختلاف الأديان واللغات والثقافات إلا أن المحظورات الدينية والجنسية فى الطفولة متشابهة ، ينسى الأطفال حوادث طفولتهم، ظاهرة تسمى فى الطب « فقدان الذاكرة عند الأطفال » أو باللغة الإنجليزية الطبية .

ترتبط عملية الإبداع بنمو الذاكرة ، يكتشف كل إنسان كنوز الحياة ، وبدأت هذه اللحظات المضيئة تومض فى حياتى وأنا فى المنفى البعيد ، مثل النجوم التى انطفت وماتت منذ ملايين السنين ، مع ذلك يصلنا ضوءها ونراها بعيوننا فى السماء متألقة فى الليالى غير القمرية .

وعاش معى المنفى زوجى شريف وهو أديب مبدع فى الطب والأدب والسياسة ، لهذا السبب قضى من حياته خمسة عشر عاماً فى السجن وأعواماً أخرى فى المنفى ، كنا نمشى معاً على العشب الأخضر على شاطئ الأطلنطى ، تعود إلينا رائحة العشب فى الوطن على ضفاف النيل ، فنستشعر الحنين إلى الوطن والأهل ، تبرز من الماضى حياتنا السابقة وتلتحم بالحاضر فى نسيج واحد .

وتربط السيرة الذاتية بين الخيال والواقع والحلم والحقيقة فى سياق ينساب تلقائياً مع نمو الذاكرة اللاإرادية . إلا أن الخيال فى بلادنا يرسف فى القيود ، خاصة الخيال الأدبى العلمى ، أو الخيال المادى غير المنفصل عن الواقع . لا يُشجّع فى بلادنا إلا الخيال الخرافى النابع من الأوهام أو الإيمان بأشياء لا وجود لها مثل العفاريت والشياطين .

ربما تكون السيرة الذاتية أكثر صدقاً من الرواية ، أو أكثر فناً وإبداعاً ، لأنها تكشف عن الذات بمثل ما تكشف عن الآخر . كتبت أوراقى حياتى فى خمس سنوات خارج الوطن . كان القلم فى يدى مثل المشرط يكشف عما تحت الجلد ، تحت العضل ، يصل إلى جذور الأجزاء المبتورة من الجسد أو العقل أو الذاكرة ، ثم يحلق بى السماء السابعة لأرى أشياء لم أكن أراها وأنا أمشى فوق الأرض .

تضاءلت كنوز الأرض والسماء إلى جوار ما أكتب فى « أوراقى حياتى » . غمرنى فرح لم أشعر به منذ كنت فى السابعة من عمرى . أفرد ذراعى وأتمطى ، واحتضن الكون وأمشى فى غابة ديوك بين سيقان الأشجار ، وشعاع الشمس يلامس وجهى دافئاً حانياً كأصابع أمى وأنا فى الخامسة من العمر .

إن أسهل وأصعب الكتابات هى السيرة الذاتية ، هى السهل الممتع ، هى بديهيات الحياة . نعرفها فى الطفولة ثم نفقدها بالتدريج مع التعليم والإيمان بأن الروح يمكن أن تتفصل عن الجسد ، نتخبط فى شبابنا وكهولتنا مع الثنائيات المفروضة علينا منذ نشوء العبودية .

رغم كل القيود يظل الإنسان المبدع أو الإنسانية المبدعة قادرة على الإمساك بذاكرتها المفقودة ، فلا شئ ينتهى تماماً طالما أن الإنسان حى ، والطفلة أو الطفل لا يموت أبداً داخلنا ، ويمكن فى أواخر عمرنا أن نسمع فى أعماقنا العميقة صوت عقولنا الحبيسة ، هذا الصوت الذى لم ينقطع أبداً عن الهمس لنا ، فالذاكرة لا تموت كلياً ، تظل فى مكان ما داخل خلايا العقل ، ومن هنا تنشأ الرغبة الملحة فى كتابة السيرة الذاتية ، فهى ليست إلا محاولة لاستعادة ذكائنا الفطرى حين كنا فى السابعة من العمر .

وتتبع متعة الكتابة من هذا الإحساس الجديد ، أننا وحدة كاملة مع أجسامنا وعقولنا وأرواحنا ، نعيش الطفولة مع شبابنا ، مع كهولتنا ، يلتحم الحاضر بالماضى والزمان بالمكان مع وجودنا هنا والآن فى هذه اللحظة الممدودة إلى الأبد .



كسر الحدود(*)

منذ ولدت وأنا أسمع الناس من حولى يقولون : لا تتجاوزى الحدود !

أصبح بينى وبين كلمة « الحدود » عدااء . فما هى هذه الحدود ؟ ومن يضعها ؟ سؤال كان يراودنى دائماً فى طفولتى ، ومازال حتى اليوم يراودنى كلما قال لى أحد : لا تتجاوزى الحدود !

أردت مرة أن أكتب قصيدة شعر وأنا طفلة لكن جدى « والد أُمى » رمقنى بنظرة ساخرة ، كأنما الأطفال بلا عقول وليس فى قدرتهم كتابة الشعر ، رغم أن الإبداع شعراً كان أو موسيقى أو رسماً أو أدباً أو أى نوع آخر من الإبداع يبدأ فى الطفولة .

لكن الناس يضعون « الحدود » لما يفعله الطفل أو الطفلة . لهذا كرهت كلمة « الحدود » فى طفولتى ، وتولدت فى أعماقى العميقة رغبة ملحة لتجاوز هذه الحدود . وهى رغبة طبيعية فى كل طفل وطفلة . لكن الناس تصورها كأنما هى رغبة غير طبيعية .

من أجل أن تظل الطفلة أو الطفل طبيعياً يحظى برضا الآخرين واقتناعهم بطبيعته فإنه يلزم هذه الحدود التى يضعها الآخرون أمامه ، وبالتالى يفقد الإبداع .

« أنا » والآخرى ، أو « أنا » و « الآخر » مشكلة تواجه الإنسان المبدع منذ الطفولة ، وكل إنسان يولد مبدعاً ، ويواجه كل إنسان هذه المشكلة ، علاقته بالعالم الخارجى .

حتى هذه اللحظة أنا أواجه هذه المشكلة . إن العالم من حولى يهوج بالصراعات ،

(*) القاهرة - الجريدة اليومية (العالم اليوم) ص ١٤ / السبت ١١ يناير ١٩٩٢ .

كالغابة يأكل الكبير الصغير ، من يملك السلاح النووى تكون له المكانة والكلمة العليا .
من يملك المال والمنصب أو السلطة تكون له الغلبة على من يملك العطف والرقّة
والإنسانية .

العالم الخارجى يفضبنى ، وكلما وعيت العالم الخارجى ، ووعيت قيمه وقوانينه
زاد غضبى .

فالإنسان الطبيعى يغضب حين يرى الظلم ، لكن هذا الغضب الطبيعى أصبح
كأنما هو غير طبيعى ، كأنما الظلم هو الطبيعى علينا أن نتقبله بسرور ورضا ، أو
على الأقل الصمت وعدم الاحتجاج . لكن الصمت موت ، والاحتجاج على الظلم أولى
الخطوات نحو الإبداع .

الطفل الذى يرى أمامه الخادمة الصغيرة فى مثل عمره تكوى بالنار أو تضرب
بالكبرياج بيد أبيه أو أمه « لأنها كسرت كوباً » ويظل صامتاً راضياً لا يتألم ولا يحتج ،
تموت فيه بذرة الإبداع ، ويتعود أن يرى الظلم ويسكت بل يشارك فيه .

الإبداع هو الجمال ، والعدل هو الجمال فى قمة مظاهره الإنسانية والاجتماعية .
الإبداع كالبذرة فى الأرض ، تحتاج إلى الرى والماء . هذا الماء هو حب العدل -
أى حب الجمال والحرية . لا يوجد جمال بغير عدل أو حرية . مبدأ إنسانى أولى .
« الحرية » كلمة إنسانية جميلة تغنى بها الشعراء والمبدعون والفنانون . الحرية
هى نقيض القيود أو الحدود .

كل إنسان يولد حراً ، وكل إنسانة تولد حرة . هذه حقيقة طبيعية . لكن هناك
حقيقة أخرى طبيعية هى أن الإنسان يعيش داخل مجتمع فيه « آخرون » ، وكل فرد من
هؤلاء الآخرين له الحرية نفسها التى أريدها لنفسى .

أنا والآخر نستحق الحرية والعدل والجمال . فلماذا أعتدى على حرية الآخرين ،
ولماذا يعتدى الآخرون على حريتى ؟

هل الاعتداء على حرية الآخرين وحقوقهم الإنسانية جزء من الطبيعة البشرية ؟
هل الظلم طبيعة الإنسان أم أنه نظام اجتماعي ؟

سؤال تاريخي قديم يراود كل إنسان مبدع أو كل إنسانة مبدعة .

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال دون قراءة التاريخ البشري ، ومحاولة الوصول إلى الجذور الأولى التي نشأ منها الظلم أو العبودية .

لكن قراءة التاريخ أو إعادة قراءة التاريخ تحتاج إلى إبداع ، أو إحساس جديد يلتقط الحقائق ويتجاوز حدود التاريخ الرسمي المحدود .



عصر المجهول (*)

الإبداع إحساس جديد يبدأ غامضاً . رغبة ملحة فى تجاوز الحدود القديمة إلى أفاق من الحياة أوسع وأرحب وأكثر جمالاً وحرية وعدلاً .

لكن عبارة « لا تتجاوزى الحدود » تصاحبنى منذ الولادة حتى الموت . قد أخضع لهذه العبارة وألزم الدار والجدران الأربع . أجلس فى مقعدى وأغلق عيني وأذنى عما يحدث فى العالم الخارجى .

إنه نوع من الراحة لا شك ، يصاحب الإنسان حين يتخلى عن المسؤولية ويقول لنفسه : وأنا مالى ؟ فليذهب العالم إلى الحرب أو للنهاية ، وليقتل الآلاف ويجوع الآلاف إنها ليست مسئوليتى ، لست مسئولاً عن العالم !

قلت لنفسى ذلك وأغلقت نفسى عن العالم . لم أعد أتابع الأخبار أو الإذاعات العالمية أو المحلية . شعرت بنوع من الراحة المؤقتة . لم أعد أسمع أخبار الحروب والكوارث والمجاعات والجرائم والقتل والاعتداءات على أرض الغير وحقوق الآخرين .

كلما كنت أتابع هذه الأخبار يزداد يقينى بأننا نعيش فى غابة كبرى . يحكمها قانون عالمى يفتقد العدالة فى عالم قبيح . هناك ارتباط وثيق بين العدل والجمال أو بين الظلم والقبح . إنه الترابط بين الإبداع والرغبة فى التعبير عن هذا الظلم أو هذا القبح لتصبح الحياة أكثر جمالاً أو أقل قبحاً .

ومن هنا ارتباط الإبداع بحرية التعبير . الإبداع يعبر عن نفسه بالضرورة . فإذا فرضنا عليه الصمت مات .

لهذا لم ألزم دارى طويلاً . فالصمت قاتل للنفس الإنسانية . لا يمكن أن يعيش الإنسان وحيداً داخل جدران أربعة . لابد أن يخرج إلى العالم وإن كان قبيحاً . لابد أن يسمع الأخبار والإذاعات وإن كانت مؤلمة .

(*) الجريدة اليومية (العالم اليوم) ص ١٤ - ١٩ يناير ١٩٩٢ .

ثم من أين يأتى الإبداع إذا أغلقت عيني وأذنى عما يحدث حولي فى العالم الكبير. هل يمكن لهؤلاء الذين نسميهم مبدعين أو فنانين أو أدباء أو أدبيات ، هل يمكن أن يعيشوا فى عزلة عن الحياة ؟

هل يمكن مثلاً أن تقوم الحرب العالمية الثالثة دون أن يتأثر هؤلاء المبدعون والمبدعات ؟

لقد غيرت الحرب العالمية الأولى ثم الثانية كثيراً من القيم الإبداعية بما فيها الفن والعلم والفلسفة والتاريخ وكل مجالات المعرفة ومنها معرفة النفس أو علم النفس. لقد قلبت الثورة الرأسمالية فى أوروبا كثيراً من قيم العصور الوسطى رأساً على عقب .

وفى جامعات أوروبا اليوم مواد علمية جديدة تقوم على محاولة إنسانية جديدة لإعادة فهم وتفسير الفلسفات والنظريات التقليدية وتطويرها بحيث تكون وسيلة لتحرير الإنسان وليست وسيلة للقهر والاستعباد .

ويتبنى هذا الاتجاه الجديد بعض الحركات فى أوروبا مثل الخضر والشباب والنساء والسود وغيرهم .

كذلك أحدثت الثورة الاشتراكية فى روسيا هزة فى العالم شرقاً وغرباً نتج عنها الكثير من التغيير فى القيم الاجتماعية والإبداعية .

وأحدثت حرب الخليج هزة فى العالم وفى بلادنا العربية لا يمكن أن ينجو من أثارها أى إنسان مبدع . كذلك الهزة التى صاحبت انهيار الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية ، وهذه الأزمات الاقتصادية الحادة التى تواجه دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة ، وتندر بانهايار الإمبراطوريات الرأسمالية أيضاً .

نحن نعيش عصر التغيرات الكبرى ، وهو عصر يبدو للكثيرين مخيفاً مرعباً يقود إلى المجهول ، لكنه عصر الإبداعات الكبرى أيضاً التى تميز فترات الانتقال من عصر إلى عصر ، أو من حضارة إلى حضارة .

لذة الإبداع(*)

الإبداع مرآة تعكس حياة البشر ، لذلك ينعكس العالم بما فيه من تغيرات أو حروب أو ثورات فى الأعمال الإبداعية على اختلاف أنواعها .

إن قصيدة من الشعر ضد الحرب مثلاً قد تكون أقوى أثراً فى نفوس الناس من أى شئ آخر . وفى تاريخ الفن نماذج إبداعية هزت وجدان البشر بأكثر مما تفعل الزلازل .

وهناك أعمال إبداعية بقيت رغم زوال العهود التى ظهرت فيها . وكم من ألحان باقية يتغنى بها الناس وإن ضاع اسم مؤلفها مع الزمن .

وكم من أساطير وقصص باقية رغم مرور القرون وأعمال فنية إبداعية ، وتمائيل منحوتة بقيت وإن مات أصحابها . فى الحضارة المصرية القديمة كان هناك فلاسفة وفنانون مبدعون ، نساء ورجالاً ، ومازال الفن المصرى القديم موجوداً يراه الناس بعيونهم ، ويأتون إليه من مختلف القارات . يتحملون مشاق السفر . ينفقون الأموال من أجل رؤيته .

لماذا يسعى الإنسان لرؤية الفن والإبداع ؟ لماذا نسعى لسماع قطعة موسيقى أو قراءة رواية أو رؤية نحت فى الحجر ؟

سؤال كان يراودنى دائماً منذ حياتى المبكرة . كنت أدرك أننى حين أسمع الموسيقى أو أقرأ رواية جميلة أشعر بالمتعة .

ومن أجل هذه المتعة يسعى الإنسان إلى الأعمال الإبداعية . لكن لماذا هذه المتعة ؟

وماذا فى الإبداع يثير هذه المتعة فى نفوس الناس ؟

(*) الجريدة اليومية (العالم اليوم) ص ١٤ - ٢٧ يناير ١٩٩٢ .

حين قرأت رواية « الأيام » لطفه حسين وأنا تلميذة صغيرة بكيت من الألم ، لكنى رغم الألم أحسست بمتعة . خليط غريب من الأحاسيس يفجره الإبداع فى النفس البشرية .

هذه اللذة الممزوجة بالألم هى السر فى بقاء الفن ، والسر فى قوته وتأثيره على البشر وقدرته على تغيير الإنسان والعالم أيضاً .

الإبداع قادر على تجاوز حدود الواقع إلى واقع آخر أكثر رحابة . وأهم ما يتجاوزه الإبداع هو « القيم » الراسخة فى النفوس ، والمتوارثة عبر الأجيال .

يتجاوز الإبداع حدود القيم السائدة ، ويخلق قيماً جديدة أكثر إنسانية وعدالة . ولهذا يبدو الإبداع مخيفاً .

ولهذا قد يحكم على المبدعين أحياناً بالموت أو السجن أو النفى ، لكن ما إن ينقضى ذلك الزمن أو العهد حتى يدرك الناس قيمة ذلك العمل الإبداعي ، ويقام تمثال مجسم للفنان المبدع على حين يموت المسئول الذى أصدر الحكم ضده .

يلعب الإبداع دوراً فى تشكيل القيم التى تُبنى عليها الحضارة الجديدة التى لم تولد بعد .

ونحن نعيش هذه الفترة الانتقالية بين القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين . بين حضارتين . واحدة فى طريقها إلى الزوال والأخرى قادمة .

فترة انتقالية صعبة مخيفة ، لكنها هى أكثر الفترات ملائمة للإبداع . فالإبداع لا يحدث إلا فى هذه اللحظة الحرجة ، لحظة الانتظار بين موت القديم وولادة الجديد . لحظة أشبه بالعدم ، معلقة بين الموت والولادة . متأرجحة بين المعلوم والمجهول .

لحظة يكون فيها الإنسان وحده تماماً ، يواجه نفسه ، يستلهم عقله الواعى وغير الواعى ، يعتمد على نفسه تماماً ، فيبدع شيئاً جديداً ويلعب دوره فى تشكيل المستقبل ، أو يسقط مع الساقطين فى خضم الخوف والتشبث بذيل الماضى كما يتشبث الطفل بذيل أمه لا يعرف كيف يمشى وحده .

الإبداع استقلال مبكر واعتماد منذ الطفولة على النفس وليس على الآخرين .



حرية التعبير تستيقظ(*)

ظاهرة طيبة أن يتحمس لحرية التعبير عدد من الصحفيين في بلادنا بمناسبة صدور حكم بالحبس ٨ سنوات على كاتب روائي .

لكن لماذا لم يحدث ذلك الحماس إلا بعد أن أذيع الخبر في الإذاعة البريطانية ثم انتشر عبر موجات الإذاعات الخارجية ووكالات الأنباء .

كيف عم الصمت عامين تقريباً منذ نشر أحمد بهجت مقاله في جريدة الأهرام ١٩٩٠/٣/٣ يتهم مؤلف الرواية بالإلحاد ويطلب تقديمه للنيابة العامة .

كان المفروض أن تحدث الضجة الصحفية في هذا الوقت ويتصدى لأحمد بهجت كل هؤلاء المتكلمين الآن عن حرية التعبير لكن أحداً لم يكتب . أرسلت رداً إلى جريدة الأهرام لم ينشر قلت فيه : إن عمل الصحفي ليس استدعاء النيابة للمؤلفين بل الدفاع عن حرية التعبير .

ولم يدهشني مثل هذا الصمت فهو مألوف تماماً ومن النادر أن يدخل أحد في معركة ضد صحفي معروف بالأهرام من أجل كاتب غير معروف ليس له مؤسسة ولا رابطة بالسلطة .

وفي عام ١٩٩٠ طلبتني محكمة أمن الدولة بمصر القديمة لأدلى بشهادتي في تلك الرواية وكان المؤلف علاء حامد قد طلب شهادتي بعد أن أرسل إلى نسختين دون أن أعرفه شخصياً ودون أن نلتقي ، وقرأت الرواية وذهبت إلى المحكمة وأدليت بشهادتي في صف المؤلف ، وحقه الكامل في حرية التعبير ، خاصة في الأعمال الأدبية الخيالية التي لا يجب الحكم عليها بالمقاييس الدينية ، وليس من حق الأزهر الحكم علي الأعمال الفنية والأدبية ، وأن الرد على مثل هذا الكتاب يكون بكتاب آخر وليس بالنيابة .

لكن بعد عامين من الصمت على هذا الموضوع فوجئت بهذه الضجة الصحفية الآن . بعد أن أذيع الخبر في الإذاعة البريطانية وغيرها من الموجات الأثرية ، هب

(*) جريدة الأهالي ص ١٠ - ٨ يناير ١٩٩٢ .

الكثيرون وخرجوا من الصمت ، وكتبوا دفاعاً عن حرية التعبير ، وهكذا أصبح على كل من يتعرض للظلم فى بلادنا أو يصدر ضده قرار جائر أن يلجأ إلى الإذاعة البريطانية أو صوت أمريكا حتى تنتبه إليه الصحافة فى بلادنا ، وقد قرأت لأحد الصحفيين الحكوميين يندد بهذا القرار الذى يحبس مؤلفاً ٨ سنوات بسبب رواية بلا قيمة ، ومؤلف بلا قيمة ، وأن مثل هذا القرار يشىء إلى سمعة الدولة والحكومة فى الخارج ، ولا بد من إلغائه ليحتفظ النظام المصرى بصورته المشرقة عن الديموقراطية فى الخارج .

كأنما الذى يهم فقط هو سمعة الحكومة لدى الأجانب وليس هذا الظلم والحبس ٨ سنوات لمؤلف كاتب بصرف النظر عن قيمته الأدبية .

هل الكاتب البعيد عن الأضواء والسلطة والشلل الصحفية يصبح كاتباً بلا قيمة ؟ وهل الدفاع عن سمعة الحكومة فى الخارج يتطلب إهانة كاتب بهذا الشكل لمجرد أنه بلا سلطة ولا يملك الرد فى هذه الأزمة التى يتعرض فيها للحبس ؟

لقد أصبحت مأساة هذا المؤلف مضاعفة وبالرغم من أننى لا أعرفه شخصياً ولم ألتق به أبداً إلا أننى أحترم قدرته على الصمود أمام كل هذا .



رؤية نقدية لفن محمود سعيد(*)

هذه رؤية مختلفة لفن محمود سعيد من وجهة نظر المرأة التي يفرض عليها «العري» أحياناً باسم الحداثة والفن وكسر المحرمات وإطلاق حرية الغريزة ، ويفرض عليها «التفطية» أحياناً باسم الأصالة والأخلاق والقيم والأعراف واحترام التراث الدينى والهوية .

بين هذين الفريقين تسقط المرأة ضحية ، فهي إما جسد يعرى لتبحلق فيه عين الفنان ، وإما جسد يغطى حتى لا يراه الرجل ، كلاهما وجهان لعملة واحدة أن المرأة فقط هي الجسد .

هذه الإهانة (لفصل روح المرأة وعقلها عن جسدها) لا يشعر بها الرجل ولا يعرفها ، لأنها إهانة بعيدة عن جسده وعن روحه . سواء كان من المدافعين عن الحداثة والفن وحرية الغريزة أو المدافعين عن الأصالة والقيم والأخلاق والدين . هؤلاء جميعاً قد يختلفون وقد يتفقون إلا أن شيئاً واحداً يجمعهم هو تحويل المرأة إلى أداة للفن والثقافة وليست شريكاً فى صنع الفن والثقافة .

لهذا لم يكن غريباً أن ينعقد فى القاهرة مؤتمر كبير عن مستقبل الثقافة العربية فلا توجه الدعوة إلى امرأة واحدة لتجلس على المنصة مع الرجال وتتحدث عن وجهة نظرها فى مستقبل الثقافة فى بلادنا .

الرجال المدافعون عن حرية « عرى » المرأة أمام عين الفنان لا يريدون سماع رأى المرأة فى الثقافة والفن ، لأن المرأة فى نظرهم ليست إلا « موديلاً » يتعرى من أجل حملة الرجل .

المرأة ليست الجسد والروح والعقل فى كيان إنسانى واحد قادر على الجلوس فوق المنصة مع الرجل والكلام فى الثقافة أو الفن أو السياسة أو غيرها .

(*) القاهرة ١٩٩٠ .

المرأة عندهم موديل صامت ساكن تماماً بشرط أن يكون عارياً أيضاً . الصمت والعري والسكون الكامل هي الموديل المثالي أمام محمود سعيد .

هنا حرية المرأة (في ألا تكون عارية) مفقودة ، حريتها أيضاً في ألا تكون متوارية في الأيقونة القبطية أو مختزلة في الفن الإسلامي إلى خطوط تجريدية على الألوان والنقوش أو مجرد جسد يغطيه الحجاب .

أنا لم أجد نفسي ولا أمي ولا جدتي في لوحات محمود سعيد ، لم أجد بنات البلد الشغالات في البيوت والحقول والمصانع والمدارس والمستشفيات .

وجدت نساء عاريات مثل جوارى هارون الرشيد جالسات في وضع ساكن صامت أمام المصور .

أنا بالطبع لست ضد العري في الرسم والفن والعلم والطب ، لست ضد العري إذا كان العري من أجل مزيد من الكشف والصدق والحرية والعدل ، ولكن في هذه الحالة لماذا لا يحدث العري إلا للنساء الشابات . لماذا لا يحدث العري للرجال والأطفال والعجائز ؟

يقولون أن جسد الرجل ليس جميلاً أو عري الرجل لا علاقة له بالحرية وليس محرضاً لتفجير المشاعر ، لأن المشاعر التي ستفجر هنا هي مشاعر المرأة ، والمفروض ألا نفجر بالفن إلا مشاعر الرجال .

كما أن الجميل والقبيح لا علاقة له بجنس الجسد ، وهناك شعوب وجدت في جسد الرجل العاري فناً جميلاً رقيقاً كما وجدت في جسد المرأة العاري فناً جميلاً رقيقاً ، يأتي رقي الفن من النظرة العادلة لجسد المرأة والرجل ، فالجمال هو العدل والفضيلة هي العدل .

ولماذا هذه النظرة غير المحترمة لهؤلاء العاريات ؟ يستمتع الرجل بالعري لإشغال مشاعره ثم يلفظه كما يلفظ امرأة الهوى بعد زوال الشهوة .

يقولون عن محمود سعيد أنه فنان جسي يصور الأجسام النحاسية وأشعة الحرارة التي تتبعث منها كأنها شمساً داخلية تضيئها ، هذا جميل ، إنه يشرك الحواس في

الاختراق بصور العين والوجدان لسطح اللوحة والنفاذ إلى الحقائق الباطنة ، هذا جميل ، نحن نتحدث هنا عن حرية الفن في إثارة الحواس ، والارتفاع بالجسد العارى إلى قمة الفضيلة ، إنها محاولة لإعادة الروح إلى الجسد ، إلى تجاوز الواقع المحدود ، إلى الارتفاع على فتات الأيام لتعيش امتدادات بعيدة .

والسؤال هو : ألا يمكن للمرأة الموديل العارية أن تحلم وتتجاوز واقعها المحدود وهى مرتدية ملابسها ؟ وهل العرى الجسدى للمرأة هو شرط ارتفاع الرجل عن واقعه المحدود ؟ ألا يمكن للمرأة غير العارية أن تشغل خيال الرجل وتفجر مشاعره ؟ إن الرجل غير العارى يمكنه تفجير مشاعر المرأة ، ما علاقة الملابس بتفجير المشاعر ؟ نحن هنا أمام مشكلة تاريخية منذ نشوء العبودية وانفصال الجسد عن الروح فيما يخص المرأة (الروح تشمل العقل أيضاً) والرجل أيضاً . حين يلتحم جسد المرأة بروحها تصبح الملابس ثانوية لا علاقة لها بالحرية الفنية أو الجسدية . فالمرأة الفنانة الإنسانية لا تفرض على الرجل العرى الجسدى بل ترسمه وهو بطل يحارب وهو يزرع وهو يتكلم وهو يتعري أيضاً إذا كان العرى مطلوباً .

يقولون : الثلاثينات كانت أخصب فترات حياة محمود سعيد . أخذ في هذه الفترة يتعقب التفاصيل المثيرة في جسد الأنثى العارى ، وينقل إلينا نبض الجسد الأنثوى الفائر بالرغبة . أى رغبة ؟ ورغبة من ؟

هل كان العرى رغبة الموديل أم رغبة الفنان ؟ هل سمعنا الموديل تتحدث عن رغبتها أم جلست صامتة ساكنة تماماً . يقولون أراد محمود سعيد أن يهرب من النساء الأرستقراطيات الباردات المزيفات إلى بنات البلد الساخنات الصادقات في مشاعرهن ، فهل هذا صحيح ؟ هل لوحات محمود سعيد تعبر عن بنت البلد ؟ أى بنت بلد هذه التى تكشف عن نهديها وفخذيها تحت الملاية اللفة ؟ أهى من جوارى هارون الرشيد ؟ وهل هؤلاء الجوارى والغوانى هن بنات البلد اللائى يهرب إليهن محمود سعيد ؟

هذه أيضاً مشكلة ناتجة عن هروب الفن الأرستقراطى من الزوجة الباردة المحترمة إلى نساء فقيرات ساخنات غير محترمات . هذا الانقسام مفروض على النساء . فلا يمكن للمرأة أن تكون ساخنة ومحترمة . وهنا السؤال : لماذا لم يرسم

هذا هو الفن الذكوري الطبقي ، جزء من الثقافة الطبقية الأبوية السائدة ، تجعل الرجل هو الفنان الخلاق . يرسم . يبدع . يفكر ، المرأة هي المخلوقة الجسد العارى الموضوع بلا ذات .

إنها أزمة الثقافة تقوم على هذه الازدواجية . تقوم على رؤية الرجل ، لكن رؤية المرأة غائبة ، فالرجل يرى المرأة يحملق فى جسدها العارى ، المرأة لا تحملق فى جسد الرجل وإن كان مرتدياً ملابسه كاملة .

إن تعرية جسد المرأة فناً واجتماعياً لا يشكل تحدياً حقيقياً للتخلف الثقافى . بل هو أحد أسباب التخلف الثقافى والفنى ، لأن الفلسفة وراءه متخلفة ، فلسفة طبقية أبوية ، يسود فيها فكر الطبقة الأعلى والجنس الأعلى من الذكور .

ما يحدث فى الثقافة والفن اليوم هو هذه الرؤية الذكورية الأحادية للأشياء ، المتجسده فى تعرية جسد المرأة (عند التيار الحدائى) أو تغطية جسد المرأة (عند التيار الأصولى الدينى) كلاهما يقتل روح المرأة وعقلها من أجل التركيز على جسدها عارياً أو محجباً .

كلاهما ضار بالثقافة والفن ، كلاهما فى حاجة إلى تعرية حتى نعرف عورات الثقافة السائدة وكيف نعالجها .

أول خطوات العلاج هو تقديم رؤى نقدية جديدة قادرة على إدراك هذه التناقضات وكشف السلبيات فى تيار الحدائى والتيار الدينى الأصولى ، وكشف التشابه بينهما رغم الاختلاف .

إلا أن هذه الرؤى المغايرة قليلة نادرة أو غير موجودة ، فالمرأة فى بلادنا التى نالت قدراً من التعليم قد تبنت فلسفة الرجل ورؤيته للفن ، لم تعد قادرة أن تقدم فلسفة جديدة ، وبالتالي فناً جديداً إلا فى حالات نادرة .



الفن فى مواجهة السياسة(*)

مئات الوجوه العربية والإنجليزية تملأ القاعة الكبيرة فى جامعة لندن « كلية الدراسات الشرقية والأفريقية » . رجال ونساء من فلسطين « ومن بلاد عربية أخرى » هربوا بأرواحهم وأطفالهم تاركين الأب العجوز أو الأم . كبر الأطفال وأنجبوا وأصبح الشباب كهولاً . فى قلوبهم حنين موجد ودموع لم تسقط . بحة فى الصدر كالصوت المشروخ لا تخرج . صيونهم مرفوعة تحدى . فوق خشبة المسرح تجسدت المأساة . والحنن الفلسطينى القديم يغنيه محمد البكرى . يملأ الجو بعبق التاريخ . أغنية شعبية كان الأطفال فى حيفا يغنونها قبل عام ٤٨ حين كان المؤلف طفلاً .

لازالوا يحفظون الأغنية عن ظهر قلب . تدوى القاعة بصوت غنائهم مع اللحن الراقص . ثم يدب الصمت فجأة . يكتشفون أنهم فى لندن وليسوا فى حيفا ، وأنهم كهول وليسوا أطفالاً . يدب الصمت داخل الصمت لا أسمع فيه إلا الأنفاس . وخفقة قلب تعانق الصمت كأنه الأم أو الأب الغائب فى الوطن والبيت القديم وذكريات الطفولة ورائحة الهواء ، والاسم المحفور على جذع الشجرة .

ويبدأ محمد بكرى الحكاية . سعيد ابن النحاس المتشائل . يتشاءم ويتفاءل وينهزم وينتصر ويحب ويتزوج ويلد ويضعف ويفرح ويحزن . لكنه أبداً لا يترك مكانه ، وأبداً لا يكف عن الضحك حتى على نفسه فى قمة أزمته .

أجمل ما فى الفن أنه يضحكنا على أنفسنا قبل أن يضحكنا على الآخرين . وإذا ضحك الإنسان على نفسه فارقه الخوف من نفسه واكتسب قوة جديدة فى مواجهة أعدائه . كنت أجلس ومن حولى يرن الضحك بصوت فيه شجاعة جديدة وإعجاب بالإنسان حتى فى لحظة سقوطه .

(*) جريدة الأهرام ص ١١ - ٩/٢٤ / ١٩٨٧ .

والى جوارى المؤلف جالساً يضحك هو الآخر كأنما يسمع كلاماً جديداً كتبه غيره . وجهه العريض الأسمر مرفوع ، وعيناه الكبيرتان متسعتان ، وفى اتساعهما دهشة المؤلف بعمله . وتلتقى عيون الممثل بعيون المؤلف لحظة ارتفاع الأكف ، مئات الأكف تصفق . والفرح فى العيون يلمع . انتصار الفن على أكاذيب السياسة .

جاءت الدعوة من النادى العربى فى لندن لأشهد المسرحية (١٩٨٧/٩/١٠) عن رواية « المتشائل » للمؤلف الفلسطينى « إميل حبيبي » . مشهد واحد لا يتغير وممثل واحد .. محمد بكرى . الشاب الفلسطينى لعب الدور فى فيلم كوستا جافرا « هناك » . محمد بكرى الممثل المسرحى يتفوق كثيراً على « محمد بكرى » الممثل السينمائى .

ساعتان نحدق فيه وهو يتحرك فوق خشبة مسرح خالية إلا من سرير كالكنبة ومقشة رز لها يد خشبية طويلة ، تحولت هذه الأشياء إلى كائنات حية تتبادل معه الأدوار . يد المقشة أصبحت زوجته الحبيبة تشاركه السرير .

لم يكن محمد بكرى يمثل ، كان يعيش أمامنا الأزمة وراء الأزمة . عاشها الإنسان الفلسطينى البسيط . لم يهرب وظل فى الوطن موجوداً وحياً جيلاً بعد جيل لا يستطيع الاحتلال إزالته من الوجود .

إننا نعرف الكثير عن الفلسطينيين خارج فلسطين . لكننا لا نكاد نعرف شيئاً عن الفلسطينيين داخل فلسطين المحتلة . وخاصة هذا الإنسان الفقير الذى اضطرت له الظروف أن يعمل تحت حكم الاحتلال وأن يحمل بطاقة هوية عليها أختام العدو .

كيف استطاع هذا الإنسان الريفى البسيط الاحتفاظ بهويته الفلسطينية العربية مع احتفاظه فى جيبه بهوية العدو ؟

كيف استطاع أن يلد أطفالاً ثواراً لا يعرفون اليأس وهو سعيد ابن النحس ؟ « وأضحكنا التناقض حتى انقلب اليأس أملاً والضعف قوة والحزن فرحاً .

وفى نهاية المسرحية عانقت الممثل والمؤلف معاً . ومئات الأذرع تمتد لتعانقهما معى . الممثل شاب طويل نحيل كالشجرة المعتدلة الفتية . والمؤلف كهل مربع عريض كالمبنى القديم المتين .

وقلت « لأميل حبيبى » هذا عمل فنى يوقظ الحمية ويذكر بالقضية : فلماذا لا تعرضونه فى مصر ؟ قال نحن نأتى إذا تلقينا الدعوة ، لكن هناك مشكلة ، فأنا أحمل جواز سفر إسرائيلياً .

قلت : لكنك فلسطينى عربى ، والعبرة ليست ماذا تحمل فى جيبك من بطاقة هوية ولكن العبرة ماذا تفعل من أجل وطنك . إن الفلسطينى الذى ظل فوق أرضه رغم الاحتلال وظل يقاوم من الداخل أقوى من الفلسطينى الذى فر إلى الخارج . لو أن جميع الفلسطينيين بقوا فى ديارهم وأرضهم لما كان هناك احتلال .

لماذا لا ندعو إميل حبيبى ومحمد بكري ومسرحية المتشائل إلى مصر . لقد آن الأوان لأن يلعب الفن الصادق دوره السياسى بشجاعة .



المرأة والنقد الأدبي(*)

تعانى المرأة الكاتبة أو الأدبية من تجاهل بعض النقاد لأعمالها . هذه ظاهرة ليس خاصة بالمرأة العربية في بلادنا فحسب ولكنها ظاهرة عالمية ، تبدو واضحة في بعض المجتمعات أكثر من غيرها .. حسب وضع المرأة في المجتمع والأسرة ، والقيم الاجتماعية والأخلاقية السائدة .

لا يمكن أن ننكر أن نظرة المجتمع لدور المرأة في الحياة تختلف عن نظرتهم لدور الرجل . ففي أكثر المجتمعات الصناعية تطوراً لازال دور المرأة الأساسي في الحياة هو دور الزوجة والأم . أى الدور داخل البيت لرعاية الأطفال والحفاظ على الأسرة ، هو دور الخدمة وتلبية حاجات أفراد الأسرة من مأكـل وملبس ونظافة إلى غير ذلك . وقد يشجع المجتمع المرأة على العمل خارج البيت إذا احتاج إليها ، فى الحقل أو المصنع أو المستشفى أو المدرسة أو الحرب ثم يعيدها إلى البيت حين يستغنى عن عملها فى الخارج .

وعلى هذا فإن النظرة العامة إلى المرأة أنها أداة للخدمة داخل أو خارج البيت أكثر منها إنسانة لها عقل خلاق يفكر ويبعد فكراً أو أدباً أو فلسفة .

وإذا حدث أن مارست المرأة هذا الإبداع وفرضته على المجتمع على شكل قصة أو رواية أو مسرح أو شعر فإن أعمالها قد تهمل من ناحية النقاد ، أو ينظر إليها باستخفاف ، أو تنقد بشدة وقسوة إذا ما تجرأت ومست فى إبداعها الأدبى أحد أو بعض المحظورات الأساسية التى تتعلق بالسياسة أو الدين أو الجنس .

وهل يمكن لأى إنسان خلاق أن يكتب شيئاً ذا قيمة دون أن يمس تلك النواحي الهامة فى حياتنا العامة والخاصة ؟ يتمتع الرجل بصفة عامة بحقوق وحرىات فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية أكثر من المرأة ، وبالتالي يمكن للكاتب الأديب

(*) هنا لندن - يونيو ١٩٨٧ العدد ٤٦٤ .

أن يحظى بإعجاب النقاد على عمل أدبي جديد ، ويوصف هذا الأديب بأنه شجاع أو لديه شجاعة أدبية . أما الكاتبة الأدبية فيمكن أن توصف بالجرأة بدل الشجاعة ، وأحياناً بالبجاجة أو عدم الحياء . فالمفروض أن حياء المرأة لابد أن يكون أكثر من حياء الرجل . ومن الصفات السلبية للمرأة أن يقال عنها أن عينيها مفتوحتان وهى صفة إيجابية للرجل ، ومن الصفات السلبية للرجل أن يكون مغمض العينين . أما صفة القطة المغمضة فهى صفة إيجابية فى المرأة .

كيف إذن تغمض الأدبية الخلاقة عينيها عن التناقضات فى الحياة والصراعات العامة والخاصة داخل بيتها وخارجها ؟ وما هو الأدب ؟ أو ما هى القدرة على الإبداع الأدبي ؟ أليست هى تلك القدرة على رؤية التناقضات وكشف المحظورات والصراعات وتغيير القديم إلى جديد أفضل .

ألا تحتاج هذه القدرة إلى عين مفتوحة وعقل متفتح يعمل بنشاط ولا يخشى التفكير حتى فى المقدسات ؟

مشكلة المرأة أن دورها المفروض عليها يجعلها تهتم بجسمها أكثر من عقلها ، فالنظرة السائدة عنها أنها جسد يمتلكه الرجل ، جسد يغطى حسب بعض القيم الدينية السائدة فى بلادنا العربية ، أو جسد يعرى ليلبى احتياجات الاستهلاك وتغير موضوعة الأزياء وإنتاج المصانع الرأسمالية من مساحيق زينة وتجميل ، وسواء تغطت أو تعرت فالمعنى واحد هو أنها جسد فقط .

وقد تنتج المرأة عملاً أدبياً بارزاً بالفعل ، يؤثر فى قلوب وعقول الناس العاديين من القراء لكن النقاد لا يحكمون على الإنتاج الأدبي بدرجة تأثيره فى الناس ، بل يطبقون عليه مقاييس شبه أكاديمية أو مهنية عقيمة . إنهم لا ينظرون إلى العمل الأدبي الخلاق ككائن حى ينظر إليه ككل وينال الإعجاب والتقييم ككائن مستقل له صفاته الخاصة وميزاته وجماله ، لكنهم ينشغلون بتطبيق نظرياتهم فى النقد عليه ويحاولون تصنيفه حسب المدارس التى درسوها ، ويصبحون بذلك كمن يقتل الطفل الحى من أجل تشريح جسده ، وبالطبع يفقد جماله الخاص به وحياته وحيويته .

إن قليلاً من النقد من يتعامل مع النقد على أنه عملية خلاقية مبدعة وليس مجرد تطبيق مقاييس معينة على العمل الأدبي . وإن معظم النقد رجال لم يتفقوا بعد ولم يتعرفوا بعد على القدرة الخلاقية عند المرأة الأدبية . ليس لأنها امرأة وإنما لأن تجربتها تختلف عن تجربة الرجل ، وتاريخها أيضاً يختلف ، وبالتالي فإن تعبيرها الأدبي يختلف . هذا الاختلاف لا يرجع إلى الفكرة التقليدية السائدة بأن المرأة تحس والرجل يفكر أو أن إنتاج المرأة الأدبي يعتمد أساساً على عواطفها وأحاسيسها أكثر من عقلها . وأن المرأة ذاتية والرجل موضوعي .

لكن الاختلاف يرجع إلى اختلاف الأدوار في الحياة واختلاف بنية النساء عن الرجال . واختلاف الاهتمامات ، وكلها ترجع إلى ظروف اجتماعية وسياسية وتاريخية وليس لأسباب بيولوجية أو طبيعية .

والحل الأساسي لمشكلة إهمال النقد لإنتاج الأدبيات من النساء هو أن تبدأ المرأة الخلاقية في خوض مجال النقد الأدبي ليصبح لدينا الناقداة القادرات على فهم الإنتاج الأدبي للنساء وإعطائه حقه من التقييم والنقد .



الضرورة الحيوية(*)

هذا السؤال يطرحه الكاتب على نفسه أو الكاتبة ، منذ اللحظة التي يمسك فيها بالقلم ويكتب ، لأن عملية الكتابة فى رأى عملية غير إرادية : الكتابة هى التى فرضت نفسها على . إنها عندى مثل التنفس ، بمعنى أنها شئ طبيعى ، إذا لم تحدث يشعر الكاتب أو الكاتبة بنوع من الاختناق النفسى - أعنى الكتابة التى تكون جزءاً حقيقياً من الكاتب ومن حياته ، لا تنفصل عنه ، فلا يكتب من أجل الثراء أو الشهرة أو الانتماء لمهنة الكتابة ، أو لأى سبب آخر لا يتصل بالضرورة الحيوية للكاتب نفسه أو الكاتبة نفسها .

هذه هى النقطة الأولى ...

النقطة الثانية ، حينما تكون الكتابة بهذا الشكل ، فهى تعبر بالضرورة عن رغبة الكاتبة أو الكاتب فى تغيير المجتمع إلى الأفضل ، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وتربوياً وأخلاقياً ، وتصبح الكتابة مثل العمل الفدائى ، ويصبح القلم كالسيف الذى يحارب به الإنسان ، وقد تدفعه الكتابة إلى السجن أو الموت أو أشكال القهر المختلفة .

والكاتب دائماً بحكم فنه وصدقته ووعيه ، وارتباطه الحميم بآمال وآلام مجتمعه ، مرتبط بالجديد والتقدم ، ولا مهرب له من التصدى لقضايا الوطنية الكبرى ، مثل الحرية وعدم المساواة ، لأن كل هذه الأمور تؤرق الكاتب والكاتبة ، وتعد تحدياً للقوى المتخلفة التى تحافظ على القديم .

لهذا أكتب .

وبصفتى كاتبة وامرأة ، فإن المشاكل والتحديات التى أواجهها تتضاعف ، لأن ما يقبله المجتمع ويحتمله من الكاتب يرفضه هو نفسه من الكاتبة ، لأنه ينظر إليها

(*) المساء ١٧/١٢/١٩٧٦ .

كامرأة ، وعليها أن تلتزم بحدود القيم الأخلاقية المفروضة على المرأة ، والتي لا تبيح لها تناول أمور مباحة للرجال ، مثل الثالوث المحرم : السياسية ، والدين والجنس .

إذا تكلمت المرأة في الدين فكلامها يثير حساسية أكثر من كلام الرجل في الدين، وكذلك تعرضها لموضوع الجنس يجعل المجتمع أكثر حساسية في تلقي ما تكتب ، وما يسرى على الدين والجنس يسرى أيضاً على السياسة . وحتى تسقط هذه التفرقة من جذورها أمسك القلم وأكتب .

• • •

المسألة

٢٣ مقالة

عن قضية تحرير المرأة المصرية^(*)

يتصور بعض الرجال فى بلادنا أن قضية تحرير المرأة المصرية قد بدأت وانتهت بكتاب قاسم أمين ، وهم بهذا يتجاهلون جهود النساء المصريات لتحرير أنفسهن فى القرون السابقة من نشوء العبودية (أو النظام الطبقي الأبوى) وحتى يومنا هذا . إن إعادة قراءة التاريخ توضح كيف لعبت المرأة المصرية القديمة دوراً فى الثورات الشعبية والنسائية ضد بطش الفراعنة والسلطة المطلقة للحاكم فى الدولة والعائلة . وقد حرق المصريون والمصريات القصر الملكى ذاته (عام ٢٤٢٠ قبل الميلاد) ، ونادوا بتكافؤ الفرص بين الأغنياء والفقراء وبين النساء والرجال ، إلا أن المؤرخين الرجال المتحيزين للسلطة الحاكمة قد تجاهلوا جهود النساء فى هذه الثورة التى عرفت باسم ثورة « منف » .

وقد أجهضت هذه الثورة بعد فترة ، وعاد الحكم الفرعونى بسطوته مرة أخرى ، ثم قامت الثورة الشعبية الثانية يقودها النساء والرجال (عام ١٢٦٠ قبل الميلاد) ، وجاءت الأسرة العاشرة (ونظام الرودو) الذى أعاد للمرأة المصرية حقوقها المسلوبة ، وتم القضاء على نظام التسرى ، وتساوت المرأة فى الحقوق العامة والخاصة مع الرجل ، إلا أن هذه الثورة فشلت وعاد نظام الإقطاع والبطش الفرعونى (عام ١٠٩٤ قبل الميلاد) ينزع من النساء والفلاحين حقوقهم ، وأصبح للرجال فقط حق الطلاق والنسب والكهنوتية . ثم ثار الشعب المصرى نساء ورجالاً مرة ثالثة (عام ٦٦٣ قبل الميلاد) واسترد الفقراء والنساء بعض حقوقهم المسلوبة .

لقد تم تجاهل دور النساء فى مصر القديمة بمثل ما تم تجاهل دورهن فى مصر الحديثة ، لأن معظم الذين يكتبون التاريخ رجال يتطلعون إلى السلطة ويحتقرون الشرائع الفقيرة والضعيفة فى المجتمع ومنهم النساء .

لهذا لا أدهش كثيراً حين يكتب بعض الرجال فى بلادنا قائلين أن قضية تحرير المرأة المصرية بدأت وانتهت بكتاب قاسم أمين ، وأنا فى حاجة إلى كتاب جديد

(*) الأهرام ١٩٩٩/٥/٢٢ .

يتناول قضية المرأة لندخل القرن الجديد والألفية الجديدة ، إنهم بذلك يتجاهلون تسعين عاماً من جهود المرأة المصرية خلال القرن العشرين ، وجهودها فى القرون السابقة على ظهور قاسم أمين .

لن أتعرض لكتابات النساء التحريرية خلال العقود الماضية ، فهى معروفة ومقروءة على نطاق واسع فى مصر والعالم العربى من مثيلات هدى شعراوى وسيزا نبراوى ودريه شفيق ، لكنى سأذكر بعض الكتابات اللاتى شاركن فى النضال لتحرير المرأة المصرية منذ بداية هذا القرن ، ومن هؤلاء النساء الكاتبة عائشة التيمورية ، وجاءت بعدها زينب فواز ، أما ملك حفنى ناصف التى اشتهرت باسم باحثة البادية (١٨٨٦ - ١٩١٨) فقد شاركت بقلمها القوى فى الكتابة لتحرير المرأة ، وكانت معاصرة لقاسم أمين ، وأصبحت آراؤها تكملة لدور رفاعة الطهطاوى ، لكنها كانت أكثر تقدماً من الطهطاوى وقاسم أمين ، لأنها اعتبرت دعوة الطهطاوى إصلاحاً فحسب ، أما قاسم أمين فقد اعتبر أفكار الطهطاوى تحريراً .

فلماذا اشتهر قاسم أمين فى التاريخ على حين توارت ملك حفنى ناصف وغيرها من الكاتبات الأكثر تقدماً من قاسم أمين ؟ لماذا يتم (حتى يومنا هذا) تجاهل الكتابات النسائية التحريرية التى لعبت دوراً فى تقدم المرأة المصرية أكثر من أى كتابات أخرى ؟ هناك عوامل متعددة تلعب دوراً فى تفسير هذه الظاهرة :

١ - أصبحت قضية تحرير المرأة من القضايا الاجتماعية والسياسية المهمة محلياً ودولياً ، لم تعد شائكة أو محرمة كما كانت بالنسبة لهؤلاء النساء اللاتى دفعن ثمناً غالياً من أجل قضية المرأة ، بل ربما تكون من القضايا ذات البريق (الأدبى أو المادى) فلماذا لا يركب هذه الموجة الصاعدة بعض الرجال الذين تعودوا ركوب الموجات الصاعدة .

٢ - من السهل جداً طرد المرأة من أى مجال وإن كان المجال الذى يخصها قبل غيرها حيث أن الرجل لا يزال هو الأقوى سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ويمكنه أن يستولى على قضية المرأة أيضاً ضمن ما يستولى عليه من أشياء أخرى .

٣ - من السهل الاعتراف بقيادة الرجل للمرأة حتى في المجالات التي تخصها ، لذلك يريدون أن يظل قاسم أمين قائداً لحركة تحرير المرأة حتى يأتي رجل آخر ليحل محله ، ويتوارث التركة رجل وراء رجل .

٤ - يسهل على بعض الرجال منافسة المرأة فيما يخص قضيتها عن أن ينافسوا زملاءهم الذكور في القضايا السياسية الأكثر أهمية (في نظرهم) .

٥ - تجميد الحركة النسائية أو الفكر النسائي عند قاسم أمين ليس فقط تجاهلاً لجهود النساء في هذا المجال بل محاولة لإيقاف مسيرة الحركة النسائية وفكرها المتقدم .

٦ - يحاول هؤلاء الرجال أن يكونوا هم المتحدثين باسم المرأة (كالزوج الذي يتحدث نيابة عن زوجته) ، إنهم يتصورون أنهم أقدر منها في التعبير عن نفسها .

٧ - لا يريد هؤلاء الرجال التنازل عن مكانتهم في المجتمع أو على الأقل بالنسبة للنساء . إن تصدى النساء لقضية تحرير المرأة يهدد مصالحهم ومكانتهم ، لأن معنى ذلك أنها ستأخذ المبادرة في جوانب كثيرة من الحياة .

٨ - من الناحية العملية أن تحرير النساء لن يتحقق أساساً إلا بجهود النساء أنفسهن ، وإن ساعدهن بعض الرجال ، فإن وجود النساء ضروري كقوى أساسية فكرية وسياسية واجتماعية .

من المعروف أن أي فئة مقهورة في المجتمع لن يمكنها التحرر إلا بجهودها .

إن المقياس الأول لمدى تقدم أو تخلف مسيرة المرأة المصرية هو مدى مشاركة النساء المصريات في هذه المسيرة لتحرير أنفسهن ، ومدى إدراكهن لأهمية هذه المشاركة ، يزداد هذا الإدراك بازدياد خروج النساء للتعليم والعمل بأجر ، والمشاركة في المهن المختلفة ، والنشاط السياسي والاقتصادي والثقافي ، وتحمل المسئوليات في المستويات المختلفة ، وممارسة اتخاذ القرارات في الدولة والعائلة ، والمشاركة في الفكر والأدب والكتابة والإعلام والبحوث العلمية والاجتماعية ... إلخ .

هناك جوانب عديدة ومؤشرات متنوعة لمدى تقدم أو تخلف مسيرة المرأة التحريرية ، وليس فقط التمثيل النيابي ، لا شك أن عدد النساء في البرلمان أو المجالس النيابية أحد المؤشرات ، إلا أنه قد يكون مضللاً في كثير من الأحيان ، إذ قد تدخل البرلمان نساء لا علاقة لهن بقضية تحرير المرأة ، بل قد يعملن ضدها ، كما هو يحدث في كثير من برلمانات العالم ، بل قد تصبح المرأة رئيسة لحزب سياسى أو رئيسة الوزراء وتصدر قرارات ضد مصالح النساء ، كما حدث مع مارجريت تاتشر في إنجلترا ، إذ فقدت النساء في عهدها الكثير من حقوقهن المكتسبة عبر السنين .

وكم صمتت عضوات البرلمان في بلادنا عند مناقشة القوانين التى تهم المرأة . على حين ارتفعت أصوات النساء خارج البرلمان فى الجمعيات النسائية الأهلية أو الشعبية أو المنظمات غير الحكومية .

ولا تزال قضية تحرير المرأة فى حاجة إلى مزيد من الفهم ، ولا تزال الحركة النسائية المصرية فى حاجة إلى الكشف عن جوانبها المتعددة فى الماضى والحاضر على السواء .



فلسفة المرأة في القرن القادم(*)

ربما يندهش بعض الناس حين نربط بين الفلسفة والمرأة ، لوربطنا بين المطبخ والمرأة ، أو طبق اليوم والمرأة ، كان ذلك في نظرهم طبيعياً يتمشى مع الطبيعة الأنثوية ، أو الفطرة ، يقولون « الفطرة » هي القانون الإلهي أو القانون الطبيعي أو « البيولوجي » .

إلا أن التاريخ البشري يثبت لنا أن الذي بدأ الفلسفة في الحضارات القديمة هي المرأة أو النساء ، سواء في مصر القديمة أو اليونان أو العراق أو فلسطين أو الهند أو الصين ، أو أية بقعة في العالم القديم في أفريقيا أو آسيا أو أوروبا .

كشفت علم الأنثروبولوجي (علم الإنسان) في السنين الأخيرة عن حقائق تؤكد أن الفكر والفلسفة واللغة والدين والعلم كلها من اكتشاف النساء القديمات ، ليس لأن عقل المرأة أذكى ، أو الجنس الأنثوي أرقى (كما تحاول بعض النساء إثبات ذلك) ولكن لأن الرجل البدائي انشغل بالصيد وقتل الحيوانات في الصحراء أو الغابات ، على حين تفرغت النساء لاكتشاف الزراعة ومواد الطعام المطلوبة للحياة اليومية وأدوات الطهي - أي تكنولوجيا الحياة والصحة والنمو .

أما الرجال فقد انشغلوا بتكنولوجيا القتل والتدمير .

لم تدخل الهرمونات أو قانون البيولوجيا في هذا التقسيم للعمل بين الذكور والإناث ، كما تصور بعض العلماء والفلاسفة الذين نشأوا في عصور العبودية .

كانت النساء المصريات القديمات هن أمهات الحضارة المصرية الزراعية في وادي النيل ، واشتهرت منهن أسماء كثيرة معروفة في تاريخنا رمز إليهن : بإلهة السماء نوت وإلهة الحكمة إيزيس ، وإله العدل معات ، وإله الطب سخمت .

وفي اليونان القديم كانت امرأة اسمها « صوفيا » هي أم الفلسفة ، لذلك سمي علم الفلسفة « فيلوصوفى » وتعنى « محب صوفى » أي أن الفيلسوف هو « محب صوفى » الأم الكبرى للفلسفة اليونانية .

(*) روزاليوسف ١٩٩٩/٢/١ - (٣٦٨٦) (٦٥) .

لماذا إذن يندهش بعض الناس حين نربط بين الفلسفة والمرأة فى القرن القادم ؟
لقد اعتبر القرن التاسع عشر « قرن الاستعمار » أما القرن العشرون فقد اعتبر « قرن
مقاومة الاستعمار » ، أو قرن حركات التحرير الشعبية ومنها الحركة النسائية التى
شاركت فى ضرب القوى الاستعمارية فى عدد كبير من بلاد العالم بما فيها بلادنا
العربية ، فى مصر والجزائر والعراق وسوريا ولبنان والسودان واليمن وتونس وليبيا
والمغرب والصومال وغيرها .

بعض الناس يتصورون أن فكرة « تحرير المرأة » فكرة غربية ، نشأت فى الغرب
وجاءت إلينا بحكم التقليد أو الغزو الحضارى .. فى حين أن فكرة « تحرير المرأة »
بدأت فى مصر القديمة حين شاركت النساء مع العبيد فى المقاومة ضد الطغيان
الفرعونى أو الاحتلال الأجنبى .

لم تكن المرأة المصرية حبيسة الحجاب أو الجدران الأربعة للبيت أو المطبخ ، بل
كان بين النساء مفكرات وفيلسوفات وعالمات فى الطب والفلك والهندسة والقانون
والاجتماع والسياسة والاقتصاد والحرب والسلام .

لقد سبقت المرأة المصرية القديمة فى تحرير نفسها أخواتها فى اليونان وبلاد
أخرى ، إلا أن التاريخ العبودى قد تجاهل حركة المرأة ونشاطها بمثل ما تجاهل التاريخ
الاستعمارى الحديث حركة الشعوب ونشاطها .

أصبح التاريخ مقصوراً على حركة الأباطرة والملوك والرجال من الطبقات
الحاكمة واختفت حركة الملايين من النساء والرجال والشباب فى جميع بلاد العالم .

حتى اليوم نحن نعيش هذا الفكر التاريخى والإعلامى الذى يفرد المساحات فى
الصحف والشاشة لسرد الحكايات التافهة عن الملوك والأمراء والأميرات ، لقد احتلت
أخبار الأميرة ديانا أو مونىكا « عشيقة كلينتون » مساحات إعلامية ضخمة طغت على
قتل الآلاف من الشعوب المقهورة دولياً بالاستعمار الجديد والحكومات المحلية
الباطشة .

إن علاقة جنسية واحدة لإحدى الأميرات أو أحد الحكام تنال من الاهتمام
الإعلامى والتاريخى أضعاف ما يناله تدمير شعب بأكمله بالقنابل الحديثة .. « ليزر »
أو « نووية » أو « صواريخ توما هوك » أو « كروز » .

لقد تعودنا على استهلاك هذا الإعلام والتاريخ المزيف فلم نعد نعرف القضايا الجوهرية من القضايا التافهة .. لقد أدمنا هذا النوع من المعرفة الكاذبة ، أو الوعى الكاذب ، كما يدمن الشباب البانجو والهيروين .

أصبحنا نستهلك أخبار ديانا ومونيكا وكلينتون كما نستهلك الشويبس والكولا والكنت والمارلبورو وال تى شيرت مكتوباً عليها « أحب أمريكا » .

إلا أن كل ذلك لن يستمر فى القرن القادم مع تزايد الوعى بين النساء فى العالم ، والاستفادة من دروس الماضى خلال القرن العشرين ، وتقدم الفكر والفلسفة فيما يخص العلاقة بين النساء والرجال .

خلال السنين الأخيرة من هذا القرن العشرين شاركت أعداد متزايدة من النساء فى إقامة فلسفة جديدة أكثر إنسانية وعدلاً فى النظر إلى المرأة والمجتمع والسياسة والدين والعلم والطب وغيرها من فروع المعرفة .

مثلاً فى الطب استطاع الفكر النسائى العلمى الحديث أن يثبت خطأ كثير من الأفكار التى دخلت علم الطب كحقائق شبه مقدسة لا يمكن تغييرها .

هناك فكرة فى الطب تعلمناها ونحن طلبة وطالبات أن عملية الإخصاب تتم بسبب حركة « الحيوان المنوى الذكري نحو بويضة المرأة الساكنة » .

لقد سادت هذه الفكرة الخاطئة عن « سكون » بويضة المرأة أو سلبيتها فى علوم الطب والفلسفة والبيولوجيا وعلم النفس أيضاً . لقد ردد هذه الفكرة « أرسطو » فى نظريته الفلسفية وقال : إن بويضة المرأة « كائن ميت » أو « وعاء فارغ من الحياة » ، لا تدب فيها الحياة إلا بسبب « حركة » الحيوان المنوى الذكري (السبيرماتوزون) وأقام سيجموند فرويد نظريته النفسية على سلبية المرأة وإيجابية الرجل .

إلا أن البحوث العلمية الجديدة التى أجرتها النساء فى العالم (وبعض الرجال) قد كشفت عن أن بويضة المرأة ليست ساكنة وليست سلبية ، بل هى تتحرك نحو السبيرماتوزون ، وأن عملية الإخصاب لا يمكن أن تتم دون هذه الحركة للبويضة ، وهكذا تغيرت المفاهيم العلمية عن الإخصاب فى البشر ، وأصبحت عملية الإخصاب

تقوم على حركة البويضة والسبيرماتوزون معاً ، إنهما يتحركان تجاه بعضهما البعض ،
إنه لقاء واندماج معاً لتكوين الجنين الجديد .

لقد تغير علم البيولوجيا أو علم الطب بسبب تزايد قوة النساء الاجتماعية
والسياسية ومشاركتهن فى البحوث العلمية والطبية التى كانت مقصورة على الرجال
منذ نشوء النظام الذكورى الطبقي أو النظام العبودى .

كما تغيرت أيضاً النظرة إلى علم الفلسفة وإلى علم التاريخ واللغة والأدب والدين
والاقتصاد بسبب تزايد المشاركة النسائية وإضافة تجربتهن إلى تجارب الرجال
وعقولهن إلى عقول الرجال .

لقد تغيرت النظرة إلى المرأة من شئ ساكن سلبي مفعول به إلى إنسانة كاملة
الأهلية والحركة والنشاط والإيجابية ، وامتدت هذه الفكرة السياسية إلى صلب علم
الطب والبيولوجى ، كما تغيرت النظرة إلى الطبيعة من شئ ساكن سلبي يمكن
اغتيصابه واستغلاله وتشويهه إلى كائن عضوى حى يشمل النبات والحيوان والشجر
والهواء والأرض ، ومن هنا نشأت فكرة الحفاظ على البيئة والتعامل معها باحترام
وأيضاً التعامل مع المرأة باحترام .



عن شهرزاد ومي زيادة

امراة حرة وأصدقاء غير أوفياء(*)

كان أبى يحترم أمى احتراماً كبيراً ، يناديها أمام الناس بلقب زينب هانم ، يساعدوها فى إعداد مائدة الطعام ، يرتب ملابسه بنفسه ، ولا ينتظر منها أن تخدمه ، أو تسقيه وهو مضطجع فى السرير ، أو تسليه بالحكايات حتى ينام مثل الملك شهریار . كان شهریار مثار سخریتنا ونحن أطفال ، فهو أكثر منا طفولة لأننا ننام وحدنا دون الاعتماد على الحكايات . أما شهرزاد فلم تحظ أيضاً باحترامنا ، لأنها كانت بلا عمل ولا شىء يشغلها إلا تلهية زوجها بالحكايات مثل الجوارى والإماء .

وكان أخى الأكبر يحاول السيطرة على أخواتى الصغيرات ، أحياناً يضطجع فى السرير مثل الملك شهریار ويطلب من أختى أن تسقيه ، لكن أبى كان ينهره ويفرض عليه أن ينهض ويسقى نفسه .

هكذا أدركنا منذ الطفولة أن كرامة البنت لا تقل عن كرامة الولد ، وأن واجب الولد أن يخدم نفسه بمثل ما تخدم البنت نفسها .

لهذا السبب لم تكن شهرزاد مثلى الأعلى فى الحياة ، رغم كل ما قرأت عنها من مديح وثناء على أنوثتها ، وأمومتها ، وقدرتها بالمكر والحيلة ، على أن تحول شهریار من سفاك للدماء إلى إنسان متحضر . منذ طفولتى لم أحترم وسائل المكر والحيلة ، ربما سمعت أبى يذم الماكرين وأصحاب الدهاء والحيلة ، يقول عنهم : « المداهنون » ، « المخادعون » ، « المنافقون » ، « الماكرون والماكرات » ، ولم تكن أمى ذات مكر وحيلة ، بل كانت تواجه المشاكل بشجاعة ووضوح وبالمناطق دون حاجة إلى الالتواء أو المراوغة .

لقد قرأت الكثير عن شهرزاد ، وكيف روضت شهریار ، لكنى لم أقرأ عن شهریار ولماذا تمتع بهذه السلطة المطلقة لسفك الدماء أو لماذا حظى بهذه الحرية ليقتل كما

(*) روزاليوسف من ١٥ : ٢١/٥/١٩٩٩ - (٣٧٠) .

يشاء ، أو لماذا حظى بهذه الفوضى ليفعل ما يشاء ، فالفرق كبير بين الحرية والفوضى. إن الحرية مسئولية ترفع الملك أو الحاكم إلى مستوى الإنسانية فيحترم حقوق الآخرين ، لكن الفوضى تهبط به إلى درك الأنانية والجشع ، هذه الفوضى التي حظى بها شهريار هي الفوضى ذاتها التي يحظى بها الملوك والحكام في ظل النظام الدكتاتوري منذ نشوء العبودية وحتى يومنا هذا . فهل استطاعت شهرزاد أن تعالج زوجها من هذا الداء بتلك الحكايات المسلية ١٥

لم تغير شهرزاد شيئاً من سلطة زوجها المطلقة في الدولة والعائلة . لقد كف عن سفك دماء البنات البريئات إلا أنه لم يكف عن السلطة المطلقة ، لقد ظل السيد المطاع دون مناقشة ودون محاسبة ، وظلت زوجته شهرزاد أسيرة له ، تلعب دور الجارية والعشيقة والزوجة والمسلية تحكى له الحكايات كالطفل حتى ينام . كان شهريار رجلاً مريضاً بالسلطة المطلقة مدلاً كالطفل ، لم تعالجه زوجته من هذا المرض بل زادته تدليلاً وأنجبت له ثلاثة أبناء ذكور كأنما لتشبع ذكورته حتى الثمالة .

إن أبرز ما يميز شهرزاد هو الدافع الجنسي الذي يمنحها المكر والدهاء للسيطرة على الرجل ، وهنا يكمن الوهم بأنها علمت شهريار الإنسانية ، والحقيقة أنها علمت النساء المكر والدهاء وكيف يسيطرن على الرجال بالخداع والمراوغة ، وليس بالمواجهة والشجاعة والمنطق ، لم تغير شهرزاد شيئاً من قيم العبودية المتوارثة ، والتي تشكل العلاقة بين الرجل والمرأة ، أو بين السيد المطاع والعبد المطيع ، والتي تؤكد فكرة العبودية التي تقول أن الطبائع البشرية هي في كل زمان ومكان ، والمرأة هي هي المرأة ، التي هي محل الانفعال أو مكان العاطفة ، تتحلى بالطاعة وحب الحكاية والكلام والمحاورة والمراوغة والمكر والكيد ، والرجل هو هو الرجل ، هو العقل والزمان الفاعل ، فيه الصرامة والجد ، والعلم والحزم والميل إلى التفكير والفلسفة والدين والسياسة والحرب .

لاشك أن الأفكار في قصة شهرزاد قد خرجت من المنبع ذاته الذي خرج منه شهريار وهي العبودية ، حيث تكون المرأة واحدة من اثنين ، الملاك الطاهر ، الأم العذراء المضحية التي تلد الذكور، أو الشيطانة التي تمارس الجنس دون أن تلد أطفالاً.

لقد كان شهریار ضحية هذه المرأة الفاسدة ، لكن امرأة صالحة أخذت بيده وأرشدته كالأم إلى الطريق الصحيح . هنا أيضاً يتضح التناقض ، فالمرأة هي الفاعلة سواء في مجال الشر أو الخير والرجل هو المفعول به .

ولم يكن لشهرزاد دور في الحياة خارج بيتها ، لقد انحصر دورها داخل الأنوثة والأمومة داخل الأسرة التي يحكمها الزوج ، ولم يكن لها دور في الحياة الاجتماعية والسياسية العامة . لهذا السبب أصبحت شهرزاد نموذجاً للمرأة الصالحة المثالية حتى يومنا هذا ، لم يحكم عليها أحد بالمرض النفسي كما حدث لغيرها من النساء اللاتي لم يتزوجن ولم يلدن ، وحاولن المشاركة في الحياة ، سن مثيلات الكاتبة مي زيادة .

لقد ثبت أن مي زيادة لم تكن مريضة نفسياً ، لم تكن مريضة بعقلها ، بل العكس ، كانت تتمتع بموهبة عقلية نادرة ، إلا أنها لم تكن مثل شهرزاد ، لم تلعب مي زيادة الدور الأنثوي الأمومي لرجل واحد ، بل فتحت صالونها الأدبي لعدد من الرجال يزيد على العشرين ، ولا أدري لماذا لم تفتح مي زيادة صالونها للنساء أيضاً ؟ ألم يكن في عصرها نساء أديبات أو على الأقل هاويات للأدب ؟ كان هذا السؤال يدور في عقلي كلما قرأت عن صالون مي زيادة الأدبي . لقد ظل صالونها مسرحاً لعالم الرجال ، رجال عجائز متزوجون وغير متزوجين ، يتبارون في معركة غامضة أيهم يكون الفائز الأول أو الفائز الوحيد ، وكانت مي زيادة هي المرأة الوحيدة وسط الرجال ، لا تنافسها امرأة أخرى ، يفوح عطرها الأنثوي وشبابها الغض وسط بحر من الكهول الذكور ، تركوا زوجاتهم في البيوت وراء الحجاب ، وانطلقوا للسهر والسمير والفرفشة والترويح عن النفس من كآبة الشيخوخة وملل الحياة الزوجية .

كانت مي زيادة أديبة مبدعة وامرأة حرة عاشت بلا زوج وبلا أطفال ، كانت على قدر كبير من الشجاعة ، إلا أنها لعبت دوراً في صالونها الأدبي يشبه دور شهرزاد ، شهریار لم يكن واحد بل عشرين شهریار ، بحر من العيون والآذان الذكورية المتطلعة المتعطشة للحب ، رجال تجاوزوا الستين عاماً وعاشوا جذب العواطف داخل مؤسسة الزواج ، خرجوا من بيوتهم يبحثون عن الحب تحت وهم الأدب أو الشعر ، يستمعون إلى

مى زيادة وهى تتحدث بصوتها الأنثوى الناعم فيطربون كما كانوا يطربون لسماع أم كلثوم ، يخلعون الطرايش ويصفقون : الله الله !

وقد يقع أحدهم فى حبها أو قد يقع جميعهم ، إلا أنه حب هش لا يصمد أمام ضوء النهار ، ويسقط أمام أية محنة أو امتحان .

لهذا السبب تبخر هؤلاء الرجال فى الهواء حين تعرضت مى زيادة لأزماتها ، حين أودعت المستشفى النفسى فى لبنان إثر مؤامرة الأقارب للاستيلاء على أموالها . تلاشت مى زيادة من خيال هؤلاء الرجال ، لم يزرها أحدهم بالمستشفى ، ثم نجحت مى زيادة فى الخروج من الأزمة وعادت إلى مصر وبدأت تلقى المحاضرات ويتألق نجمها من جديد . إلا أنها ظلت وحيدة . ورفضت أن تلتقى بهؤلاء الذين تخلوا عنها وقت المحنة ، وماتت وحيدة . هكذا تفوقت مى زيادة على شهرزاد فى الشجاعة والإقدام ، واستطاعت أن ترفض الدور العبودى للأنوثة والأمومة وأن تترك وراءها ثروة أدبية أكثر أهمية من أن تلد ثلاثة من الذكور .



الوعي النسائي العربي

١ - جدتي وأمي :

فى بداية القرن العشرين الماضى لم تكن جدتى تقرأ أو تكتب . كانت حياة أمى وخالاتى وعماتى تتحصر داخل البيت والمطبخ وولادة الأطفال ، كان الأب أو الزوج هو صاحب السلطة فى العائلة والمجتمع والدنيا والآخرة . فى طفولتى فى الأربعينيات من القرن العشرين شعرت باختناق . لولا خروجى إلى المدرسة لأقدمت على الانتحار . قاومت محاولة تزويجى وأنا فى العاشرة من عمرى . لولا مساندة أمى لأصبحت اليوم مثل أغلب النساء فى العالم العربى (والغربى أيضاً) مجرد زوجة وأم وجدة عجوز بلا اسم ولا كيان راكدة فى الفراش أعانى تصلب المفاصل والشرابين وأنتظر الموت .

منذ أيام قليلة قبل أن يحل بنا القرن الواحد والعشرين عدت إلى الوطن بعد غيبة . لم تدهشنى الردة التى تعانى منها النساء فى بلادنا العربية فقد شهدت مثلها فى حياة النساء الأمريكيات والأوروبيات . لم يدهشنى الحجاب الذى ترتديه النساء فى بلادنا تحت اسم الدين أو الإسلام ، فقد رأيت حجاباً آخر ترتديه النساء الأوروبيات والأمريكيات فى عصر ما بعد الحداثة ، ليس مصنوعاً من القماش كالحجاب الدينى وإنما من طبقات المساحيق والألوان التى تخفى بها المرأة وجهها تحت اسم الجمال أو الجاذبية الجنسية .

لهذا أختلف مع هؤلاء الذين يظنون أن النساء تحررن فى البلاد الأوروبية أو أمريكا ولم يعدن لديهن مشاكل ، يكفى أن نعيش فى تلك البلاد فترة ، أو نطلع على ما تكتبه النساء هناك حتى ندرك أن تحرير المرأة لم يتحقق فى بلد من البلاد ، طالما أن النظام الذى يحكم العالم هو امتداد للنظام الطبقي الأبوى الذى نشأ مع العبودية واستمر حتى اليوم بأشكال مختلفة ، وأسماء متعددة أساسها الرأسمالية الحديثة وما بعد الحديثة .

لا يمكن أن أنكر أن حياتي تختلف عن حياة جدتي وأمي . وأنتى أقرأ وأكتب بالقلم والكمبيوتر وأسافر فى بلاد العالم ، وأناقش الرجال وذوى السلطة فى أمور الثقافة والدين والسياسة والاقتصاد والتاريخ والفلسفة والطب والأدب والجنس وكل شىء . ربما دفعت ثمنًا باهظًا من حياتي الخاصة والعامة نظير الحصول على هذه الحقوق ، إلا أنتى انتزعتها بقوة الإرادة والتصميم والعمل المستمر وإثبات جدارتى العقلية والجسمية والروحية فى كيان واحد . أدركت من خبرتى فى الحياة بعد أن تجاوزت الستين عامًا أن قوة الإنسان أو الإنسانية تتبع من هذه القدرة على التحام العقل بالجسم بالروح . أو بعبارة أخرى القدرة على مقاومة الفلسفة العبودية القائمة على فصل الجسم عن العقل عن الروح ، هذه الفلسفة السائدة حتى اليوم والتي تجعل من الأديان السماوية وغير السماوية سندًا لها .

٢ - الردة :

تتمثل الردة فى حياة النساد الأوربيات والأمريكيات فى تصاعد الحركة السياسية المسيحية التي تحاول إعادة المرأة إلى حظيرة البيت ، والخضوع لسلطة الأب والزوج تحت اسم الحفاظ على القيم الأسرية أو العودة إلى الروحانيات ، وهى حركات سياسية أصبحت تنمو فى الثلث الأخير من القرن العشرين بعد انهزام الحركات النسائية التحريرية وحركات الشباب والحركات التقدمية العمالية المناهضة للرأسمالية والعولمة، والتي مهدت لظهور الولايات المتحدة كقوة كبرى أو رأس الرمح الرأسمالى الاستعماري الجديد ، بعد أن تهاوت القوى التحريرية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية والبلاد العربية ، وبعد سقوط حائط برلين وتهاوى الاتحاد السوفيتى ، ثم اشتعال حرب الخليج عام ١٩٩١ ، وتراجع فكرة الوحدة العربية أو العالم العربى الذى أصبح يحمل اسمًا جديدًا هو الشرق الأوسط .

كل ذلك ليس إلا جزءًا من الردة التي يمر بها العالم فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين . وهى ردة عالمية ومحلية وعربية فى آن واحد ، لأننا نعيش فى عالم واحد ، (وليس ثلاثة عوالم أو أربعة) ، تحكمه قوة دولية واحدة ، تستمد قوتها من التفوق العسكرى القائم على احتكار السلاح النووى (ونزعه عن البلاد

الأخرى في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية والشرق الأوسط فيما عدا إسرائيل) وتستمد قوتها الاقتصادية من القدرة على سن القوانين التجارية غير العادلة تحت اسم حرية السوق ، ويمكنها بعد كل ذلك أن تحتكر القدرة التكنولوجية والإعلامية القادرة على غسل أدمغة ستة بلايين من البشر وإقناعهم على الدوام بأفكار ضد مصالحهم من أجل مضاعفة أرباح القلة الحاكمة .

وكيف تتحرر النساء في ظل نظام عالمي كهذا قادر على تسخير أغلب الحكومات المحلية لضرب أي فرد أو مجموعة تحاول التمرد أو الثورة ؟

٣ - النخبة :

في بلادنا العربية استطاعت القوى الحاكمة تدجين أي حركة تنهض لتغيير الأوضاع . لا فرق في ذلك بين حركة نسائية أو عمالية شبابية أو غيرها . يشهد القرن العشرون على ذلك ، والأمثلة كثيرة ، منها ما حدث في مصر والعراق وسوريا والسودان وتونس والمغرب والصومال وغيرها ، لا أظن أن بلداً عربياً واحداً نجا من هذا المأزق ، مما أدى إلى ضعف الحركات السياسية المتقدمة في بلادنا ، لم يبق منها إلا بعض السجلات في التاريخ ، وبعض عجائز تجاوزوا السبعين ، انزلوا في بيوتهم يكتبون مذكرات حياتهم ، وأحياناً يخرجون يطلون على ما يحدث في الأحزاب السياسية ، التي تحولت إلى أندية ثقافية مشغولة بفكرة صراع الحضارات أو الأديان أو الهويات ، أو تحولت إلى ما يشبه الإدارات غير الحكومية الخاضعة للحكومة في الواقع والحقيقة .

هذه هي أغلب النخبة المثقفة في بلادنا العربية ، التي تقود الرأي العام ، وتشغل المساحات في صحف الحكومة والمعارضة الشكلية ، وفي المؤتمرات العربية والدولية ، يتنافسون على الظهور في الصورة مع الملك أو رئيس الدولة أو رئيس الوزراء ، أو وزير الثقافة أو الإعلام ، يحتكرون الجوائز العربية والعالمية ، يحمل كل منهم لقب معارض أو يساري أو ماركسي ، أو ليبرالي عولمي ، وغير ذلك من لغة ما بعد الحداثة .

تشتمل النخبة المثقفة نساء بالطبع ، لا يختلفن كثيراً عن الرجال ، تظهر صور بعضهن بالحجاب أو بدون حجاب ، لا شك أن حجاب العقل أخطر من أي حجاب آخر ،

لأنه لا يظهر فى الصورة ، ويوحى بأن المرأة متحررة ، رغم أن عقلها لا يختلف عن عقل جدتها (أو الأصح جدها) وربما يكون أكثر تخلفاً .

٤ - الاستهلاك :

هذه النماذج من النساء العربيات ضحايا الاستهلاك الفكرى الأمريكى الذى تروجه وسائل الإعلام فى عصر العولمة أو الرأسمالية فى نهاية القرن القديم وبداية القرن الواحد والعشرين . قد تكون الواحدة منهن أستاذة فى الجامعة أو عميدة كلية من الكليات أو صحفية أو أديبة أو عالمة ذرة أو عضو فى البرلمان أو مجلس الشورى، أو وزيرة من الوزارات ، وربما تكون الواحدة منهن قد تجاوزت الستين وظهرت بعض تجاعيد الزمن على وجهها ، فإذا بها تسرع لإخفاء التجاعيد تحت طبقة كثيفة من المساحيق (حجاب ما بعد الحداثة) أو بعملية جراحية لشد الجلد ، وتمشى تتأرجح على كعب عال ، يتأرجح من أذنيها قرط ضخمة ثقيل ينوء به رأسها أو عنقها ، أما عقلها فقد تم حشوه بما تكتبه النساء الأمريكيات (من الليبرالية الرأسمالية أو الجبهة السياسية المسيحية المتصاعدة) عن أن الأمومة هى مصدر السعادة الوحيدة للمرأة الطبيعية ، وأن خروج النساء إلى العمل ومنافسة الرجال لم يؤد إلى شيء إلا تعاسة النساء وتفكك الأسرة وانحراف الأبناء وانتشار المخدرات وغيرها من المشاكل .

يتبنى الإعلام الأمريكى (وتوابعه فى بلادنا العربية) هذه الأفكار ما بعد الحديثة عن فشل حركات تحرير المرأة فى إسعاد المجتمع والأسرة ، وأن طموح المرأة العلمى أو السياسى أو الفنى أو الأدبى قد أدى إلى هدم الأسرة ، إلى انحراف الشباب، وهذه محاولة إعلامية للتمويه والتغطية على الأسباب الحقيقية التى أدت إلى البطالة وتزايد الفقر فى ظل الرأسمالية العالمية والمحلية .

لقد تم الكشف عن هذا التمويه الإعلامى العالمى والعربى ، والذى قد يرتدى أحياناً ثوب العلم أو البحوث العلمية الجديدة ، إلا أن هذه الكتابات التحريرية كثيراً ما تحاصر أو تمنع بواسطة الرقابة الرسمية أو غير السمية ، لقد دخل اسمى القائمة السوداء فى السبعينيات من القرن العشرين ، والتى تحولت إلى القائمة الرمادية فى نهاية القرن وبداية القرن الجديد .

لعل القائمة الرمادية أخطر من القائمة السوداء ، لأنها قد توحى بانعدام الرقابة على الفكر ، مثل حجاب ما بعد الحداثة الذي قد لا يظهر فى الصورة ، ولعل الاستهلاك الفكرى فى عصر العولمة أخطر من استهلاك البضائع الأمريكية أو منتجات الشركات متعددة الجنسيات ، لأن التخلف العقلى أشد خطراً من أى تخلف آخر ، وأخطر مراحل التخلف العقلى فى بلادنا هى عجز النخبة من الرجال أو النساء على إنتاج الأفكار الجديدة القادرة على التغيير ، تعتمد النخبة العربية على الاستهلاك لأفكار الآخرين ، واجترار النظريات الأمريكية الأوروبية الحديثة أو ما بعد الحديثة ، أو اجترار النظريات الروحية أو الدينية القديمة أو ما يسمى التراث .

ويسود فى هذا المناخ صراعات ثقافية مزيفة بين ما يسمى الوطنية والتغريب أو الأصالة والمعاصرة ، وكلها تدور فى قلب الاستهلاك الفكرى مما تنتجه عقول الآخرين فى بلاد الغرب أو فى بلاد الشرق .

لا يزال الإبداع الفكرى فى بلادنا العربية ممنوعاً بالقوى السياسية والدينية الحاكمة ، الإبداع يعنى البدعة وهى كلمة سلبية فى القاموس السياسى الدينى فى بلادنا ، أن كلمة « الخلق » الفكرى أكثر خطورة ، لأنه لا يوجد فى الكون إلا خالق واحد ، من ينافسه قد يعرض نفسه (أو نفسها) لتهمة الزندقة ، وهى تهمة لا تخص القرن القديم فحسب ، ولكنها تمتد إلى القرن الجديد ، بل تزداد خطورة مع تصاعد التيارات الدينية ، التى تعود بنا إلى فكرة أن المعرفة كلها وردت فى الكتب الدينية ، ودورنا هو مجرد التفسير وليس خلق الجديد .

٥ - قشور التغييرات :

خلال القرن العشرين حصلت النساء فى بلادنا العربية على بعض الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية . تزايدت أعداد النساء اللاتى خرجن إلى التعليم ويعملن خارج البيت بأجر قد يتساوى أحياناً مع الرجال وقد يقل عنه فى أحيان كثيرة . تزايدت أعداد النساء اللاتى أصبحن مسئولات عن إعالة الأسرة والإنفاق عليها . أدت البطالة المتزايدة إلى تزايد عدد الرجال العاجزين عن الإنفاق ، وبالتالي حصول المرأة القادرة على الإنفاق على بعض الحقوق الجديدة ، أو مناقشة بعض الحقوق التى كانت

حكراً على الأزواج ، مثل حق الزوج في منع زوجته من العمل خارج البيت ، أو حق الزوج في منع زوجته من السفر ، أو حق الزوج في إجبار زوجته على البقاء معه وعدم القدرة على تطليقه أو خلعها .

تمت تغيرات جزئية وفرعية في بعض القوانين الخاصة بالزواج والطلاق ، إلا أن جوهر سيادة الرجل وسلطته المطلقة على نساؤه لم تتغير ، بل زادت في بعض الأحيان بسبب الردة ، والإحياء الفكري لأكثر الأجزاء تخلفاً من التراث والأديان ، والهزائم العربية المتكررة في الحروب الاستعمارية والإسرائيلية خلال القرن العشرين ، مما أدى إلى فقدان الثقة في الذات ، واستشراء عقدة النقص ، ومحاولة التخلص منها تحت ستار من الهوية المتضخمة ، التي قد لا تجد شيئاً تتمسك به ليميزها عن الآخر سوى حجاب المرأة أو ختان الإناث . بل إن أحد المفكرين من النخبة المصرية وهو أستاذ بالجامعة الأمريكية وقد تأسلم في السنين الأخيرة وأعلن أن الختان والحجاب جزء من الهوية الأصلية للمرأة العربية المسلمة . وهو يقلد في هذا الاتجاه الأفكار الأمريكية والأوروبية السائدة اليوم عن الهوية واختلاف الثقافات وموجة الاستشراق الجديدة .

انتشرت في السنوات الأخيرة من القرن العشرين كتابات استشراقية نسائية أمريكية تؤيد حجاب المرأة وختانها تحت اسم احترام الثقافات الأخرى . خلال وجودي في مدينة لندن فتحت جريدة الجارديان (يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٩٩) فرأيت مقالاً لإحدى النساء الفيمينيست اللائي نادين بتحرير النساء خلال النصف الأخير من القرن العشرين (هي جيرمان جرير) أكدت في مقالها على تأييد ختان النساء كجزء من الهوية والثقافة الأصيلة في بعض البلاد . وفي مؤتمر المرأة العربية - عقد بالقاهرة خلال عام ١٩٩٩ ، ترددت هذه الأفكار على لسان بعض النساء الأمريكيات اللائي دعين للمؤتمر . كنت خارج الوطن في ذلك الوقت إلا أنني تابعت بعض ما كان يدور خلال ذلك الأسبوع وأدركت كم برزت أفكار النساء الأمريكيات في المؤتمر وسيطرت على عقول النساء والرجال العرب . لاحظت أيضاً أنه قد تم تجاهل أفكار وكتابات النساء العربيات التحريرية المتقدمة وتركيز الضوء على أفكار النساء الأمريكيات وتوابعهم من العرب ، كما تم إبراز أعمال الرجال الذين كتبوا عن تحرير المرأة ، رغم أن هذه الكتابات طرحت مشكلة المرأة العربية من وجهة نظر الرجل ، وظلت حبيسة الفكر الأبوي

الطبقى الدينى ، أو داخل حدود الخطاب العربى الإسلامى الليبرالى الذى لا يتعرض لجوهر المشكلة وأسبابها الحقيقية ، بل يقدم بعض الإصلاحات الجزئية مثل إصلاح التعليم وبعض بنود قانون الأحوال الشخصية ، دون تغير النظرة التقليدية إلى المرأة كزوجة وأم ، واعتبار دورها الرئيسى فى الحياة هو الأمومة وخدمة الأسرة فى البيت ، وقد نادى هؤلاء الرجال بأهمية تعليم المرأة بهدف تحسين أدائها للخدمة فى البيت ورعاية الأطفال ، حسب قول الشاعر : الأم مدرسة إن أعددتها ، أعددت شعباً طيباً الأعراق .

وكم يتغنى الشعراء فى بلادنا العربية بالأم ، ويرددون عبارة : « الجنة تحت أقدام الأمهات » ، إلا أن الدراسة العلمية المتعمقة لأحوال النساء فى بلادنا تؤكد لنا أن حقوق الأمهات ضائعة فى الحياة الدنيا والحياة الآخرة على حد سواء .

إن اسم الأم فى بلادنا ليس له قيمة أخلاقية أو اجتماعية ، وليس إلا اسم الأب هو الذى يعطى الشرف والوجود الاجتماعى للأبناء والبنات . وقد استطاعت حركات النساء التحريرية فى بلاد أخرى أن تكسر هذا الاحتكار الأبوى لنسب الأطفال ، وأصبح لاسم الأم الحقوق نفسها التى يحظى بها اسم الأب ، وتبع ذلك اكتساب النساء لبعض الحقوق المدنية والاجتماعية الأخرى بالإضافة إلى مزيد من الحرية الشخصية للنساء . لكن هذه الحقوق ظلت محدودة محكومة بالنظام الأبوى الطبقي الذى يحكم سياسياً واقتصادياً ، مما يؤكد لنا أن الحرية لاقتصادية والسياسية جزء لا يتجزأ من الحرية الاجتماعية والشخصية .

٦ - القدرة الاقتصادية للمرأة :

فتحت إحدى الصحف المصرية يوم ١٥ ديسمبر ١٩٩٩ لأرى فى الصفحة الأولى مانشيتاً كبيراً عن مشروع جديد لقانون الأحوال الشخصية (بشرط ألا يتجاوز حدود أحكام الشريعة الإسلامية) ، وصورة كبيرة لعدد من رجال الحكم وممثلى السلطات التنفيذية والدينية فى بلادنا .

كنت عائدة من خارج الوطن بعد غيبة والناس فى مصر تستعد للاحتفال بالقرن الجديد الواحد والعشرين إلا أن كل شىء بدا لى كأنما هو الاحتفال بالقرن القديم أو القرن من قبله ، حيث كان الرجال يشرعون القوانين التى تحكم النساء ، وأصحاب

الأموال والأراضي من الإقطاعيين والرأسماليين هم الذين يشرعون القوانين التي تحكم الأجراء والعمال والفقراء .

ربما كان ضمن هؤلاء الرجال فى الصورة امرأة تحمل لقب وزيرة الشئون الاجتماعية إلا أنها لم تظهر الصورة على الإطلاق واكتفى المحرر بذكر اسمها ، مما يؤكد أنها هامشية ولا قرار لها وسط هذا الخضم من الذكور .

وقد أصبحت جميع القوانين فى بلادنا مدنية وليست دينية فيما عدا قانون الأحوال الشخصية . وذلك لأن تغير القوانين لا يحدث دون وجود قوة سياسية اجتماعية قادرة على الضغط والتغيير ، وهذا أمر لم يحدث للنساء العربيات حتى اليوم، لم تستطع النساء فى بلادنا تنظيم أنفسهن داخل قوة سياسية منظمة واعية قادرة على تغيير القوانين .

لقد حاولنا تجميع الحركة النسائية العربية داخل منظمة تضامن المرأة العربية خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين إلا أن هذه الحركة ضربت بواسطة السلطات السياسية والدينية فى مصر والبلاد العربية حين بدأت هذه الحركة تقوى سياسياً وتعارض التدخل الأمريكى إبان حرب الخليج فى بداية عام ١٩٩١ ، كما ضربت أيضاً محاولات تكوين الاتحاد النسائى المصرى خلال عام ١٩٩٩ .

يدلنا التاريخ على أن الأديان كانت فى خدمة الأنظمة السياسية والاقتصادية وليس العكس ، بدليل ما حدث للأديان من تغيرات مع تغير الأنظمة السياسية . إن معظم المؤسسات الدينية عادة ما تتبع الحكومة فى ظل النظام الملكى أو الجمهورى على حد سواء . وكم اجتهد رجال الدين أو المشايخ لإعادة تفسير الآيات القرآنية حسب توجيهات الحاكم وأعوانه . وفى تونس : ألم تلعب توجيهات الحبيب بورقيبة فى تغيير بعض أحكام الشريعة ومنها تعدد الزوجات وقانون الإرث ١٩٥٨ وهل الشريعة الإسلامية التى تحكم اليمن أو المملكة العربية السعودية هى نفسها الشريعة الإسلامية التى تحكم مصر أو تونس أو المغرب ١٩٥٨

وفى مصر اليوم يدور الجدل حول مشاكل الاغتصاب والإجهاض وإعادة العذرية والأشكال الجديدة للزواج التى فرضتها التغيرات الاقتصادية ومنها الزواج العرفى وزواج المسيار وغيرها .

أهم هذه التغيرات الاقتصادية هي أن أعداداً متزايدة من النساء المصريات أصبحن يمارسن العمل خارج البيت وينلن أجوراً عن هذا العمل أكسبتهن بعض الحقوق الاجتماعية الجديدة ، ومنها رفض سيطرة الزواج والتمرد على قانون الطاعة .

لقد استطاع الرجل بسبب قدرته الاقتصادية أن يسيطر على المرأة سياسياً ودينياً . يكفي أن نعيد قراءة الآيات القرآنية التي تقول ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم ﴾ (سورة النساء - الآية ٣٤) .

أصبحت المرأة قادرة على الإنفاق على نفسها وعلى أسرته كالرجل وأحياناً أكثر منه . هكذا ضعف قانون الطاعة وقد ارتكز قانون الطاعة على الإنفاق الذي كان واجب الرجل فحسب .

وفى المشروع الجديد لقانون الأحوال الشخصية المصري (المنشور بجريدة الأهرام في ١٥ ديسمبر ١٩٩٩ ص ١٣) تنص المادة رقم ٢٠ على الآتي :

« للزوجين أن يتراضيا فيما بينهما على الخلع فإن لم يتراضيا عليه وأقامت الزوجة دعواها بطلبه وافتدت نفسها وخالعت زوجها بالتنازل عن حقوقها الشرعية وردت عليه الصداق الذي دفعه لها حكمت بتطليقها منه » .

ندرك من هذه المادة أن القدرة الاقتصادية للمرأة هي أساس حريتها . إن المرأة العاجزة اقتصادياً التي تحتاج إلى نفقة زوجها لا تملك حق تطليقها أو خلعها ، ولا بد أن تعيش معه رغم بغضها له ، ترضى شهوته على حساب كرامتها مثل العبد أو البغي التي تقدم جسدها للرجل مقابل المال أو الإنفاق .

إن شرط الحرية الشخصية والاجتماعية أو السياسية هو القدرة الاقتصادية أو الاستقلال الاقتصادي ، ويسرى هذا المبدأ على الأفراد الرجال والنساء بمثل ما يسرى على الدول والجماعات . وتتجسد أزمة المرأة العربية في عجزها الاقتصادي واعتمادها على الرجال في الإنفاق بمثل ما تتجسد أزمة الأمم العربية في عجزها الاقتصادي واعتمادها على القوى الخارجية في ظل النظام العالمي الجديد أو الاستعمار الجديد .

إن الصراع الدائم في عالمنا اليوم هو صراع اقتصادي في الأساس يتخفى تحت رداء ديني أو ثقافي . لهذا تظهر على السطح الصراعات الإثنية والعرقية والدينية ، تروج لها وسائل الإعلام ، والفكر العالمي والعربي التابع له ، ويقرأ الناس في الصحف كل يوم عن الحروب الدينية التي تبغى قتل المسلمين في البوسنة أو الشيشان أو فلسطين أو السودان أو الجزائر أو أفغانستان أو غيرها ، ويظن الناس في بلادنا أنها مجرد حروب ضد الإسلام ، ولا علاقة لها بالبتترول أو تجارة الأسلحة ، أو فتح الأسواق الجديدة أمام القوى العالمية وكسر الجواجز أمام رأس المال الأجنبي أو البضائع الأجنبية ، والقضاء على الإنتاج المحلي تحت اسم حرية السوق أو العولمة .

لا يدرك الناس العلاقة بين نمو القوى الرأسمالية الاستعمارية الجديدة والتيارات الدينية السياسية اليمينية التي رأت أن سيف الله ينجح أكثر في قتل المعارضين من سيف الحاكم ، وينصب الدين ورقة سياسية رابحة في المعارك الدائرة ، ومن يعارض يتهم بالكفر أو الإلحاد ، وهي تهمة أخطر من الخيانة السياسية أو خيانة الوطن .

أما المرأة المعارضة لهذه القوى الحاكمة فهي تتهم في أخلاقها وشرفها بالإضافة إلى تهمة الكفر والزندقة . في عام ١٩٩٢ أصبح اسمي في قائمة الموت مع مجموعة من المفكرين العرب . وكان علي أن أعيش خارج الوطن في المنفى أكثر من خمسة سنوات . وقد عدت إلى الوطن أخيراً ، إلا أنه لم يعد الوطن العربي ، أصبح شيئاً يسمونه الشرق الأوسط ، تحكم فيه قوى غير عربية ، تسود فيه بضائع أجنبية ، تغطي على شاشات التلفزيون الإعلانات عن مساحيق الوجه الأمريكية ، عن أدوات التجميل بأشكال متعددة ، إلى حد أن أصبحت أرى الشغالات في البيوت يرتدين تحت الحجاب المساحيق والألوان والعطور الأجنبية الفواحة ، لا تختلف أستاذة الجامعة في حجابها ومساحيقها عن الشغالة أو الخادمة في البيوت ، إنها الأنوثة المعلبة داخل الإعلام الأمريكي ، لترويج أدوات الزينة التي تمثل المورد الخامس لأرباح الرأسمالية العالمية ، أول هذه الموارد تجارة السلاح ثم البترول ، ثم المخدرات ، ثم الأدوية ، ثم المساحيق وأدوات الزينة .

٨ - طموحات القرن الواحد والعشرين :

تابعت المظاهرات الشعبية فى شوارع مدينة سياتل فى نهاية نوفمبر ١٩٩٩ أثناء وجودى فى الولايات المتحدة الأمريكية . أدركت أن القوة لا يهزمها إلا القوة . أدركت أن النظام العالمى الطبقي الأبوى لن يسقط (ومعه مؤسساته المالية من نوع منظمة التجارة الدولية) إلا بقوة الشعوب المنظمة الواعية القادرة على ضرب القوة بالقوة . رغم القنابل المسيلة للدموع التى استخدمها رجال البوليس لتفريق المظاهرين إلا أن القوة المنظمة للجماهير من النساء والشباب والعمال انتصرت على القوة البوليسية . وفشل اجتماع منظمة التجارة الدولية الذى عقد فى مدينة سياتل ، وأصبح على القوة الحاكمة دولياً أن تعيد النظر فى قوانين التجارة غير العادلة .

كنت أفحص وجه المتظاهرات من النساء والرجال والشباب وأرى بعض الوجوه العربية . أغمض عيني لأحلم بأن هذه المظاهرات تحدث فى بلادنا العربية ضد البنك الدولى وصندوق النقد ومنظمة التجارة الدولية إلا أننى كنت أفتح عيني وأدرك أن المظاهرة فى مدينة سياتل وليست فى أى مدينة عربية .

إن القضاء على القوانين الظالمة التى تحكم الدول أو الجماعات أو الأفراد نساء أو رجالاً لن يتحقق إلا عن طريق القوة الشعبية المنظمة الواعية من النساء والرجال والشباب . هذا هو الدرس الذى يجب أن تتعلمه الشعوب العربية نساء ورجالاً . لقد أدركنا على مدى القرن القديم وبداية هذا القرن الجديد أن القوى الدولية وأتباعها من الأنظمة العربية قد فشلت تماماً فى تحقيق الأمن والعدالة والحرية للأغلبية الساحقة من النساء والرجال . أدركنا أن الحكومات العربية أقدمت على تنازلات حرصاً على مصالحها ومصالح القوى الخارجية . هذه التنازلات لم تمنح الأنظمة العربية جواز المرور إلى القرن الجديد ، بل ردتها إلى الوراء إلى القرون القديمة ، وفرضت عليها حلولاً مؤقتة لا تسمح لها بالخروج من المأزق الاقتصادى أو السياسى أو الثقافى . ويضحى عادة بقضية تحرير النساء تملقاً للتيارات الدينية أو النظر إليها على أنها مشاكل اجتماعية محدودة لا علاقة لها بالقضايا السياسية والاقتصادية الدولية والمحلية . مثلها مثل قضية الشباب التى ينظر إليها كقضية اجتماعية تشمل التأهيل

والتوظيف والتسكين مع إبعادها عن السياسة . فى بلادنا تتحول المعارضة أيضاً إلى أحزاب شكلية دون أى قوة سياسية أو قواعد جماهيرية قادرة على التظاهر ضد القوانين الظالمة محلياً أو دولياً .

رغم إجهاض حركات المرأة العربية التحررية وتجاهل أغلب كتابات النساء على مدى القرن العشرين فإن القرن الواحد والعشرين يبشر بأن هناك تغيراً سوف يحدث ، وأن الشعوب العربية نساء ورجالاً لم تمت بعد ، وقد ساهمت كتابات المرأة العربية مع الكتابات النسائية فى بلاد أخرى فى كشف الازدواجية والتناقضات داخل النظام الطبقي الأبوى الدولى والعربى ، وعلى تفكيك الأيديولوجيا السائدة فى أجهزة السلطة . ولا تزال النساء العربيات قادرات على تنظيم أنفسهن وخلق الوعى الجديد رغم العقبات .

شهدت بؤادر هذا الوعى فى لقاءاتى الأخيرة مع بعض الشابات العربيات أثناء انعقاد المؤتمر الدولى الخامس لجمعية تضامن المرأة العربية الذى عقد بالقاهرة خلال أكتوبر ١٩٩٧ ، وفى المؤتمرات النسائية داخل الوطن العربى أو خارجه ، وقد امتد نشاط النساء العربيات خارج حدود بلادهن ، واستطاعت النساء من أصل عربى اللائى هاجرن إلى استراليا أو كندا أو أمريكا أو أوروبا أن ينظمن أنفسهن داخل جمعيات تضامن المرأة العربية التى انتشرت فى العالم وأصبح لها نشاطها ومؤتمراتها فى بلاد المهجر ، وقد بدأت الجسور تقوم بين النساء داخل الوطن العربى وخارجه .

لعل آخر هذه المؤتمرات فى القرن العشرين نظمته النساء العربيات فى كندا خلال أكتوبر ١٩٩٩ ، جاءتتى الدعوة وحرصت على الحضور ، وهناك فى مدينة مونتريال التقيت بمئات الشابات العربيات اللائى يدرسن بالجامعات أو اللائى يعملن ويتولين رعاية أسرهن ، أو المحاميات أو الباحثات فى العلوم أو الفنون أو الأدبية أو الشاعرة أو غيرها وقد تفوقت بعضهن على النساء الكنديات والأمريكيات فى مجال العلم أو الفن أو النشاط السياسى .

وعلى شاشة الإنترنت والويب أصبح لجمعية تضامن المرأة العربية الدولية وجوداً تلتقى من خلاله على الشاشة كل يوم آلاف النساء العربيات داخل الوطن العربى وخارجه .

أصبحنا قادرات على متابعة مؤتمرات المرأة العربية ما بين المشرق والمغرب ، ومن مالبورن في أستراليا إلى سان فرانسيسكو في أمريكا الشمالية ، إلى جنوب أفريقيا وغيرها من بلاد العالم . لاشك أن شاشة الإنترنت والويب أصبحت في نهاية القرن القديم وبداية القرن الجديد وسيلة الاتصال والتواصل بين النساء العربيات في جميع بلاد العالم .

إلا أن حركة المرأة العربية داخل الوطن العربي لازالت في حاجة إلى مزيد من التنظيم والوعي من أجل تحرير النساء العربيات والوطن العربي كله . ذلك أن نصف المجتمع لا يمكن أن يتحرر في بلاد غير محررة .



شهر مارس وتحرير المرأة فى أفريقيا

أصبح شهر مارس فى العالم هو عيد النساء فى مختلف البلاد شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، تقام الاحتفالات فرحاً بالانتصارات الجديدة فى مجال تحرير المرأة .

أهم دعوة جاءتى بمناسبة هذا الشهر كانت من النساء فى غانا . سافرت كثيراً داخل القارة الإفريقية من السنغال على الساحل الغربى إلى كينيا وتنزانيا فى الشرق ، وجوهانسبرج فى الجنوب وأوغندة وإثيوبيا داخل الوسط ، إلا أننى لم أسافر إلى غانا . قابلت بعض الشخصيات النسائية من غانا فى مؤتمرات دولية . بهرنى بعضهن بقوة الشخصية واتساع المعرفة والشجاعة فى القول والحركة ، ومنهن الكاتبة الشهيرة « أما آتا أوودو » ، ولا أنسى أيضاً هذه الأستاذة الجامعية الرشيدة ذات البشرة السوداء والعيون اللامعة التى ألفت علينا فى أحد المؤتمرات فى نيويورك محاضرة عن تحرير المرأة تفوقت فيها عن النساء الأمريكيات والأوروبيات ، وفى المساء تفوقت أيضاً فى الرقص والغناء .

وتصورت أن الحرية فى غانا أكثر من غيرها ، لكن الدعوة التى جاءتى كشفت عن أن بعض العادات العبودية لاتزال راسخة هناك ، وأن هذه الأستاذة المتحررة عقلاً وجسماً لا تمثل الأغلبية الساحقة من النساء فى غانا ، وليس هذا ضدها ، بل العكس ، لأنها استطاعت رغم القيم العبودية فى مجتمعها أن تتغلب عليها وأن تفرض نفسها داخل بلادها وخارجها باعتبارها شخصية إنسانية ذات عقل متحرر وجسم كسر القيود وخرج من بين سلاسل القهر رشيقة قوياً كالسهم .

وتحتفل النساء فى غانا بيوم المرأة العالمى ١٩٩٩ لأن الحركة النسائية هناك نجحت فى إلغاء إحدى العادات العبودية التى كانت سارية حتى يونيو ١٩٩٨ - أى العام قبل الماض فقط، بعد نضال طويل عبر السنين خاضته الحركة النسائية كقوة جماعية، وأيضاً خاضته بعض الرائدات اللائى تمرّدن لهذه الحركة ، فالعمل الجماعى يبدأ عادة

بأفراد قلائل من النساء أو الرجال ، قد يموتون أو يُسجنون ويدفنهم التاريخ ، إلا أن البذرة تكون قد زُرعت فى الأرض ، ولا بد من يوم يأتى ليبرز النبات الأخضر فوق السطح تحت الشمس .

فى يونيو ١٩٩٨ نجحت الحركة النسائية فى غانا فى تعديل قانون العقوبات الذى كان يبيح للأب أن يقدم ابنته العذراء لرجل غريب عنها يفتصبها جنسياً ويشغلها فى بيته خادمة تطبخ وتغسل ويشغلها فى حقله تزرع وتروى وتحصد ، وتحمل وتلد أطفالاً ، كل ذلك بلا أى حقوق إلا طعامها .

ولماذا يفعل الأب ذلك بابنته ؟

لأن فى غانا عادة عبودية تسمى باللغة المحلية (لغة الأيو) عادة « التروكوسى » وتعنى « عبيد الإله » . هذا الإله بالطبع لا يراه أحد لكن له مندوب على الأرض يحمل لقب « القس » . هذا القس يعيش فى معبد اسمه « أولو كورتى » . وهناك فى كل قرية عدد من هؤلاء الرجال الذين يحملون لقب القس يسمونهم « القساوسة » وهم فى نظر أغلب الناس أرواح بلا أجساد ، وإن كان لهم أجساد فهي أجساد طاهرة لا تمارس ما يمارسه الناس من حياة زوجية مدنسة بالجنس .

إلا أنهم يمارسون شيئاً آخر اسمه « التروكوسى » ، يشتمل على الجنس إلا أنه جنس يباركه الإله فلا يكون مدنساً .

حسب هذه العادة « التروكوسى » الراسخة فى نسيج المجتمع الغانى منذ نشوء العبودية ، فإن القس له سلطة الإله ولا أحد يحاسبه على ما يفعل ، ومن حقه أن يعيش فى أحسن منزل ويستمتع بأحسن طعام وأجمل العذراوات فى القرية ، كل ذلك تحت اسم « إرضاء الإله » .

والناس كلهم يحملون اسم « عبيد الإله » ، وعلى كل أب أن يأخذ ابنته العذراء الصغيرة ، قبل أن يدركها الحيض ، يأخذها إلى « القس » ، ينحنى أمامه فى المعبد ، ويسمونه « بيت الإله » ينحنى الأب أمام القس ويقول له باحترام ورهبة : « هذه ابنتى العذراء خذها يا سيدى إرضاء للإله » .

وتصبح البنت الصغيرة ملكًا للقس ، تعيش معه في بيته ، تؤدي له الواجبات المنزلية مجانًا ، الطبخ والتنظيف والفسل ، وتزرع أرضه ، وبعد أن يدركها الحيض يُضاف إلى واجباتها الجنس ، عليها أن تعاشر القس معاشرة الأزواج .

قد يملك القس من هؤلاء البنات ما يصل إلى خمسة عشر ، يطلق عليهم اسم « حريم الإله » ، مثل حريم هارون الرشيد !

بعد معارك طويلة من الحركة النسائية في غانا أجاز البرلمان في ١٢ يونيو ١٩٩٨ تعديل القانون بإضافة مادة جديدة رقم ٣١٤ (أ) تعتبر عادة « التروكوسى » جريمة تستوجب السجن ثلاث سنوات على الأقل .

منذ صدور هذه المادة حتى اليوم تحرر ما يزيد عن ألف فتاة من أسيرات التروكوسى في ٣٢ قرية في غانا .

بدأت المعركة ضد التروكوسى تشتد حين كُشفت قصة إحدى البنات واسمها « أبلا كوتور » عمرها اليوم ١٣ عامًا ، وقد أخذها أبوها العام الماضى (وعمرها ١٢ عامًا) ووهبها للقس ، كتعويض أو تكفير عن عملية اغتصاب أمها (بواسطة خال الأم) وقد نتج عن هذا الاغتصاب مولد الإبنة أبلا كوتور .

بعد ١٢ يونيو ١٩٩٨ أصبحت « أبلا كوتور » حرة من الناحية القانونية وليست ضمن أملاك القس ، إلا أن أحدًا من أسرتها لم يتقدم لاستلامها ، خوفًا من بطش الإله أو القس ، أو التقاليد الاجتماعية السائدة والتي لم يستطع القانون الجديد أن يغيرها بهذه السرعة .

إن العادات العبودية الراسخة في المجتمع تحتاج إلى وقت وجهد وحملات ثقافية لرفع الوعى لدى الناس ولا يكفى إصدار قوانين جديدة . أقول هذا لأن كثيرًا من الناس في بلادنا تصوروا أن ختان الإناث سوف ينتهى بعد صدور قرار وزير الصحة بمنعه . إلا أن هذا غير صحيح ، وكثيرًا ما يتحايل الناس على القانون لتحقيق عاداتهم القديمة . وأيضًا بالنسبة لإلغاء المادة ٢٩١ من قانون العقوبات التى تسقط التهمة عن الرجل الذى يفتصب فتاة إذا تزوجها ، وقد سهلت هذه المادة فى القانون لبعض الرجال

أن يخطفوا ويغتصبوا البنت التي يريدونها وبعد ذلك يذهبون إلى أسرتها ويقولون : نحن على استعداد للزواج منها ، وغالباً ما ترحب الأسر بهذا الحل إصلاحاً للخطأ أو تستراً على الفضيحة أو حماية لشرف العائلة . هكذا تروح البنت ضحية جريمتين : « الاغتصاب » و « الزواج من الرجل الذي اغتصبها » . وهكذا يكافأ الجاني بالزواج من الضحية ، وتسقط عنه التهمة والعقاب وهو الإعدام حسب القانون أو السجن المؤبد مع الأشغال .

بدأ بعض الرجال والنساء في بلادنا ينادون بإلغاء هذه المادة ٢٩١ من قانون العقوبات باعتبارها بعض بقايا العبودية أو القهر الواقع على الإناث ، ولابد من إلغاء هذه المادة حتى نطهر القوانين في بلادنا من رواسب العبودية .

إلا أن تغيير القانون لا يكفي ، ولابد من حملات ثقافية وتعليمية وإعلامية ترفع الوعي لدى الناس ، وتساعدهم على التخلص من هذه العادات والتقاليد أو العرف ، الذي يكون أحياناً أقوى من القانون لارتباطه بما يسمى إرضاء الإله أو القس أو رجال الدين أو غيرهم ممن لا يفرقون بين التعاليم الدينية والتعاليم البشرية .

لعل شهر مارس ١٩٩٩ يلعب دوراً في رفع الوعي والإسهام في هذه الحملات الثقافية والإعلامية .



الدكتورة سهير القماوى كما عرفتها(*)

كنت طفلة فى المدرسة الابتدائية حين سمعت صوتها فى الراديو ، صوت قوى ممتلىء ، يشبه صوت أم كلثوم ، إلا أنها لا تغنى ، لكن تتحدث فى الأدب والثقافة وتعليم المرأة .

كان الراديو فى الأربعينيات جهازاً سحرياً (مثل الإنترنت اليوم) ، والأصوات تخرج منه شبه سحرية ، إلا تلك الأحاديث عن الطبخ والتدبير المنزلى ، كنت أهرب منها إلى الأدب والفن ، أحرك مفاتيح الراديو لأسمع أم كلثوم وطه حسين وسهير القلماوى ، قال أبى : إنها تلميذة طه حسين هو الذى شجعها ، وهى أول امرأة مصرية تدخل الجامعة . حين دخلت الجامعة سألت عنها ، قالوا إنها فى كلية الآداب ، وكنت أنا فى كلية الطب ، لم أعرف الطريق إليها ، كانت أستاذة كبيرة معروفة وأنا فى أول الشباب ، تخرجت طبيببة وبدأت أكتب الأدب ، نشرت بعض القصص القصيرة ، وأول رواية طويلة « مذكرات طبيبة » ظهرت على حلقات فى مجلة « روز اليوسف » فى يوم دق جرس التليفون فى بيتى ، جاءنى الصوت القوى الممتلىء الذى سمعته فى الراديو منذ عشرين عاماً .

أنا سهير القماوى قرأت روايتك فى مجلة « روزا » وأعجبتنى واصلى الكتابة يا نوال ..

كانت لحظة فى حياتى لا أنساها ، كان صوتها هو الوحيد بين النساء المعروفات حينئذ الذى جاءنى ، كلماتها شجعتنى على الكتابة وملائتى بالأمل ، كان أبى يقول دائماً : « كلما ارتفع الإنسان تواضع » ، كانت سهير القلماوى فى قمتها الأدبية وكنت

(*) الأهرام ٧ مايو ١٩٩٧ ص ١٠ (توفيت ٥ مايو ١٩٩٧) .

أنا فى أول حياتى ، رفعت سماعة التليفون وكلمتتى ، لم تستغرق المكالمه إلا دقيقة أو نصف دقيقة ، إلا أنها بقيت فى ذاكرتى أربعين عاماً .

إن سهير القلماوى مثل طه حسين أحد الأعمدة الثقافية والأدبية فى بلادنا ، يجب ألا تندثر أعمالها بوفاتها ، فما أسهل أن تندثر الرائدات من النساء .

إن الرواد من الرجال أمثال طه حسين يجدون بعض الاهتمام من الحركة الثقافية والأدبية فى بلادنا ، فهى حركة يغلب عليها الرجال بحكم التاريخ والقوة السياسية ، ولا تزال الحركة الثقافية النسائية هامشية ، تغلب عليها الصراعات الحزبية ، تميل إلى التضحية بقضية المرأة من أجل القضايا الأخرى ، لهذا السبب اندثرت أعمال الكثيرات من الرائدات المصريات ، فى حياتهن وبعد موتهن .

سهير القلماوى لها مؤلفات وكتابات تستحق الاهتمام ، سواء اختلفنا معها أو اتفقنا ، إنها جزء من التاريخ لابد أن تعرفه الأجيال المتعاقبة .

كانت سهير القلماوى صديقتى ، وكنت أختلف معها فى رأى حول أمور كثيرة ، إلا أن هذا الاختلاف هو أساس التطور والنمو والإبداع ، وهو أساس الصداقات الإنسانية الأدبية القوية ، هذه الصداقات تنشأ بين الأنداد ذوى الرأى ، وليس بين الإمعات التابعين للآخرين ، وكانت سهير القلماوى تحترم الرأى المخالف ، لأنها كانت تحترم رأيها ونفسها . لم تتأرجح سهير القلماوى بين التيارات المسيطرة ، حافظت على مبادئها وإن دخلت فى نزاع مع ذوى السلطة ، ولم تكن مثل غيرها الذين عاشوا فى كل العهود وتربعوا على عرش الثقافة والأدب والمرأة .

هل يمكن لوزارات الثقافة والتعليم والإعلام أن تبذل الجهود لتعريف الشباب والشابات فى مصر بأعمال سهير القلماوى ؟ لها كتاب بعنوان « أحاديث جدتى » يمكن أن يدخل المدارس ويقرأه الأطفال من الأولاد والبنات ، ربما تشجع البنات المصريات على مقاومة الردة الثقافية التى تفرض عليهن الاختفاء وراء الخمار أو جدران البيت والمطبخ .

لا يزال تاريخ سهير القلماوى وأعمالها مجهولة عند الأجيال الجديدة فى بلادنا ،
أخشى أن تندثر تماماً بوفاتها كما حدث لنساء غيرها ، فالضربات لاتزال توجه إلى
الحركة النسائية تحت أسماء ومسميات دينية أو سياسية ، ولا يزال أغلب المؤرخين من
الرجال الذين يهتمون بالرواد أكثر من الرائدات ، لا يزال عدد المؤرخات من النساء
قليلاً يعد على الأصابع ، تتشغل معظمهن بالكتابة عن الرواد من الرجال .

فهل يمكن أن تتبنى الحركة النسائية المصرية مشروعاً جديداً لإحياء تاريخ
الرائدات المصريات ، ومنهن الدكتورة سهير القلماوى ؟

أرجو ذلك لا بد .



الوعى القومى

بين الحركة الوطنية والحركة النسائية(*)

ما أسهل أن تكتب عن تحرير الفقراء دون أن تتصف الخادم الفقير فى بيتك ، وما أسهل أن تكتب « عن تحرير النساء » ثم تسلب زوجتك حقها ، أو تسب خادمك (إذا لم يحفظ كلمته) وتقول له « أنت مَرّة » (يعنى امرأة باللغة الفصحى) ، وتمدح المرأة الشجاعة ذات الشهامة قائلاً : « إنتى رجل » ، كأنما المرأة لا كلمة لها ولا شجاعة ولا شهامة .

هذا التناقض بين القول والعمل لا يخص الأفراد ، وليس سمة عصرنا الحديث فحسب ، ولكنه يخص الدول والجماعات البشرية منذ نشوء النظام السياسى الاقتصادى الذى عرف فى اللغة باسم النظام « الطبقي الأبوى » . وتعكس اللغة أو الثقافة القيم السياسية والاقتصادية للطبقات الحاكمة فى أى مجتمع .

يكفى أن نتابع الأخبار فى العالم أو فى بلادنا العربية والأفريقية لنشهد التناقض الصارخ بين ما تعلنه الدول (خاصة ذات القوة العسكرية النووية) من بيانات عن مكافحة الإرهاب والدعوة إلى السلام ، وتطالعنا الأنباء كل يوم بصور المجازر البشرية فى أفريقيا وبلادنا العربية ، أقربها إلينا الاعتداء الإرهابى الإسرائيلى على شعب لبنان وفلسطين المحتلة خلال هذا الربيع الدامى من عام ١٩٩٦ ، والذى دعمته الولايات المتحدة الأمريكية بالسلاح العسكرى ، والفيتو فى الأمم المتحدة ، وتكنولوجيا الإعلام الحديث ، الذى حوّل المذابح أو المجازر البشرية إلى عمل من أعمال السلام والحرية أو الديمقراطية .

هذا هو النظام العالمى الجديد أو السلام الإرهابى الذى أحرزته البشرية فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين ، وهو النظام الطبقي الأبوى القديم يتجلى فى أوضح صوره الحديثة ، ويؤكد لنا كل يوم أنه لا يعرف إلا القوة العسكرية ، ولا يؤمن إلا بالربح الاقتصادى ، تحت سيطرة الطبقة الأعلى المالكة للمال والسلاح فى الدولة ، والجنس الأسمى المالك للسلطة والفضيلة داخل العائلة .

(*) القاهرة ١٩٩٦ .

أدى هذا النظام فى التاريخ البشرى إلى تناقضات خطيرة فى القيم السياسية والأخلاقية على حد سواء ، وتم الفصل التعسفى بين الرجال والنساء ، وبين أصحاب الأملاك والأجراء . أصبح تاريخ الإنسانية هو ذلك الصراع اللانهائى لتحرير النساء والفقراء من عار الفقر ، وعار المرأة ، بعد أن أصبحت كلمة امرأة سبباً وكلمة فلاح إهانة .

لم تكف فى التاريخ ثورات النساء وثورات الأجراء أو الفقراء ضد جميع الأنظمة ابتداء من العبودية إلى الإقطاعيات الزراعية إلى الرأسماليات الصناعية إلى الاشتراكيات المزيفة إلى عصر تكنولوجيا القوى النووية والإعلامية الذى نعيشه اليوم . كان يمكن للثورة العلمية أو التكنولوجية الحديثة أن تُستخدم فى منافع عظيمة لشعوب الكرة الأرضية ، وكان يمكن للطاقة النووية أن تحدث ثورة إنسانية تقضى على مآسى الجوع أو الفقر أو الأمراض ، لكنها بدلاً من ذلك فقد استُخدمت لإنتاج القنابل ، وأسلحة الدمار الشامل ، وتبددت البلايين فى تنظيم مؤتمرات دولية تنفخ فى الأبواق بكلمات خاوية عن السلام ، أو البحث فى السماء عن ذنب فضائى تاه عبر ملايين السنين الضوئية بين النجوم .

لم يقرن « العلم » أو السياسة أو الأخلاق بالضمير الإنسانى أو مبادئ العدل أو الحرية والتعاون ، بل اقترنت كلها بتراكم الربح والمال وتجميعها بالقوة المسلحة والتنافس .

ارتبطت القيم الأخلاقية بالقوة الاقتصادية والسياسية والإعلامية . وأصبحت القيمة العظيمة لأى دولة فى امتلاكها السلاح النووى ، والقيمة الكبرى لأى فرد يظهر على شاشة التلفزيون ، أو نرى صورته فى الصحف كل يوم أو كل أسبوع .

أصبحت الناس تخاف القوة ، خاصة الفلاسفة الذين يعيشون فى راحة وأمان داخل أبراجهم العالية ، فلم نسمع عن فيلسوف واحد فى عصرنا استشهد من أجل الدفاع عن العدل أو الحرية ، وفى العصر العبودى استشهد سقراط فى اليونان القديم ، واستشهدت الفيلسوفة المصرية « هيباثيا » فى الإسكندرية القديمة منذ ألف وستمئة عام .

لم ينبج عصرنا مثل هؤلاء الفلاسفة أو المفكرين أو المثقفين من الرجال والنساء ، من ذوى الشجاعة فى قول الحق ، وعدم الفصل بين القول والعمل .

رغم تراكم الثراء والمال والتكنولوجيا لم يحقق عصرنا العدل أو الحرية لأغلب سكان الأرض بل زادت الهوة بين الفقراء والأثرياء وزادت التفرقة بين الرجال والنساء .

وحين تشتد الأزمات أو المذابح يستيقظ ضمير الفلاسفة أو المثقفين فجأة ، يمسكون أقلامهم ، يسودون الصفحات البيضاء من الورق ، يستكرون الاعتداء أو الإرهاب ، يوجهون الإدانات إلى « الضحية » أو الشرائع الأضعف سياسياً من الطبقات الأقل أو الجنس الأدنى من النساء ، يتفادون الإشارة إلى الرؤوس الكبيرة من رجال السياسة أو الحكم .

ونقرأ فى الصحف أو الكتب النظريات الحديثة عن فساد عالمنا المعاصر بسبب غياب الأخلاق أو القيم والتقاليد ، أو بسبب خروج النساء إلى العمل أو انخراطهن فى حركات نسائية ، أو بسبب تزايد أعداد الفقراء أو العاطلين وانخراطهم فى حركات إرهابية تهدد الأمن العام .

هكذا تضيع الحقائق فى خضم الكلام أو الكتابة أو الإعلام السائد ، ينتشر الوعى الزائف بين النساء والرجال ، تتقلب الحركات التحريرية المدافعة عن حقوق الفقراء أو حقوق النساء إلى حركات عنصرية انفصالية تزرع الكراهية أو الحقد بين الجنسين أو بين الطبقات .

فى بداية هذا القرن أو نهاية القرن الماضى دُمغت حركات تحرير العمال فى بلادنا بأنها حركات مشبوهة مستوردة من الغرب يسيطر عليها الأجانب أو الشيوعيون الملاحدة ، هدفهم الأساسى ضرب الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى . وبالمثل أيضاً أدينَت الحركات النسائية بأنها مستوردة من الغرب تُعلن الحرب على الرجال والأسرة أو الأخلاق والتقاليد ، وتؤدى إلى فصل نضال الرجال عن نضال النساء داخل الحركة الوطنية .

خلال القرن العشرين اكتسبت حركات العمال أو العاملين فى مجالات الصناعة والزراعة قوة سياسية جديدة بعد انتشار الأفكار الاشتراكية وتقوية اتحادات العمال والنقابات ، ولم يعد الدفاع عن الفقراء يعنى الإلحاد الشيوعى ، ولم يعد الحديث عن

القهر الطبقي كفرًا بالله وخيانة للوطن ، لكن المشكلة الطبقية ظلت منفصلة عن المشكلة الأبوية ، وظل الوعي الوطنى العام منفصلاً عن الوعي النسائى .

لم يكن تنظيم النساء سهلاً أو ميسوراً ، لأن أغلب النساء معزولات داخل الحياة الخاصة أو الأسرة الصغيرة ، لا يسهل تجميعهن مثل الرجال داخل المؤسسات العامة مثل النقابات أو الاتحادات أو البرلمانات أو الأحزاب السياسية . وقد نشأت هذه المؤسسات فى بلادنا والمرأة محرومة من حقوقها السياسية ، ولهذا أصبحت الأغلبية فيها للرجال ، وسيطرت عليها قلة من الطبقة الوسطى الساعية إلى الحكم أو الارتباط بالطبقة العليا ، يملكون الكتابة والتأريخ للحركة الوطنية - بل للحركة النسائية أيضاً .

فى مصر مثلاً يكتب هؤلاء المؤرخون عن قاسم أمين كأنما هو المحرر الأول والأخير للنساء ، ويندثر الدور الذى قامت به المرأة قبل قاسم أمين أو الكتابات التى قدمتها النساء عبر مراحل التاريخ حتى يومنا هذا .

يرتبط التاريخ بالسلطة الحاكمة لاشك ، حكومة ومعارضة ، ويأتى التاريخ كمحصلة للصراع الحزبى حول السلطة والنقوذ . وكانت المرأة ولازالت خارج هذا الصراع ، بسبب ضعف حركتها السياسية وعدم قدرتها على التنظيم ، أو مقاومة الوعي الزائف السائد فى أجهزة الإعلام والثقافة والتعليم .

يرتكز الوعي الزائف على إخفاء التناقض بين القول والعمل ، على تجزئة المعرفة والفصل بين القضايا العامة والقضايا الخاصة أو بين السياسة والدولة والأسرة والأخلاق أو بين القضية القومية أو الوطنية وبين القضية النسائية .

ويُخفى الوعي الزائف الأسباب الحقيقية للمذابح والمجازر التى تحدث فى بلادنا العربية والإفريقية . يحدث الفصل بين القوة والمسئولية . تقع المسئولية على الأضعف وتعاقب الضحية مثل الأفارقة الفقراء أو العرب الكسالى الخاملين أو النساء المتخلفات ناقصات العقول والدين أو الشباب العاطلين بلا وازع ولا ضمير .

إذا أردنا أن نعالج هذا الخراب السياسى والاقتصادى والثقافى والأخلاقى فلا بد من علاج لهذا الوعي الزائف عن طريق الربط الدائم بين السياسة والاقتصاد والثقافة والأخلاق والدولة والأسرة والخاص والعام والقضية النسائية والوطنية والقومية . هذا الربط ضرورة لعلاج تجزئة المعرفة ، ولتشخيص الأزمات تشخيصاً صحيحاً ، وبالتالي علاجها على النحو الصحيح .

لقد أصبحنا نحن النساء أو الفقراء أو الأفارقة أو العرب ، أول الضحايا لهذا النظام الطبقي الأبوي الجديد ، الذى يحمل اسم النظام العالمى الجديد . ويسقط كل يوم مئات القتلى أغلبهم نساء وفقراء وأطفال وشباب . لقد أصبحنا ضحايا البطش العالمى والمحلى تحت اسم التعاون أو الترابط الدولى أو ما يسمى أحياناً « الكونية » نسبة إلى كون واحد أو عالم واحد تسقط فيه الحدود بين البلاد ، وتتم الوحدة بين البشر .

إلا أن هؤلاء البشر ليسوا إلا القلة الحاكمة دولياً ومحلياً . المالكة للمال والسلاح، الساعية إلى تفريق الشعوب المحكومة فى بلادنا الإفريقية والعربية ، وإقامة الحدود بينهم ، وتفتيت قواهم تحت اسم الاختلاف ، أو التعددية وتباين الأديان أو الثقافات أو القوميات أو الجنسيات .. إلخ .

وتستخدم كلمة مثل « الديمقراطية » سلاح ذو حدين ، أو الكيل بمكيالين ، حرية إسقاط الحدود تحت اسم الكونية ، وحرية إقامة الحدود تحت اسم التعددية والاختلاف .

هكذا يتخبط المثقفون فى بلادنا بين هذه الكلمات الحديثة الرنانة ، فى هذا العصر الذى يسمونه عصر ما بعد الحداثة ، أو عصر ما بعد الاستعمار أو عصر ما بعد التحكم الاقتصادى إلى عصر حرية السوق ، وحرية النساء والفقراء أو سكان « العالم الثالث » .

يقود هذا العصر مفكرون من جامعات أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، أكاديميون داخل غرفهم المغلقة يدبجون الكلمات والاصطلاحات الجديدة ، يتقاتلون بالحروف واللغة ، ويقولون إن ساحة القتال فى عصر ما بعد الحداثة هى الساحة اللغوية أو الثقافية وليس الساحة الاقتصادية . لقد أصبحنا فى عصر ما بعد الاقتصاد . أصبحنا فى عصر اللغة أو الثقافة .

هكذا يتم الفصل مرة أخرى بين اللغة أو الثقافة وبين الاقتصاد والسياسة . يقود هذا الاتجاه الفكرى الجديد رجال ونساء من الطبقة الرأسمالية الحديثة يرفلون فى نعيمها الاقتصادى ، لكنهم ينسون أو يتناسون هذه الحقيقة حين يمسون أقلامهم ويكتبون نظرياتهم الجديدة عن عصر ما بعد الحداثة أو عصر اللغة والثقافة .

وقد أصبح مصيرنا يتوقف على مقاومة الوعي الزائف الذى تسوقه إلينا هذه الطبقة العالمية والمحلية الحديثة ، والذى يحمل أغلبهم القاباً أكاديمية ضخمة من نوع « مفكر أو فيلسوف » علينا ألا ننخدع بهذه الفلسفة اللغوية الثقافية المنفصلة عن الاقتصاد والسياسة والتاريخ . فاللغة اجتماعية سياسية اقتصادية ، وليست شيئاً علوياً معلقاً فى السماء أو هابطاً من أعلى .

إلا أن هؤلاء الفلاسفة والمفكرين يضعون « اللغة » فى مكان علوى يشبه مكانة الدين . وهناك من يؤمن أن الخالق الأعظم هو الذى خلق اللغة وهو الذى يغيرها وفق مشيئته وليس لأسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية تحدث فى حياة الرجال والنساء فوق الأرض .

ويحاول هؤلاء المفكرون تطوير اللغة بمعزل عن تطوير الاقتصاد والسياسة ، مع أن اللغة أو الثقافة ليست إلا انعكاساً للقيم الاقتصادية والاجتماعية السائدة .

خلال هذا القرن ومنذ تزايد القوة السياسية والاقتصادية أو الحزبية لطبقة العمال والفلاحين لم تعد كلمة « عامل » أو « فلاح » إهانة كما كانت . لكن كلمة امرأة (مرّة بالعامية) لاتزال إهانة ونوعاً من السباب .

يرجع ذلك إلى ضعف القوة السياسية والاقتصادية للنساء فى بلادنا ، فالمرأة هى أضعف شرائح المجتمع سياسياً واقتصادياً ، وهى أول من يُطرد من الأعمال المنتجة بأجر فى الأزمات الاقتصادية ، وهى أول من يموت فى الحرب مع أطفالها ، وهى أول من يُتهم ويُدان فى الأزمات السياسية أو الأخلاقية أو تصاعد النعرات الدينية .

ذلك أن الفلسفة السائدة رغم تطورها عبر القرون لاتزال فى جوهرها فلسفة طبقية أبوية ، ويحكم العالم دولياً ومحلياً طبقة صغيرة من الرجال يملكون المال والسلاح والدين والدنيا . ويصبح التحدى الملقى على الحركة النسائية فى بلادنا أن تسعى نحو القوة السياسية والاقتصادية والثقافية فى جميع المجالات العامة والخاصة داخل الأسرة الصغيرة والمجتمع الكبير سواء بسواء .



فلسوس المرأة هل هي عورة؟ (*)

دق جرس التليفون بمنزلى ليلة الجمعة ٢٠ يوليو ١٩٩٦ . صوت امرأة تولول عبر الأسلاك : الحقينى يا دكتورة . الأستاذ طلعت فى غيبوبة فوق الجهاز ! كنت فى غيبوبة النوم . جهاز إيه ؟ الأستاذ طلعت أخويا ؟ أيوه يا دكتورة أخوك يموت فوق الجهاز الحقينى !

انتبهت وتذكرت . كان أخى منذ ساعات قليلة جالساً إلى جوارى يضحك ويستعد للسفر لإسكندرية لقضاء شهر أغسطس . اتفقنا على اللقاء غداً فى بيته ليعطينى صورنا القديمة منذ الطفولة . انتزعها من بيت جدى منذ أكثر من نصف قرن واحتفظ بها داخل صندوق مغلق كأنها الجواهر . لم أعرف قيمة هذه الصور إلا الشهر الماضى فى لندن ، طلب منى الناشر الإنجليزى خمس عشرة صورة لمراحل الطفولة وأول الشباب ، سوف ينشر هذه الصور مع كتابى الجديد « أوراقى حياتى » .

أصبحت فى الشارع .. السيارة تشق الظلمة من شمال القاهرة إلى الجنوب ، الضربات تحت ضلوعى تتصاعد مع مطبات الطريق .

هل الحق أخى قبل أن يموت ؟ منذ أيام قليلة نصحه طبيبه الخاص ألا يذهب إلى المستشفى لعمل غسيل كلوى . وسألنى الراى فقلت له بالحرف الواحد : أنا لا أنصح أى إنسان قريب أو غريب بالذهاب إلى أى مستشفى ، فأنا اشتغلت طبيبة سنين طويلة فى هذه المهنة الكئيبة ، أدركت حقيقة جوهرية هى : المستشفيات فى بلادنا لم توجد إلا للإسراع بوفاة الناس . أما هذا الجهاز المسمى بجهاز الغسيل الكلوى فليس إلا أداة للقتل .

ضحك أخى وكان يحب الضحك والمرح منذ الطفولة . أكثر ما كان يحب الموسيقى والعزف على العود . الرجال والنساء فى عائلة أبى وأمى كانوا مثل بعض (*) نشر بجريدة العربى ٥ أغسطس ١٩٩٦ .

المشايع اليوم ، يرون أن الموسيقى « زنا » كعمل المرأة خارج البيت واختلاطها بالرجال ، وهجر أخى الموسيقى ودخل الجامعة ليحمل شهادة عليا ، عاش بها ومات بها موظفاً مجهولاً فى أحد سراديب .

قبل أن أصل إلى مستشفى ٦ أكتوبر بالدقى مات أخى فوق الجهاز . ألقوا به فى غرفة قذرة كما يلقون بالآلاف من الموتى الفقراء المجهولين أو الموظفين تحت مظلة التأمين الصحى بلا واسطة للوزير أو رئيس الجهاز .

أخذونى إلى حيث رأيت الصراصير السوداء تجرى فوق البلاط ، فوق الترولى رأيت شيئاً ملفوفاً فى بطانية قذرة .

قدماء تطلان عاريتين مرعوبتين بلون الجير الأبيض بلا قطرة دم . عرفته من قدميه . الأصابع الطويلة لها شكل أصابعى . لم أستطع أن أرفع البطانية المهلهلة لأرى وجهه .

قلت للمستولين عن الجهاز : هذه جريمة قتل . كانوا من زملائى الدكاتره ، بعضهم يمسك سبحة صفراء بين أصابعه ويرتدى لحية سوداء طويلة ، قالوا : الموت بإرادة الله يا دكتورة ألا تؤمنين بالله ؟ هكذا فى غمضة عين انقلب الوضع . كنت أتهمهم بالإهمال إلى حد القتل . أصبحت أنا المتهمه بعدم الإيمان أو الكفر .

الليلة الأخيرة لأخى فى هذه الدنيا قضائها عارياً داخل ثلاجة المستشفى . فى الصباح سافر داخل الكفن والصندوق إلى قريتنا كفر طحلة حيث المقبرة .

فى القرية تجمعت النساء والرجال من عائلة السعداوى من الفلاحين والفلاحات بالوجوه المترية المرهقة والأيدى المشققة .

عائلة شكرى بيه سليله المجد حتى طلعت باشا فى اسطنبول « المرحوم جدى والد أمى منح أخى اسم طلعت على اسم جده العظيم فى تركيا » رائحة العرق والطين فى الجاليب القديمة تختلط برائحة العطور الأنثوية فى الفساتين والطرح السوداء الحريية .

أكثرهم شجاعة كانت زينب ابنة عمتي المرأة الفلاحة الفارعة القائمة تذكرني بجذتي مبروكة « أم أبي » خطوتها الواسعة تدب فوق الأرض . صوتها مملوء بالقوة : ماتحمليش هم حاجة يا دكتورة . أحنا فتحنا المقبرة وكل حاجة جاهزة عشان الجنازة .

زينب الفلاحة لم تولول مثل النسوان القادمات من المدينة ، الملفوفات في الطرح والفساتين الحريرية ، الشاحبات الوجه من عدم رؤية الشمس ، أو عدم الحركة أو العمل في الحقل . إنهن من عمر زينب لكن زينب لا تكف عن الحركة والعمل من طلوع الشمس حتى غروبها . وهن جالسات متربعات فوق الشلت . يولولن أو يثرثرن أو يتقاسمن الميراث قبل أن يتوارى الجثمان في المقبرة .

كان المنادى في القرية قد طاف قبل صلاة الجمعة يعلن عن وفاة الأستاذ طلعت السعداوى ابن فلان وشقيق فلان وفلانة ، هذه الفلانة هي أنا . ذكر المنادى اسمي كاملاً « الدكتورة نوال السعداوى » . تجمع الفلاحون من قريتي والقرى المجاورة فوق الجسر ، ينتظرون قدومي ، يريدون تقديم العزاء لى . إنهم يعرفوننى منذ كنت طبيبة الوحدة الصحية المجهزة في طحلة ، وقد سعت كثيراً لإدخال الكهرباء والمياه النقية ورصف الطريق الزراعى وفتح المدرسة للبنات ومركز الشباب ، ومازلت أسعى حتى اليوم لإدخال شبكة المجارى أو الصرف الصحى .

لم يشعر أحد من الفلاحين أن اسم المرأة عورة إذا نادى به المنادى ، أو أن مشاركتها في جنازة أخيها نوع من الزنا مثل خروجها إلى العمل بأجر .

إلا أن بعض الدكاترة من حملة الشهادات العليا من الرجال في العائلة الكريمة كانوا على خلاف مع الرجال الفلاحين . لاحظت أن لبعضهم اللحن الطويلة والمسابح الصفراء ، سمعتهم يقولون : اسم المرأة لا يصح أن ينادى به كما ينادى اسم الرجل ، والمرأة ممنوعة من السير في الجنازات حسب الإسلام الصحيح .

دار النقاش بين الدكاترة والفلاحين حول الإسلام الصحيح . والإسلام غير الصحيح . لم أشارك في النقاش ولم أشارك أيضاً في الجنازة . قلت لنفسي ربما

يتحول الأمر إلى معركة بين الدكاترة والفلاحين ، وأهم شيء عندي هو أن يدفن أخى ، وأطمئن على مثواه الأخير قبل أن أعود إلى القاهرة .

بعد الجنازة والدفن ، بدأنا نحسب المصاريف كان الاتفاق أن أدفع ٥٠% من المصاريف - بعد أن استولت زوجة المتوفى على معاشه من الحكومة والذي صرفه قبل الوفاة بساعة واحدة ، وقدره ٦٥٠ جنيهاً مصرياً ، إذ دست يدها فى جيبه وهو فوق الجهاز وقبل أن يلفظ أنفاسه - وأخى الأصغر يدفع النصف الآخر .

فى الطريق الزراعى من القرية إلى المدينة دار فى رأسى هذا السؤال : لماذا يكون اسم المرأة عورة ومشاركتها فى الجنازة عورة ؟

فلماذا لا تكون أيضاً فلوس المرأة عورة ؟ ولم يعترض أحد من الدكاترة على أن أدفع المصاريف .



طريقى ليس إلى بكين (*)

منذ مؤتمر المرأة الأول فى المكسيك عام ١٩٧٥ دُعيتُ إلى عدد من المؤتمرات الدولية تحت شعار الأمم المتحدة ، عددها كبير ، وأثرها قليل ، رغم ما ينفق فيها من مال وجهد ، وبعد مؤتمر المرأة فى كوينهاجن عام ١٩٨٠ بدأت أشك فى جدوى هذا العمل ، وكنت قد أنفقت عامين من عمري فى أديس أبابا وببيروت ، حيث اشتغلت بالأمم المتحدة ، مستشارة لبرامج المرأة فى أفريقيا وآسيا (عامي ١٩٧٩ ، ١٩٨٠) قدمت بعدهما استقالة صغيرة تتكون من عبارة واحدة هى « لا أظن أن تحرير النساء فى أفريقيا وآسيا سيحدث من خلال الأمم المتحدة » .

وقلت لنفسى وأنا فى طائرة العودة إلى بيتى فى مصر : ربما تكون الأعمال الأدبية وكتابة الروايات أجدى وأعمق أثراً . إلا أن الدعوة جاءتنى لحضور مؤتمر المرأة فى نيروبي عام ١٩٨٥ وذهبت . واشتركت فى مظاهرة نسائية تتكون من ستة آلاف امرأة سوداء ضد المؤتمر الحكومى (الذى عقد فيما يشبه قصر كينيا) حيث قرأت مندوبات الحكومات خطاباً مكتوبة من قبل « حبراً على ورق مصقول » .

وتأكدت بعد مؤتمر نيروبي أن تحرير النساء خاصة « السوداوات الفقيرات فى أفريقيا » لن يكون عن هذا الطريق ، وكم تصدعت رأسى من قراءة تقارير الأمم المتحدة عن نساء أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، أو ما يسمونهن « نساء العالم الثالث » تقارير سميكة تأتىنى بالبريد حيث أكون ، تشبه قرارات مجلس الأمن لإيقاف المذابح فى البوسنة أو فلسطين أو الصومال أو رواندا أو .. بأنها حبر على ورق .

واليوم فى درج مكتبى الدعوة إلى مؤتمر المرأة فى بكين (سبتمبر ٩٥) أمسكها فى يدي ، وفى يدي الأخرى صحيفة الصباح تحكى عن المذبحة فى شرق البوسنة فى « سيربيرنيتسا » تذكرنى بمذبحة صبرا وشاتيلا ، وعين الحلوة ، والكرامة ، والرشيديّة ، وجثث النساء والأطفال الفلسطينيين واللبنانيين رغم مرور السنين أراها

(*) نشر بجريدة الأهرام ١٩٩٥/٧/٣٠ .

تنزف بمثل ما تنزف هذه الجثث ، عيون الأطفال المقتولة لاتزال مفتوحة ، تطل على العالم بدهشة ، ملامحهم متشابهة ، رغم اختلاف البلاد والأديان والألوان ، الفم مفتوح والدم متجمد عند النفس الأخير ، والعالم كله يشهد الجريمة ، يرى القتلة من إسرائيل أو من الصرب ، دون أن يفعل شيئاً ، بل إنه يساند القتلة ضد المقتولين ، والعناوين الكبيرة فى الصحف تقول : هزم الصرب قوات الأمم المتحدة فى موقعة سريبرنيتسا شرق البوسنة . هذه القوات الدولية (التى شكلت عام ١٩٤٨) ، وطائرات حلف الأطلنطى انهزمت أمام قوات الصرب الصغيرة المحدودة ١١٩ فتح الصرب نيرانهم على ٨٠ ألف نسمة سكان المدينة المحاصرة يعيشون منذ ٣ سنوات بلا ماء ولا كهرباء ولا غاز وممنوع عليهم الإمساك بالسلح للدفاع عن أنفسهم ١ وفى الصورة فى الصحيفة يتسهم المسئولون عن الأمم المتحدة ويقولون : انتصار الصرب لا يعنى فشل الأمم المتحدة لأن خيارنا هو « الحوار » وليس استخدام القوة العسكرية ١ .

يا إلهى ١ لم نسمع هذه العبارة فى يناير ١٩٩١ قبل حرب الخليج التى قتل فيها نصف مليون نسمة تحت قرار الأمم المتحدة ، وخيارها حينئذ « القوة العسكرية » وليس الحوار ١ (أى خيار ١٩) .

تلعب القوى الدولية ومعها الأمم المتحدة دورها المزدوج من وراء الستار ، فهى تشجب الاعتداء فى بيانات ورقية أو كلامية ، وتمد الجيش المسلح بمزيد من السلح ، وتمنع عن الشعب الأعزل أى سلح فلا يستطيع الدفاع عن نفسه .

نساء وأطفال يواجهون جيشاً مسلحاً بأجسادهم العارية ، والدعوات إلى مؤتمر المرأة فى بكين تطير عبر البريد إلى النساء ، تتنافس عليها النساء ، فما أجمل بكين فى بداية الخريف ، وما أجمل تقارير الأمم المتحدة عن الفقر والنساء فى أفريقيا بالذات ، إلا أننى تأكدت مما تأكدت منه منذ عشرين عاماً ، أن الطريق إلى تحرير النساء لا يكون فى بكين أو كوينهاجن . الطريق إلى تحرير النساء يبدأ من هنا ، من مسقط الرأس ، من المكان الذى ولدنا فيه ونموت فيه ، وإلا فإن كتابة القصص والروايات أجدى وأمتع ١



وماذا تقول المرأة فى القرن الواحد والعشرين(*)

العالم ينطلق نحو آفاق فى العلم والفن ونظريات المعرفة والسلوك والقيم المادية والروحية على حد سواء . المرأة العربية هى نصف العالم العربى عدداً . عقولاً وأرواحاً . ولا بد أن يكون لها دورها فى تشكيل عالم أفضل فى القرن الواحد والعشرين ، عالم أكثر عدلاً وحرية وحباً وتعاوناً .

هل تظل المرأة العربية غارقة فى مشاكل القرن التاسع عشر حائرة بين العمل أم الزواج السفور أم الحجاب ، الدنيا أم الآخرة .. فى الوقت الذى تركب فيه المرأة الإسرائيلية الطائرات العسكرية وتتدرب على السلاح النووى لضرب أى بلد عربى يقول لا .

ليس معنى ذلك أن تتخربط المرأة العربية فى القوات المسلحة وتظل عانساً بغير زواج أو أمومة أو حب . لكن ما أعنيه هو أن تجمع المرأة العربية بين حياتها الخاصة وحياتها العامة .. أن تدرك أن هذا الفاصل بين الحياة الخاصة والعامة فاصل مزيف يجب أن يزول . فالإنسان « رجلاً أو امرأة » عضو فى مجتمع كبير وعضو فى أسرة فى الوقت ذاته . ولا يمكن أن يتفرغ الإنسان لحياته الخاصة فقط .

إن حدث ذلك فى القرون الماضية فقد كان الناس غير مدركين للترابط الوثيق بين الفرد والمجتمع . كان العمل السياسى منفصلاً عن الحياة الاجتماعية والشخصية للملايين من الناس والرجال . لهذا السبب كانت الحكومات قادرة دائماً على البطش بهؤلاء الملايين واستغلالهم فى أعمال السخرة والعبودية ، سواء داخل البيت « النساء » أو فى الحقول والمصانع والأشغال الشاقة الأخرى . يعملون طول النهار بأقل الأجور ، يتم قهرهم ثقافياً بالتجهيل الإعلامى ، بالتجهيل التعليمى فى المدارس . يتدربون على الطاعة العمياء منذ الطفولة ، على اعتبار أن الحكام وأولى الأمر هم مندوبو الله فوق الأرض .

(*) نشر بجريدة العربى / القاهرة ١٩٩٥/٢/٦ .

هذه بقايا الأفكار العبودية التي حافظ عليها أصحاب السلطة في الشرق والغرب على السواء . في البلاد الإسلامية والمسيحية واليهودية والبوذية والهندوسية وغيرها .

في القرن الحادي والعشرين يسير الناس نساءً ورجالاً نحو إدراك أكبر أن طاعة الله في الحرية والعدل والحب . الله في أعماقنا هو الضمير الذي يجعلنا أكثر إنسانية . أكثر تعاطفاً وتعاوناً ، وليس هو السيف أو الرصاصة أو القنبلة أو القوات البوليسية أو العسكرية .

في القرن الحادي والعشرين يدرك الناس أن العالم أصبح محكوماً بقوة عسكرية نووية دولية تدعمها قوة اقتصادية استعمارية جديدة تتكلم لغة جديدة ظاهرها السلام والعدل والمساواة وحقوق الإنسان والديمقراطية . باطنها الحرب والضرب لكل من قال «لا» بل لكل من اكتشف الخديعة أو الازدواجية .

الأمل في القرن الحادي والعشرين أكبر من القرن العشرين . لأن الازدواجية كشفت دولياً وإقليمياً . في بلادنا العربية ارتفعت الأصوات الوطنية تسأل عن الترسانة النووية في إسرائيل . لماذا لا يفتشها هؤلاء المندوبون عن الأمم المتحدة في مجلس الأمن كما يفتشون البلاد العربية الأخرى ؟

إن عملية تزييف الوعي لن تستمر في القرن الجديد كما استمرت في القرون السابقة . إن انعزال النساء عن الحياة السياسية العامة لن يستمر ، لأن غياب نصف المجتمع العربي عن العمل العام هو غياب للمجتمع العربي كله عن الحياة السياسية الدولية أو المحلية .

أمام الوطن العربي تهديد كبير بسبب التضاعف المستمر لقوة أمريكا وإسرائيل النووية والاقتصادية . هذا التهديد سيفرض على العالم العربي وعياً جديداً وإدراكاً جديداً بأن النساء العربيات قوة كبيرة كامنة لم تلعب دورها بعد .. قوة كبيرة يريدون عزلها في البيوت وراء الحجاب .. وراء اللاعمل والبطالة . أو السخرة بلا أجر داخل الجدران الأربعة ، فماذا تقول المرأة العربية في القرن الجديد ؟

المرأة لا تولد امرأة .. بل تصبح امرأة !

نحن فى فبراير سنة ١٩٩٣ من نافذتى الزجاجية الفسيحة أطل على « قمة التشابل » كما يسمونها هنا فى جامعة « ديوك » ورؤوس الأشجار الباسقة تناطح السحب ، الصنوبر والأرز وأنواع أخرى ضخمة تشبه الأشجار فى إفريقيا الاستوائية وغابات الهند وسرى لانكا الكثيفة . أمامى فوق المكتب كشف بأسماء الطلاب والطالبات الذين اختاروا الانضمام إلى فصل « المرأة والإبداع » ، والذي أقوم فيه بتدريس رواياتى وأعمالى الأدبية ، وأعمال أخرى لبعض الأدباء والأديبات من مختلف أنحاء العالم .

الطلبة والطالبات هنا هم الذين يختارون الأستاذ . جاءوا من القارات الخمس ليدرسوا هنا فى جامعة ديوك فى ولاية نورث كارولينا . واحدة منهم اسمها « مايا » من الهند ، قالت لى أول يوم دخلت فيه الفصل : « قرأت روايتك » « فردوس » منذ أربع سنوات فغيرت حياتى كلها ، وشاب أمريكى يدرس الطب ومع ذلك أدرج اسمه فى كشف فصل المرأة والإبداع ، وسألته لماذا ؟ قال : لأنى مثلك تماماً أحب الأدب والطب معاً .

تجربة جديدة أعيشها هنا فى هذه الجامعة الأمريكية .

تجربة الربط بين العلم والفن والطب والأدب والحلم والحقيقة والجسم والعقل ، أحمل لقباً جديداً هو « أستاذة زائرة » أعيش وسط الشباب والشابات . أكل معهم فى مطعم الطلاب . أتجنب مطعم الأساتذة . أشعر على نحو غريب أننى أنتمى إلى عالم الشباب وليس الكهول . شعرى شاب وأبيض منذ زمن بعيد . لكن بشرتى لاتزال مشدودة وقلبى مشدوداً إلى المستقبل . أمشى أكاد أجرى كما كنت وأنا طفلة . لم تتغير خطوتى فوق الأرض . لا أعرف هذه المشية المرتخية البطيئة لنساء الطبقات العليا من ذوات الكعوب العليا الرفيعة .

نحن في فبراير ١٩٩٣ . وأنا أمشي فوق الممرات الطويلة بين سيقان الأشجار الممدودة عالياً مثل ناطحات السحب ، والمباني البيضاء الضخمة ذات الطراز الأمريكي القديم منذ القرن الماضي . والأسقف الحمراء تطل منها المداخل .

أتوقف أمام المبنى الأبيض الفارق في غابة من الشجر . إنه القسم الذي أدرس فيه . أرى اسمي مكتوباً فوق لوحة صغيرة من تحتها رف صغير يحمل البريد المرسل إلى ، والأخبار الجديدة عن الأنشطة في الجامعة . جامعة ديوك () تنطلقها السكرتيرة « جيل » بطريقة غريبة على أذني . امرأة أمريكية بيضاء البشرة جاءت من كارولينا الجنوبية ، حيث تتغير اللهجة مثل لهجة أهل الصعيد في بلادنا . « جيل » تعمل سكرتيرة القسم الأدبي ثم تتركب سيارتها الحمراء وتعود إلى مزرعتها حيث بيتها وابنتها وزوجها . إنها تملك مع أسرتها خمسمائة فدان وسبعين بقرة تحلبها وتبيع لبنها ، وأقول لها : لابد أنك من الأثرياء وتضحك جيل بصوت عال يشبه صوت الفلاحات في قرىتي كفر طحلة وتقول : لو كنت من الأثرياء ما اضطررت إلى العمل كسكرتيرة . لا أستطيع أن أعيش أنا وأسرتي من دخل الأرض والبقرة ، لأنه قليل بالنسبة لغلاء المعيشة ومصاريف الأسرة . نحن الفلاحون نعاني هنا من النظام الاقتصادي الذي يجعل أصحاب المصانع ، وخاصة مصانع السلاح هم الأثرياء ، أما أصحاب الأرض من الفلاحين من أمثالي فمازلنا نعاني .

تذكرت ، وهي تكلمني ، مظاهرات الفلاحين الذي خرجوا بالآلاف من مختلف بلاد أوروبا ، وتجمعوا أمام مقر المجلس الأوروبي في ستراسبورج يوم ١ ديسمبر ١٩٩٢ ، وقدموا احتجاجاً ضد الاتفاقية الأمريكية الأوروبية بقطع الدعم الزراعي ، وفي برن ، بسويسرا ، وأنا أمشي أمام البرلمان السويسري يوم ١٤ ديسمبر ١٩٩٢ رأيت مجموعة من الفلاحين ، تتوسطهم بقرة ضخمة تسد مدخل البرلمان . كان مشهداً غريباً ، ذكرني على نحو ما بالبقرة المقدسة التي يعبدونها بعض الناس في الهند . لكنني عرفت أنها مظاهرة احتجاج من الفلاحين (وأبقارهم أيضاً) على قرار الحكومة بشق طريق في الجبال يدمر مزارعهم ومراعيهم . وقال لي واحد من الفلاحين بصوت غاضب : إنهم أهل الصناعة الذين يحكمون ويضطشون بأهل الزراعة من الفلاحين .

إن السكرتيرة « جيل » فلاحه تحلب سبعين بقرة وتكتب على الكمبيوتر ، وتعرف قوانين الجامعة ، وتحكي لي الكثير عن الصراعات بين أهل الزراعة وأهل الصناعة

والسلاح فى المجتمع الأمريكى . وهى لا تقف لأحد حين يدخل عليها وإن كان عميد الجامعة أو الرئيس كلينتون . هكذا هى تقول . إنها لا تقف لأحد ، لأنها تؤدى عملها بالكامل ، وليس ضمن واجباتها الوقوف لأى أحد .

إنه يوم الثلاثاء ٩ فبراير ١٩٩٣ . الشتاء هنا يذكرنى بشتاء نيودلهى فى الهند . دافئ والشمس ساطعة . الأشجار ساكنة تماماً بلا ريح . الثلاثاء من كل أسبوع هو اليوم المشحون بالعمل . حيث التقى مع الطلبة والطالبات فى فصل الإبداع والمرأة . حين طلبت منى الجامعة أن أقوم بالتدريس ، قلت : « أنا لم أشتغل بالتدريس أبداً وكم أكره كلمة التدريس والمدرسين » لكنهم قالوا لى : التدريس هنا مختلف ، ولك مطلق الحرية فى الاختيار . قلت : اختيار ماذا ؟ قالوا : اختيار ما تدرسين .

وهكذا اخترت أن أدرس أعمالى الأدبية . كم هى تجربة جديدة وشيقة . أن تقوم الأدبية بتدريس رواياتها للطلاب والطالبات . والتدريس هنا يعنى الجدل والحوار والنقد . لأول مرة أسمع نقد الطلاب والطالبات لرواياتى وقصصى . بعضهم بدا لى أكثر فهماً للأدب من بعض النقاد .

فى إحدى هذه الأمسيات دار الجدل حول المدرسة الجديدة لنقد الأدب النسائى . ذهبت إلى الأمسية مع شريف حتاتة (وهو أيضاً أستاذ زائر فى جامعة « ديوك » يجمع فى محاضراته بين الأدب والسياسة) وتعرفنا على عدد من الطلاب والأساتذة . منهم « توريل موى » وهى أستاذة للنقد الأدبى النسائى الجديد . أهدتنى بعض مؤلفاتها وآخرها كتاب جديد عن سيمون دى بوفوار .

قرأت الكتاب (٣٥٧ صفحة) فى ليلة واحدة . إنه رؤية جديدة أكثر صدقاً وعمقاً لأعمال سيمون دى بوفوار وحياتها ، بلا فصل بين الحياة والنص .

وتدعونى « توريل موى » إلى العشاء فى منزلها ، داخل غابة من أشجار الصنوبر والأرز . دقيقة الملامح ، نحيفة الجسم ، تتكلم اللغة الإنجليزية بلكنة نرويجية ، فهى فى الأصل من النرويج ، وحماسها للكاتبات من النساء صادق عميق ، وخاصة فرجينيا وولف وسيمون دى بوفوار .

تطل من وراء نافذتها الزجاجية على قمم الأشجار وتقول : لا يمكن الفصل بين حياة الأديب أو الأدبية والنص المكتوب لا يمكن فصل حياة سيمون دي بوفوار عن كتاباتها وأعمالها المنشورة . الإنسان هو ما يكتب من نصوص . سيمون دي بوفوار واحدة من أهم المفكرين في العالم خلال القرن العشرين ، وتعرضت لهجوم كبير من النقاد في فرنسا ، بعضهم اتهمها بالسطحية ، أو النرجسية أو التمحور حول الذات ، وبعضهم أهمل أعمالها الأدبية ولم يهتم إلا بحياتها الشخصية كامرأة أو علاقتها بسارتر وبعضهم لجأ إلى الصمت وتجاهل وجودها تمامًا وانشغل بكتاب من الرجال الهامشين في الأدب الفرنسي .

وأعود بذاكرتي إلى الوطن . يذكرني الهجوم على سيمون دي بوفوار بالهجوم الذي تتعرض له بعض الكاتبات في بلادنا ، لقد ولدت سيمون دي بوفوار في فرنسا عام ١٩٠٨ ، وأنا ولدت في مصر بعدها بثلاثة وعشرين عامًا . وحين أسمع هجاء النقاد الفرنسيين لها أدرك كيف يتشابه النقاد في فرنسا ومصر وغيرهما من بلاد العالم ، رغم اختلاف الزمان أو اللغة أو التاريخ أو الدين أو الثقافة .

ولعل أهم عبارة كتبتها سيمون دي بوفوار في كتابها الجنس الآخر (١٩٤٩) هذه العبارة التي أصبحت مثل الحكمة النسائية السائدة في أمريكا اليوم .. « المرأة لا تولد امرأة بل تصبح امرأة » .

معنى ذلك أن المجتمع هو الذي يصنع شخصية المرأة وصفاتها الأنثوية وليس الطبيعة أو البيولوجيا .

استطاعت هذه الفكرة أن تهدم فكرة سابقة عليها كان يتبناها سيجموند فرويد تقول : إن الطبيعة أو البيولوجيا هي التي تحدد مصير الإنسان الرجل أو المرأة . وبالإجليزية

لكن الفلسفة تغيرت ، وتغير معها علم النفس وعلم الجسم (البيولوجيا) وتغير أيضًا الأدب والنقد الأدبي . شارك في هذا التغيير عدد قليل من الرجال المفكرين ، وعدد أكبر من النساء المفكرات والكاتبات في العالم ، منهن سيمون دي بوفوار ، ومن قبلها كانت فرجينيا وولف التي ولدت عام ١٨٨٢ في إنجلترا ، وتعرضت لهجوم أشد

مما تعرضت له سيمون دي بوفوار في فرنسا . إلى حد أن قضت أيامها الأخيرة مع المرض النفسى (مثل كاتبتا العربية مى زيادة) ثم ماتت منتحرة عام ١٩٤٥ .

حاول النقاد دفن فرجينيا وولف ، وسيمون دي بوفوار إلى الأبد فلا يذكرهما أحد . لكن الناقدات الجددات من النساء بدان إعادة اكتشاف هاتين الكاتبتين فى ضوء المدرسة النقدية الجديدة ، وإعادة اكتشاف تلك القيمة الكبيرة لأعمالهما الأدبية غير المنفصلة عن حياتهما ونضالهما من أجل الإبداع والحرية .

فى المساء ذهبت لمشاهدة فيلم جديد من إخراج مخرجة إنجليزية اسمها « سالى بوتر » أخذته عن رواية فرجينيا وولف « أورلاندو » جيل جديد من المخرجات السينمائيات يحاولن إعادة اكتشاف الأدبيات من مثيلات فرجينيا وولف .

ساعتان من المتعة الفكرية داخل عقل هذه الأدبية البريطانية التى لم يحتملها المجتمع البريطانى فى الأربعينيات من هذا القرن العشرين ، وقتلت نفسها بيدها ، بعد أن خطت هذه اليد عدداً من المؤلفات الأدبية لم تدرك قيمتها الحركة النقدية فى زمانها .



مظاهرات النساء في أوروبا

فى ليلة يوم ١٠ ديسمبر ١٩٩٢ ، وجدتني أسير فى مدينة زيوريخ وسط تسعة آلاف امرأة سويسرية يرتدين السواد ، يحملن الشموع ، درجة الحرارة صفر والصقيع يهبط ، يسرن بخطوة واحدة ثابتة فى مظاهرة صامتة يحملن لافتات تقول : (نعلن احتجاجنا على اغتصاب ثلاثين ألفاً من نساء البوسنة بواسطة قوات الصرب ، لابد من اعتبار « الاغتصاب » جريمة حرب مثل القتل تماماً « تسقط العنصرية الجديدة » ، « تسقط النازية الجديدة » .

« لماذا إرسال القوات المسلحة الأمريكية إلى الخليج العربى وإلى الصومال ، وليس إلى البوسنة » ١٥

« يسقط النظام العالمى الجديد ذو الوجهين » ١١

« يسقط النظام الطبقي الأبوى .. » إلخ .. إلخ (.

وفى كل مدينة فى سويسرا نظمت الحركة النسائية المظاهرات احتجاجاً على اغتصاب نساء البوسنة .. آلاف النساء خرجن فى الليل المظلم والصقيع يهتفن ضد النظام العالمى الجديد ، وضد اضطهاد النساء والفقراء .. سرت بينهن لا أشعر بالبرد ولا أشعر بالظلام ، وأقول لنفسى : ترى هل خرجت فى بلادنا مظاهرات مثل هذه المظاهرات ١٥ هؤلاء النساء فى أوروبا اللاتى يصورن على أنهن إباحيات ومنحلات ، هؤلاء النساء كن أقدر من الرجال عندنا على تنظيم المظاهرات بالآلاف ضد اغتصاب النساء المسلمات فى البوسنة ١١ هؤلاء النساء كن أكثر وعياً بالترابط بين السياسة الدولية والدين والاقتصاد والجنس .. ألا يمكن أن نعيد النظر إلى أنفسنا وإلى الآخرين ؟ ألا يمكن أن نفكر بعقولنا فيما يحدث فى العالم من حولنا ١٥ ألا نكف عن اعتبار المرأة المسلمة مجرد عورة يجب أن تغطى ، أو أن الرجل المسلم ليس إلا ذئباً شاغله الأوحى فى الحياة هو النظر إلى ما قد يظهر من وجه المرأة أو ذراعها أو ساقها ١٥

ألا يمكن أن نعيد النظر إلى سياستنا الاقتصادية بحيث نستقل عن الآخرين ونطعم أنفسنا بأيدينا وإنتاجنا ، وليس عن طريق المعونات والقروض - أن تكون السياحة جزءاً من النشاط الثقافي والاقتصاد ، وليس المصدر الأساسي لبقائنا على قيد الحياة .

الصمت نوع من العدوان

في اجتماع للكاتبات من مختلف أنحاء العالم في مدينة سان سباستيان بأسبانيا في الفترة من ٢٧ - ٢٩ نوفمبر ١٩٩٢ - تساءلت كاتبة أسبانية من مدريد اسمها « لوزيرا اتكزفيك » :

لماذا يصمت النقاد عن إبداع الكاتبات النساء اللاتي يكسرن القيود ؟

وردت كاتبة شابة لم تذكر اسمها ولا اسم بلدها ، ولكنها استشهدت بقول كاتبة أفريقية معروفة اسمها « أما آتا إيدو » قالت : « إذا رفض أحد النقاد الحديث عن أعمالك فهذا نوع من العنف ، لأنه يسعى إلى قتلك كإنسانة مبدعة » .

هكذا يصبح الصمت نوعاً من العدوان ، وفي ختام الندوة اتفقت الكاتبات رغم اختلاف الجنسية واللون والعقيدة .. إن شعارنا يجب أن يكون « كسر الصمت » .

لأنه « الصمت » وليس « الاختلافات » هو الذي يشل الإنسان الخلاق ، امرأة ، أو رجلاً .



المرأة وتوازن القوى في العالم (*)

خلال الشهور الأربعة الماضية حضرت خمسة مؤتمرات عالمية للمرأة في الولايات المتحدة ، وإنجلترا ، والنرويج ، وتنزانيا ، والنمسا : وقد عقد المؤتمران الأخيران خلال أكتوبر الماضى فى « أروشا » (تنزانيا) وفيينا (النمسا) نظمتها الأمم المتحدة من أجل الإعداد لمؤتمر المرأة العالمى الذى سيعقد فى نيروبي (يوليو ١٩٨٥) بمناسبة انتهاء عقد المرأة (٧٥ - ١٩٨٥) .

وقد أصبحت قضية المرأة اليوم من القضايا السياسية الهامة التى يمكن أن تسبب القلق والأرق لكثير من حكام الغرب ومنهم رئيس الولايات المتحدة . لقد تزايدت التنظيمات النسائية قوة ووعياً منذ منتصف هذا القرن وأصبحت تمثل خطراً متصاعداً على الأنظمة الرأسمالية العالمية ..

ورغم الاختلاف فى الآراء والفلسفات بين حركات تحرير المرأة فى العالم إلا أنها تتفق فى معظمها على فكرتين أساسيتين :

١ - إن التحرير الحقيقى للنساء لا يمكن أن يحدث فى ظل مجتمع رأسمالى طبقى .

٢ - إن التحرير الحقيقى للنساء لا يمكن أن يحدث فى ظل نظام عائلى أبوى أو قائم على سيطرة الرجل .

وقد استطاعت التنظيمات النسائية فى أمريكا أن تقود فى السنين الأخيرة حملة ضد حكومة الولايات المتحدة ، وأن تعلن فى اجتماعاتها ونشراتها المطبوعة أن إدارة ريجان هى المسئولة الأولى عن تهديد العالم بحرب نووية عالمية ، وإشعال الحروب فى بلاد العالم الثالث ، ومساندة الأنظمة العنصرية الإرهابية فى أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية .

وفيما يخص قضية الشرق الأوسط كانت معظم التنظيمات النسائية ترى أن الإمبريالية العالمية والصهيونية مترابطتان ، وأنهما العقبة الأساسية أمام تحقيق السلام والعدالة والتنمية فى بلاد الشرق الأوسط .

(*) نشر عام ١٩٨٥ .

لكن التنظيمات النسائية الصهيونية والتي تسمى نفسها : « التنظيم النسائي اليهودي » كانت تعترض دائماً على إدانة الصهيونية ، وتحاول أن تعكس الأمور فتقول : إن الصهيونية حركة تحريرية أما منظمة التحرير الفلسطينية فهي حركة إرهابية . وكانت تعترض أيضاً على ربط قضية المرأة بمشاكل الرأس مالية . مدعية أن مشاكل المرأة اجتماعية بحتة وليس لها علاقة بالسياسة أو الاقتصاد .

ولم يكن لهذا المنطق أن يسود في المؤتمرات النسائية العالمية وإن عقدت في قلب الولايات المتحدة ذاتها . وذلك أن ثلاثين عاماً من الخبرة والعمل قد سلحت معظم العناصر النسائية بالفهم السياسي الواعي ، والقدرة على ربط القضية السياسية بالقضية الاجتماعية .

وقد لمس رونالد ريجان بنفسه في حملته الانتخابية الأخيرة مدى عداوة التنظيمات النسائية العالمية لسياسته بما فيهم بعض التنظيمات النسائية الأمريكية .

وقبل انعقاد المؤتمر العالمي للمرأة في فيينا أكتوبر الماضي اجتمع ريجان مع المنظمات النسائية اليهودية والصهيونية وأعلن في الاجتماع أن حكومته لن تسمح بأن ينحرف المؤتمر العالمي للمرأة في نيويورك (يوليو ١٩٨٥) عن مساره الاجتماعي ليصبح مؤتمراً سياسياً يوجه الإدانة للصهيونية والإمبريالية كما حدث في مؤتمر المرأة السابق في كوبنهاجن (يوليو ١٩٨٠) وأنه إذا حدث ذلك فسوف تنسحب الولايات المتحدة من مؤتمر المرأة في نيويورك .

في هذا الجو المليد بالتهديدات الأمريكية الصهيونية عقد مؤتمر المرأة العالمي في فيينا ، وحشدت له الوفود من المنظمات الصهيونية والأمريكية . ولم يكن هناك منظمة واحدة عربية ، مع أن الهيئة الداعية لهذا المؤتمر هي الأمم المتحدة (لجنة التخطيط للإعداد لمؤتمر المرأة العالمي في نيويورك) وسألت رئيسة هذه اللجنة (دام نيتا بارو) عن سبب غياب التنظيمات النسائية العربية ، وقالت لي السيدة بارو : لقد أرسلنا دعوات لجميع المنظمات والهيئات النسائية غير الحكومية في جميع أنحاء العالم بما فيها البلاد العربية . ودهشت فعلاً . هل ضاعت الدعوات في البريد ؟ هل وصلت الدعوات ولم يهتم أحد ؟ أم أن جميع الهيئات النسائية في العالم العربي حكومية ولا توجد هيئات غير حكومية ؟

كان عدد عضوات مؤتمر فيينا مائتي امرأة من جميع أنحاء العالم . لم يكن بينهم إلا ثلاث نساء عربيات . عصام عبد الهادي وليندا مطر ، وقد جاءتا ضمن وفد الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي . وكنت أنا ثالثتهن ، وقد سافرت ضمن وفد منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية .

وجاءت النتيجة النهائية لمؤتمر فيينا على عكس ما أرادته القوى الصهيونية الأمريكية . وشمل التقرير النهائي للمؤتمر على هذه النقاط :

١ - قضية المرأة لا تتفصل عن القضايا السياسية والاقتصادية عالمياً ومحلياً .

٢ - السلام لا يتحقق بغير عدل .

٣ - الصهيونية والإمبريالية والتفرقة العنصرية والجنسية وعدم عدالة النظام الاقتصادي العالمي كلها أهم العقبات أمام تحقيق السلام والعدالة والتنمية في بلاد العالم الثالث .

٤ - لاتزال النساء وخاصة نساء العالم الثالث هن الفئة الأكثر تعرضاً للقتل في الحروب ، والأكثر معاناة من الاستغلال والفقر والهجرة .

٥ - لاتزال النساء (رغم كونهن نصف المجتمع) بغير قوة سياسية فعالة وقادرة على تغيير النظم والقوانين لصالحهن .

إن القوى السياسية الفعالة في العالم اليوم يمين أو يسار لا تضم نصف المجتمع من النساء إلا بنسبة ضئيلة (٥% - ١٥%) لاتزال النساء في لعبة التوازن بين القوى السياسية مجرد أقلية هامشية ، تسرى عليها أحكام التفرقة العنصرية والجنسية كما تسرى على الأقليات ، ويتعرضن لأن يكن كبش الفداء حين يقع الصراع الحاد بين القوى السياسية المتنافسة على السلطة والثروة في أي بلد .

لقد أصبح الصراع حاداً في معظم بلاد العالم بين اليمين واليسار ، ولا شيء يمكن تحقيقه إلى الأمام أو إلى الوراء إلا كمحصلة لتوازن القوى بين الأحزاب السياسية الفعالة . فأين قوة النساء في هذه الحلبة أو الساحة المتصارعة ؟

من خلال حضوري لمؤتمر النساء في أمريكا وأوروبا أثناء الشهور الماضية لاحظت أن المرأة في الغرب أصبحت تفقد بعض الحقوق التي حصلت عليها خلال

السبعينيات والستينيات . إن لعبة توازن القوى السياسية أصبحت تميل ناحية اليمين ، وقى اليسار تنقسم على نفسها وتضعف ، والأزمة الاقتصادية تترك آثارها السلبية على النساء أكثر من غيرهن ، فالنساء لا يملكن القوة السياسية المنظمة التي تدافع عن مصالحهن ، ولا تزال النساء فى الاتحادات العمالية والنقابات المهنية والأحزاب السياسية أقلية غير فعالة (٥% - ١٥%) وأغلبهن فى القواعد الدنيا ولا نصيب لهن (إلا نادراً) فى المقاعد العليا حيث يصنع القرار .

وتدفع المرأة فى الغرب إلى العودة إلى البيت كحل لمشكلة البطالة الناتجة عن الأزمة الاقتصادية الرأسمالية . وتحاول القوى السائدة أن تجد حلاً للأزمة من خلال شعار جديد هو العودة إلى الدين ، أو الانصراف عن الماديات إلى الروحانيات .

وليس جديداً أن يستخدم الدين كغطاء لأزمة سياسية واقتصادية وليس جديداً أن تحاول القوى السياسية المتصارعة تفسير الدين حسب مصالحها . لكن الجديد هو وعى المرأة المتزايد بأنها تمثل نصف المجتمع ومع ذلك فهي لا تمثل أى قوة سياسية فعالة فى ساحة الصراع ، ولا تملك وسائل تفسير الدين حسب مصالحها ، وبالتالي فإنها أول من يقع عليها الاضطهاد الدينى والسياسى والاقتصادى .

وقد نشأت حركة دينية جديدة بين بعض حركات تحرير المرأة وخاصة فى أمريكا، وهى تدعو إلى ما يسمى : « الثيولوجية النسوية » وتتركز هذه الدعوة فى إحياء الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام والهندوكية والبوذية وغيرها . على أن يعاد تفسير هذه الأديان من وجهة نظر النساء . وتقود هذه الحركة منظمات النساء اليهوديات والأمريكيات . وهى منظمات تابعة للحركة الصهيونية ، وتحاول هذه الحركة تقسيم النساء حسب الدين ، وتأكيد شرعية دولة إسرائيل العنصرية القائمة على الدين اليهودى ، وكذلك الدولة العنصرية فى جنوب أفريقيا القائمة على الدين المسيحى ، وكذلك نظام الخمينى فى إيران الذى يدعى قيامه على الدين الإسلامى .

ورغم عدااء هذه المنظمات للثورة الإيرانية فى بدايتها الأولى حين رفعت شعارات الحرب ضد الإمبريالية الأمريكية إلا أنها أصبحت تدعم نظام الخمينى . فالقوى الصهيونية الأمريكية لا تخشى فى العالم الثالث إلا نشوب الثورات السياسية

الاقتصادية الاشتراكية . أما الحركات الدينية المتعصبة فهي لا تخشاها . بل قد تدعمها علناً أو سراً .

إن إسرائيل كدولة يهودية عنصرية قائمة على الدين لا يمكن أن تأمن وتستقر إلا وسط دويلات دينية مثلها . وهذا هو السبب الأساسي وراء حروب لبنان الطائفية ، ليصبح المحيط من حول إسرائيل مجرد دويلات صغيرة يحكمها ملوك الطوائف والمذاهب والأديان المختلفة .

إن هذه الصراعات الدينية الجديدة التي أصبحت تشتعل في أماكن متعددة من العالم الثالث بين مسلمين ومسيحيين ، أو هندوكيين وسيخ ، أو بين المذاهب داخل الدين الواحد مثل الصراع بين الشيعيين والسنيين ، كل ذلك ليس إلا نتيجة وجود دول عنصرية قائمة على الدين مثل إسرائيل تدعمها القوى الاستعمارية .

ويربط بين الدول العنصرية رغم اختلافاتها الدينية رغبة واحدة لاستخدام القتل والعنف من أجل اغتصاب حق الآخرين . وليس غريباً أن إسرائيل هي التي أصبحت تمد « الخميني » بالسلاح الآن ، وهي التي ترسل السلاح أيضاً إلى الحكومة العنصرية في جنوب أفريقيا وإلى الأنظمة الإرهابية العنصرية في أمريكا الوسطى (جواتيمالا والسلفادور وغيرهما) .

وتكون النساء دائماً من أول الضحايا في جميع هذه الأنظمة العنصرية القائمة على استخدام الدين سياسياً . ورغم أن إسرائيل تعلن في المؤتمرات الدولية أنها تساوى بين النساء والرجال إلا أن القوانين اليهودية داخل إسرائيل تجعل الرجل مسيطراً على المرأة . كما أن فكرة حجاب المرأة أو إخفاء رأسها ووجها نشأت في العصر العبودي وظهرت أول ما ظهرت في الديانة اليهودية . وترتكز هذه الفكرة على نقطتين أساسيتين :

١ - أن المرأة في النظام العبودي كانت تدرج ضمن قائمة الحيوانات باعتبارها جسداً صرفاً وليس لها رأس أو عقل . أي أنها مخلوق ناقص ، وبالتالي يجب أن تغطي نفسها خزيًا من طبيعتها الناقصة .

٢ - أن الرجل يملك المرأة كما يملك قطعة الماشية ، ومن حقه أن يربطها في الوتد أو يغطيها تماماً عن الأعين خشية أن يراها غيره فيسلبها منه .

وكانت المرأة في المعابد اليهودية تغطي رأسها ووجها . وقد رأيت بعض الراهبات في الأديرة والكنائس في روما يرتدين الحجاب الكامل الذي يغطي رؤسهن

ووجوهن . وعلى هؤلاء الذين يظنون أن حجاب المرأة قد نشأ في الإسلام أن يعودوا لدراسة التاريخ ونشوء العصر العبودي وبدء الديانة اليهودية .

والسؤال الذي يخطر لى الآن هو : ماذا أعدت المنظمات النسائية العربية والأحزاب والهيئات الشعبية العربية لمؤتمر المرأة العالمى فى نيروبي ؟

إن القوى الصهيونية والأمريكية تحشد صفوفها وتستعد لإرسال أكبر عدد ممكن من عناصرها إلى مؤتمر نيروبي . إنهم يعملون ليل نهار لإعداد الأوراق والبحوث لإثبات عكس ما يحدث للنساء الفلسطينيات المشرديات فى الأراضى العربية المحتلة ، وفى مخيمات اللاجئين فى لبنان وسوريا وتونس واليمن والجزائر وغيرها من البلاد العربية .

حين عدت إلى الوطن بعد آخر مؤتمر فى فيينا كان أول خبر قرأته هو محاولة تعديل قانون الأحوال الشخصية لإلغاء بعض حقوق المرأة وخاصة ذلك البند الذى يعطى المرأة حق طلب الطلاق إذا تزوج زوجها بأخرى .

إن إكراه المرأة على البقاء مع زوج لا تريده (فما بال أن يتزوج بأخرى) ليس من الإسلام . بل إنه بعض بقايا قوانين العبودية . وعلى الذين يظنون أنه من الإسلام أن يعودوا لدراسة القرآن وأحاديث الرسول دراسة متعمقة تتوخى الجوهر والمعنى وليس مجرد الحرف واللفظ .

إن هذه الأزمة الجديدة التى تهدد حقوق المرأة العربية ليست إلا جزءاً من الأزمة الاقتصادية والسياسية العالمية التى تحاول ارتداء أثواب دينية متعددة ، والتى تزرع التعصب الأعمى والعنف من أجل الإرهاب والاغتصاب وتقسيم شعوب العالم .

إن دروس التاريخ تؤكد أن الحق بدون قوة يعرض نفسه للاغتصاب . فأين هي قوة النساء العربيات ؟ لاتزال النساء أقلية هامشية فى جميع القوى والأحزاب العربية يمين ويسار (٢٪ إلى ١١٪) ولازلنا نلاحظ أنه كثيراً ما يضحى بحقوق المرأة من أجل كسب قوى دينية سياسية متصاعدة محلياً وعالمياً . وليس أمام النساء العربيات اليوم إلا تنظيم أنفسهن سياسياً ليصبحن قوة فعالة فى ساحة الصراع السياسى .



فى الطريق إلى المؤتمر العالمى للمرأة فى نىروبى (*)

تتحرك نساء العالم اليوم للإعداد للمؤتمر العالمى للمرأة الذى يعقد فى يوليو القادم فى نىروبى عاصمة كينيا . وأكثر النساء حركة الآن هى المنظمات الصهيونية العالمية ، وأبرزها المجلس القومى للنساء اليهوديات ، النساء اليهوديات الأمريكيات (ويزو) والمجلس العالمى اليهودى والمنظمة الصهيونية الأمريكية .

وقد اجتمعت فى باريس مؤخراً أكثر من ١٦٠ مندوبة عن هذه المنظمات للإعداد لمؤتمر المرأة فى نىروبى . وفى هذا الاجتماع قررت النساء الصهيونيات إرسال أكبر عدد منهن إلى مؤتمر نىروبى من أجل التصدى لنساء العالم الثالث (فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط) اللاتى جعلن من مؤتمر المكسيك ومؤتمر كوبنهاجن (السابقين) منبراً عالمياً لإدانة الصهيونية كحركة عنصرية ، وكذلك حكومة جنوب أفريقيا العنصرية .

وقررت النساء الصهيونيات أنهن لن يسمحن بتكرار ما حدث فى المكسيك وكوبنهاجن ، وإن - أى إدانة لإسرائيل أو الصهيونية ليست إلا نتيجة كراهية اليهود ومعاداة السامية . ووضعت هؤلاء النساء خطة من أجل ضرب أى قوة نسائية تحاول إدانة الصهيونية أو إثارة المشكلة الفلسطينية . وأعلن فى باريس سفير الولايات المتحدة فى اليونسكو (هون جان جيرا لد) أن الولايات المتحدة لن ترسل وفداً رسمياً إلى مؤتمر نىروبى إذا ما تكتلت نساء العالم الثالث ضد الحركة الصهيونية .

وسبق ذلك أيضاً اجتماع ريجان نفسه مع ممثلات المنظمات الصهيونية وإعلانه انسحاب أمريكا من مؤتمر نىروبى إذا ما تكررت مأساة مؤتمر كوبنهاجن والمكسيك ، وهذه المأساة هى سيطرة نساء العالم الثالث على المؤتمرين السابقين وإدانة الصهيونية واعتبارها حركة عنصرية مثلها مثل حكومة جنوب أفريقيا .

(*) يونيو عام ١٩٨٥ .

باختصار شديد : إن جميع المنظمات الصهيونية النسائية وغير النسائية تتحرك ليل نهار من أجل الإعداد لمؤتمر المرأة في نيروبي . فماذا نفعل نحن النساء العربيات لمواجهة هذا؟ الملاحظ أن المنظمات النسائية العربية لا تفعل شيئاً محسوساً حتى الآن .

والدليل على ذلك أنني لم أجد من النساء العربيات في مؤتمر فيينا (أكتوبر ١٩٨٤) إلا اثنتين فقط . رغم الأهمية الشديدة لهذا المؤتمر العالمي والذي عقد تحت إشراف الأمم المتحدة للإعداد لمؤتمر نيروبي وحضرته أكثر من مائتي مندوبة عن المنظمات النسائية في العالم ، كان معظمهن من المنظمات الصهيونية .

ومثل ما حدث في مؤتمر كوبنهاجن حدث في مؤتمر فيينا فقد حاولت المنظمات الصهيونية استبعاد كلمة الصهيونية تماماً من التقرير النهائي وعدم اعتبارها حركة عنصرية . وحدث صراع طويل على مدى يومين كاملين ، انهزمت فيه المنظمات الصهيونية أمام تكتل نساء العالم الثالث (من أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية) معنا نحن النساء العربيات ، وكنا ثلاث نساء عربيات فقط . عصام عبد الهادي وليندا مطر ونوال السعداوى . ونص التقرير النهائي على أن الصهيونية وحكومة جنوب أفريقيا حركات عنصرية استعمارية تستخدم العنف من أجل اغتصاب حقوق الغير . وتحاول المنظمات النسائية الصهيونية إبراز المشكلة وكأنها معاداة اليهود أو العداء ضد السامية ، وهي خدعة سياسية ودينية يحاولن بها التغطية على الحركة الصهيونية كقوة استعمارية سياسية واقتصادية بالإضافة إلى اغتصابها الوطن الفلسطيني والأراضي العربية وقيامها بعدد من المذابح التاريخية (صبرا وشاتيلا) في لبنان وغيرها .

والسؤال الآن : ماذا أعدت المنظمات النسائية العربية والهيئات الشعبية والأحزاب لمؤتمر المرأة العالمي في نيروبي ؟ إن قضية المرأة ليست منفصلة عن قضية تحرير الوطن والاستقلال والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتنمية الشاملة والوحدة العربية . لقد حاولنا بفضل حماس وتعاون الاتحاد العام للمحامين العرب أن نجهز لندوة عربية دولية للمرأة تعقد في القاهرة خلال فبراير للإعداد لمؤتمر المرأة في نيروبي . لكن ندوة واحدة لا تكفي . وحماس هيئة عربية واحدة لا يكفي .

ولماذا لا تدخل المرأة مجمع البحوث الإسلامية؟(*)

الاختلاف فى رأى ظاهرة صحية تحتاج إلى الرعاية لتنمو وتزدهر إرساء لقواعد الديمقراطية الصحيحة . وأنا أختلف مع الدكتورة سهير القلماوى فى رؤيتها لعدد من أمور الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية ومنها مشكلة المرأة المصرية .

إلا أن هذا الاختلاف فى رأى لا يحول دون الصداقة والعلاقة الإنسانية الواجبة بين الأفراد ، وخاصة بين حملة الأقلام والمدافعين عن حرية رأى والديمقراطية .

ولن أتعرض فى هذا المقال لما أقرأه أحياناً على لسان د. سهير القلماوى فى تحقيقات صحفية ، ووصفها للاجتماعات النسائية غير الحكومية بأنها مجرد شغب أو شرذمة نساء . لن أتعرض لهذا . فالتحقيقات قد تتقل بعض الكلمات أحياناً على نحو غير دقيق .

ولكنى أتعرض هنا فقط لما قرأته بقلم الدكتورة سهير القلماوى فى مقالها بجريدة الأخبار ١٩/٦/١٩٨٥ ، حول قانون الأحوال الشخصية .

ولا أظن أننى أختلف كثيراً مع د. سهير القلماوى فى تفاصيل رؤيتها لمشروع القانون ، أو فهمها العميق لجوهر الشريعة ، واتفق معها تماماً فى أن الإسلام لم يبيح للرجل أن يستعمل رخصة الزواج كيفما أراد وأن التعدد رخصة مشروطة بالضرورة وبالعادل . وإن الإسلام مسئولية وإرادة وتحكم فى الشهوات وليس إطلاقها بغير مسئولية .

وأتفق أيضاً مع د. سهير القلماوى فى أن الزوجة المسلمة تعيش فى قلق شبه دائم ، وقد تدخر المال أو الذهب بغير علم زوجها توقعاً ليوم يطلقها فيه أو يتزوج عليها

(♦) نشر بجريدة الأخبار ٢٥/٦/١٩٨٥ .

بأخرى . لكن الأخت المسيحية (لأنها آمنة من هذين الخطرين) تضع مالها على مال زوجها من أجل مشروعات مشتركة تفيد الأسرة .

أما اختلافى مع د . سهير القلماوى فيتركز فى نقطة جوهرية هى كيفية حصول فئات الشعب (ومنهم النساء) على حقوقهن وتغيير التشريعات والقوانين لصالحهن .

ترى الدكتورة سهير القلماوى أن الحكومة هى الجهة المسؤولة عن ذلك ، والحكومة فى رأيها تتصرف بكل الحكمة والغيرة على صالح الشعب ، وعلى الشعب ومنهم النساء أن ينتظروا ما تفعله الحكومة وكل شئ يجب أن يسير فى القنوات الرسمية .

ولا يمكن لأحد أن ينكر أن الطريق عبر القنوات الرسمية هو أحد الطرق . وليس الطريق الوحيد لتوصيل رأى الشعب إلى حيث يصنع القرار .

لكن الديمقراطية الحقيقية تتناقض مع هذه الفكرة القائلة بانتظار الناس حتى تأتئهم القوانين من أعلى . فالقانون الذى يأتئ من أعلى يمكن أن يضيع من أعلى أيضاً .

تريد د . سهير القلماوى أن يتحول الناس إلى متفرجين ، لا مشاركين فى صنع القرار ، وأن مشاركة النساء فى الديمقراطية تكون عن طريق أن ترسل كل سيدة مذكرة برأيها إلى مجمع البحوث الإسلامية ، فهل الديموقراطية هى مجرد إرسال المذكرات أم أنها مشاركة فى صنع القرار ؟

ولا تتزعج الدكتورة سهير القلماوى لأن المرأة غائبة فى عضوية مجمع البحوث الإسلامية لأن العلماء فى رأيها لا يمكن أن يدخلون فى لعبة الحرب بين الرجل والمرأة القادمة من الغرب .

وهنا اختلف أيضاً مع د . سهير القلماوى . وأعتقد أن المرأة المضرية يجب أن تكون حاضرة فى عضوية مجمع البحوث الإسلامية وفى جميع الهيئات الدينية

والتشريعية العليا . وأن حضورها يجب أن يكون متناسباً مع كونها نصف المجتمع ، ولا تكون أقلية هامشية يضيع صوتها في زحمة الأصوات .

إن مشاركة النساء في صنع القرارات العليا ليس بدعة من الغرب ، وليست حرباً بين الرجل والمرأة ولكنها ضمن الأسس التي تقوم عليها الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والسياسية وجوهر الإسلام أيضاً . لقد شاركت السيدة خديجة زوج الرسول في صنع القرارات العليا الأولى للدعوة الإسلامية، بل إنها هي أول من آمن بنبوة محمد ، وهي أول من قرر أن محمداً رسول الله ، قالت له « انهض أنت رسول الله ، اذهب وانشر دعوة الإسلام » . لولا السيدة خديجة ربما ما جاء الإسلام ولا انتشر .. فكيف تصبح المرأة عندنا (بعد خمسة عشر قرناً من حياة السيدة خديجة) خارج دوائر صنع القرار . بل خارج الهيئات الدينية جميعاً بما فيها مجمع البحوث الإسلامية ١٩



فى زىادة

فى ذكرها الرابعة والأربعين (*)

عاشت تكتب . وكان هذا غريباً فى عصرها . فالمرأة كانت للإحساس وليس للتفكير . وكانت جميلة . وهذا أيضاً غريب . فالجميلة لا تمسك القلم ، إلا لتلون شفيتها . وكانت أيضاً ذكية . وهذا هو الأغرب . فالعقل يفسد الأنوثة وهى كما تبدو لهم أنثى .

وكل ثلاثاء يذهبون إليها . ويحدث الجدل والنقاش . كان غرامها الجدل . وكان غرامهم المرأة بغير جدل . القد الممشوق بغير جدل . عيون المها وبياض الجور بغير جدل .

لم يستطع واحد منهم أن يراها كما رأت نفسها وفشل الجميع فى حبها . لم تكن مصرية حسب قانون الجنسية . أمها من فلسطين وأبوها من لبنان . لكنها تجاوزت القانون والأرض والمكان وأحبت مصر . وماتت ودفنت فى مصر . رأت الوطن فى عقلها قبل أن تطأه بقدمها . الوطن عندها كان الإنسان وأى مكان ، حيث الحب وحيث العدل .

كانت سابقة لزمانها ، وكانوا سجناء عصرهم لا يرون الوطن إلا مسقط رأس . أو قطعة أرض كالمرأة تمتلك .

كانت فى العشرين من عمرها وكانوا كهولاً فوق القمة لكن شبابها كان أنضج وأعقل أرادت أن تكون كما هى . وأرادوها مثل نساء عصرها .

وظلت تدافع عن كيانها كعقل ، فاتهموها بفقدان العقل ووضعوها فى مستشفى كالسجن . فقاومت وأضربت عن الأكل ولم تضرب عن الكتابة .

وماتت فى شبابها وحيدة بلا أهل وملايين النساء ماتت يحوطهن الأهل . لكننا نذكرها ولا نذكرهن ، أليس هذا عزاء لها ؟ ولكل امرأة تفكر مثلها .

• • •

(*) نشر بجريدة أخبار اليوم ١٦/١١/١٩٨٥ ص ٤ .

إنجى أفلاطون(*)

رائدة من رائدات الإبداع الفنى والفكرى فى بلادنا أعطت الفن حياتها وثابرت بإصرار وصدق على التعبير عن ذاتها والمجتمع .

ودفعت ثمن الصدق . دخلت السجن وعاشت وحيدة بلا زوج ولا أطفال . لكن أعمالها وإنتاجها المبدع الخلاق أكبر أثراً من أى إنتاج بيولوجى .

لم تفصل بين حركة الريشة فوق الورق وحركة الإنسان داخل مجتمع يموج بالصراعات ، وفى تشكيل لوحاتها كانت تسعى دائماً نحو الحركة والضوء . تترك بين شرائط الألوان فراغات ومساحات يشع منها النور باحثة عن الوضوح والعدل . تفتش عن الإنسانية والإنسان المقهور فى الظلمة . واستطاعت بضربات فرشاتها أن تكشف عن الظلم . رحيلها اليوم ليس رحيلاً لأنها باقية بأعمالها وكل لوحة من لوحاتها تجسد حياة بأكملها . وأعظم تكريم للفنانة المبدعة إنجى أفلاطون هو أن يسلط الضوء على أعمالها وأن يزداد عدد الذين يرون لوحاتها يوماً بعد يوم داخل البلاد وخارجها .

إن الفنانات المبدعات والفنانون المبدعون ليسوا فى حاجة إلى كلمات رثاء وتأبين . ولكنهم فى حاجة إلى أن تظل أعمالهم معروفة ومنشورة ومرئية لا تختفى تحت غبار التاريخ .

وما أحوجنا اليوم إلى إحياء أعمال المبدعين من النساء والرجال ، وخاصة هؤلاء الرائدات الراحلات من الفنانات أو الكاتبات اللاتى طواهن التاريخ .

لقد آن الأوان لأن تحظى المرأة المبدعة الخلاقة بما تستحقه من اهتمام وتقدير.



(*) نشر بجريدة الأهرام ١٩٨٩/٤/٢٧ ص ١٣ .

فدوى طوقان رحلة جبلية صعبة (*)

منذ أيام قليلة جمعنا مكان واحد فوق الجبل فى الضفة الشرقية . رأت بعينيها
الأطفال يقيمون المتاريس ويواجهون رصاص العدو . كلهم أطفالى . هكذا قالت (ثم
ضمت كفيها الصغيرتين فوق صدرها تحت الشال الصوفى الأخضر) ولى هنا طفلة
اسمها « طروب » آجىء إليها عبر الحدود . وفى كل مرة أقف أمام شباك التصاريح . ولى
عنها قصيدة فى ديوانى الأخير (تموز والشئ الآخر) مهداة إلى « طروب » :

أه يا غنوة حب عذبة ، يا لحن مزهر

أقرئني فى الغد الآتى وإذ تصبحين يا حلوة أكبر

أقرئني فى الغد الآتى فشعري

صورة من واقع جهنم مكدور

أمس يا حبيبة عيني

فاض بى شوق إلى مرآك . شوق لا يصور

وجهها وهى تتشد الشعر أضاء وتورد وأصبح كوجه فتاة عاشقة فى العشرين .
توقفت عن الإنشاد فجأة وصمتت فهبط الحزن فوق ملامحها كالشيخوخة المفاجئة .

سبعون عاماً ربما منذ ولدت فى « نابلس » لا تعرف تاريخ ميلادها بالضبط .
كانت أمها فى « نابلس » (مثل جدتى فى « كفر طحلة ») تؤرخ الوقائع حسب تغيرات
الجو أو الأحداث الكبيرة تقول مثلاً : جرى ذلك عام الثلجة الكبيرة أو عام الجراد
أو عام الزلزال . وحين سألت أمها : متى ولدت ؟ قالت : كنت يومها أطهى عكوب (بقلة
شائكة تنبت فى جبال نابلس فى شهور فبراير ومارس وإبريل) هذه هى شهادة
ميلادها الوحيدة . لكنها تذكر أنها خرجت إلى الدنيا والإمبراطورية العثمانية تلفظ

(*) نشر بجريدة الأهرام ٢٤ فبراير ١٩٨٨ ص ١١ .

آخر أنفاسها ، وجيوش الحلفاء تواصل فتح الطريق لاستعمار غربي جديد - ١٩١٧ - ،
وفي سبتمبر تم احتلال باقى فلسطين ، وفي نابلس ألقى الإنجليز القبض على
أبيها ونفوه خارج وطنه . لم تفرح أمى بولادتى . ترى هل ربطت مقدمى إلى العائلة
بالنحس الذى طرأ عليها ؟ أعنى إبعاد الإنجليز لأبى منقياً ؟

وانفجرت شفتاها عن ابتسامة واهنة وظل وجهها نحيلاً حزيناً . وأشرأبت أذناها
مرهفتين لأى صوت يحملة الهواء عبر الحدود . جسمها الصغير الضامر انتفض فوق
الكنبة البيضاء : هذه طلبة رصاص ، وطفل آخر يسقط ، كلهم أطفالى فى نابلس
والضفة ، وهنا لى طفلتى طروب . أهى ابنتك ؟ لا ، أكثر من ابنتى ، بيتى فى نابلس
حيث ولدت وحيث كتبت الشعر . لم أهجر وطنى أبداً ولم أهجر الشعر أبداً . كان على
أن أختار بين الزواج والشعر فاخترت الشعر وأنجبت كل أطفال نابلس ، وطروب أيضاً :

فاض بى شوق إلى مرآك ، شوق لا يصور
فتجهزت بتصريح لكى يأذن ضباط وعسكر
بعبورى نهرنا العانى على حلم التحرر
ولدى الشباك فى الجسر انتظرت الدور فى صمت وفى صبر
حان دورى فتقدمت أحت الخطو جذلى
ولتعى رد لى الجندى تصريحى وأقصانى بعيداً وتأمراً
(إرجعى من حيث أقبلت) . (..... - : لماذا ؟) .
(ارجعى من حيث أقبلت) وزمجر
قلت : ما ذنبى ؟ أنا لم أعص أمراً ولا زعزعت أمناً
لا ولا حرضت أو شاغبت فى دولة (قيصر)
.. خيرونى .. أين ألقى ضابط الجسر
عسى يشرح الضابط لى ما لم يفسر
فأنا من فرط حرصى وأنا من فرط حبى لبلادى وأرضى
ولبيتى ولبيستانى وجيرانى وللأشجار والأطفال والأحجار
(والدوار) والسوق وأصحاب الدكاكين

ومن خوفى من الإبعاد والنفى الذى يقطع مثل خنجر
لم أزل أحتمل الإذلال والقهر وأصبر
صاح فى حدته القصوى : (افهمى يا هذه ما قلت
هيا وارجمى من حيث أقبلت) وأقصانى بعيداً وتوتر ..
فتراجعت بخطو يتعثر
إى وربى لم أعد أفهم شيئاً
غير كونى فى زمان اليتيم والحكم اليهودى المقدر
ليس لى (معتصم) يأتى فيثأر
لا ولا (خالد) فى اليرموك يظهر ..
عدت أدراجى وجرح القلب يدمى وبعينى دموع تتحدر

• • •

رسالة إلى الشهيدة نعمات في ذكرى الأربعين(*)

قرأت وأنا خارج الوطن عن استشهاده تحت الرصاص وأنت تمارسين حقك
السياسي في الانتخابات الأخيرة .

وكنت أظن أنني سأعود إلى الوطن فأجد اسمك في كل مكان ، أو على الأقل أرى
لك تمثالا في أحد الميادين الكبيرة .

لكني عدت ولم أجد إلا الصمت والنسيان . لماذا ؟ لماذا يحاولون ردم التراب على
دمك وقد دفعت حياتك كلها ثمن الدفاع عن كرامة الوطن وكرامة المرأة . وهل هناك
كرامة لوطن بغير حرية أو ديمقراطية . وهل هناك كرامة للمرأة أكثر من إصرارها على
المشاركة في صنع الحرية ؟

لو كنت يا نعمات وزيرة أو حرم وزير أو أي رأس كبير لما جفت الأقلام من التغني
بشجاعتك ، ولدخلت التاريخ كواحدة من أبطال الوطن .

لكن التاريخ لا زال يا نعمات لا يحكي كفاح البسطاء من الشعب أمثالك . ولا زال
يحول دمهم الساخن المسفوك إلى ماء بارد تشربه الأرض ويهال عليه التراب . ولا زلنا
لا نقرأ في التاريخ إلا عن تفاهات الملوك والسلاطين . ونزهات زوجاتهم الترفيفية بين
الفقراء والمعدمين .

وهل يذكر التاريخ امرأة مصرية اسمها شفيقة محمد ؟ هذه المرأة مثلك سقطت
شهيدة تحت رصاص الإنجليز يوم ١٤ مارس ١٩١٩ ، وقد خرجت مع رجال قريتها إلى
الطريق الزراعي تقطع أسلاك التليفون وتنزع قضبان السكك الحديدية لتمنع قطارات
السلطات الإنجليزية من التقدم . وفي هذا اليوم سقطت برصاص الإنجليز حميدة
خليل من كفر الزغاري بالجمالية وسيدة حسن . وفهيمة رياض وعائشة عمر .

(*) نشر بجريدة الشعب ١٧ يوليو ١٩٨٤ .

هل يذكر التاريخ هؤلاء النساء شهيدات ثورة ١٩ واللائى لم يفصلن بين كرامة الوطن وكرامة المرأة .

لماذا لم يصبح ١٤ مارس هو يوم المرأة المصرية نحتفل به كل عام كما نحتفل بيوم ٨ مارس الذى يرمز إلى نضال نساء فى بلاد أخرى ؟ ولماذا لم يسجل التاريخ عن ثورة ١٩ إلا أسماء زوجات الباشوات والحكام ، ولم يحدث أن دفعت واحدة منهن حياتها أو دمها فداء للوطن مثلما فعلت هؤلاء الشهيدات ؟

وها هو ذا التاريخ مرة أخرى يهيل التراب أمام أعيننا على دم شهيدة جديدة سقطت تحت الرصاص وهى تدافع عن حقها وحق الوطن فى الحرية والعدالة والديمقراطية .

كيف يمكن لنا يا نعمات أن نوقف عجلة هذا التاريخ المزيف ؟ كيف يمكن للشعب المصرى رجالاً ونساء أن يفرض على التاريخ الأحداث الصحيحة والأبطال الحقيقيين ؟

إن الطريق لزال طويلاً وشاقاً أمام البسطاء من الشعب ليكتبوا تاريخهم . فكتابة التاريخ تحتاج إلى شعب يعرف القراءة والكتابة أولاً ولا تعاني أغليته من الأمية . وكتابة التاريخ تحتاج إلى شعب له قوة سياسية واعية .

وكيف يمكن للشعب المصرى أن يكون قوة سياسية واعية وهناك قوانين مسطرة على عنقه أحدها قانون الانتخاب ذاته ؟

ولم يكن غريباً أن يحجم أغلب الشعب عن الذهاب إلى صناديق الانتخاب . وليس غريباً أن يهال التراب على دم نعمات . فلزال الطريق طويلاً ، ولزال الخوف يعيش فى القلوب ونفاق السلطة يجرى فى العروق .

وكم هو مخجل أن ينقضى أربعون يوماً على استشهادك دون أن تصبح ذكراك مناسبة وطنية يحتفل بها الشعب المصرى كله أو على الأقل نساء مصر . فأين هن نساء مصر والجمعيات النسائية وجمعية هدى شعراوى وقد قدمت لوطنك يا نعمات من دمك وحياتك أضعاف ما قدمته هدى شعراوى حين خلعت الحجاب .



محاولة عزل قضية المرأة(*)

إن قهر المرأة واستعبادها واستغلالها ليس حالة خاصة بالمجتمع العربى أو الشرقى أو بلاد العالم الثالث ، ولكنها ظاهرة تدخل فى صلب النظم السياسية والاقتصادية والثقافية ، سواء كانت إقطاعية متخلفة أو صناعية متقدمة تكنولوجياً . ذلك أن مشكلة المرأة فى عالمنا الإنسانى الحديث قد نتجت عن ذلك النظام الذى جعل طبقة تسود على طبقة ، وجنس الرجال يسود على جنس النساء . إنها مشكلة طبقية وجنسية فى آن واحد .

إلا أن هناك بعض الناس الذين يغضون أعينهم عن لب مشكلة المرأة العربية لتنعزل جهود النساء من أجل تحرير أنفسهن عن جهود الثورة الشعبية ، رجالاً ونساء ، التى تهدف إلى تغيير تركيبة المجتمع تغييراً جذرياً يقضى على الاستغلال الطبقي المحلى أو الأجنبى ، بمثل ما يقضى على سيطرة الرجل على المرأة فى المجتمع الكبير وداخل الأسرة الصغيرة . تلك الأسرة التى هى بؤرة النظام الطبقي الأبوى ، ومن خلالها تتوالد القيم والأخلاقيات والمقدسات الأبوية والطبقية على مر الأزمان والأجيال .

ويحاول بعض الناس وخصوصاً فى الدوائر الغربية الاستعمارية أن يصوروا مشكلة المرأة العربية على أنها مشكلة خاصة بالدين الإسلامى ، محاولين أن يردوا التخلف الذى تعاني منه البلدان العربية إلى أسباب دينية وتاريخية وليس إلى أسباب اقتصادية وسياسية ، قوامها أن موارد العرب تستنزف وتستغل بواسطة الاستعمار الغربى الجديد . ولهذا هم يفصلون بين تحرير العرب الاقتصادى والسياسى وبين عملية القضاء على التخلف أو تحقيق التقدم والتنمية .

أما التنمية فهم يحددون معناها لتقتصر على مجرد عملية التحديث على النمط الغربى ، واستخدام بعض ما أنتجته البلدان الغربية من تكنولوجيا ، على أن تظل موارد العرب خاضعة لمصالح الغرب ومحاكمة بقوانين الاستغلال الرأسمالى العالمى وشركاته الكبرى .

(*) نشر بمجلة الأسبوع العربى / بيروت / ١٩٧٩/٧/٢ .

وقد شهدت بعض البلدان فى العالم العربى والعالم الإسلامى هذا النوع من عمليات التحديث ، على يد بعض الأنظمة والحكومات المحلية والمالية للغرب . ولم يكن من نتيجة لهذا التحديث إلا نوع من التنمية الزائفة التى تتميز بمزيد من الفقر والمعاناة للأغلبية الساحقة من الشعب ، ومزيد من الثراء للطبقات الحاكمة والطبقات العليا ، كما تتميز أيضاً بأن الجزء الأكبر من الزيادة فى الثروة ، بسبب تلك التنمية ، يذهب إلى البلدان الغربية فتزيد الهوة بين مستوى المعيشة فى البلاد المتقدمة عنها فى البلاد المتخلفة، وفى الوقت الذى تربح فيها أمريكا من ثروات العرب ملايين الدولارات سنوياً ، يموت من أطفال العرب سنوياً مليون طفل قبل أن يبلغوا عامهم الأول من العمر بسبب الجوع والفقر والمرض . بل إن هؤلاء الأطفال الذين ينجون من الموت لا يجدون من المواد الغذائية الأساسية كالبروتينات والفيتامينات إلا ما يساوى — ما يحصل عليه الكلاب والقطط فى أمريكا .

وبازدياد الهوة بين الأقلية التى تملك المال والسلطة والأغلبية الساحقة التى تهلك إرهاباً ومرضاً ، تزداد حدة المشاكل والصراعات داخل البلد وتتفجر الثروات الشعبية وحركات التحرير الذى ازداد نشاطها العلنى أو السرى فى معظم أنحاء العالم الثالث .

وقد كانت الثورة الإيرانية الأخيرة إحدى هذه الثورات الشعبية التى تفجرت بسبب اشتداد الأزمة الاقتصادية لأغلبية الشعب الإيرانى رجالاً ونساءً . وعلى الرغم من عملية التحديث التى تزعمها شاه إيران السابق والتى لم ينتج عنها إلا مزيد من القهر للشعب الإيرانى ، ومزيد من استغلال البترول وموارد إيران بواسطة القوى الاستعمارية العالمية .

إن ثورة إيران سياسية واقتصادية أساساً ، وليست ثورة من أجل فرض الحجاب على النساء ، كما حاولت بعض الصحف الغربية تصويرها وقد رفعت الثورة الإيرانية شعار الدين الإسلامى كشعار للتحرير من الاستغلال الغربى الثقافى والاقتصادى معاً . وذلك لأن الإسلام كان فى جوهره كما بدأه سيدنا محمد دعوة إلى تحرير العبيد ، ولم يكن النظام الاقتصادى الذى سماه سيدنا محمد ﷺ « بيت المال » إلا نوعاً مما يمكن أن نسميه بالاشتراكية البدائية ، فقد كان هذا المال هو مال المسلمين جميعاً بالتساوى على الرغم من انتماءاتهم القبلية ، إلا أن هذه الاشتراكية

البدائية سرعان ما قهرت على يد بعض خلفاء سيدنا محمد وأولهم عثمان بن عفان الذى منح بنى أمية الأرض والنفوذ فى البلاد الزراعية التى غزاها العرب كمصر والشام والعراق ، وبدأ داخل الإسلام الصراع بين مؤيدى المساواة والعدالة وبين مشجعى النظام الإقطاعى الطبقي . وقد انتصر الفريق الثانى على مر عهود التاريخ وتعاقب على البلدان العربية والإسلامية عهود مظلمة من القهر الإقطاعى والغزو الأجنبى ، بلغ أشده فى ظل الحكم العثمانى الذى كان مثلاً للفساد والاستغلال والقهر واستعباد النساء فى العمل المضنى ، أو عزلهن من وراء الحجاب فى سجن « الحريم » .

وأما الشعوب العربية والإسلامية المقهورة ، لم يكن هناك من أمل فى الخلاص من الظلم الداخلى والخارجى إلا عن طريق تحقيق العدالة والمساواة التى نادى بهما الإسلام فى جوهره . ولهذا السبب فإن معظم الثوريين العرب الذى حاربوا الإقطاع والاستعمار ، أو معظم زعماء النهضة فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن كانوا من رجال الدين الإسلامى ، من أمثال الأفغانى والكواكىبى والنديم والشيخ محمد عبده الذين اقترنت دعوتهم إلى تحرير البلاد من الإقطاع والاستعمار بالدعوة إلى تحرير المرأة .

وهذا قد يفسر لنا لماذا اتخذت الثورة الإيرانية من الإسلام شعاراً لتحريرها من حكومة الشاه المستغلة ٩ .

ومن الملاحظ فى السنين الأخيرة تلك الموجة والتيار المتصاعد لإحياء الإسلام فى العالم الإسلامى والعالم العربى كسلاح فى يد الشعوب المقهورة ضد القهر والاستغلال ، كما تزايدت الجهود لإحياء اللغة العربية وخصوصاً فى تلك البلدان العربية التى حلت فيها اللغات الاستعمارية الغربية محل اللغة العربية ، كشمال أفريقيا: تونس والجزائر والمغرب ، التى بدأت عملية تعريب شاملة .

إن حركة الاستقلال الثقافى إلى جانب الاستقلال السياسى والاقتصادى ، إنما هى حركة تزداد نمواً ووعياً فى معظم أنحاء العالم الثالث ، وخصوصاً فى أفريقيا ، حيث بدأت الشعوب تطرد عنها الاستغلال الاقتصادى بمثل ما تطرد الاستغلال الثقافى ، وتبحث عن أصالتها وجذورها الثقافية والحضارية كنوع من استعادة الشخصية والوقوف بقوة وصلابة فى وجه الغزو الغربى ، الذى سلبها شخصيتها وأصالتها بمثل ما سلبها مواردها الطبيعية ، واقتلعها من ماضيها ومن جذورها ليجعل منها شعباً ضعيفاً مزعزعة فقيرة مادياً ومعنوياً فى آن واحد .

لكن هذا التيار التحريري المتصاعد يتلقى الضربات من الداخل والخارج ، وللحفاظ على مصالحها الاقتصادية ، تتخذ القوى الغربية وسائل متعددة لمقاومة ذلك التيار الشعبى المتزايد .

إحدى هذه الوسائل أنها تصطاد أى ثغرة فى الإسلام مثلاً كى تبرزها وتسلب عليها الأضواء ، كما حدث عندما ارتفعت الصيحات فى الصحافة الغربية منددة بأن الثورة الإيرانية حركة رجعية ، لأنها تفرض على النساء الحجاب أو « الشادور » وتعود بها إلى القرون الوسطى . وهى محاولات غير مباشرة لإجهاض الثورة الإيرانية وتفريغها من مضمونها السياسى والاقتصادى وتصويرها على أنها مجرد ردة دينية متعصبة متخلفة .

وتتسم مثل هذه المحاولات بالحرص والذكاء لأن التيار الدينى الإسلامى ، وإن وحد الشعوب وساعد على تضامنها ضد الاستعمار الغربى ، إلا أنه أيضاً يحمى المنطقة من الغزو الاشتراكى أو الشيوعية ، التى صورت على أنها حركة إلحادية ضد الدين .

وعلى هذا يمكن القول أن القوى الاستعمارية تحتاج إلى الإسلام بقدر ما هى تخشاه ، ولهذا فهى تهاجمه وتحافظ عليه فى آن واحد ، يساعدها فى تلك المهمة المتناقضة تلك الأنظمة الإسلامية ورجال الدين الذين خدموا الحكم العثمانى بمثل ما خدموا الاستعمار الإنجليزى أو الفرنسى أو الأمريكى ، والذين تعاونوا على قهر الشعوب باسم الإسلام والدين . صوروا الإسلام على أنه دين يحمى الطبقات ويحرم الثورة أو التمرد ضد الحكام أو ضد النظام القائم ويحرم الشكوى من الفقر باعتبار أن الله هو الذى يوزع الرزق على من يشاء من عباده فيعطى من يشاء ، ويحرم من يشاء ، وعلى المسلم المؤمن أن يتقبل إرادة الله ومشيئته بنفس راضية قانعة .

وقد رأينا كم لعب الإعلام الدينى دوراً فى خدمة الحركات الرجعية الاستغلالية وكم شجع الأفكار الخرافية والاستسلامية والقدرية والتواكلية التى تعجز الشعوب عن الثورة ضد الظلم والاستغلال .

إلا أن هناك دائماً من رجال الدين الإسلامى الواعين الذين كشفوا هذه الأساليب ونادوا بأن الإسلام كأي دين آخر لا يمكن أن يفهم من خلال نصوص متفرقة ، مثل : « وجعلنا بعضكم فوق بعض » ، أو « الرجال قوامون على النساء » . ولكنه يفهم من خلال مبادئ الأساسية التي تنادى بالمساواة والعدالة .

وكان بعض زعماء الثورة الإيرانية من هؤلاء الرجال المسلمين الواعين كما كان فيها أيضاً زعماء غير واعين كهؤلاء الذين نادوا بأن ترتدى المرأة « الشادور » فافسحوا عن جمل أو عن عمد للقوى المعادية لاستقلال إيران الثغرة التي تنفذ منها للهجوم على الثورة الإيرانية .

وقد لاحظنا أيضاً كيف تستغل الحكومات الإسلام من أجل استغلال الشعوب ، وقد استخدم النظام المصرى الدين الإسلامى فى بدء السبعينيات كسلاح ضد التيار الشعبى المؤيد للاشتراكية ، وشجعت السلطة المصرية الهيئات الدينية مادياً ومعنوياً لتقف في وجه القوى الاشتراكية إلى حد تشجيع النساء والطالبات المصريات ليرتدين الحجاب ، إلا أنها سرعان ما تراجعت عن سياستها بعد ما تصاعد التيار الدينى الإسلامى وأصبح يهدد السلطة الحاكمة ويؤيد الثورة الإسلامية فى إيران والثورة الفلسطينية ويتآزر مع الدعوة إلى العدالة والمساواة الاقتصادية ، حتى لا ينعزل عن مشاكل الجماهير الملحة . وقد اتجه هذا النظام المصرى أخيراً إلى الهجوم على هذا التيار الإسلامى ، ورأينا كيف هاجم أيضاً الثورة الإيرانية الإسلامية . ورأينا أيضاً كيف اشتدت الحماسة فى الصحافة الغربية حول موضوع « الشادور » والمرأة الإيرانية باسم المساواة والعدالة والحرية وحقوق المرأة كإنسان ، هذه الحماسة التي لم نشهدها من الصحافة الغربية فى ظروف أخرى وقع فيها اعتداء أشد وأبشع على حقوق النساء والرجال والأطفال ، وكيف شردت شعوب بأكملها واعتدى عليها وأخرجت من ديارها وأوطانها ، وضربت نساؤها وأطفالها بالقنابل والنابال ، وتحول من عاشوا منهم إلى لاجئين يعيشون فى الغربة والخيام حياة أشد بؤساً من الموت . وقد بالغت الصحافة الغربية فى صراخها واحتجاجها على ما يحدث للمرأة الإيرانية فى ظل الثورة الإسلامية حتى تحمست بعض الهيئات النسائية العالمية للسفر إلى إيران لمساندة المرأة ضد تلك الثورة الرجعية . وأنا لست ضد التضامن العالمى للنساء ، بل إننى أعتقد أن قوة النساء وتضامنهم فى جميع أنحاء العالم عن وعى وفهم لقضية المرأة

بمختلف أبعادها ، يعتبر مكسباً كبيراً للمرأة فى أى مكان ، بل مكسباً كبيراً لجميع القوى التقدمية والاشتراكية فى أى بلد .

إلا أننى ضد أى محاولة لعزل قضية المرأة عن قضية تحرير البلد كله من النظام الطبقي والاستعمار الخارجى ، كما أننى ضد أن تستغل حماسة النساء الغربيات للتآزر والتساند مع إخوانتهن فى البلد الأخرى لضرب الثورات الشعبية التحريرية فى آسيا أو أفريقيا ، أو أى مكان آخر فى العالم .

وأنا بطبيعة الحال لست مع هؤلاء الزعماء الدينيين فى إيران الذين نادوا بأن ترتدى المرأة « الشادور » ، وأعتقد أنهم إما مغرضون وإما مخطئون ، فالزعيم الدينى ليس إلهاً ، وليس معصوماً عن الخطأ وهو فى حاجة إلى النقد والتوجيه من القوى الشعبية نساء ورجالاً . وقد وقفت بعض النساء الإيرانيات من أمثال هؤلاء الزعماء موقفاً واعياً ناقداً ورافضاً ، وانضم إلى نساء إيران الزعماء الدينيون الواعون والرجال الثوريون الوطنيون ، ونتج عن ذلك التضامن الواعى تصاعد القوى التى تقاوم الدكتاتورية الدينية تحت اسم الثورة الإسلامية .

أقول هذا لأوضح أن الحركة الإسلامية بمثل ما تضم ثوريين متقدمين سياسياً واقتصادياً ، فقد تضم أيضاً زعماء متخلفين اجتماعياً وثقافياً ، بل إن الرجل الواحد منهم قد يجمع داخله التناقضات فتكون له رؤية سياسية واقتصادية متقدمة ، لكن رؤيته للمرأة تظل متخلفة . وهذا الأمر يكاد يكون عاماً فى معظم الحركات ، بل فى الحركات الاشتراكية والحركات الماركسية كثيراً ما يعانى الرجال هذا التناقض .

ذلك أن التطور السياسى والاقتصادى أسرع من التطور الثقافى والاجتماعى ، والاقتناع العقلى أسهل من الاقتناع الشعورى ، ومن هنا أهمية دور الحركة النسائية ، وأهمية القوة السياسية للنساء لتفرض على الرجال أن يغيروا أنفسهم وأن يعالجوا ذلك الانفصام داخل شخصياتهم .



المرأة المصرية والمشكلة الاقتصادية(*)

لا يمكن لأى عين مهما ضعف بصرها ألا تلاحظ ذلك التغير السريع الذى أصبح يصيب ملامح المصريين والمصريات وعلى الأخص المصريات . أول ما يلفت النظر هو عضلات الوجه المتقلصة والبشرة الشاحبة والعيون القلقة للنساء المصريات الواقفات أمام بائع الخضروات أو الفاكهة أو الجزار ، أو حتى محل البقالة المتواضع البسيط فى أى حي من الأحياء الشعبية .

بالطبع هناك نسبة كبيرة من النساء المصريات لا يذهبن إلى تلك الأماكن إلا مرة فى العام ، فى العيد مثلاً حين تحتفل الأسرة بشراء كيلو أو نصف كيلو من اللحم ، لم تذوق طعمه طوال العام .

وأنا لا أتحدث فى هذا المقال عن هذه الشريحة الضخمة من المجتمع المصرى ، والتي تمثل حسب تقارير الاقتصاديين ٧٠٪ من عدد السكان ويتراوح دخل الأسرة فيها ما بين ٤٥ إلى ٩٠ قرشاً فى اليوم الواحد ، ولا يقل عدد أفرادها عن سبعة أو ثمانية أشخاص حسب الإحصاءات الرسمية . ولكن أتحدث الآن عن تلك الطبقة التى سميت فى الماضى القريب بالطبقة المتوسطة ، ومنها هؤلاء الموظفون والموظفات والمهنيات من خريجي الجامعات والمدارس . إن المرأة فى هذه الطبقة كانت بصورة عامة تشتري الخضروات واللحم وتمارس تلك العملية الطبيعية المسماة « الطبخ » بصفة منتظمة كل يوم أو كل يومين على الأكثر . ولم يكن شراء اللحم أو البطيخ أو الجبنة يمثل لها أى مشكلة أو مأساة .. ولكن كم هى مأساة اليوم عملية شراء المواد الأساسية للطعام لدى جميع الطبقات فى مصر ، بدءاً بالطبقات الدنيا إلى الطبقات المتوسطة إلى ما فوق المتوسطة . لاشك فى أن التركيبة الطباقية فى مصر قد تغيرت بشكل ملحوظ فى السنوات الأخيرة . كنا فى الماضى القريب ، أى منذ سبع أو ثمان سنوات ، نلاحظ أن

(*) نشر بمجلة الأسبوعى العربى / بيروت / ٢٠ / ٨ / ١٩٧٩ .

عندنا أربع طبقات مختلفة : الطبقة الدنيا ، والطبقة المتوسطة ، والطبقة فوق المتوسطة ، والطبقة العليا . أما الآن فقد انصهرت الطبقات الثلاث الأولى داخل طبقة واحدة يمكن أن تسمى « الطبقة ذات الدخل المحدود » . وهذا لفظ مؤدب نوعاً ما . أما اللفظ الواقعي فهو « الطبقة التي تعاني اقتصادياً » . وهذه الطبقة تحتل الآن أكثر من ٩٥% من الشعب المصرى . أما الـ ٥% الباقية فيمكن أن نطلق عليهم اسم « الطبقة ذات الدخل غير المحدود » ، أو « الطبقة العالية » أو الطبقة المرتاحة اقتصادياً .. وإذا كان الشعب المصرى قد بلغ ٤١ مليون نسمة ، فإن الطبقة التي تعاني يصل تعدادها إلى ٣٨,٩٥٠,٠٠٠ نسمة . وهذا العدد يشمل الذكور والإناث . وعلى هذا يمكن القول أن ١٩,٤٧٥,٠٠٠ امرأة مصرية تصاب بتقلص فى عضلات وجهها وشحوب فى البشرة ، إذا ما فكرت يوماً فى تلك العملية التي أطلق عليها اسم « الطبخ » .

فى أحد الأيام خلال عام ١٩٧٦ ، قالت لى « أم محاسن » وكانت امرأة تأتى إلى منزلى مرة فى الأسبوع لتقوم بأعمال النظافة نظير ٢٠٠ قرش فى كل مرة ، وهى لم تعد تأتى من ١٩٧٦ ، وأصبحت أقوم بما كانت تقوم به . قالت أم محاسن وهى تلطم خديها : « يا ناس يا هوه إذا طبخت فى يوم « عدس » - والله « عدس » لا غير فإننى أنفق ١٠٠ قرش ! » كان ذلك من عامين ، أما اليوم ونحن فى سنة ٩٧٩ فقد تضاعف سعر العدس أيضاً . أما أكلة « الفول المدمس » فكانت تكلف أم محاسن بمثل ما تكلفها أكلة العدس . وكانت أسرة أم محاسن خمسة أفراد فقط . أى أنها تعتبر أسرة صغيرة الحجم بالنسبة إلى أغلب الأسر المصرية .

أما « الجبنة البيضاء » التي كانت فى متناول الأسر المحدودة الدخل ، فقد اختفت من السوق المصرية بمثل ما اختفت معظم المنتجات المصرية المحلية ، وحلت مكانها منتجات مستوردة دخلت مصر من « الباب المفتوح » على مصراعيه على أنواع الجبنة الفرنسية والإيطالية والمعلبات الأمريكية والهولندية والدانماركية ، والتي لا يقدر على شرائها بالطبع إلا ذوو الدخل غير المحدود ، من الشريحة العليا فى المجتمع . وقد تظاهر « الجبنة البيضاء » أحياناً فى بعض محلات البقالة من ذوى الروح الوطنية المشجعين للصناعات المحلية ، لكن الكيلو أصبح ثمنه ٢٠٠ قرش على الأقل . أى ما يوازى دخل الأسرة المصرية الكادحة فى أربعة أيام .

ولعل أغلب ما يحدث في مصر أن الأسعار تختلف من تاجر إلى تاجر ومن محل إلى محل . وهذه هي الحرية أو الديمقراطية التي يتمتع بها الشعب المصري ، والتي لا يمارسها إلا فئة التجار وأصحاب محلات البقالة والخضر والفاكهة واللحوم . كل تاجر أعطى نفسه الحرية في أن يضع الثمن للشئ الذي يبيعه . ومن هي تلك المرأة المصرية الشجاعة التي تستطيع أن تناقش الجزار أو بائع الخضروات أو الفاكهة ؟ أن أقل ما يمكن أن يصيبها هو سلسلة من أقبح أنواع السباب تصيب أباهما وأمها قبل أن تصيبها هي .

أما الفاكهة ، فلم تعد تدخل إلا بيوت ذوى الدخل غير المحدود ، حتى « البطيخ » أو « الخيار » فاكهة الفقراء أصبح اليوم من السلع التي يكتفى بالنظر إليها من بعيد . وهناك من السلع ما لا ينظر إليها على الإطلاق ، مثل الجواقة والعنب والبرتقال والبرقوق أو المانجو . فهذه أسماء لم يعد لها مكان في ذاكرة أكثر من ثمانية وثلاثين مليون مصري ومصرية .

وكانت لي صديقة عرف عنها هدوء الأعصاب والتريث في الحكم على الأشياء وعدم نقد المسئولين طالما هم يملكون السلطة . وبالطبع كانت ممن يؤيدون سياسة الباب « المفتوح » ، رأيتها منذ أسبوعين تشد شعرها وتقول : « يا ناس يا هو كل يوم نقرأ في الصحف عن الجهود التي تبذل من أجل « الأمن الغذائي » ، ولكن الأسعار تزداد بازدياد المساحات المخصصة للأمن الغذائي في الصحف ! » وأصبحت صديقتي هذه ، وهي جامعية محترمة تقف أمام الجزار أو « الخضري وهي شاحبة اللون وعضلات وجهها متقلصة » .

أما هؤلاء المصريين المنتميات إلى الشريحة الرقيقة ذات الدخل غير المحدود ، فإن الواحدة تجلس في الشرفة المطلة على النيل تتسلى بحبات البرقوق أو الكريز (نوع ما من الفاكهة سمعت عنها) وتقول لمن حولها في دهشة : « - مين قال في مصر أزمة اقتصادية ، هذه إشاعات يروجها أعداء الباب المفتوح ، أعداء الشعب غير المعترفين بكارتر وبيجين وكامب ديفيد .. وتلتهم قطعة أخرى من « المانجو » (هذه

فاكهة ليس لنا بها أى علاقة إلا نظرياً فحسب) وتقول بصوت ناعم حريرى : «
تمام يا فندم » (هذا اللقب شائعاً بين الطبقة العليا) إنهم يدعون وجود أزمة
اقتصادية ، والحقيقة يا فندم أنها ليست إلا مشكلة هؤلاء النساء المصريات الجاهلات
اللائى يلدن بسرعة الأرناب ، أنهم مشكلة الـ (تنطقها بالإنكليزية) وعلينا
بحبوب « منع الحمل » . وترد واحدة أخرى تدغدغ بين أسنانها قطعة من الخوخ (نوع
من الفاكهة أيضاً : تمام تمام يا فندم ، المشكلة هى كيف نوقف الأرناب ؟ ولكن ماذا
نفعل ، والمرأة المصرية جامعت ومهما ضميرت ونحلت من الجوع فإن شهيتها للحمل لا
تقل أبداً ؟ .

وترن الضحكات الرقيقة الناعمة فى الليل مع نسيمات النيل الهادئة إلى حيث
لا يعلم أحد . . .



جواهر قضية المرأة العربية(*)

على النساء الغربيات المتحمسات لتحرير المرأة أن يتفهمن نواحي التشابه والاختلاف بين مشاكلهن ومشاكل النساء في البلاد الأخرى ، وبين الثقافة الغربية والثقافة العربية ، ألا يجرهن الحماس الزائد بغير دراسة إلى الاشتراك عن حسن نية في إجهاض حركات تقدمية أو ثورات تحريرية ، وربما كان ذلك هو السبب الأساسي الذي دعا النساء الإيرانيات إلى أن يقفن موقفًا سلبيًا من بعض النساء الأمريكيات اللاتي سافرن إلى طهران للهجوم على الثورة الإيرانية التي تفرض على النساء « الشادور »)

وعلى النساء الغربيات أن يدركن أن المعركة الأساسية التي تواجه النساء في البلاد الإسلامية والعربية ليست هي معركة فلسفية بين الإلحاد والإيمان بالدين ، وليست هي معركة من أجل التنمية المحدودة أو التحديث على نمط الغرب ، ولكنها معركة من أجل أن تعود منابع الثروة الاقتصادية والثقافية إلى يد الشعوب ، والتمكن من خلق نظام جديد على أنقاض النظام الطبقي الأبوي .

وقد رأينا أن الأنظمة العربية أخذت موقفًا استسلاميًا فيما يتعلق بقضية الشرق الأوسط وفلسطين كالنظام المصري ، وعقدت صلحًا من شأنه أن يدعم نفوذ الاستعمار الأمريكي والصهيونية ويضع العرب ومواردهم تحت رحمة هذه القوى ، رأينا أن هذه الأنظمة عندما أرادت أن تهاجم الثورة الإيرانية هاجمتها باسم التحديث وتحرير المرأة.

إلا أن خبرتنا الماضية تبين لنا أنه كلما زادت الارتباطات بالنظم الإمبريالية تراجع التقدم الاجتماعي وارتفعت أصوات المحافظين والرجعيين والمتمسكين بأكثر النواحي السلبية في الدين والتقاليد ، وأصبحت قضية المرأة بنكسات شأنها شأن

(*) نشر بمجلة الأسبوع العربي / بيروت ١٩٧٩/٧/٩ .

قضايا باقى فئات الشعب . كما أن عملية التحديث وخاصة فيما يتعلق بالمرأة ليست إلا عملية سطحية شكلية تفقد المرأة العربية شخصيتها وأصالتها ، وتصنع منها نسخة مشوهة من المرأة الغربية ، بالإضافة إلى أنها عملية لا تحل مشاكل الأغلبية الساحقة من النساء العربيات الكادحات فى الحقول أو المصانع أو البيوت أو المهن المختلفة . فهى عملية تقدم مزيف لا يصل إلى أعماق مشكلة النساء العربيات ، ولا يساوى المرأة بالرجل سياسياً أو اقتصادياً أو نفسياً أو حتى جنسياً ، لأن الحرية الجنسية الظاهرية التى تحظى بها المرأة الغربية لا تحرر المرأة بقدر ما تستعبدها وتحول جسدها إلى تجارة رأسمالية رابحة .

وفى ظل هذا التحديث لا تحصل سوى أقلية ضئيلة جداً من النساء على الميزات السياسية والاقتصادية التى تتمتع بها طبقة معينة من المجتمع ، بل إن هذه القلة القليلة المتميزة من النساء ، والتى قد تصل أحياناً إلى تولي مناصب الوزارات أو عضوات البرلمان كثيراً ما يكن من ذوات التفكير المحافظ أو الرجعى . فإذا بوجودهن فى تلك المناصب السياسية العالية لا يساعد على تحرير النساء بقدر ما يساعد على استغلالهن .

وقد صفت الصحافة الغربية طويلاً فى هذه الشهور الأخيرة لتولى امرأة منصب رئيسة وزراء بريطانيا ، وبالرغم من كونها امرأة إلا أننى أعتقد أن أفكارها المحافظة سياسياً واقتصادياً والمعادية للتقدم الاشتراكى ولحركات التحرير فى أفريقيا والعالم الثالث سوف تنعكس على النساء بمزيد من الاستغلال والقهر .

إن معركتنا ليست معركة تعصب أعمى لجنس النساء ، أو تعصب أعمى لدين معين . ومن أجل نجاح هذه المعركة فإن من الممكن أن تتحد القوى النسائية مع الرجال المتدينين الثوريين مع الماركسيين مع الاشتراكيين . ولعل هذا هو السبب الأساسى فى نجاح ثورة كثورة إيران وقدرتها على التخلص من حكومة الشاه ونظامه الذى دام أكثر من سبعة وخمسين عاماً . وكانت النساء الإيرانيات أحد الأعمدة الأساسية فى هذه الثورة بمثل ما كانت الجزائريات فى الثورة الجزائرية ،

والفلسطينيات ، واليمنيات والفيتناميات والموزامبيقيات وغيرهن من النساء اللاتي اشتركن ولازلن يشتركن في حروب التحرير في آسيا وأفريقيا ، وأمريكا الجنوبية .

إن النساء كن دائماً ولازلن وقوداً للثورات الشعبية ، ولكن ما أن تستتب الأمور ويستقر الحكم الجديد حتى يتراجع المسئولون عن بعض الحقوق التي منحت للنساء أثناء الثورة . ولعلنا لاحظنا ذلك في الثورة الجزائرية ، وكذلك أيضاً في الثورات الاشتراكية في العالم بما فيها الثورة الاشتراكية الروسية . ويرجع ذلك إلى عدة أسباب أهمها في رأيي هي أن النساء يشتركن في الثورة كأفراد متفرقات خاضعات لرجالهن ويكون من أوائل المضحيات لكنهن لا يشتركن في الحكم بعد الثورة بل يتراجعن اختياراً أو إجباراً إلى مواقعهن الأولى في البيوت أو الحقول أو المصانع أو المهن الأخرى تحت سيطرة رجالهن ، ولا يحاولن أن يشكلن من أنفسهن قوة سياسية تتعادل مع عددهن كنصف المجتمع ولا مع حجم جهدهن وإنتاجهن في مختلف النواحي الزراعية أو الصناعية أو المهنية أو حتى في البيوت ، حيث لا يقل جهدهن أو إنتاجهن عن أي مجال آخر .

إن الحكام الثوريين الجدد كلهم أو معظمهم رجال ، وسرعان ما ينسون أو يتناسون مشاكل النساء أو لا يولونها الاهتمام أو الأولوية المفروضة ، وبدلاً من أن تبذل الجهود للقضاء على النظام الأبوي وسيطرة الرجل في الدولة أو العائلة أو الأسرة توجه الجهود للمحافظة على هذه القيم لصالح الرجال .

ويمكن لنا أن ندرك بعض مشاكل النساء في مجتمعاتنا العربية بملاحظة التغير الذي يحدث في البلد بتغير النظام الإقطاعي إلى النظام الاشتراكي ، وقد يمر البلد أيضاً بمرحلة من التصنيع والنمو الرأسمالي بمثل ما حدث في بعض البلاد العربية التي اتجهت نحو الاشتراكية . وقد تطلب تغير المجتمع وحاجته إلى الأيدي العاملة في الصناعات الجديدة والمهن والخدمات المتزايدة إلى أن ينزح من الريف إلى المدن أعداد متزايدة من الرجال والنساء . وأصبحت المرأة العاملة في المدينة تواجه بمشاكل جديدة أهمها أنها حرمت من ميزات الأسرة الريفية الكبيرة العدد ، التي كانت ترعى

أطفالها أثناء غيابها في الحقل ، وحرمت من الروابط الاجتماعية والنفسية والتعاونية التقليدية في الريف في الوقت الذي لم يعوضها المجتمع عن هذه الحاجات الضرورية ، بل ظل متمسكاً بدورها القديم داخل الأسرة من حيث الخدمة ورعاية الأطفال ، ذلك الدور الذي فرض على المرأة كنتيجة لتقسيم العمل بين الجنسين في ظل النظام الأبوي الطبقي .

وفي الوقت الذي غير فيه المجتمع كثيراً من القيم الأخلاقية والاجتماعية وتبنى قيماً جديدة لتساعده على تشغيل النساء في المدن فقد حافظ على بعض القيم التي تضمن له استمرار استغلال النساء في أعمال البيت ورعاية الأطفال بغير أجر . وفي الوقت الذي مجد فيه المجتمع عمل المرأة وتعليمها وحطم بعض القيود الاجتماعية ومحظورات الحريم القديمة لتصبح النساء قوة عمل متحركة تمسك بالقيم التي تربط النساء بالأطفال وخدمة الزوج ، وبالع في تمجيده للأمومة ، « الجنة تحت أقدام الأمهات » ، وطاعة الزوج من طاعة الرب ، ولاتزال المرأة المصرية وإن تعلمت وعملت وبلغت منصب الوزيرة خاضعة لقانون « الطاعة » في قانون الزواج .

وحيثما ترهق المرأة وتعجز عن الجمع بين وظائفها المتعددة داخل البيت وخارجه ، أو حين تقصر في واجباتها تجاه الأطفال أو الزوج يكيل لها المجتمع الاتهامات ، ومنها أنها ياهمالها الأطفال أو عصيانها لزوجها تساعد على تمزيق الأسرة المقدسة .

وفي الوقت الذي يحافظ فيه المجتمع على قدسية الأسرة فإنه ينتهك مقدسات أخرى كثيرة ، بل إنه ينتهك قدسية الأسرة ذاتها ويمزقها بإعطاء الرجل حقه المطلق في الطلاق وتعدد الزوجات . تلك الفوضى الجنسية الممنوحة للرجال ، والتي كثيراً ما تسبب تشريد الأطفال وتمزيق الأسرة .

وفي الوقت الذي يتغنى فيه المجتمع بالأمومة لا يوفر للأمهات العاملات الوسائل الضرورية لرعاية أطفالهن ، بل لا يمنح الأم العاملة الأوقات الكافية لإرضاع طفلها أثناء العمل ، أو الأجازة الكافية لرعايته بعد الوضع .

إن إصرار المجتمع على ألا تزول الأسرة (وإن تمزقت) ليس إلا بسبب حاجته للأسرة كمؤسسة تتحمل عنه نفقات الأطفال (ونفقات الخدمات الأخرى التي تقوم بها المرأة بغير أجر) . ومن أجل التموهية لم يفصل المجتمع بين حب الأم أو الأب وبين الإنفاق على إطعام الأطفال وتعليمهم . فكأنما العواطف الأسرية تتضمن أيضاً مطالب الأطفال الاقتصادية . فى حين أن النظام غير العادل قد جعل الأغلبية الساحقة من الأسر العربية عاجزة عن توفير الحاجات الاقتصادية الضرورية لأطفالهم ، وجعل معظم الأمهات فى بلادنا العربية كادحات مرهقات فقيرات ، ولا يتوفر لديهن الحد الأدنى من الغذاء الضروري ، مما يجفف اللبن فى ثدى الأم الحديثة الوضع فيحرم الطفل من لبن أمه الطبيعي فى معظم الأحيان ، بل يحرم أيضاً من حنانها ، لأن الظروف القاسية التى تجفف اللبن فى الثدي تجفف الحنان فى القلب ، والمرأة التى لا تحظى بحنان أحد لا تستطيع أن تمنح الحنان لأحد ، وفاقد الشيء لا يعطيه . وكثيراً ما تقضى مثل هذه المرأة شبابها وصحتها فى العمل المضنى فى الحقل والبيت بغير أجر ، فإذا ما تجاوزت الشباب وتجمع فى جيب زوجها بعض المال الذى جناه من عرقها تطلع حوله باحثاً عن زوجة شابة جديدة .

أما المرأة العربية التى حظيت بالتعليم العالى والأجر المتساوى مع الرجل فإن زوجها فى معظم الأحيان هو الذى يسيطر على أجرها ، وقد يهددها بالطلاق إذا ما لاح لها أن تخرج من تحت سيطرته . ولازال الزواج هو الحماية الأخلاقية والنفسية والاجتماعية للمرأة العربية ، ذلك أن القيم الأبوية القديمة لازالت شائعة فى البيت والشارع والمدرسة والعمل والجامع والراديو والسينما والمسرح والصحف والمجالات وكل مكان .

وهناك بعض النساء الأوروبيات والأمريكيات اللاتى يتصورن أن النساء العربيات يعشن عهود البربرية ، ويتخذن من بعض العادات التى لازالت موجودة فى بلادنا مثل عادة ختان البنات على أنها دليل على البربرية وقهر النساء .

ولاشك أننى ضد هذه العادة وغيرها من العادات ، وقد كان كتابى « المرأة الجنس » هو أول كتاب باللغة العربية يتصدى لهذه العادة ولغيرها من مظاهر القهر للنساء ،

إلا أنني اختلف مع هؤلاء النساء الأوروبيات والأمريكيات في نظرتهم غير التاريخية إلى مثل هذه العادات ، ولا أتفق معهن على أنها ظاهرة خاصة بالنساء العربيات أو الأفريقيات وحدهن ، ولا أحبذ تسليط الضوء عليها بمعزل عن أنواع القهر الأخرى السياسية والاقتصادية والتاريخية .

وبالرغم من أن المرأة الغربية لا تتعرض لعملية الختان ولا يستأصل البظر من جسدها جراحياً لكنها تتعرض لعمليات نفسية وتربوية وثقافية تستأصل منها البظر . وربما كان سيجموند فرويد من أشهر الرجال الذين استأصلوا بظر المرأة نفسياً وفسيولوجياً حين وضع نظريته المعروفة عن نفسية المرأة ، وقرر أن البظر عضو ذكرى ، وأن النشاط الجنسي البظري مرحلة طفولية ، وأن النضوج والصحة النفسية للمرأة تقتضى أن يكف البظر عن نشاطه ويتحول النشاط الجنسي إلى المهبل .

ولاشك أن عملية استئصال البظر جراحياً تبدو أكثر وحشية من عملية الاستئصال النفسية إلا أن النتيجة قد تكون واحدة من حيث إلغاء وظيفة البظر ، فيصبح وجوده مثل عدم وجوده، بل أحياناً ما تكون العمليات النفسية أشد خطورة ، لأنها تخدع المرأة، وتوهمها بأنها كاملة الأعضاء ، في حين أنها ليست كذلك من الناحية العملية ، أو توهمها بأنها حرة وهي ليست حرة أو أنها سعيدة وهي ليست سعيدة .

إن هذا الوهم من أخطر الأشياء على المرأة ، لأنه يسلبها أهم الأسلحة في معركتها للتحرر ، ألا وهو سلاح الوعي بأنها لازالت مستعبدة .

ونحن النساء العربيات ندرك أننا لازلنا مستعبدات ، ليس لأننا ننتمى إلى الشرق أو الإسلام أو العرب ، ولكن لأننا نعيش في مجتمع طبقي أبوى سيطر على العالم منذ بضعة آلاف السنين .

إن خلاصنا من هذا النظام هو الوسيلة الأساسية لتحريرنا . لكن نجاحنا لتحقيق هذا التحرير لن يتم إلا إذا أصبحنا قوة سياسية تعادل نصف المجتمع . إن السبب الأساسي (في رأيي) الذي أعجز النساء عن استكمال تحريرهن (حتى في البلاد التي

تحولت نحو الاشتراكية) هو أنهن لم يمثلن أبداً القوة السياسية القادرة على فرض حقوقها .

وقد كان معظم الرجال الاشتراكيين العرب يرون أن تكون قوة نسائية سياسية إنما هي فكرة خاطئة ، تقسم صفوف الرجال والنساء وتحرف المعركة عن أهدافها السياسية والاقتصادية الأساسية وتحولها إلى صراع بين الجنسين .

كما أن معظم النساء العربيات المتحمسات لتحرير المرأة وقيادات الجمعيات النسائية العربية كن يتصورن أن مشكلة المرأة مشكلة خاصة بهن ، أو مشكلة اجتماعية تتعلق بالأسرة والأطفال ولا علاقة لها بالأمور السياسية الكبرى مثل قضية الاشتراكية أو الحرية أو الديمقراطية .

إلا أن تجارب وأخطاء الماضي قد أنضجت الكثيرات من القيادات النسائية . ومن الرجال الاشتراكيين العرب ، وبدأ معظمهم يدركون الحاجة الملحة إلى التغلب على تلك الهوة التي تفصل بين ما هو سياسى وما هو شخصى ، ومحاولة خلق نظرية ثورية عصرية ، توائم بين التنظير والتطبيق ، وتسد الثغرة ما بين التفكير والشعور ، وتعثر على صيغة جديدة لعلاقة نضال النساء ونضال الرجال .

إن هذه الصيغة الجديدة لابد وأن تربط بين القهر العام الواقع على الرجال والنساء ، وبين القهر الخاص الواقع على المرأة لكونها امرأة . بمعنى آخر لابد من الربط بين الثورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبين الثورة الثقافية والأخلاقية والنفسية والشعورية .

إن تسييس الحركة النسائية العربية وتجميع النساء من كل بيت وكل قرية وكل مدينة ، ومن الفلاحات الأميات والمهنيات المتعلمات ، يعنى أن الثورة العربية تستطيع أن تتغلغل داخل كل بيت وكل كوخ وكل عقل نسائى وتكتسب بذلك صفتها الجماهيرية الشعبية ، ولا تخضع لأقلية أو طبقة معينة من النساء .

ليس هناك من أحد سوى النساء العربيات أنفسهن القادرات على تكوين نظريتهن وأفكارهن ووسائلهن لتحرير أنفسهن ، وعلى خلق المرأة العربية الجديدة ذات الشخصية الأصيلة القادرة على اختيار أفضل ما فى تراثها وحضارتها القديمة وأفضل ما فى العلوم والأفكار الجديدة . المرأة العربية الواعية التى لا تعيش الوهم بأن الحرية ستأتىها منحة من السماء . أو هبة من الرجال ، ولكنها تدرك أن طريق الحرية طويل وشاق ، وأنها ستدفع ثمن الحرية غالياً . إلا أنها تدرك أيضاً أنها تدفع ثمن العبودية غالياً ، فلماذا لا تدفع وتكون حرة بدلاً من أن تدفع وتكون عبدة .

ولسوف تلعب النساء العربيات كقوة سياسية دورهن لتحقيق الوحدة العربية ، هذا الأمل الذى ظن بعض الناس أنه تبدد بعد خدعة السلام الأخيرة إلا أننى أعتقد أن الشعوب العربية رجالاً ونساءً تسير بخطى أكثر وعياً وأكثر ثباتاً نحو الوحدة والتحرير الحقيقى .



آخر قلاع الملكية الخاصة امتلاك الرجل لزوجته(*)

اشتد الصخب وارتفعت الصيحات ، فزع أغلب الرجال وبعض النساء المملوكات للرجال ، فالأمر يتعلق بآخر قلاع الأملاك الخاصة للرجل ، وهو امتلاكه لزوجته حسب القانون العبودي القديم ، الذي يقول : الرجل يملك زوجته لكن المرأة لا تملك زوجها ، لأن السيد يملك العبد لكن العبد لا يملك سيده .

منذ نشوء العبودية أو الرق في التاريخ اندرجت الزوجة (سُميت الرقيقة من كلمة الرق) ضمن أملاك زوجها من عبيد وماشية وأشياء أخرى . أصبحت المرأة شيئاً أو جسداً يملكه زوجها ، أما زوجها فهو يملك جسده ونفسه لأنه إنسان وليس شيئاً .

لهذا نسمع هذا الصراخ حين تحدث محاولة صغيرة لتغيير هذا الوضع الذي يتعارض مع جميع حقوق الإنسان . يتغنى الرجال بحقوق الإنسان في كل مكان ، فإن أصبحت المرأة هي هذا الإنسان . فزعوا وصاحوا : امسك المرأة بالجام وإلا أفلتت من الحبس أو الاحتباس !

هذه الكلمة « الاحتباس » التي ترن في الأذن مؤلمة نائية تذكرنا بعصر العبيد ، هذه الكلمة أصبحت تتردد على الألسنة في بلادنا كأنها هي كلمة عادية ! كأننا نعيش في عصر الرق ، رغم أن ثورات العبيد في التاريخ قد حرمت الرق ، ولم يعد من حق أحد أن يملك جسداً أحد ، وانتشرت حقوق الإنسان على شكل قوانين تكفل لكل فرد حق امتلاك جسده وعقله ونفسه ، وحقه في العمل بأجر يناسب العمل ، وحقه في السفر والتنقل دون قيد أو شرط (إلا إذا كان محكوماً عليه في جريمة قتل) وغير ذلك من حقوق الإنسان الأساسية التي نحفظها عن ظهر قلب .

إلا أن المرأة في بلادنا لم تعد إنساناً بعد في نظر أغلب الرجال . بل في نظر بعض النساء أيضاً . شاهدت امرأة على شاشة التليفزيون (وهي أستاذة بالجامعة)

(*) نشر بجريدة الأهالي ٢ فبراير ٢٠٠٠ .

تصرخ دفاعاً عن حرية الطلاق وحرية السفر للزوج دون قيد أو شرط ، أما الزوجة فهي لا يحق لها الطلاق أو الخلع أو السفر دون موافقة زوجها ، لأن عقد الزواج يفرض على الزوجة طاعة زوجها ، فهو ينفق عليها وله الحق مقابل الإنفاق في احتباسها .

خرجت كلمة « احتباسها » من فم المرأة بصوت ذكوري منفر ، وهي أستاذة بالجامعة تلقن الطلبة والداليات في بلادنا هذه القيم القائمة على احتباس النساء مقابل الإنفاق ، ثم نشكو بعد ذلك من تفسخ القيم الأخلاقية ، وهل هناك شيء ضد الأخلاق أكثر من إجبار النساء على الحياة مع رجل مكروه لمجرد الإنفاق عليهن ؟ وما الفرق بين امرأة تقدم جسدها لزوج مكروه مقابل قروشها وبين المومس في سوق البغاء ؟ مع ذلك تشمخ الأستاذة الجامعية بأنفها وتلعن النساء اللاتي يطالبن بحرية المرأة ، كما حدث في البلاد الغربية المنحلة الأخلاق ، حيث تمتلك المرأة جسدها كاملاً ولا وصاية لأحد على هذا الجسد !

هذا هو كلام الأستاذة الجامعية الذي وافقها عليه أغلب الرجال الحاضرين في تلك الندوة فوق الشاشة ، وهو كلام يبدو في ظاهره مع الأخلاق . لكنه في الحقيقة ضد الأخلاق . لأن الأساس في الأخلاق هو أن يملك الإنسان جسده وعقله وتكون له الحرية دون وصاية من أحد . إن الفضيلة لا تكون فضيلة إلا بالحرية والاختيار - أي المسئولة ، أما الفضيلة التي تفرض بالقوة والإجبار والوصاية فهي ليست فضيلة ، وإنما مجرد خضوع للقهر .

لهذا فإن قضية حرية الإنسان : الرجل والمرأة هي جوهر الدين الصحيح والقانون الصحيح . إن الحرية حق من حقوق الإنسان وليست منحة يعطيها الزوج لزوجته . وتكتسب المرأة حريتها بمثل ما يكتسب الرجل حريته حسب القوانين الوضعية والدينية ، وهناك في الكتب السماوية آيات متعددة تؤكد مبدأ الحرية والمساواة بين البشر نساءً ورجالاً . وفي القرآن هذه الآيات مثل ﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾ (سورة النساء - آية ١) ، ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ (سورة التوبة - آية ٧١) وتعني هذه الآية أن الولاية من حق النساء والرجال وليس من حق الرجال وحدهم . ومن أحاديث الرسول محمد ﷺ « النساء شقائق الرجال » ، « والناس سواسية كأسنان المشط » . وغير ذلك كثيراً .

لكن الأستاذة الجامعية كانت تدافع عن رأيها تحت اسم الشرع والدين وهى جاهلة بهما ، وقد أيدها فى رأيها عدد من الرجال ومنهم أحد كبار أطباء النفس ، الذى تحدث باسم علم النفس ، وراح يؤكد أن النفس نزاعة للهوى . تجاهل أن هذه النفس قد تكون ذكراً أو أُنثى ، وقصر كلامه على المرأة ، قال إنها عاطفية بطبيعتها الأنثوية تغلب عليها نزعات دونية جنسية لأسباب نفسية ، فإن وجدت طريق الخلع أو الطلاق سهلاً (لمجرد أن ترد لزوجها الصداق وتتأزل عن النفقة) فإنها قد تتخلى عن أسرتها وزوجها لمجرد نزوة جنسية . أما إذا وجدت طريق الطلاق مسدوداً أمامها فسوف لا تجد أمامها إلا طريق الخير والصلح مع زوجها حفاظاً على الأسرة المقدسة !

كان بين شفتيه « بايب » كاد يسقط من فمه وهو ينطق كلمة « الأسرة المقدسة » ، وضحكت من هول المفارقة ، لأن هذا الأستاذ الطبيب النفسى كان زميلاً لى فى كلية الطب ، تزوج من زميلة لنا كانت طالبة مثالية أصبحت طبيبة ناجحة ، لكنه فرض عليها بعد الزواج أن تتفرغ لخدمته وخدمة الأطفال ، عاشت معه ثلاثين عاماً وأكثر ، أنجبت منه خمسة من الأولاد والبنيات ، أخلصت لحياتها العائلية ، لم يكن لها حياة أخرى إلا الأسرة المقدسة ٥

إلا أن هذه الأسرة المقدسة تلاشت فجأة أمام نزوة جنسية طارئة لزوجها بعد أن بلغ السبعين عاماً . لقد استطاعت ممرضة صغيرة فى عيادته أن تسيطر عليه جنسياً .

أصبح يشتري حبوب الفياجرا ويركع عند قدميها يتمسح فى ساقها مثل الخروف فى قصة ألف ليلة وليلة ، وكان من قبل رجلاً من بنى آدم ثم سحرته المرأة على هيئة خروف . وقد جاءتنى زميلتى القديمة تبكى على زوجها الأستاذ الكبير الذى ضحى بها وبالأسرة المقدسة من أجل فتاة تصغره بأربعين عاماً ، تعامله بجفاء وقسوة ، لا تريد منه إلا المال . فهى تحب شاباً من عمرها ولا تطيق أن يلمسها هذا الرجل العجوز ذو السبعين عاماً ، مع ذلك تقدم له نفسها مقابل المال وهو يعرف ذلك ، ويقول : واجب الزوج الإنفاق وواجب الزوجة الطاعة .

كنت أرمقه وهو يتحدث على الشاشة بازدياء ، فهو يرتدى قناع العلم والوقار ، يتحدث عن الأسرة المقدسة وضرورة سد الطريق أمام المرأة لتحافظ على هذه

الأسرة! بالطبع لم يتحدث الأستاذ الكبير عن ضرورة سد الطريق أمام الزوج ليحافظ على الأسرة المقدسة! بل راح يسهب في قدسية الأسرة، وأنها كيان واحد ملتحم وليست أفراداً منفصلين أو مجموعة من الغرباء لا شأن لأحدهم بالآخر، وبالتالي فهو يعارض التصريح في القانون بحق الزوجة في السفر دون إذن زوجها، فهذه الأمور تحل داخل الأسرة المقدسة وليس بقرار خارجي من وزير العدل.

بالطبع تجاهل هذا الأستاذ الكبير أنه سافر عشرات المرات دون موافقة زوجته، بل إنه طلقها دون موافقتها وتزوج فتاة تصغره بأربعين عاماً دون أن يعترض القانون، وأنفق عليها في عامين اثنين مدخرات عمره وعمر زوجته وأسرته، وعلى شراء حبوب الفياجرا، دون جدوى، فالزمن لا يعود إلى الوراء، والعجوز لا يصبح شاباً وإن صوّرت له الأوهام غير ذلك. لقد هجرته العروس الشابة بعد عامين فقط وذهبت إلى حبيبها الشاب.

ومع ذلك يشمخ هذا الأستاذ الكبير بأنفه ويعلن على شاشة التلفزيون أن المرأة لا يحق لها أن تملك جسدها لأنها أنثى (ترن كلمة أنثى في أذني نابية) ولا يحق لها السفر دون إذن زوجها لأنها في حاجة إلى حماية، ولا يصح أن تحظى بالحرية الجنسية التي تحظى بها المرأة في الغرب وإلا تفككت الأسرة المقدسة التي هي نواة المجتمع.

بالطبع لم يسأله أحد: ولماذا يحظى الرجل بالحرية الجنسية التي يحظى بها، ولماذا لا نضع القيود على حرية الرجل من أجل الحفاظ على الأسرة المقدسة!؟ لم يسأله أحد لأن أغلب الناس في بلادنا تفكر بنصف عقل أو بعقل مزدوج لا يرى التناقض فيما يقولون وغياب المنطق والعدل. أغلبهم رجال أعمتهم رغباتهم وشهواتهم عن رؤية الحقيقة. إنهم يخافون على ضياع آخر القلاع في أملاكهم الخاصة، وهو امتلاك الزوجة! لقد تحرر العبيد في التاريخ بعد أن امتلكوا القوة السياسية لانتزاع حقوقهم. وليس أمام النساء طريق آخر للتحرر من قانون الاحتباس!

• • •

فكر وثقافة

٢٨ مقالاً

إعادة قراءة تاريخ مصر القديم (*)

يلعب التاريخ دوراً هاماً فى فهم الماضى ، الذى يبنى عليه الحاضر والمستقبل من بعد ، إذ لا يمكن الفصل بين الماضى والحاضر والمستقبل ، لهذا تلعب مجلة «روزاليوسف» دوراً إيجابياً فى فتح صفحاتها لمقالات جديدة عن تاريخ مصر القديم ، يشارك فيها عدد من المفكرين والباحثين فى التاريخ القديم ومنهم الدكتور وسيم السيسى ، والدكتور سامح عرب ، وقد قرأت فى روزاليوسف ١٦/٤/١٩٩٩ رد الدكتور سامح عرب على مقال الدكتور وسيم السيسى (روزاليوسف ٢/٤/١٩٩٩) تحت عنوان « حق الاختلاف حول أوزوريس » وأعجبني المقال لأسلوبه العلمى الهادى الذى يحاول الوصول إلى الحقيقة ، وهل أوزوريس هو أول الموحدين فى التاريخ (كما يقول الدكتور وسيم السيسى) أم أن إخناتون (إيمحوتب الرابع) هو أول من دعا إلى التوحيد ؟

وفى هذا المجال يمكن أن يجتهد الباحثون والباحثات ، وهناك من يقول إن « إيزيس » (وليس أوزوريس) هى الأولى فى التاريخ التى قامت فلسفتها على التوحيد مثل أمها « نوت » إلهة السماء وجدتها الكبرى « نون » التى كانت إلهة الكون الموحد دون انفصال السماء عن الأرض ، لقد بدأت الديانات الانفصالية فى التاريخ بانفصال السماء عن الأرض ، وكانتا وحدة واحدة بقيادة واحدة هى الإلهة الأم الكبرى « نون » وقد ساعدت هذه الوجدانية على ازدهار الكون ونمو الخير وتوزيعه على الناس بالعدل دون أسياد وعبيد ، إلا أن نشوء العبودية أدى إلى ظهور فلسفة جديدة تقوم على الانقسام والتفرقة « فرق تسد » .

إن هذه الفترة من التاريخ القديم فى حاجة إلى دراسات متعمقة بعيدة عن التنافس السياسى والحزبى الذى يقسم الناس إلى فرق تتنازع الحكم فوق الأرض وفى السماء أيضاً .

(*) روزاليوسف - من ٨ : ١٤/٥/١٩٩٩ .

إن ما نعرفه عن التاريخ القديم لا يزيد على آثار الحجار أو حروف مدونة على جدران المعابد والبرديات ، وأساطير وردت فى بعض الكتب الدينية باعتبارها قصصاً غير حقيقية أو حقيقية ، وقصة الخلق فى التوراة لا تذكر شيئاً عن أوزوريس أو إخناتون، مع أن النبی موسى (الذى نسبت إليه التوراة) قد قرأ فلسفة إخناتون ونفرتيتى وتأثر بهما ونقل عنهما ، وهو أمر طبيعى لأن كل نبى أو زعيم سياسى لا يبدأ من فراغ أو من الصفر ، ولكنه يبني أفكاره على أفكار من سبقوه ويزيد عليها ، أو يطورها إلى الأفضل أو إلى الأسوأ حسب المرحلة التاريخية التى يمر بها الشعب فى ذلك الوقت .

ولعل أكبر غلطة فى التاريخ البشرى هى أن الإله أوزوريس هو أول الآلهة الذكور الموحدين ، الذى ولد نفسه بنفسه ولم تلده أمه ، وهى الإله « نوت » وكانت إلهة السماء وزوجها « جب » إله الأرض ، بعد انفصال السماء عن الأرض ، وقد ولدت « نوت » أربعة من الأولاد والبنات (إيزيس ونفتيس وست وأوزوريس) .

إلا أن الصراعات بين الآلهة كانت دائرة حول امتلاك الحكم والأرض الزراعية ، واستطاع الإله « رع » أن ينزع عن الآلهة الأم تاجها ، وكان قرص الشمس ذاته ، أو « أتوم » وهو الإله الكامل الواحد (الجمران / خبرى) الذى اتحد مع ذاته وأنجب (دون حاجة إلى المرأة) زوجاً من الآلهة هما « شو » إله النور أو الحرارة أو الجفاف ، و « تفنوت » إلهة الظلام أو البرد والرطوبة ، وهنا نتوقف قليلاً لنذكر كيف تم الاستغناء عن دور المرأة الزوجة والأم فى إنجاب الآلهة ، كأنما الإله الذكر قادر وحده على الإنجاب ، وكما حدث فى التاريخ من الانتقال من الإلهة الأم إلى الإله الأب حدث فى عبادة الحيوانات التى كانت ترمز إلى الإلهية ، وكانت « البقرة » ترمز إلى الإلهة أيزيس أو حتحور ، إلا أن الملك مينا (أو نارمر) أنشأ عبادة التمساح المذكر (سوبك) فى الفيوم وعبادة العجل « أيبس » المذكر أيضاً فى منف ، وكان الملك مينا أو نارمر حاكماً باطشاً ظالماً للفقراء والنساء وكان يتمتع بلقب « قاطع الرؤوس الجبار » .

أجل ، كان الصراع فى التاريخ حول الحكم والأرض صراعاً دمويًا تقطع فيه الرؤوس وقد انهزمت الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى الفقير (رجالاً ونساءً) أمام هذا البطش الفرعونى ، وقد تتكر فرعون فى ملابس الإله الذكر .

واشتد الصراع بين الإله الملك إخناتون (إيمحوتب الرابع) وبين الإله الملك آمون رع ، وانهزم رع وجلس إخناتون على عرش مصر ، وقال إن الإلهة الوحيدة المعبودة هي « الشمس » ، وكانت محاولة لاستعادة وحدانية الإلهة الأم الكبرى ، وكان إخناتون إنساناً رقيقاً يحتوى على صفات الأمومة والأنوثة مع الرجولة ، وكان جسمه أيضاً مثل عقله يظهر بعض الصفات الأنثوية والذكورية فى آن واحد ، وحين رأيت صورة إخناتون ونفرتيتى لأول مرة تصورت أن إخناتون هو المرأة ونفرتيتى هي الرجل ، وقد رأيت لإخناتون ثديين وردفين أكبر مما عند زوجته نفرتيتى ، وهناك من يقول أن أناشيد إخناتون هي التي ألفتها نفرتيتى وهي التي كانت تحكم وليس زوجها ، أو ربما كان إخناتون يحكم من خلال أمه الملكة « تي » ذات الشخصية القوية ، إلا أن هذه الفترة لاتزال فى حاجة إلى دراسات متعمقة حيادية غير خاضعة للفلسفة الذكورية السائدة فى العالم اليوم .

وهناك تشابه كبير بين أناشيد إخناتون ونفرتيتى ومزامير الملك داود فى التوراة ، وقد تحولت الفلسفة بعد ظهور التوراة إلى فلسفة طبقية أبوية أساسها النسب الأبوى والسيطرة الذكورية فى الدولة العائلية ، هكذا حدث الصراع ضد « عبادة الشمس » المؤنثة ، وانهزم إخناتون ونفرتيتى هزيمة منكرة على يد الآلهة الذكور فى التوراة ، الذين تصارعوا فيما بينهم حول الحكم والأرض ، ومازالوا يتصارعون حتى اليوم ، وبعد أن جعلهم الإله شعبه المختار ومنحهم الأرض الموعودة (أرض فلسطين) مقابل ختان الذكور ، وكثيراً ما نبدوا هذا الإله الواحد غير المرئى وعبدوا « العجل » وقت الهزائم .

ومن المعروف أن المرأة المصرية القديمة كانت تحظى بمكانة عالية فوق الأرض وفى السماء ، وكانت تنسب إليها أطفالها ، وكانت إلهة العدل مؤنثة فى مصر القديمة واسمها « معات » .

إلا أن الصراعات الدموية قد أطاحت بفلسفة العدل أو الحق وحلت مكانها فلسفة « القوة » المسلحة ، واستطاع الفراعنة والملوك الإقطاعيون أن يسلبوا الشعب المصرى حقوقه تحت اسم الإله الحاكم أو فرعون الأكبر .

إن إعادة قراءة التاريخ القديم تكشف لنا عن الكثير من الأسباب الاقتصادية والسياسية التي أدت إلى قهر الفقراء والنساء من الشعب أخلاقياً ودينياً ، هناك ترابط بين السياسة والاقتصاد والدين والأخلاق لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، لكن هذا الفصل يحدث في المدارس والجامعات بسبب ما يسمى بـ « التخصص » .

وقد أدى التخصص إلى الجهل بهذه الروابط بين العلوم الإنسانية والتاريخية وبين العلوم الطبيعية كالطب والفيزياء والكيمياء .

وهناك مبدأ في علم الطب يقول : « لابد من معرفة الأسباب الحقيقية للمرض من أجل القضاء عليه » بهذا يجب على الطبيب أن يدرس تاريخ حياة المريض أو المريضة وأن يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وما يسرى على الأمراض الجسمية لابد أن يسرى على الأمراض الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والنفسية .

وكثير من الناس يتحدثون عن أزمة الشباب والشابات في بلادنا إلا أن القليل جداً ما يربط هذه الأزمة في الأخلاق (أو في الأسرة والزواج أو الاغتصاب أو انتشار المخدرات) بما يحدث في مجال الاقتصاد والسياسة والتاريخ والفلسفة والدين .. إلخ. ولعل إعادة قراءة تاريخ مصر القديم تساعدنا على فهم الحاضر أكثر ، وبناء مستقبل أفضل ، ولهذا حديث آخر .



تأثيم المعرفة .. لماذا حدث في التاريخ البشري؟(*)

نشرت إعلانا في الصحف أطلب شغالة في البيت تساعدني في التنظيف والطبخ فجاءني العشرات من خريجات وخريجي الجامعات ، عملت لهم اختباراً لأنتقى الأكثر ذكاء ونظافة وأمانة ، وفازت بالعمل فتاة شابة في الرابعة والعشرين من عمرها تخرجت في كلية الآداب ولم تجد عملاً مثل غيرها من آلاف الخريجين ، اسمها « أمل » وجهها فيه لمعة الذكاء الفطري المطموس تحت طبقة من الشحوب والفقر واليأس ونقص الفيتامينات ، اشتريت لها عدداً من علب الفيتامينات الطازجة ، وملابس نظيفة وأعطيتها بعض كتبى لتقرأ عن حقوقها كإنسانة ، أقبلت أمل على العمل بهمة ونشاط ، وأصبح بيتى نظيفاً وتفتحت شهيتى للطعام بسبب مهارتها في الطبخ ، ولم تعد قمصان نومى بلا أزرار ، كانت « أمل » تجيد أيضاً « الخياطة » ، حتى الجوارب القديمة بدأت ترتق ما فيها من ثقوب ، ومريّة « اللارنج » التى كنت أتوحم عليها منذ موت أمى منذ أكثر من ثلاثين عاماً بدأت أذوق طعمها داخل برطمانات صغيرة ، أعادت إلى التناول الطفولى حين كنت فى السابعة من العمر ، وأصبحت نكهة الطعام تتصاعد من بيتى ، تنبعث فى عقلى وجسدى وروحى نشوة وإحساس جديد بالحياة والحرية والأمل والحب !

أجل الحب أيضاً . لقد فقدت شهيتى للحب مع الجوع المزمن الذى لازمى منذ انشغلت بالكتابة والتأليف والفكر و الفلسفة وغير ذلك من الأمور غير النافعة فى حياتنا الراهنة .

إلا أن هناك أنواعاً من البشر وفصائل من الحيوانات أو الكائنات التى تزن على خراب عشها ، ربما أكون واحدة من هؤلاء ، وإلا فلماذا ناديت على أمل ذات يوم وقلت لها: اسمعى يا أمل أنت فتاة ذكية ونشيطة ، ولا بد أن لك أحلاماً وطموحات فى حياتك ؟

(*) روزاليوسف - ١٥/٢/١٩٩٩ - (٣٦٨٨) (٦٥) .

قالت أمل : نعم عندي حلم واحد .

قلت ما هو ؟

قالت : أتعلم كومبيوتر .

قلت : يا سلام ! بس كده ؟

فى دقائق اتصلت تليفونيا بمكتب كمبيوتر بجوار بيتى ، التحقت فيه أمل فى اليوم نفسه ، وبدأت التدريبات على الكمبيوتر ، بعد شهر واحد أصبحت أمل تكتب بأصابعها العشرة بسرعة معقولة ، وتعلمت مهارات أخرى على الكمبيوتر غير الكتابة ، كنت أدفع لها كل شهر ثلاثمائة جنيه للتدريبات واقتحام مجالات جديدة فى المعرفة ، بعد ثلاثة أشهر أصبحت أمل من أمهر الكاتبات على الكمبيوتر باللغة العربية والإنجليزية ، كانت تذهب إلى مكتب الكومبيوتر للتدريب ثلاث ساعات كل يوم من السادسة حتى التاسعة مساءً ، وكانت تقوم أيضاً بتنظيف البيت والطبخ ورعاية أمورى ، كما كانت تفعل قبل التحاقها بالمكتب .

كل صباح كانت تدق جرس البيت فى الساعة التاسعة صباحاً ، تقول لى صباح الخير وعلى وجهها ابتسامة مشرقة . كل يوم كانت تأتى فى موعدها فى الصباح ، تنتهى من أعمال البيت فى الواحدة ظهراً ، وفى اليوم التالى أسمع الجرس ، أعرف أنها هى ، وكانت أجازتها يوم الجمعة من كل أسبوع .

وجاء العيد وأخذت ثلاثة أيام إجازة مثل موظفى الحكومة ، أعطيتها الخميس والجمعة إجازة بعد إجازة العيد ، وكان موعدها السبت الساعة التاسعة صباحاً كعادتها .. وجاء السبت إلا أن « أمل » لم تأت . قلت ربما مريضة بعد أن أكلت « كعك » العيد ، وسوف تأتى فى الغد ، إلا أن الغد جاء ولم تأت « أمل » ، لم يرن جرس البيت فى التاسعة ولم يرن جرس التليفون أيضاً لتخبرنى عن « سبب غيابها كانت تكلمنى فى التليفون حين تغيب لعذر طارئ » .

لى صديقة اسمها سوسن أحكى لها عن همومى أحياناً ، جاءتنى فى زيارة فوجدتنى جالسة يدي تحت خدى وليس فى بيتى طعام ، سألتنى بسرعة :

- وفين أمل ؟

- مش عارفة يا سوسن !

- مش عارفة إزاي ؟
- بعد أجازة العيد مارجعتش .
- مش قلت لك بلاش تعلميها كمبيوتر ، طبعاً يا ستي بعد ما تعلمت ولقت شغلة أحسن لا يمكن ترجعك تانى !
- يعنى مافيش حاجة اسمها وفاء فى الدنيا ؟
- اطلقت صديقتى سوسن ضحكة ساخرة ، وقالت : إذا تعارضت المصلحة الخاصة مع الوفاء انتصرت المصلحة ، وأنا نصحتك وقلتك بلاش تعلميها وإلا فقدتها !
- أجل ، لقد فقدت « أمل » لأننى ساعدتها على التعليم وفتحت لها طريقاً للمعرفة..
عضضت بنان الندم وقلت لنفسى : « لو لم أعلمها لبقيت فى بيتى تشتغل » !
- ألهذا حرمت النساء من التعليم ليشتغلن فى البيوت ويتفرغن لخدمة الأسرة من الرجال والأطفال والعجائز بدون أجر إلا طعامهن !
- ألهذا حرم العبيد والأجراء من التعليم ليعملوا فى الأرض أو البيوت أو المصانع بأقل الأجور التى لا تكاد تسد الرمق ؟
- ألهذا أصبح التعليم لا يودى إلى المعرفة الحقيقية بل إلى نوع من التأهيل المهنى أو الوظيفى فحسب ؟
- كانت هذه الأسئلة جميعاً واردة فى عقلى منذ وعيت الحياة ، منذ رفضت الزواج وأنا فى أول الصبا وقررت أن أتعلم وأسعى إلى المعرفة بأى ثمن وإن دفعت حياتى ثمن المعرفة .
- إلا أن كل ذلك لم يطعمنى أو ينفض التراب عن الرفوف فى بيتى ، أو يخيطة لى الأزرار الساقطة فى قميصى ، أو يغسل لى ملابسى ويكويها .
- هكذا نشرت إعلاناً جديداً فى الصحف أطلب شغالة وجاءنى العشرات من الخريجين والخريجات ، عملت لهن اختباراً ساعدتنى فيه صديقتى سوسن . اختارت فتاة شابة خالية من الذكاء والطموح ، وقالت لى : الشغل فى البيوت لا يمكن أن يقوم به إلا الأغبياء المعدمون من الطموح !

وأدركت ما كنت أدركه منذ وعيت الحياة ، لقد قامت الفلسفة العبودية فى التاريخ البشرى على تأثيم المعرفة وأصبح الجهل فضيلة والغباء ميزة كبيرة .

وكانت خطيئة أمنا حواء أنها رفضت الجهل ومدت يدها وأكلت من شجرة المعرفة ! كان الإثم الأكبر فى التاريخ العبودى هو « تذوق المعرفة » وليس « تذوق الجنس » كما أشيع فى الكتب التى لقنونا إياها فى المدارس .

إلا أننى لمحت وسط الطابور فتاة شابة تشبه « أمل » وجهها يضىء بلمعة الذكاء الفطرى ، التقت عيوننا فى لحظة خاطفة وابتسمت ، فأشرت لها بىدى ، كانت ابتسامتها مثل الضوء لمست شيئاً بعيداً فى أعماقى ، ربما طفلة السابعة ذات التفاؤل الساذج .



اكتئاب المثقفين ومسئولية الحوار مع السلطة (*)

توقفت كثيراً أمام مقال الأستاذ صلاح الدين حافظ المنشور في جريدة الأهرام بتاريخ (٣ فبراير ١٩٩٩) الذى تعرض فيه لظاهرة صمت المثقفين فى اللقاء السنوى الذى يعقد مع رئيس الدولة بمعرض القاهرة الدولى للكتاب ، وتدثر معظمهم - ولا يستثنى نفسه - « بدفع الجلوس الكسول فوق الكراسى الوثيرة » ، ويقول إن تكاسل المثقفين وتقاعسهم عن طرح الأسئلة الصعبة فى المسائل الصعبة يؤدي إلى أن يحتل الساحة أنصاف مثقفين يطرحون أسئلة صحفية سريعة ، أو يتناولون قضايا جزئية أو مشكلة عاجلة أو مطالب شخصية ، دون أن يغوصون بالحوار فى العمق أو يصلون إلى جذور الأشياء .

ويقسم صلاح الدين حافظ المثقفين إلى فريقين ، فريق عزل نفسه وانسحب بسبب الاكتئاب أو الإحباط ، وفريق فرض نفسه بالسباحة فى التيار ونفاق السلطة .

وأنا أتفق تماماً مع الأستاذ صلاح الدين حافظ إلا أننى كنت أود أن يتطرق أكثر لتحليل هذه الظاهرة ، ويضع النقاط على الحروف ، إلا أنه ينهى المقال بسؤال : من المخطئ فى هذا ؟ ويقول : « أهى السلطة التى تحتكر الحوار وتخنق النقاش وتصادر الحرية وتعزل المثقفين وتخنقهم ؟ أم أن المثقفين يتحملون مسؤولية لا تقل عن مسؤولية السلطة ، وأن على كل منهم أن يراجع نفسه قبل أن يصيبه الاكتئاب أو النفاق ».

لا شك أن المسؤولية تقع على السلطة وعلى المثقفين ، وإن كان قسم كبير من المثقفين يندرج تحت السلطة ، وقسم كبير آخر لا يندرج تحت المكتئبين أو تحت المنافقين ، هذا القسم الكبير من المثقفين لم يكن له أى ذكر فى مقال الأستاذ صلاح الدين حافظ ، ورغم أنه ربما يشمل الأغلبية من المثقفين والمثقفات فى بلادنا ، إلا أنه

(*) نشر فى جريدة الأهالى ١٩٩٩/٢/٢٤ وقد رفضت جريدة الأهرام نشر هذا المقال .

قسم مهمل ، ونادراً ما يحظى بالأضواء الصحفية أو الإعلامية ، ولا يدعى لحضور اللقاءات الفكرية مع رئيس الدولة أو ندوات معرض الكتاب ، أو هذا الفيض الهائل من المؤتمرات الثقافية والمهرجانات ، وإن دعى مرة (ذراً للرماد فى العيون) فإن الدعوة لا يمكن أن تتكرر إن فتح الواحد فمه ، أو فتحت الواحدة فمها وقالت شيئاً مختلفاً .

ولى تجربة فى هذا المضمار لها أهميتها لإلقاء الضوء على التجربة العامة . فأننا لا أنتمى إلى فئة المكتئبين ولا إلى فئة المنافقين أو المنافقات ، وحين أحضر اجتماعاً ما فأننا أبذل ما أستطيع من جهد (سواء بالفعل أو القول) لكسر الحواجز المصنوعة واختراق ترسانة المنافقين الذين يحتلون عادة الصفوف الأمامية والكراسى الوثيرة ويسدون الطريق أمام كل من يريد الكلام ، بصراحة أكثر أو عمق أكبر . ولهذا السبب تم استبعادى تماماً من هذه اللقاءات الفكرية أو غير الفكرية التى تعقد فى مصر أو فى عواصم البلاد العربية ، كما تم استبعاد الكثيرين من أمثالى ومثيلاتى من المثقفين والمثقفات .

المسألة إذن ليست الأكتئاب أو الإحباط . بل المسألة أن السلطة تملك جميع وسائل الثقافة والفكر والإعلام والنشر والتوزيع والنقد الأدبى وكل شئ ، ويمكن للسلطة أن تستبعد من تشاء ، خاصة هؤلاء الذين يمكن لهم أن يتكلموا بشجاعة أكبر ويفوضون إلى جذور المشاكل وي طرحون الأسئلة الصعبة فى المسائل الصعبة ، وقد يتعرض هؤلاء إلى ما هو أكثر من الاستبعاد ، وأعنى الطرد من العمل ، أو النفى إلى الخارج أو إلى الداخل ، وتشويه السمعة عبر أجهزة الإعلام والصحافة التى تملكها الدولة ، والغريب أن أحداً لا يتصدى للدفاع عن هؤلاء المنبوذين ، والذين قد ينالون تقديراً علمياً أو أدبياً كبيراً خارج وطنهم ، ولا يعترف بهم أحد داخل الوطن إلا بعد أن يتلقى الضوء الأخضر من المسؤولين أو السلطة .

الغريب أيضاً أن بعض الذين يصيبهم « الاكتئاب » على صلة حميمة بالسلطة ، يرفلون فى نعيمها ، ويجلسون فى كراسيها الوثيرة . أياكون « الاكتئاب » هنا نوعاً من تأنيب الضمير .

وقد نصحنى بعض أصدقائى من المثقفين أو الأدباء الذين ماتوا بمرض «الاكتئاب» ومنهم صلاح جاهين وأحمد بهاء الدين ويوسف إدريس ، ولعل آخرهم هو الدكتور «على الراعى» ، قالوا لى فى كل مرة أتعرض فيها لعقاب السلطة « لن تعيشى فى سلام أبداً ما لم تقيمى بينك وبين السلطة جسراً ، فما بال أن تشقى طريقك إلى المجد الأدبى أو العلمى » .

لهذا اختلف مع الأستاذ صلاح الدين حافظ ، وأعتقد أن المشكلة ليست هى كسل المثقفين وتقاعسهم عن التعبير بشجاعة وعمق عن آرائهم ، ولكن المشكلة هى هذا الحرص على الجسر بينهم وبين السلطة ، وخوفهم من سقوط هذا الجسر ، الذى يتصورون أنه الحماية لهم ولأولادهم من الفقر أو المنفى أو العزلة ، أو على الأقل الحرمان من الأضواء الإعلامية والصحفية .

وكم من مقالات كتبتها فلم تجد لها مكاناً فى الصحف الحكومية أو صحف المعارضة ، وكم من مقالات نشرت لى بعد حذف أهم أجزائها ، وكم من مثقفين ومثقفات يكيلون المدح للمستولين من أجل تمرير عبارة واحدة ناقدة ، لكن ماذا تفعل قطرة ماء فى البحر الواسع أو خضم المحيط ؟



الأرض مقابل الختان أوقفوا ختان الذكور (*)

مع بداية القرن الواحد والعشرين يتحلى النظام العالمى الجديد بكلمات جديدة براقعة تتخفى وراءها أشكال جديدة من الاستغلال والاستعباد للفقراء فى العالم وللنساء أيضاً .

وأصبحت كلمة العولمة من الكلمات الغامضة الساحرة لكثير من المثقفين فى الغرب والشرق أو الشمال والجنوب ، إلا أن نتائجها على شعوب العالم ليست إلا مزيداً من الكوارث والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والحروب الدينية والطائفية المشتعلة فى كل بلاد العالم اليوم ، وكم من النساء والشباب والأطفال يسقطون قتلى الفتن العقائدية والتي تختفى وراءها المصالح المادية .

أضعف شرائح المجتمع هم أول الضحايا ، وهم النساء والفقراء من جميع الطبقات والفئات والألوان ، زادت الهوة مع مزيد من العولمة بين الذين يملكون والذين لا يملكون ، وبين الجنس المؤنث والجنس المذكر الذى له السيادة فى الدولة والعائلة فى ظل النظام العالمى الجديد ، كما كان فى ظل النظام العالمى القديم ، لا يختلف النظام الجديد عن القديم إلا فى التفاصيل والجزئيات ، ولكن الجوهر واحد ، فهو جوهر النظام الطبقي الأبوى ، يعنى ذلك أن قلة من الأفراد تشكل « الطبقة الحاكمة » تسيطر على مصائر الملايين وأرواحهم وأرزاقهم وأمنهم وأمن أولادهم وبناتهم .. هذه القلة القليلة من الأفراد فى كل بلد من العالم تملك المال والسلاح والإعلام . الثالث الذى تركز عليه السلطة الدولية أو المحلية ، الثالث الذى تبطش به على الأغلبية البشرية المفروض عليها الفقر والصمت ونزع السلاح .

يمكن لمن يدرس التاريخ أن يكتشف الترابط بين السلطة والجنس منذ نشوء العصر العبودى ، منذ انقسام المجتمع إلى أسياد وعبيد ، وإلى نساء ورجال .

(*) روزاليوسف ١٩٩٨/١٢/٢١ .

فى مصر القديمة كانت « نوت » هى الإلهة الأم ، إلهة السماء ، وزوجها « جيب » كان إله الأرض ، وكانت الأم هى التى تعطى اسمها لأطفالها ، لم تكن الأبوة معروفة ، كان الرجال يتصورون أن الجنين يتكون فى بطن الأم بقدرة خارقة غامضة سماوية ، ثم بدأ العقل البشرى يكتشف شيئاً فشيئاً علم البيولوجى وعلم الأمبريولوجى « الأجنة » ، وبدأ الرجل يعرف دوره فى عملية الإخصاب ، ثم بدأ يكتشف « الأبوة » .

لم يعد يأكل أطفاله أو يفتصبهم كما كان يفعل من قبل ، ولم يعد يؤمن بأن النساء يحملن بسبب أرواح تهبط إليهن من السماء .

انعكست هذه الفكرة البدائية فى الأساطير القديمة ، وكما قرأنا هذه الحكايات عن الأبطال الشجعان الذين ولدتهن أمهاتهن بعد أن نفخت الآلهة المقدسة فى أرحامهن ، ويصبح المولود مقدساً ، وإن كانت المولودة أنثى أصبحت قديسة أيضاً تنضم إلى زمرة الإلهات المعبودات .

إلا أن المجتمعات البشرية كانت فى تحول مستمر وصراع دائم للاستيلاء على السلطة والمال والأرض . ظهر الصراع فى التاريخ بين الآلهة الذكور والإلهات الإناث ، يكشف التاريخ القديم عن معارك طويلة بين الإلهة المصرية إيزيس وأعدائها من خارج البلاد وداخلها ، استمرت هذه المعارك الضارية تحاول هدم فلسفة إيزيس فى مصر (وغيرها من البلاد فى الغرب والشرق) .. حتى عام ٣٩٤ ميلادية ، حين جاء الإمبراطور تيودور وحطم تماثيل إيزيس ومعابدها فى الإمبراطورية الرومانية ، وفى مصر ظل أتباع إيزيس وكهنتها يقاومون حتى آخر معبد من معابدها فى جزيرة « فيله » .

والسؤال هو : كيف نشأ ختان الذكور فى التوراة ؟

فى الإصحاح السابع عشر (تكوين) يعقد الإله مع النبى إبراهيم عهداً ، يقول له : « أقيم عهدى بينى وبين نسلك من بعدك عهداً أبدياً .. أعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً .. هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم .. يختن منكم كل ذكر .. فتختنون فى لحم غرلتكم فىكون علامة عهد بينى وبينكم ، فىكون عهدى فى لحمكم أبدياً .. وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلتكم فتقطع تلك النفس من شعبها ، إنه قد نكث عهدى » .

هذه هي الكلمات التي جاءت في التوراة ، تؤكد لنا أن إله اليهود رفع شعار « الأرض مقابل الختان » ، وهو شعار غريب ، فما علاقة الاستيلاء على أرض الغير بالقوة المسلحة وختان الذكور ؟

لا يمكن أن نفهم هذا السر إلا إذا قرأنا ما جاء في التوراة بعد ذلك ، كان إبراهيم ابن مائة سنة وزوجته سارة بنت تسعين سنة ، لم يكن عندهما ابن يرثهما ، أشارت سارة على إبراهيم أن يتزوج جاريته هاجر لينجب منها الولد ، لكن ما أن أنجبت هاجر ابناً إسماعيل حتى غيرت سارة رأيها ، طلبت من زوجها إبراهيم أن يطرد هاجر وابنها ، تردد إبراهيم قليلاً ، لكن سارة اقنعتة بطردهما بعد أن أنجبت له ولداً ، قالت إنه من عند الله ، فسأل إبراهيم الله مندهشاً : « هل يولد لابن مائة سنة ؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة ؟ » (الإصحاح ١٧ / تكوين ١٨) توسل إبراهيم إلى الله أن يجعل ابنه إسماعيل يعيش أمامه ، لكن الله رد عليه في التوراة قائلاً : « فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده » .

هكذا تمت الخطة حسب تدبير زوجته سارة وفق رواية التوراة . خطة استغرقت ثلاث عشرة سنة بسبب تردد إبراهيم وتلكته في طرد زوجته هاجر وابنها إسماعيل ، أمرت سارة بتختين إسماعيل قبل طرده وعمره ثلاثة عشر عاماً ، كما أمرت سارة بتختين زوجها إبراهيم وعمره تسعة وتسعين عاماً .

تقول التوراة : « وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته ، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته .. في ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه وكل رجال بيته ولدان البيت والمتباعون بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه » .

في الإصحاح الثامن عشر نكتشف العلاقة الخفية بين الرب وسارة زوجة إبراهيم إذ يظهر الرب عند باب خيمة إبراهيم ، ومعه ثلاثة رجال ، وسجد إبراهيم إلى الأرض ثم أسرع إلى سارة زوجته داخل الخيمة قال لها : « أسرع بثلاث كيلات دقيقاً سميناً ، أعجنى واصنعي خبز ملة . ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً جيداً وأعطاه للغلام

فأسرع ليعمله ، ثم أخذ زبدًا ولبنًا والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم ، وإذا كان واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا .

بعد الأكل سأل الرب إبراهيم عن زوجته فقال له : هاهى فى الخيمة فقال إنى أرجع إليك .. ويكون لسارة امرأتك ابن ، وكانت سارة سامعة فى باب الخيمة وهى وراءه ، وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين فى الأيام .. وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء .

إلا أن سارة تحصل على ابنها إسحاق ، كيف ؟ .. لا نعرف ، ولماذا كانت تقف وراء الباب تتسمع ما يدور بين الرب وزوجها إبراهيم ، ولماذا كان الرب يستجيب لجميع طلباتها ويأمر زوجها إبراهيم بطرد هاجر وابنها إلى الصحراء ؟

وهل هناك إذلال للرجل وهو فى التاسعة والتسعين من عمره أن يمسكه الرجال ، يكشفون غورته ، يقطعون غرلته بالموس أو قطعة من الحجر ؟ لقد تلوث جرح إبراهيم ولم يلتئم إلا بعد زمن طويل من الألم والمعاناة ، حتى أنه اشتكى للرب من الألم وطلب منه الرحمة .

ويظل الشعار القديم أو العهد القديم « الأرض مقابل الختان » غير مفهوم ، وفى حاجة إلى دراسات أعمق لعصور العبودية والصراعات على السلطة والمال والأرض بين الجماعات البشرية المختلفة .

إلا أن عادة ختان الذكور مثل عادة ختان الإناث أصبحت تتوارث عبر الأجيال ، رغم ما يصاحبهما من مخاطر صحية مختلفة .

بل كثيرًا ما حاول المجتمع البشرى تبرير هذه العمليات الجسدية من أجل استمرارها ، كانت السلطة الحاكمة فى أى مجتمع فى حاجة دائمة إلى التحكم فى أجساد النساء والعبيد ، وقطع أجزاء منها لأسباب قمعية تتخفى تحت الدين .

ولهذا انتشرت الشائعات حتى بين الأطباء أن عمليات الختان للإناث والذكور ضرورة من أجل النظافة أو الصحة أو لمنع بعض الأمراض .

منذ أكثر من ثلاثين عاماً حين نشرت كتابي « المرأة والجنس » ثارت السلطة الحاكمة في الدولة لأن الكتاب تضمن بعض الفصول التي تكشف عن المخاطر الصحية الناتجة عن ختان الإناث ، كان هذا الكتاب (والذي صودر عام ١٩٦٩) هو فاتحة المشاكل في حياتي ، والتي أدت إلى فقداني منصبى في وزارة الصحة في أغسطس ١٩٧٢ ، رغم ذلك أصدرت الكتاب من بيروت عام ١٩٧١ ، وأعقبته بكتب أخرى على توالى السنين ، نشرت كلها في بيروت أو معظمها .

لكنى لم أتعرض في هذه الكتابات السابقة إلى المخاطر الصحية الناتجة عن ختان الذكور ، كنت مشغولة بما تصورت أنه أهم من ذلك ، كما أننى لم أكن عرفت بعد شيئاً عن هذه المخاطر الصحية ، وهى معلومات حديثة نسبياً ، لم يتم نشرها في المجلات الطبية إلا في السنين العشر الأخيرة .

لحسن حظى وصلت إلى هذه المعلومات حين كنت أستاذة زائرة في جامعة ديوك بولاية نورث كارولينا ، بأمريكا الشمالية ، خلال الأعوام ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، وقد شهدت هذه السنوات الثلاث حركة طبية واسعة النطاق ، وفى أنحاء متعددة من العالم ، لنشر المعلومات الجديدة عن مخاطر ختان الذكور ، وساعدت الثورة الإلكترونية الأخيرة فى سرعة نشر هذه المعلومات ، وتكونت فرق من الأطباء تدعو إلى منع ختان الذكور ، وتقدم للجماهير العادية المعلومات الطبية عبر الإنترنت تحت عنوان : « الأطباء يعارضون الختان » .

فى المعركة ضد ختان الإناث انتصرت الحقائق الطبية والعلمية وصدر القرار فى مصر بمنع ختان البنات عام ١٩٩٧ ، وقد حسمت المعركة السلطة الدينية فى مصر حين أعلن شيخ الأزهر أن الختان مسألة طبية من اختصاص الأطباء وليست مسألة فقهية .

هذه عبارة صحيحة تماماً تتطبق على ختان الإناث والذكور أيضاً ، والمفروض أن يطلع الأطباء فى مصر على المعلومات الطبية الجديدة التى تؤكد أن ختان الذكور ضار صحياً وليست له أية فوائد كما أشيع قديماً .

ورغم عدم وجود آية واحدة في القرآن الكريم تذكر الختان (ختان الذكور أو الإناث) ، إلا أن عادة ختان الذكور انتشرت بين المسلمين ، رغم اختلاف الفقهاء حولها ، واختلف الفقهاء المسلمون حول ختان النبي إبراهيم ذاته ، بعضهم قال إنه ولد مختوناً ، وكانت هناك أسطورة يهودية انتشرت في البلاد الأخرى عن طريق التجارة ، وهي أن الإله يخلق الأنبياء طاهرين مختونين ، وأن (الفرلة) تسقط من أجسادهم مع الولادة ، كما يسقط الحبل السرى والمشيمة ، ثم اتضح فيما بعد أن الفرلة لم تسقط عن إبراهيم ، ولم تعرف بهذا السر إلا زوجته سارة ، وبعد أن بلغ من العمر تسعة وتسعين عاماً ! ..

في بداية هذا القرن العشرين كان الشيخ محمد عبده ضد ختان الذكور واعتبره عادة يهودية لا علاقة لها بالإسلام ، إلا أن المشايخ عارضوه ، وفي بداية الستينيات من هذا القرن ردد الشيخ محمد شلتوت رأى الشيخ محمد عبده ، وقال عن ختان الذكور «إنه إسراف في الاستدلال» ولم يأمر به الله إلا لليهود .

هذه الآراء لم تغير من العادة الموروثة منذ الفراعنة ، منذ أصبحت إراقة الدم رمز الخضوع والولاء للإله فرعون ، بدلاً من تقديم القرابين . كان الأثرياء يقدمون للإله فرعون ذبائح من أجساد حيواناتهم ، لكن الفقراء أو العبيد لم يملكوا الماشية وكانوا يقدمون قطعة من أجسادهم صغيرة مع قليل من الدم ، دمهم ، وفي التوراة آيات كثيرة عن سرور الإله حين كان يشم رائحة الدم ، أو الشواء (خاصة الضأن) فوق المخرقة ، من هنا جاء مفهوم الطهارة بإراقة الدم ، في التوراة لا تطهر المرأة بعد الحيض أو المخاض (الولادة) إلا بعد أن تذبح فرخاً للإله تطهر به من نجاسة دمها ، وإن ولدت أنثى تكون نجاستها مضاعفة وتذبح فرخين .

تطورت الطهارة أو عملية التطهير من دنس الولادة بالماء وليس الدم ، وهي خطوة إلى الأمام ، أصبح الطفل المولود يغطس في الماء ليصبح طاهراً (تسمى عملية التعميد في المسيحية) ، وهي عملية لم يأخذ بها المسلمون ، فلماذا انتشرت عادة ختان الذكور في البلاد الإسلامية ؟

كثير من فقهاء المسلمين يرفضون فكرة الختان للذكور أو الإناث ، إن الله كامل لا يخلق إلا الكامل ، فكيف يعدل البشر على خلق الله ؟

بعض الفقهاء يعتبرون الختان مثل قص الأظافر .. نظافة للرجل ، إنهم يظنون أن الفرلة شيء ميت مثل الظفر ، بعضهم يعتبر الختان مثل قطع الحبل السرى ، إلا أن أغلب الآراء لم تكن تشجع الختان ، بعض الفقهاء كانوا يرون أن ختان الذكور وختان الإناث شرط ضرورى للطهارة ، ولا تقبل صلاة إنسان غير مختون رجل أو امرأة .. بعض الآراء تقول إن الشيطان يتخفى وراء بظر المرأة ، ووراء غرلة الرجل ، لذلك يجب قطعهما لإخراج غدة الشيطان منهما ، بعض الآراء تقول أن الشيطان يتخفى وراء شعر العانة ، لذلك يجب حلق شعر العانة وإلا أصبح الإنسان غير طاهر ولا يقبل الله صلاته .

لاشك أن شيخ الأزهر اليوم الدكتور سيد طنطاوى أكثر تقدماً من شيخ الأزهر منذ سنين قليلة (الشيخ جاد الحق) الذى أكد أن عادة ختان الإناث واجب إسلامى لمنع الرذيلة والحفاظ على شرف البنت ، وهو رأى غير صحيح دينياً وعلمياً أيضاً .

بعض الآراء يقول أن الدعوة لعدم الختان جاءت من الغرب ، وهذا غير صحيح لأن كثيراً من الآراء المعارضة لختان الذكور والإناث عريقة فى بلادنا عراقية الصراع بين العقل واللاعقل ، وقد قرأت مؤخراً فى إحدى الصحف التى تملكها إحدى الجماعات الدينية فى بلادنا ما يؤكد أن ختان الموتى من الذكور والإناث ضرورى حتى يدخل الميت أو السيتة إلى الجنة ! فالجنة لا يدخلها إلا الطاهرون والطاهرات ! وإن ختان الموتى يقلل ذنوبهم التى اقترفوها فى الدنيا .

بعض الآراء تقول إن الأطباء فى بلادنا متخلفون وينقلون عن الغرب دائماً . لكن الطبيب الرازى (محمد بن زكريا الرازى) الذى عاش أوائل القرن العاشر (أى منذ أكثر من ألف عام) هذا الطبيب عارض كل ما يسىء إلى جسد الإنسان السليم تحت أية مسميات دينية ، عارض الختان والوشم وأى شيء يخدش جسد المرأة أو الرجل ، وقد كانت كتب الطبيب الرازى تُدرس فى جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر

الميلادى ، وكان يؤمن أن الله هو رمز العدل والصحة ، إلا أن كتب الطبيب الرازى قد مُنعت من التداول فى بلادنا ، بمثل ما مُنعت كثير من الكتب الأخرى الطبية أو العلمية التى حاربت هذه العادات الضارة تحت اسم الدين أو الأخلاق ، ومنها كتابى « المرأة والجنس » الذى صودر من الأسواق المصرية منذ ثلاثين عاماً ، إلا أن الحياة الإنسانية تسير إلى الأمام دائماً رغم الصعوبات .

• • •

تأملات على بحيرة مارينا(*)

دعنتى إحدى الصديقات القديمت لزيارتها فى القيللا التى تطل على بحيرة «مارينا» على الساحل الشمالى . كانت المرة الأولى التى أذهب إلى هذا المكان الجديد الذى يرتبط فى خيال الكثيرين بالطبقة الجديدة صاحبة الملايين أو البلايين . أخذت معى المايوه لأسبح فى البحيرة . وكتاباً أقرأ فيه إن شعرت بالملل ، فأنا أعرف صديقتى منذ الدراسة فى كلية الطب ، وأعرف لماذا تدعونى بكل هذا الإصرار رغم فتور العلاقة بيننا منذ الانفتاح ، فجأة انقلب زوجها من الحديث عن الاشتراكية والقطاع العام إلى الحديث عن الرأسمالية والقطاع الخاص .

تذكر أن خاله الباشا مات بالذبحة الصدرية بعد أن فرض عليه جمال عبد الناصر الحراسة ، والأرض التى ملكتها العائلة الكريمة أخذتها الدولة ، ولم يبق إلا الشقة الكبيرة فى الزمالك والعمارة فى المعادى ، لكن الله فتح عليه منذ أيام الانفتاح الأولى ، فهو يعرف دنيا المال والاستثمار ، ويسافر إلى باريس ولندن وجنيف ونيويورك ، ويتكلم ثلاث لغات ، ينحنى حين يصافحنى قائلاً : « أهلاً نوال هانم » ، كلمة هانم تخرج من بين شفثيه الرقيقتين مع دخان السيجار الفاخر .

كان اليوم مشرقاً ، الشمس تتألق فوق المياه الرقراقة تلامس الشاطئ فى موجات صغيرة ناعمة ناعسة ، ارتديت المايوه وأسهرت لألقى نفسى فى البحيرة كالطفلة ، كنت أنجذب إلى المياه الزرقاء الصافية أكثر من التحف الفاخرة التى كدستها صديقتى فى القيللا ، والشبكة الثمينة المرصعة بالفصوص المشعة التى انشبت بها ابنتها لأحد كبار التجار أو رجال الأعمال . نطقت كلمة « الأعمال » كأنها هى إحدى المقدسات الجديدة . وأسألها : ما هى هذه الأعمال ؟ فتدرد بكلمة إنجليزية أكثر غموضاً هى « البزنس » .

تمددت بالمايوه على الرمال تحت أشعة الشمس ، تركنتى صديقتى وراحت تشرف على أمور القيللا ووليمة الغداء ، تحلو القراءة على الشاطئ وهواء البحر واليود والأكسوجين يملأ الرئتين ، فتحت الكتاب وبدأت أقرأ ، عيناى تتركان الصفحة وترمقان

(*) جريدة الأهرام ١٩/٨/١٩٩٨ .

الوجوه والأجسام التي تمشى على الرمال ، بنات رشيقات بالمايوه المكشوف أعلى الفخذين ، وبنات سمينات مترهلات داخل الفساتين الواسعة الطويلة رعوسهن ملفوفة بالحجاب ، يتصببن بالعرق ، يرمقن البنات السابحات فى المياه بحسد ، يختفى الحسد تحت نظرة ازدرأء أو حركة امتعاض بالشفيتين الممطوطتين .

لمحت وجه فتاة تلف رأسها بإيشارب أحمر ، يتدلى من أذنيها قرط ضخيم يلمع تحت الشمس ، بشرتها بيضاء مدهونة بالأصباغ والمساحيق ، شفتاها مصبوغتان بلون أحمر قانى ، تتعثر فى ذيل فستانها الحريرى الطويل ، يتأرجح جسمها المربع المملتى فوق كعبين عاليين ينغرزان فى الرمل ، إلى جوارها تمشى أمها تكاد تشبهها إلا أنها أكبر سنًا ، تلف رأسها بطرحة بيضاء مثل العائدات من الحج ، ابتسمت الأم حين لمحتنى وقالت : إزيك يا دكتورة .. تذكرت ملامحها ، كانت تجلس فى دكانة البقالة بالقرب من بيتى فى الجيزة ، كنت أشتري منها الجبنة البيضاء والبيض والبسطرمة ، زوجها البقال اسمه محمد ، مربع سمين أبيض يكاد يشبه زوجته ، كان يرتدى جلبابًا ، فجأة تغير البقال محمد فى أيام الانفتاح ، بدأت أرفض جديدة تملأ الدكان تتكدس عليها زجاجات المياه المعدنية المستوردة ، وسفن أب ، وشويبس واللبان الأمريكى تشوجام ، وارتدى محمد بدلة وحذاء جلدًا أسود ، بدت عليه سمات الأفندية ، يحرك بين يديه سبحة صفراء ، ويغير الدولارات فى السوق السوداء اتسع دكانه واشترى قطعة الأرض المجارة ، بنى عليها عمارة عالية . فى الدور الأرضى أقام معرضًا كبيرًا للسيارات ، أصبح يأتى إلى الدكان داخل سيارة مرسيدس ، تحول الدكان إلى سوبر ماركت ، كانت ابنته طفلة ، لأبد أنها هذه الفتاة التي تمشى إلى جوار أمها ، سمعتها تقول لى « شفناكى فى الدش يا دكتورة مع واحد شيخ مش فاكهه اسمه كان عصبى شويه ، لكن ليه يا دكتورة مش لابسه الحجاب ؟ مش حرام كده المايوه ؟ »

جلست الأم وابنتها معى بعض دقائق ، دار الحوار على الحرام والحلال ، ترهف البنت أذنيها المثقلتين بالقرط الضخم ، ربما تستمع لأول مرة فى حياتها إلى أن المايوه ليس حرامًا فوق شاطئ البحر فالمفروض أن البحر للسباحة ، والسباحة رياضة ممتعة من حق النساء والرجال وليس الرجال فقط .

جاء البقال محمد الذى أصبح برونزى اللون ، يرتدى « مايوه ملون » ، جسده سمين مترهل ، له كرش قبيح المنظر ، إلا أنه يشمخ بأنفه بكبرياء ونوع من الفطرسية

قال « أهلا يا دكتورة » بطرف لسانه ، ربما لم يعجبه أن تجلس ابنته وزوجته مع امرأة ترتدى المايوه ، يتحدث إليها بلهجة خشنة ، يأمرها بالعودة إلى القفلا ، نطق كلمة القفلا بالفاء ، رنت في أذني « الفلة » ، مثل سداده الزجاجية من الفلين .

أصبحت جالسة وحدي على الرمال ، لم أعد قادرة على القراءة ، أريد أن أتابع هذه الطبقة الجديدة التي تتحرك أمامي على شاطئ بحيرة مارينا . تكونت في السنوات العشرين الأخيرة منذ الانفتاح ، منهم من أطلق عليهم اسم « القطط السمان » رأيتهم يتمشون على الشاطئ بأجسامهم السمينة القصيرة يشبهون القطط المستأنسة في البيوت ، أردافهم متهدلة إلا أن عيونهم تلمع كعيون القطط الجائعة ، سيقانهم رفيعة مشدودة ، حركتها سريعة متوترة ، يدخلون بها مسرعين إلى البنك المركزي ، ومنه ينطلقون إلى مكاتب أصحاب النفوذ ، في مجالات الاستثمار أو التنمية والاستيراد والتصدير ، في الغرفة التجارية ، وفي الغرفة المظلمة حيث يعدون أوراق البنكنوت ، ولا يمكن لهم أن يدفعوا ضرائب ، فالمفروض أنهم لا يملكون شيئاً ، الأموال كلها ليس لها مكان ، يمكن أن تطير فوق البحار إلى جزر الباهاما ، أو جزر أخرى وراء الشمس والقمر ، لا يمكن لأحد أن يمسكها ، إلا إذا بدأ القط السمين يلعب بذيله ، يتحرش بالقطط الكبار ، أو يتمادى ويتجاوز الحدود المرسومة ، حينئذ يعلقون الجرس في عنقه ، يظهر مانشيت في الصحف بالحبر الأحمر : اضبط القط السمين قبل أن يهرب خارج البلاد ، أو اضبط القططة السمينة التي هربت !

لمحت أحد الصحفيين المعروفين يتمشى الهويني على شاطئ البحيرة ، يدخلن البايب ، عيناه شاردتان في الأفق ، إنه ضيف دائم على موائد الوزراء ، يتشمم الأخبار وراء البحار ، يرقب حركة القطط السمينة من الذكور والإناث ، قلمه يطل من جيبه العلوي له غطاء من ذهب ، كل كلمة منه توزن بالدولار أو الدينار أو الاسترليني ، يأتيه الشيك فوق مكتبه قبل أن يكتب عنوان المقال ، قد يتحول القط السمين فجأة إلى بطل قومي ، وقد ينقلب البطل القومي فجأة إلى قط سمين إنها صاحبة الجلالة الصحافة .

لمحني الصحفي المشهور وقال « أهلاً يا دكتورة » ، ثم ابتعد مسرعاً يتطلع نحو السماء ، رأيت ثلاث طائرات هليكوبتر ملونة تتسابق في الفضاء قرب الشاطئ داخلها رءوس شباب يلعبون في الجو ، ربما يمتلك الواحد منهم طائرة هليكوبتر أو سيارة مائية تمشى فوق الرمال أو فوق البحر ، ربما يكون ابن هذا الصحفي الشهير داخل إحدى هذه الطائرات .

يملكها أبوه أو صديق أبيه من كبار القطط السمينة ، وكلهم يعشقون الصحافة وأضواء الإعلام ، يتنافسون على الظهور أمام الرأي العام ، يحركون السبحة بين أصابعهم علامة النقوى والإيمان ، تفوح أنفاسهم برائحة الخمر والنساء والمخدرات .

ثم لمحتها تمشى بجسمها الطويل المشقوق داخل مايوه أسود مزين عند البطن بفصوص من اللؤلؤ أو الترتر ، تهز جسمها برشاقة الراقصات ، وهى معروفة وسط راقصات البطن ، يمشى إلى جوارها زوجها يرتدى مايوهاً من النوع الدينى المحتشم ، يغطى ركبتيه ، ربما هو سعودي أو كويتي أو من الدوحة ، ، يملك مسجداً وعدداً من العمارات أو المحلات ، ربما هو فى السلك الدبلوماسى أيضاً ، فهو يحمل فى يده التليفون «المحمول» ، يشتري فى الصحف المساحات للإعلان عن البضائع فى محلاته، سيارات أو تليفزيونات أو كمبيوترات ، يشتري من جامعة كاليفورنيا درجة الدكتوراه ، يشتري أيضاً لنفسه حراسة خاصة وبودى جارد ، إن مات فجأة برصاصة مكتومة الصوت أو سم تضعه له زوجته فى الشراب ، يظهر نعيه فى أكبر الصحف فى صفحة كاملة أو نصف صفحة بالبنت العريض ، ولا يمضى على موته أيام حتى ترقص زوجته الفنانة فى إحدى حفلات الزفاف بالقاعة الواسعة فى فندق الخمس نجوم ، ثم تتزوج فى السر أحد الأمراء فى بلد من بلاد الخليج .

كنت جالسة على شاطئ بحيرة مارينا ، فى يوم من أيام يوليو ١٩٩٨ ، استمتع بالفرجة على أنواع الرجال والنساء من الطبقة الجديدة ، وجاءت صديقتى القديمة تدعونى إلى وليمة الغداء ، مائدة طويلة رُصت عليها الصحون ، أطباق لا أعرف اسمها تنطقها بالفرنسية ، وأطباق أعرفها مثل الفول المدمس والطعمية والعفس أبو جبة ، وفخذه خروف مشوية ، صديقتى تتفاخر بكل ما تملك ، وأنا أفقد شهيتى ، تملأ الصحن أمامى بالطعام ، لم أعد أكل اللحم الضأن ، ليه يا نوال ؟ شرحت لها أن لحم الضأن يحتوى على كميات كبيرة من الدهون ، سألتى بدهشة « عاملة ريجيم يا نوال ؟ مش معقول ... »

رمقت جسمها السمين المترهل بنظرة من طرف عينها وقالت : خلاص عجزنا يا نوال وما فيش متعة فى حياتنا إلا الأكل !

حين عدت إلى بيتى أحسست أن جسمى خفيف ، رشيق ، وضعت نفسى تحت الدش، غسلت رمال شاطئ مارينا ، وصور الأجساد فوقه ، شعرت بسعادة !



الاغتصاب ومفهوم الشرف والأخلاق

أذكر أن صلاح أبو سيف أراد أن يقدم إحدى رواياتي الأدبية كعمل سينمائي ، وهي رواية « مذكرات طبيببة » التي نُشرت في الخمسينيات ، وأعيد نشرها بعد ذلك عدة مرات ، وقراها صلاح أبو سيف خلال الستينيات ثم جاء يطلب منى الموافقة على تحويلها إلى فيلم سينمائي ، وفعلاً كتب صلاح أبو سيف السيناريو لها ، وبدأ يبحث عن شخصيات نسائية بين الممثلات ليقمن بدور البطولة ، رفضت إحدى الممثلات المشهورات حينئذ تمثيل الدور الرئيسى فى الرواية ، وقالت لصلاح أبو سيف ، أنها تعودت فى جميع أفلامها السابقة أن تبكى على عذريتها فى حالة الاغتصاب ، فكيف تقوم بدور مختلف تماماً يعطى مفهوماً آخر للأخلاق ؟ معظم الممثلات المعروفات ترددن فى قبول الدور للسبب ذاته . وبدأ صلاح أبو سيف يبحث عن وجوه جديدة من الشابات الهاويات للسينما والفن ، إلا أنه توقف تماماً عن تنفيذ الفيلم بعد أن وصله قرار الرقابة برفض الفيلم ، وجاء فى أسباب الرفض أن بطلة الرواية وهى الطبيبة تقوم بعملية إجهاض لفتاة فقيرة خادمة تعرضت للاغتصاب بواسطة مخدومها الذى يشغل منصب وكيل وزارة ، قالت الرقابة : إن الإجهاض ممنوع قانوناً وبالتالي لا يمكن إباحته فى الفيلم ، كما ذكرت أن الاغتصاب فى مصر غير موجود إلا نادراً جداً ولا يشكل ظاهرة تستحق العرض السينمائى ، وأنه فى تلك الحالات النادرة فإن الرجل المعتدى لا يمكن أن يكون وكيل وزارة أو يشغل مثل هذا المنصب الكبير ، وبالتالي فإن الفيلم يسئ إلى سمعة كبار الموظفين فى الدولة . ذكرت الرقابة أيضاً أن الفيلم يقدم مفهوماً للشرف والأخلاق يختلف عن المفهوم السائد ، ألا وهو عذرية الفتاة .

سألنى صلاح أبو سيف إن كنت أستطيع أن أغير فى الرواية بحيث تفلت من الرقابة إلا أن الأمر كان مستحيلاً بالنسبة لى ، لأن الرواية كلها كانت تقوم على كشف الزيف فى مقاييس الأخلاق السائدة وأهمها بالطبع مقياس العذرية .

وأخيراً وبعد أكثر من ثلاثين عاماً قرأت فى الصحف أن فضيلة شيخ الأزهر نفسه قد أعلن أنه يوافق على إباحة الإجهاض وإعادة العذرية للفتاة التى تتعرض للاغتصاب ، وهذا يؤكد لنا أن مفهوم العذرية لم يعد مقدساً وأصبح قابلاً للجدل والنقاش ، وأن تحريم الإجهاض المطلق فى جميع الحالات ليس أمراً عادلاً أو مشروعاً ، ومن حق الفتاة الحامل بسبب الاغتصاب أن يكون لها حق الاختيار بين الإجهاض أو الاحتفاظ بالجنين إن شاءت . لقد قرأت رأى فضيلة شيخ الأزهر وشعرت بسرور ، إلا أننى أعتقد أن الأمر يحتاج إلى مزيد من النقاش العلمى والأدبى على حد سواء ، فالأعمال الأدبية الإبداعية قادرة دائماً على السبق فى ميدان البحث عن القيم الجديدة التى تكفل للإنسان الفرد ، الرجل أو المرأة ، والمجتمع كله حياة أكثر سعادة وحباً وصدقاً وعدلاً وحرية . وإذا عجز الإبداع الأدبى عن خوض المستقبل والجديد فما الذى يستطيع ؟ لا شك أن للخيال العلمى آفاقاً كبيرة ، لكن آفاق الإبداع الأدبى والفنى تتجاوز الآفاق العلمية ويمكنها أن تتحرر من بعض القيود التى قد لا يتحرر منها العلم فى مرحلة تاريخية أو فى ظروف اجتماعية وسياسية معينة .

وقد توقعت بعد أن قرأت رأى فضيلة شيخ الأزهر أن يحدث الجدل والنقاش فى الكتابات الأدبية للنساء والرجال ، إلا أننى لم أقرأ حتى الآن ما يلفت النظر رغم كثرة ما نقرأ عن حوادث الخطف والاغتصاب التى تتعرض لها الفتيات الصغيرات والكبيرات .

لا شك أن الاغتصاب ليس ظاهرة جديدة فى بلادنا أو أى بلد آخر فى العالم ، وسوف يظل الاغتصاب موجوداً ، يتزايد مع تزايد الفقر والبطالة ، وتزايد أعداد الشباب فى العالم المحرومين من الزواج أو الحياة الطبيعية لأسباب اقتصادية واجتماعية . لهذا أعتقد أن النجاح فى القضاء على ظاهرة الاغتصاب فى بلادنا (وأى بلد آخر فى العالم) يرتبط أساساً بالقضاء على الأسباب الرئيسية للظاهرة ، وليس بقطع رأس الشاب الذى يفتصب فتاة . لا شك أن العقاب ضرورى إلا أن اقتلاع أسباب

الجريمة ودوافعها هو الطريق الأصح والأعمق والأبعد مدى للقضاء على الجريمة من جذورها .

لاشك أن حماية الفتيات ضحايا الاغتصاب هو واجب إنساني واجتماعي عظيم ، لكن السؤال : هل إصلاح غشاء العذرية بمشرط الجراح يحمي الفتاة فعلاً ؟ بالعكس إنه يعرضها لعملية جراحية قد يكون لها مضاعفات ، هذا إذا نجحت العملية في عملية الإصلاح . وهى لا تحمى أيضاً الرجل الذى سوف يتزوج هذه الفتاة . لأنها سوف تكتم السر والمفروض أنه لا يعرف شيئاً ، وإلا فما فائدة العملية الجراحية ؟

إن الرجل يفضل أن يتزوج فتاة صادقة بدون غشاء بكارة عن أن يتزوج فتاة كاذبة بغشاء بكارة مزيف أيضاً . إن الكذب أو إخفاء مثل هذه الحقيقة يضر بصحة الفتاة الجسمية والنفسية ، فهى تعيش فى خوف دائم وتخشى أن يعرف زوجها السر ، وهو سر لا يمكن التكتّم عليه إلى الأبد ، ويلد لكثير من الناس إفشاءه ولا أحد يفشى أسرار العائلات مثل أقرب الناس إليها .

وقد آن الأوان لمناقشة هذه القيمة الأخلاقية من أساسها ، لأن دم العذرية ليس مقياساً للأخلاق أو الشرف فى معظم الحالات ، والأفضل للمجتمع أن يصلح مفهوم الأخلاق عن أن يصلح أغشية البنات بالمشرط الجراحى .

وقد أوضحت حقائق الطب أن ثلاثين فى المائة من البنات يولدون طبيعياً بدون غشاء أو بغشاء مطاط لا ينزف قطرة دم واحدة ليلة الزفاف ، وقد اشتغلت طبيبة فى الأرياف وعرفت كيف تدربت الدايات على تزييف دم العذرية بشتى الوسائل ، تتفوق الدايات المدربات فى هذا المجال على مشرط الجراح الذى يفشل فى معظم الحالات ، بل قد يسبب الضرر للفتاة أو زوجها فى المستقبل .

فلماذا إذن يتمسك المجتمع بهذا المقياس الواهى والسطحى للأخلاق والشرف ؟ هل لأنه يعفى الرجال من المسئولية الأخلاقية ذاتها التى يطالب بها البنات ؟ وهل يمكن اعتبار الرجل غير مسئول عن سلوكه الجنسى بمجرد أنه ولد بدون غشاء ؟ وهل

يمكن للقيم الأخلاقية أن تسرى على جنس دون الآخر ١٩ ألا تتعارض هذه الازدواجية مع مبدأ الأخلاق ذاته ؟

لا يمكن أن ننكر أن بعض الأعمال الأدبية الإبداعية قد كشفت عن هذه الازدواجية الأخلاقية ، إلا أنني لم أعثر على عمل فني أو أدبي في بلادنا يتناول هذه المشاكل الحياتية التي تهم الملايين من النساء والرجال ، والتي تمس القيم الأخلاقية السائدة ، خاصة تلك التي تتعلق بحياة النساء . يحاول بعض الناس تثبيت هذه القيم باعتبارها من الثوابت التي يجب ألا نغيرها ، رغم أنها تتغير على الدوام ، وتسقط بحكم الزمن ، أو لأنها لا تملك مقومات البقاء ، ولا تستطيع الصمود أمام حقائق الحياة أو المنطق البسيط .

وقد سقطت قيمة العذرية كمقياس للأخلاق في معظم بلاد العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، لأن الأخلاق الصحيحة تتعلق بسلوك الإنسان اليومي في العمل والبيت والشارع والمجتمع ، إنها تتعلق بالصدق والشجاعة وعدم النفاق ، تتعلق بالأمانة وعدم السرقة .. إلخ . ولا يمكن أن تتعلق القيم الأخلاقية بصفات تشريعية أو بيولوجية يولد بها البشر أو لا يولدون بها .

بعض الناس يتخوفون من سقوط قيمة العذرية كمقياس لأخلاق البنت قبل الزواج . لكن اتضح لنا أن هذه القيمة ليست مقياساً بأي حال من الأحوال ويمكن التحايل عليها بسهولة .

إن الأخلاق القوية للبنات والأولاد ترتبط بالتربية السليمة منذ الطفولة ، بالإحساس بالحرية والعدل والثقة بالنفس . إننا نولد ونعيش طفولة خائفة مذعورة مكبوتة أساسها الكذب وإخفاء الحقائق ، والإيمان بقيم سطحية مثل العذرية ، واحتقار اسم الأم وتمجيد اسم الأب واعتباره الاسم الوحيد الذي يعطى للطفل الشرعية والشرف .

لقد ناديت كثيرا بأن يكون لاسم الام الشرف ذاته الذى يحظى به اسم الاب ،
وآلا يكون هناك شىء اسمه طفل غير شرعى . وأيهما أكثر أخلاقاً وإنسانية أن نفرض
على الفتاة التى اغتصبت أن تقتل جنينها بالإجهاض أو أن نعطيها الحق فى أن تلد
طفلها وتعطيه اسمها ؟

لقد صرح شيخ الأزهر بإباحة الإجهاض للفتيات فى حالة الاغتصاب . لكن
ما الموقف من فتاة لا تريد أن تعرض نفسها لمخاطر العملية ؟ أو لأنها تريد الاحتفاظ
بطفلها ؟ هل نفرض عليها أن تقتل الطفل لمجرد أن والد الطفل كان مجرمًا مفتصبًا
؟ وكيف يمكن أن يكون لهذا الوالد المجرم الحق فى إعطاء الشرف للطفل لمجرد
أنه الأب ، وأن الأطفال ينسبون للأب ؟

وكيف نحرم هذه الأم البريئة الشريفة من طفلها ؟ كيف نحرمها من إعطاء اسمها
الشريف لطفلها على حين نبيح للأب غير الشريف أن يعطى اسمه للطفل ؟

ما هذا التناقض الأخلاقى الصارخ فى حالات الاغتصاب ؟ ولماذا يدفع الأطفال
الأبرياء والأمهات البريئات ثمن أخطاء الأب وجرائمه ؟

لهذا أنا أختلف مع رأى شيخ الأزهر فيما يخص إباحة الإجهاض أو إعادة العذرية
فى حالات الاغتصاب . بدلاً من قتل الأطفال الأبرياء فى بطون إمهاتهم . أليس الأسهل
أن يحمل الطفل اسم أمه ؟

وبدلاً من إصلاح الفشاء فى أجساد الفتيات بمشرط الجراح . أليس الأسهل
إصلاح مفهوم الشرف ؟ ليكون أكثر شرفاً وأخلاقاً ؟

كما أننى ضد هذه الحملة التى تتادى بالإعدام فى حالات الاغتصاب . لم يكن
الإعدام وسيلة للقضاء على أى جريمة . بل كثيراً ما تزداد الجرائم بزيادة العقوبات
والقوانين ضدها .

والأفضل أن نعالج أسباب الاغتصاب فى النظام الاقتصادى السياسى الذى يحكم
العالم كله وليس بلادنا فقط . ألا وهو النظام الأبوى الطبقي الرأسمالى الصناعى
أو الزراعى الإقطاعى ، أو العشائرى أو القبلى أو البدوى .. إلخ .

هذا النظام الذى نشأ فى العبودية ويستمر حتى اليوم ، النظام الذى يحكم الأغلبية الساحقة فيه قلة قليلة من أصحاب المال والسلاح والإعلام ، حيث يكون النسب الأبوى هو النسب الوحيد الشريف ، حيث يكون من حق الرجل أن يعاشر جنسياً أكثر من زوجة ، وأن يشرّد أسرته ليشبع شهواته ونزواته ، حيث القوانين والقيم كلها مزدوجة بما فى ذلك الدستور .

إن الدستور فى معظم بلاد العالم (بما فيها أمريكا) لا يعاقب رئيس الدولة إذا خان زوجته لكنه يعاقبه فقط إذا خان الوطن ، كأنما الزوجات أو النساء خارج الوطن أو لا يمثلن نصف الوطن !



ولماذا لا يدور حوار فكري خلاق؟ (*)

قرأت عدداً من المقالات المتفرقة في الأيام الأخيرة حول مشكلة تخلفنا العلمي ، وكيف اتسعت الهوة العلمية بيننا وبين أوروبا وأمريكا ، بل بيننا وبين إسرائيل ، وكيف أصبح العالم (خارج بلادنا) يواجه اختراعاً جديداً كل دقيقتين .

كنت أتصور أن حواراً فكرياً سوف يدور حول هذه القضية الهامة ، وحول المقالات التي نشرت عنها ، ومنها المقال الأخير في جريدة الأهرام (١٩٩٨/٨/٤) بقلم فهمى هويدى . إلا أن هذا الحوار لم يحدث . لا أحد يريد التحاور مع أحد . نوع من الترفع أو الكبرياء ! كأنما لا أحد يقرأ لأحد ، والكل فقط يكتبون ، لهذا نشهد كل يوم سيلاً من المقالات المنفصلة بعضها عن البعض ، إن حدث تعليق على مقال فهو يأتى غالباً من القراء ، لا يرد بالطبع صاحب المقال . نوع من الترفع أو الكبرياء ثم يغلق باب الحوار قبل أن يبدأ .

ربما لهذا السبب لم أعد أقرأ الصحف ، فهي تستهلك الوقت دون أن تنتج الأفكار الجديدة . إلا أن مقال فهمى هويدى عما سماه كارثة تخلفنا العلمي وقع بالصدفة تحت يدي ، وجدت فيه من التناقضات ما يدعوني إلى الكتابة . إنه يقول إن العقل العلمي لا يستورد ، وأنا أتفق معه في هذا ، لأنى أعتقد أن القدرة على الإبداع تتطلب حريات اجتماعية وسياسية وثقافية واسعة تشجع على تجاوز الحدود المرسومة بالمحظورات والمحرمات ، وتساعد على انطلاق العقل إلى آفاق جديدة غير مألوفة قد تتناقض مع الموروثات الفلسفية أو العقائدية .

لكن صاحب المقال لا يتطرق إلى هذه الإشكالية التي تمثل عقبة أساسية أمام العقل المصرى للإبداع أو الاختراع ، كما أنه لا يتطرق أيضاً إلى الأسباب التي جعلت

(*) نشر في جريدة الأهرام ١٠/٨/١٩٩٨ .

العقل الأوروبى أو الأمريكى أو الإسرائيلى يتفوق علمياً ، وكيف كسروا القيود التى كانت تمنع التفكير فى كثير من المقدسات . إن اكتشاف الإلكترون مثلاً وما تبعه من ثورة إلكترونية هائلة لم يكن يتحقق أبداً فى ظل الإيمان بنظرية خلق الكون القديمة .

ويؤكد صاحب المقال على أن العقل العلمى لا يستورد وهى فكرة صحيحة ، إلا أنه يطالبنا فى نهاية المقال أن نستورد من الباكستان طريقتها فى « الجهاد العلمى » التى حصلت بها على القنبلة الباكستانية . لكن ما هو هذا الجهاد العلمى ؟ يقول صاحب المقال : إن المهندس الباكستانى عبد القدير خان عمل فى الغرب ١٥ عاماً ثم نقل إلى بلاده كل ما وقع تحت يديه من معلومات حتى حكمت عليه محكمة هولندية بالسجن ٤ سنوات ! أين هو الإبداع الفكرى فى نقل المعلومات من الغرب ؟ وبطريقة غير مشروعة ؟ والأخطر من ذلك (حسب قول صاحب المقال) إن هذا المهندس بعد أن عاد إلى بلاده أرسل أحد مساعديه إلى ألمانيا حيث أسس عدة شركات وهمية عملت كواجهة للتسوق النووى ! يا إلهى ! هل إنشاء شركات وهمية من أجل تهريب المعلومات العلمية من الغرب هو الإبداع الفكرى والعلمى المطلوب ؟ أليس الاستيراد القانونى أشرف من الاستيراد غير القانونى ؟ رغم اعتراضنا على فكرة الاستيراد أصلاً . خاصة فى مجال الإبداع الفكرى .

إن القدرة على الإبداع الفكرى لابد أن تتبع من المجتمع ذاته . هذه القدرة لا تستورد ولا يمكن تهريبها من الغرب أو الشرق . إنها تتطلب أساساً الحرية السياسية والاجتماعية الواسعة ، أو ما يسمى الديمقراطية الحقيقية داخل البيوت والمدارس وجميع المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية ، إلا أن صاحب المقال يرى أن حل المشكلة يعتمد على صدور « قرار سياسى سيادى ما أن يصدر حتى يحرك مختلف الدوائر ويحفز الهمم » فهل صدور قرار من رئيس الدولة يحل مشكلة التخلف العلمى والفكرى فى بلادنا ؟ هل يعتمد كل شئ فى بلادنا على قرار من رئيس الدولة ؟ ألا نعيب على هؤلاء الوزراء لا يبادرون بالأفكار الجديدة دون انتظار توجيهات السيد الرئيس ؟ فما بال العلماء ، المفروض أنهم ذوو عقول مفكرة وليسوا مجرد موظفين مطيعين فى الدولة .

ألا تكون المشكلة إذن في العلماء أنفسهم ، أو في المفكرين أو ما يطلق عليهم المفكرون ؟ لقد حضرت اجتماعاً واحداً (في يناير ١٩٩٧) مع هؤلاء المفكرين في « الحوار الفكري » مع رئيس الدولة ، ودهشت لأن الاجتماع بدأ وانتهى دون مناقشة مشكلات الفكر أو الإبداع الفكري في بلادنا . لقد مررنا أحد الموظفين وطلب منا أن نكتب ما نريد من أسئلة على ورقة . وكتبت سؤالاً كالاتي : لماذا تعجز مؤسسات التعليم والإعلام والتربية في بلادنا عن تكوين العقل المبدع الخلاق ؟ ولا أعرف ماذا كان مصير هذا السؤال ، هل ضاع في الطريق إلى المنصة ولم يصل إلى رئيس الدولة ، أم أنه وصل إليه ورأى أنه لا يستحق المناقشة ؟ وكتبت مقالاً في حينه حول هذا الموضوع . رفضت الصحف نشره . ثم نشر في جريدة حزبية معارضة بعد حذف بعض أجزائه ، طالبت فيه بإجراء حوار في الصحف حول مشكلة التخلف الفكري في بلادنا ، ولماذا يعجز العقل المصري عن الاختراع ؟



العدل مطلوب في جميع القوانين الخاصة والعامة(*)

في مقالة بالأهرام (١٨ نوفمبر ١٩٩٧) يقسم فهمى هويدى البشر إلى قسمين : العلمانيون الذى لا يؤمنون بالمطلق الثابت وكل شئ عندهم نسبى ، ولذلك تتغير قيمهم الأخلاقية بلا روابط ولا ضابط مثل كائنات الغابة . ٢ - المتدينون الذين يؤمنون بالمطلق الثابت ولذلك فإن أخلاقهم رفيعة لأنها تعود إلى مرجعية ثابتة .

وهذا فى رأى تقسيم تعسفى وخطير للمجتمع والناس ، وقد ينطوى بوضوح أو بغير وضوح على دعوة للصراع على أساس الدين أو التدين ، هذا الصراع الذى يفرخ الحروب الأهلية فى كثير من الأحيان ، ويمكن أن يغذى الفكر الإرهابى ، أو قتل الأبرياء لأسباب دينية ، فالذين قتلوا من السياح الأجانب فى الأقصر يمكن أن يندرجوا (فى هذا الفكر) إلى العلمانيين ، بل إن الذين يختلفون معه فى رأى من المسلمين يمكن أن يندرجوا أيضاً تحت قسم العلمانيين ، هكذا يتم الحكم على الناس بالفكر أو الفساد الأخلاقى لمجرد الاختلاف فى رأى حول مفاهيم كلمات صعبة مجردة مثل المطلق الثابت عند فهمى هويدى . ويتلقى الإنسان رصاصة فى صدره بسبب هذا الاختلاف النظرى حول المطلقات دون أن يفهم شيئاً منها .

وفى مقاله يقول فهمى هويدى إن النبى محمداً ﷺ قد رفض أن يتزوج على بن أبى طالب على ابنته فاطمة ، واشترط عليه أن يطلقها إذا تزوج امرأة أخرى . فلماذا إذن لا يكون سلوك النبى هو القاعدة القانونية وليس الاستثناء ؟ وإذا كان الرجال لا يمارسون تعدد الزوجات إلا فى ٢٪ من الحالات (كما يؤكد فهمى هويدى نفسه) فلماذا يبيح القانون التعدد ١٩ لقد ثرنا أيام الملك فاروق حين رأينا أن القوانين فى بلادنا تخدم ٢٪ من المجتمع المصرى فقط ، فكيف نسكت على قانون يمس صميم الحياة الشخصية للرجال والنساء والأطفال ويخدم فقط ٢٪ من الرجال ، بالإضافة

(*) نشر فى جريدة الأهرام ٨ ديسمبر ١٩٩٧ ص ١٠ .

إلى أن هذا القانون يقنن الظلم أو الازدواجية أو الكيل بمكيالين ، لأن الطلاق أو التعدد يعطى كحق مطلق ثابت لطرف دون الطرف الآخر .

إن فكرة الطلاق أو التعدد (على حد قول فهمى هويدى نفسه) قد قامت أصلاً لمجرد حل بعض المشكلات التى قد تعترض الحياة الزوجية ، لكن هل الحياة الزوجية تتكون من طرف واحد هو الرجل ؟ ولماذا تحل هذه المشاكل على حساب طرف واحد ؟ ولماذا يصبح الزوج هو الحكم أو صاحب الحل والربط مع أنه أحد أطراف النزاع ؟ لقد استطاعت السيدة فاطمة أن تحمى نفسها وأسررتها ضد الطلاق وتعدد الزوجات بسبب وجود أبيها النبى محمد ﷺ وقدرته على فرض الشروط على زوجها عند توقيع العقد . وهل يمكن لأى أب أن يكون فى قوة النبى ﷺ وقدرته على حماية ابنته ، ومن يحمى النساء الضعيفات والبنات الصغيرات ، ومعظمهن يتزوجن فى أوضاع اجتماعية لا تؤهل لهن فهم بنود القانون فما بال أن تفرض الشروط فى العقد ؟

والسؤال هو : لماذا لا ينص القانون بوضوح على زوجة واحدة لكل رجل ، فيصبح التعدد هو الاستثناء ، ويمكن لمن شاء من الـ ٢٪ من الرجال أن يشترط التعدد عند توقيع العقد ، وهذا أسهل وأعدل ، لأن الرجال أكثر قوة من النساء ويمكن لهم أن يفرضوا شرطهم هذا فى العقد ، كما أنهم أقلية نادرة (٢٪ فقط) .

إن إباحة الطلاق والتعدد قانوناً لجميع الرجال يجعل جميع النساء مهددات ، وجميع الأسر مهددة بالتفكك ، والمشكلة ليست مقصورة فقط على الـ ٢٪ أو ٣٪ ، ولكنها تشمل الجميع ، لأن التهديد فى حد ذاته دون وقوع الطلاق أو التعدد يؤدي إلى كثير من المشكلات النفسية للنساء والأطفال ، وهناك مثل شائع يقول : «وقوع البلاء ولا انتظاره» .

إن إعطاء الرجل وحده الحق المطلق فى الطلاق أو التعدد أو النسب قد يشجع ضعاف النفوس من الرجال على سوء استخدام هذا الحق . واقرءوا معى ما نشر بجريدة الأهرام ١٥ نوفمبر الماضى صفحة ١٨ و ١١ ، هذا الولد ليس ابنى وأرفض نسبه إلى.. عبارة أصبحت تتردد كثيراً داخل محاكم الأحوال الشخصية أطلقها الرجال وتستروا وراءها ، استخدموا سلاح مدمراً لتصفية الحسابات مع شريكة العمر ورفيقة الحياة

لتخرج من حياته دون أن تحصل على ملين واحد من حقوقها الشرعية وهى تجر خلف أذيالها أطفالاً بلا أب أو هوية أو نسب ، ويكون هؤلاء الأبرياء هم الضحايا . وتسوق الجريدة أمثلة لزوجات منهن الطبيبة والمهندسة التى عاشت مع زوجها ٦ سنوات كاملة فإذا به يعاقبها لأنها رفضت التنازل له عن ميراثها من أبيها لى يشتري لنفسه سيارة ، والعقاب هو إنكار نسب أطفاله منها ، ودفعها إلى المحاكم لتثبت هذا النسب ، وكأنها هى تدخل عش الدبابير ، وعليها أن تدوخ السبع دوقات داخل سراديب القانون مع المطلقات والثكالى واليتامى ، وقد تحصل على حقها بعد سنين طويلة أو لا تحصل عليه ، فالرجال أكثر من النساء فهماً للقانون وقدرة على التلاعب به .

لا شك أن العدل مطلوب فى جميع القوانين الخاصة والعامة المحلية والدولية ، لأن الله هو العدل « عرفوه بالعقل » ، كما يقول المثل الشائع ، فالعدل إذن هو المطلق الثابت المقدس فى جميع الأديان والمواثيق الدولية والدساتير المحلية . إلا أن هذا العدل ينتهك أمامنا كل يوم فى حياة الأفراد والشعوب والدول . ويكيل القانون الدولى بمكيالين ولا يختلف فى ازدواجيته عن قانون الأحوال الشخصية ، مثلاً تضرب العراق حتى الموت لأنها خالفت قرارات الأمم المتحدة ، ويموت يومياً خمسمائة طفل عراقى بسبب الحصار الاقتصادى المفروض بقرار دولى ، أما دولة إسرائيل فهى تخالف قرارات الأمم المتحدة كل يوم ، وتقتل الأطفال والشباب الفلسطينيين ، وتهدم البيوت وتبنى المستوطنات ومع ذلك لا يعاقبها أحد بل تكافأ بالأموال والمعونات والمعدات العسكرية النووية .

هكذا لا يختلف العالم الذى نعيش فيه عن الغابة ، لأن القوة هى التى تسود وليس الحق ، ولأن الكيل بمكيالين أو الازدواجية هى منطق القوة ، هى المطلق الثابت المقدس لهذه القوة ، تفرضه على الضعفاء تحت شعارات دينية أحياناً ، أو تحت شعارات علمانية ، حسب مصلحة الأقوى ، مما يؤكد عدم صحة هذه التقسيمات التى يتبناها فهمى هويدى وهى معروفة فى التاريخ ، وكم أدت إلى مذابح دينية فى الغرب والشرق .



أنا لا أفكر إذن أنا موجود (*)

١ - عن الإرهاب الفكرى :

من أجل الوجود فى عصرنا الحديث (أو ما بعد الحديث) أسبغ الله على نعمة عدم الانتماء إلى هذه الفئة الرفيعة القدر ، والتي يطلق عليها لقب « المفكرون » وقد أصبح « التفكير » مهنة خطيرة مثل التعامل مع المتفجرات أو اقتلاع الألغام من الأرض بعد انتهاء الحرب . وقد تعرضت مثل الكثيرين غيرى من النساء والرجال من عامة الشعب إلى الوقوع تحت طائلة التفكير أو ما يسميه أهل قريتي « الفكر » يقولون فلان عنده فكر أو فلانه عندها فكر . بمعنى غياب العقل .

لاشك أن الإرهاب الفكرى فى عصرنا هذا لم يكن كله منتمياً إلى التيارات السياسية الدينية المسماة بالأصولية النصوصية ، المشتقة من كلمة « النص » وقد أصبح فى عصرنا أصوليات نصوصية متعددة تلب المنطق والأوضاع الطبيعية ، بحيث تكون المعرفة الإنسانية نابعة من حروف المطبعة وليس من الحواس الستة للإنسان ومنها السمع والبصر والبصيرة والفؤاد يعنى القلب . أليس لهم أفئدة يفقهون بها ؟ وهذا يعنى إلغاء حواسنا وتجاربنا الذاتية فى الواقع الذى نعيشه لنكتسب المعرفة من الكتب أو كتابات الآخرين .

كثيرون تناولوا ما عرف باسم « التكفير الدينى » لبعض المفكرين من النساء والرجال فى بلادنا . قليلون الذين تناولوا ما يمكن أن يسمى « التكفير العقلانى » ، فالعقل المفصول عن الحواس والجسد والقلب والفؤاد قد يتحول إلى سيف أشد قسوة من السيوف المادية الحقيقية التى تقطع رأس من يفكر فى المقدسات العليا فى السماء أو فوق الأرض .

فى ربيع عام ١٩٩٤ فى جامعة ديوك الأمريكية بولاية نورث كارولينا جاءنا المفكر الفرنسى المشهور فى العالم « جاك ديريدا » ليلقى علينا محاضرة عن صراع الثقافات (*) نشر فى جريدة الأهرام - القاهرة ٦ فبراير ١٩٩٧ ص ١٠ .

فى عصر ما بعد الحداثة، يمكن القول دون مبالغة أن لغة المحاضرة كانت معقدة شديدة التعقيد غامضة شديدة الغموض فلم يفهمها أحد من الأستاذة الكبار أو الصغار أو طلبة الجامعة وطلاباتها . أحد زملائنا الأساتذة كان معاراً من الأرجنتين أصابه إحباط أو الشعور بالنقص أو الغباء فلم يملك الشجاعة ليسأل سؤالاً واحداً أثناء المحاضرة . لكن بعض الأسئلة طرحت ولم تفعل إجابات چاك ديريدا شيئاً سوى زيادة التعقيد والغموض . تلك الليلة رأى زميلنا الأرجنتىنى وهو نائم كابوساً له أصابع چاك ديريدا تحوط عنقه وتخنقه . هب من النوم مفزوعاً وهو يصيح : هذا إرهاب فكرى !

سمعت العبارة ذاتها فى مصر منذ أيام قليلة ، فى إحدى الندوات الفكرية عن الكونية ، كان المحاضر من كبار المفكرين المصريين ، لم يقدم لنا فكرة واحدة نابعة من عقله أو من تجاربه المعاشة فى الواقع المصرى ، لكنه راح يردد علينا أقوال المفكرين فى أمريكا وأوروبا ابتداءً من أرسطو إلى كارل ماركس إلى فرانسيس فوكوياما وروبرت كابلان وبرنارد لويس وصامويل هانتنجتون بالطبع ، هذه الأسماء مع چاك ديريدا وميشيل فوكو وفردريك چيمسون وغيرهم ، أعطوا أنفسهم لقب « فلاسفة الكون » اعتبروا أنفسهم رأس العالم المفكر وبقية البشر لا يفكرون ، مجرد جسد بلا رأس ، تماماً كما حدث للعبيد والنساء فى العصور القديمة ، إذ اعتبرهم فلاسفة العبودية (ومنهم أرسطو) الجسد بغير رأس .

وفى خريف ١٩٩٤ فى جامعة ديوك أيضاً شاركت فى مؤتمر دولى عن الكونية والثقافة ، شارك فيه فردريك چيمسون وعدد آخر من المفكرين المعروفين فى جامعات هارفارد وبييل وستانفورد واكسفورد وكيمبردج والسوربون وغيرها . جلسوا بكبرياء شديد فوق المنصة العالية تفوح منهم رائحة كولونيا ما بعد الحلاقة الحديثة ، يتحدثون عن عصر ما بعد الحداثة أو ما بعد الاستعمار ، كأنما الاستعمار انتهى من العالم ، وخلصوا على الشعوب فيما سموه العالم الثالث لقباً جديداً Subaltern وتعنى « الناس اللى تحت » . أصبحنا نحن سكان أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية فى نظرهم الغلبة الفقراء مادياً وفكرياً ، وأنهم يقدمون المعونات لنا ، وينوبون عنا فى التفكير لنا، يضعون لنا الأسئلة والأجوبة لمشاكلنا المادية والفكرية، السياسية والاقتصادية والثقافية، ذلك لأنهم يملكون العقل المفكر ، أما نحن فلا نملك إلا الجسد الذى يشغل الكرسى فى صمت واستماع جيد ، أو الذى ينهض فى المهرجانات الثقافية يقدم

الرقصات الإفريقية على دقات الطبول ، ويرتدى الجلابيب أو الشخايل أو الأحجبة المؤكدة للهوية الأصلية أو التي ترمز إلى الخصوصية الثقافية أو الدينية أو العرقية أو غيرها .

لاشك أن موضوعهم الأثيري الحديث أو بعد الحديث هو « علاقة الذات بالآخر » ، وهي علاقة بسيطة مفهومة بمنطق العدل « أخذاً وعطاء » في العلاقات المادية والفكرية بين الدول أو الجماعات أو الأفراد نساءً ورجالاً ، بحيث لا تكون هناك يد عليا تعطى ويد سفلى تأخذ ، تعتمد كل « ذات » على نفسها لإعالة نفسها وللتفكير في أمورها ومصالحها بالشكل الذي يحقق لها الكرامة والحرية والاستقلال المادى والفكرى عن « الآخر » .

٢ - مشكلة الفكر والمفكرون :

تكمُن المشكلة في رأى في سيادة النقل عن الكتب والنصوص أكثر من سيادة التجارب الذاتية في الواقع المعاش ، لهذا السبب تغيب البديهيات أو الأسئلة الطفولية الذكية قبل الضرب بالعصا في المدارس والبيوت ، أو العبارات الشعبية البسيطة التي سمعتها من جدتي الفلاحة مثل « ربنا هو العدل عرفوه بالعقل » إننا نفقد هذا الذكاء الفطرى من المهد إلى اللحد بسبب طغيان القيم الطبقيّة الأبوية على القيم الإنسانية العادلة في حياتنا العامة والخاصة .

إن هذه القضايا التي تشغل المساحات في الصحف والكتب من نوع الكونية والصراع بين الحضارات أو الثقافات أو الدفاع عن الهوية الأصلية أو التراث أو الثقافة القومية أو الوطنية هذه كلها قضايا فكرية مفروضة علينا من « الآخر » ، لا ينشغل بها الملايين من النساء والرجال العاملين والعاملات في البيوت والحقول والمصانع والمتاجر والمستشفيات والطرق والمرافق الحيوية والإنتاجية .

ألهذا السبب يدور الحوار الفكرى دائماً في القاعات المغلقة على القلة القليلة ممن يطلق عليهم « المفكرون » ؟ أو الذين ينتمون إلى مهنة « التفكير » ؟ هل أصبح الفكر مهنة القلة أو سلعة للاستهلاك مثل السلع الكمالية الأجنبية التي تفرق أسواقنا ؟

هل يؤكد هذا الفكر الانفصال بين الإنتاج والاستهلاك ويقسم البشر إلى قسمين :
(أ) أسياد يفكرون وينتجون الفكر .

(ب) تابعون لا يفكرون ويستهلكون فكر الآخرين .

تحدث هذه التقسيمة على المستوى الدولى الكونى بمثل ما تحدث على المستوى المحلى ، وبمثل ما تحدث أيضاً على مستوى العائلة .

وتذكرنا هذه القسمة بأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) الذى قسم الموجودات فى المجتمع اليونانى القديم إلى قسمين :

(أ) الأشخاص . وهم الأسياد الذين يملكون الأرض والعقل والسلطة .

(ب) الأشياء . وهم العبيد العاملون فى الأرض والنساء والحيوانات .

ويعتبر أرسطو النموذج العقلانى لكثير من المفكرين حتى اليوم رغم أنه قال إن العبودية أمر عادل تتطلبه طبيعة العبد وطبيعة المرأة ، هكذا تم إحلال الطبيعى أو البيولوجى محل الاجتماعى والسياسى لتكريس الظلم والتفرقة على أساس الطبقة والجنس ، وأصبح الثائرون والثائرات ضد الظلم كأنما هم ثائرون أو ثائرات ضد الطبيعة أو القانون الإلهى .

ومن أجل التمويه وسيادة اللفظ على المعنى أو اللغة على الاقتصاد أو الثقافة على ضرورات الحياة المادية تحولت الفلسفة أو الفكر منذ نشوء الرق والعبودية إلى رياضة كلامية لغوية ذهنية منعزلة عن حياة الملايين من النساء والرجال المظلومين . وقد لجأ أحد هؤلاء المظلومين إلى أرسطو بعد أن استولى أحد السادة الكبار على قطعة أرضه الصغيرة ، لكن أرسطو لم يعبأ بهذا الظلم أو هذه القطعة الصغيرة من الأرض لأنه كان يفكر فى الكرة الأرضية كلها . وهكذا استمر الظلم فى العالم حتى يومنا هذا واستمر معه هذا التمويه الفكرى من أجل تزييف الوعى لدى الملايين من الناس وإقناعهم أن اللغة أو الحروف أو النصوص أهم فى حياتهم من لقمة العيش أو قطعة الأرض .

وفى مصر وبلادنا العربية تيارات فكرية متعددة كان يمكن أن تلعب دورها فى تطوير الفكر وتشجيع الإبداع والخيال المادى والفكرى إلا أن أغلبها اعتنق النصوص وتجمد عندها سواء كانت نصوصاً عقلانية ديكرتية ، أو ماركسية أو إسلامية أو قومية عربية اشتراكية أو رأسمالية حتى نصوص هانتجتون أصبحت هى الدين الجديد لعدد غير قليل من المفكرين فى بلادنا ، ولهذا حديث آخر .



عن انتحار الكتاب والكاتبات(*)

انتحار كاتب واحد أو كاتبة واحدة فى أى بلد من العالم يصبح حدثاً كبيراً يهز المجتمع والدولة والتاريخ . إنه حديث يرج ضمير الكتاب والنقاد وكبار رجال الحكم ، فهو إشارة ولمبة حمراء تشتعل وتبذر بالخطر ، تسطر بلغة الموت رسالة أخيرة بليغة هى : اكتبوا الحقيقة أو موتوا !

وقد قرأت عن انتحار الكاتبة الشابة « أروى صالح » ثم قرأت عن محاولة انتحار الكاتب « علاء حامد » (التى لم تنجح) وسوف نقرأ عن المزيد من هذه الانتحارات أو محاولات الانتحار التى لا تصل إلى ذوى النفوذ فى الأجهزة الحكومية أو غير الحكومية ، فقد أصبح الأدباء والأديبات مثل الأطباء والطبيبات مثل المدرسين والمدرسات وغيرهم من الكادحين والكادحات بعقولهم وليس بأموالهم ، أصبح هؤلاء أشبه ما يكون بقاع المجتمع ، بعد أن ارتفع إلى السطح التجار رجال الأموال . رجال الأعمال « البزنيس » الذين يكسبون فى الدقيقة الواحدة وبالتليفون فقط ما يكسبه الأديب أو الأديبة فى سنتين عاماً ، وأنا أرى أمامى اليوم أدباء وأديبات بلا مورد رزق على الإطلاق ، بلا احترام من أحد فى الدولة ، وبلا أمان أيضاً ، لأنهم كتبوا فى يوم من الأيام كلمة صدق ، كلمة من القلب اخترقت حواجز النفاق ، والرياء السياسى الدينى الثقافى ، الذى أصبح كالجدار العالى من الأسمنت ، لا يمكن اختراقه إلا بالقفز من فوقه والانتحار .

قولوا ما تشاءون عن « أروى صالح » لكنها كاتبة امتلكت شجاعة الاحتجاج ودفعت حياتها كلها ثمناً لهذه الكلمة الصادقة ، قولوا ما تشاءون عن « علاء حامد » لكنه كاتب

(*) أخبار الأدب ١٧ أغسطس ١٩٩٧ .

شجاع تعرض للسجن والمحاكمة السنة وراء السنة دون أن يسانده أحد بل تسابق الكثيرون لقذفه بالحجارة إرضاء لتيارات دينية وسياسية معينة .

أنا ضد الانتحار فهو قمة اليأس ، لكنى أيضاً ضد النفاق الدينى والرياء السياسى الذى يدفع الكتاب والكاتبات إلى الانتحار دون أن يهتز المجتمع ، دون أن ينشر الخبر فى الصفحات الأولى من الجرائد الكبرى والمجلات بدلاً من تلك الأخبار عن أحوال البورصة وسفر رجال الأعمال إلى مارينا لقضاء عطلة الصيف !



نقد موجه لجريدة الدستور(*)

ليلة ١٠ أكتوبر ١٩٩٧ على مسرح محكى القلعة شهدتُ بعينى رأسى عملية وأد « إيزيس » ودفنها بالحياة فى مقبرة قلعة صلاح الدين . هذه المرأة المصرية القديمة كانت إلهة المعرفة والفلسفة والحكمة والتسامح والرحمة ، إلا أن التاريخ الطبقي الأبوى أهملها عبر قرون الماضى ، وجعلها مجرد زوجة إله مقتول ، أعادت إليه الحياة ، فأصبح هو صاحب الفلسفة والحكمة والمعرفة ، وهى ليست إلا تابعاً له .

انتزعتُ من بين أنياب التاريخ بعض أجزاء من شخصية إيزيس ، وحاولت تجسيدها على المسرح ، إلا أن القوة المعادية لعقل المرأة وإنتاجها الفكرى وقفت ضد إيزيس ، وبقيت إيزيس راقدة فى الظلام ، ممنوعة من الظهور على مسارح الدولة ، أكثر من خمسة عشر عاماً ، ظلت مجرد حروف مطبوعة داخل النص المسرحى الذى كتبته ، والذى قرأه توفيق الحكيم فغضب ، كيف يمكن لكاتبة امرأة أن تنقد توفيق الحكيم ؟ إنه يحمل لقب كاتب كبير وتظهر صورته ومقالاته فى أكبر الصحف الحكومية اليومية والأسبوعية ، وهو على صلة طيبة برأس الحكم فى مصر ، وبالمسؤولين فى الدولة عن المسرح والأدب والثقافة .

هكذا ظهرت « إيزيس » كما تصورها توفيق الحكيم على مسارح الدولة ، واحتجبت « إيزيس » كما تصورها الآخرون ، وأذكر حواراً دار بينى وبين كرم مطاوع بعد أن قرأ مسرحيتى :

- مسرحية حلوة أوى يا دكتورة لكن ...
- لكن إيه يا أستاذ كرم ؟
- فيه رقابة على المسرح يا دكتورة !
- هو إنت عرضتها على الرقابة يا أستاذ ؟

(*) تفاصيل عرض مسرحية إيزيس وكواليس ما حدث لها .

- طيب إعرضها وإذا الرقابة رفضت خلاص ...

إلا أن كبار رجال المسرح فى بلادنا لا يجازفون بعرض شىء يمكن أن يُرفض من المسؤولين فى الدولة . ربما لهذا السبب فقدت الأمل فى الكبار ، واتجهت إلى الشباب الناشئ . وتحمست لمسرحيتى « إيزيس » إحدى فرق الهواة من الشباب ، وقالوا : هناك صندوق فى وزارة الثقافة اسمه صندوق التمنية الثقافية يشجع فرق الهواة والشباب ، فذهبت معهم إلى مسئول الصندوق ، « سمير غريب » ، ودهشت حين رحب بى وبالشباب ، وتفاءلت خيراً ، وفعلاً حصلت فرقة الهواة على وعد يؤكد تدعيم الصندوق لإنتاج مسرحية « إيزيس » ، إلا أنها لم تحصل على المبلغ ذاته إلا على شكل أقساط ، وبعد إنتهاء البروفات ، وانتهاء الثلاثة ليالٍ التى عُرضت فيها المسرحية على مسرح محكى القلعة ، ولا أعرف حتى اليوم إن كانت فرقة الهواة قد حصلت على المبلغ كله ؟ وهل سددت كل ديونها التى دفعتها لتحقيق المسرحية : ولمدة ثلاثة عروض فقط، إذ لم تحصل الفرقة على تصريح باستخدام محكى القلعة إلا لمدة ثلاث ليالى فقط هى ٨ ، ٩ ، ١٠ أكتوبر ١٩٩٧ ، ورفض المسئولون عن المسارح التصريح باستخدام مسرح آخر . (أنا نفسى اتصلت بسامى خشبة فقال لى أن جميع المسارح مشغولة ، وسررت كثيراً لهذا الخبر مما يدل على وجود نهضة مسرحية عظيمة فى بلادنا) .

وشهدت بعينى رأسى كيف تُهدر كرامة الشباب المبدع على أبواب المسؤولين فى الدولة عن المسرح والأدب والثقافة . كيف يدوخون بحثاً عن مكان يعرضون فيه أعمالهم . كيف يدفعون من جيوبهم لبدء البروفات . كيف يجوعون من أجل تسديد ثمن قطعة ديكور يرونها ضرورية للمسرح . إحدى الممثلات فى فرقة الهواة (التى عرضت مسرحية إيزيس) كانت تقطع من طعامها لتدفع ثمن الملابس الفرعونية التى سترتديها أثناء العرض . هذه المرأة الفنانة الشابة كانت تعمل بلا أجر على الإطلاق ، لأنها تحب الفن والمسرح ، وكانت تواظب على مواعيد البروفات بدقة شديدة وإحساس بالمسؤولية يفتقدها كثير من كبار الممثلين والممثلات مما يطلق عليهم « النجوم » .

وكم أشفقت على هذه الفرقة من الشباب الفدائي المستعد للموت فى سبيل الفن، والذى لا يهتم به أحد ممن يملكون السلطة أو الأموال أو الإعلام أو الصحافة ، رغم الأحاديث الطويلة المنمقة عن الشباب رجال المستقبل .

يوم ٨ أكتوبر ١٩٩٧ كان هو يوم افتتاح مسرحية « إيزيس » التي عشت السنة وراء السنة أحلم برؤيتها تتحرك فوق المسرح . خمسة عشر عاماً يعيش الحلم فى أعماقى ، حتى ذلك اليوم الحزين التعس ٨ أكتوبر ، وأنا جالسة فى مقعدى ضمن المتفرجين الفدائيين الذين استطاعوا الحضور إلى محكى القلعة فى سياراتهم أو على أقدامهم ، رناهم! ل سراديب القلعة ، وبعضهم عاد أدراجه دون أن يرى المسرحية ، ولعل هؤلاء أسعد حظاً من الدين وصلوا إلى المسرح ، وشهدوا معى عملية الواد والدفن بالحياة لهذه الإيزيس المحكوم عليها بعدم الظهور أبداً .

كنت أنتفض فى مقعدى من شدة البرد رغم أننى ارتديت ملابس شتوية ، فالمسرح واسع ضخم فوق هضبة القلعة ، مفتوح على السماء ، والجو بارد فى نهاية الخريف ، والسماء غضبت على الإلهة إيزيس ، لأن الألوهية والأنوثة يجب ألا يجتمعا فى كيان واحد ، وإلا فلماذا هُبت تلك العاصفة الهوائية الصاقعة فأسقطت الديكور فوق رؤوس الممثلين والممثلات ؟ صحيح أن الديكور فقير دفع الشباب ثمنه من جيوبهم وهو مجرد قماش رخيص ملزوق على الجدران الضخمة العالية لقلعة صلاح الدين ، أو مثبت بدبابيس من الصفيح فى الأعمدة الإسلامية القوية من الخرسانة والأسمنت المسلح . شهدت بعينى رأسى كيف تغضب الأعمدة أو الحيطان العالية أو المنارات الناطحة للسحب ، على هذه الإلهة الأنثى ، التى تتحرك وتنطق ، تحت قبة هذه السماء الإسلامية وقلعتها العتيدة ؟

لم نسمع نحن الجمهور الفدائي الصامد فى المقاعد إلا قعقة الريح تخبط جدران القلعة ، وضاع صوت الممثلين والممثلات فى الفضاء الجوى المحيط بالكرة الأرضية . إلى جوارى كانت تجلس ناقدة مسرحية شابة ، ناضلت ثلاث ساعات فى الطريق حتى وصلت إلى محكى القلعة ، كانت تحوط جسمها الصغير بشال خفيف وتنتفض من البرد ، ثم انصرفت بعد الفصل الثانى وهى تقول : ده حرام يا دكتورة ! خسارة النص المسرحى ده يضيع بالشكل ده ! دى عملية قتل !

وكانت مقاعد المتفرجين قد بدأت تخلو ، وهى مقاعد من القش ، أصبحت فى مهب الهواء ، تذروها الريح كالهشيم ، ولأننى أنا المؤلفة فقد حاولت الصمود فى وجه القدر ، إلا أننى لست شابة مثل الممثلين والممثلات فى فرقة الهواه ولست أيضاً

فدائية فيما يخص المسرح ، ولأننى كدت أموت من البرد والحزن أيضاً على عملية وأد إيزيس ، لهذا خرجت من محكى القلعة قبل نهاية الفصل الأخير ، ولم أعرف كيف صمد المتفرجون الآخرون حتى النهاية .

وكننت أتوقع أن تكتب الصحف (غير المدعمة من الحكومة أو الدولة) شيئاً عن هذه المسرحية يُلقى الضوء عما يعانيه شباب الفنانين فى فرقة الهواة . إلا أننى لم أقرأ شيئاً . لا فى الصحف الحكومية أو غير الحكومية ، بل العكس هو الصحيح ، قرأت ما يشبه اللوم لسمير غريب لأنه يدعم مسرحيات مثل إيزيس تعرضها فرق هواة لا جمهور لهم ، وفى جريدة الدستور الصادرة ١٢ نوفمبر ١٩٩٧ ، يرد سمير غريب مدافعاً عن نفسه ، ويقول بالحرف الواحد :

أنا يهمنى دعم الهواة بالأساس .. للأسف النقاد لا يحضرون عروض الهواة .. وأنا أناشد نقاد المسرح بأن يروا هذه العروض .. يا كبار تواضعوا قليلاً واخرجوا لفرق الهواة .. أجور الممثلين اليومية لاتزيد عن ٥ جنيهاً .. مسرحية إيزيس تم دعمها بـ ٢٠ ألف جنيه .. العرض أقيم فى محكى القلعة ، وهو غير مناسب لأن جوه إسلامى والمسرحية جوها فرعونى .. لابد من إشراك آخرين فى الدعم لفرق الهواة .. لابد أن يقف معهم الصحفيون والنقاد وغيرهم .. فكرة تدعيم الهواة لا تعنى بعزقة الفلوس ... الإعلان الواحد لا يقل عن ٥ آلاف جنيه ! إزاي أعمل إعلانات بـ ٦٠ ألف جنيه ؟ بدل ما أقدم عرض يتكلف ١٠٠ ألف جنيه . أعمل ٥ أو ٦ عروض .. وقبل ما تهاجمونى يجب أن تفكروا قليلاً ..

هذا هو كلام سمير غريب فى جريدة الدستور ، وهى جريدة معظمها شباب ، وهى تنقد أحياناً « الكبار » فى عالم السياسة أو الصحافة أو الفن أو الدين ، لكن هذا النقد لا يكفى ، ولابد أن يصاحبه عرض لأعمال الشباب ومشاكلهم ومعاناتهم ! لماذا لم تبحث جريدة الدستور عن هذه الفرقة من الشباب التى عرضت مسرحية إيزيس ؟ ولماذا لم تسألها رأيها كما سألت مسئول صندوق التنمية الثقافية ؟ وإذا لم تهتم الصحافة الشابة بالشباب ؟ فمن يهتم بهم ؟



التخويف والترغيب والجوائز(*)

كم نستمتع حين نشهد عملاً بارعاً من إبداع الجسم الممشوق أو العقل الرشيق ، لا يقل استمتاعنا بقراءة رواية جميلة عن مشاهدتنا لإحدى الألعاب الرياضية يتبدى فيها إبداع الجسم الإنساني .

لكن كيف ينقلب الجمال إلى قبح حين تتحول هذه الإبداعات الإنسانية إلى ساحات للمنافسة مثل القتال في الحرب ، وينشغل الناس بالجوائز والميداليات عن الإبداع ذاته .

كنت أسمع أبى منذ طفولتى يقول : الجائزة كالهديّة نوع مستتر من الرشوة . ألّهذا لم يحمل فى حياته هدية ولم يهنئ أحداً بجائزة ١٩

هذه الفكرة تراودنى دائماً حين أشهد مواكب المهنيين بالجوائز أو حاملى الهدايا ، وحين أشهد مباريات كرة القدم وأتابع أخبار الفائزين أو الخاسرين فى الدورات الأولمبية أو مهرجانات السينما أو المسرح أو القصة أو الأدب وجوائز الدولة وغيرها . يدهشنى دائماً هذا الاهتمام المبالغ فيه بمثل هذا التنافس إلى حد نشوب معارك لفظية أو عضلية بين الفرق المتصارعة فى الساحة الرياضية أو الثقافية . أهى محاولة لتحويل طاقات البشر عن الصراع الحقيقى فى حياتهم الواقعية ١٩ أم أن الإنسان لا يبدع جسماً وعقلاً دون ترغيب فى مكافأة أو ترهيب بالعقاب .

كان أبى من رواد التعليم فى الأربعينيات والخمسينيات، وكنت أسمعه يقول : إن فلسفة الترغيب والترهيب لا تؤدى إلى الإبداع فى شىء . لأن العمل المبدع هو جائزة الإنسان لنفسه ، منبعه الثقة بالنفس إلى حد القدرة على الاختلاف مع الآخرين ، وبالتالي عدم الحصول على رضاهم أو جوائزهم .

زرت بعض المدارس الابتدائية الجديدة فى أوروبا وأمريكا خلال السنين الماضية هناك محاولات متعددة لإلغاء الامتحانات أو المسابقات أو السقوط أو النجاح ، بحيث يتربى الطفل أو الطفلة على إتقان العمل الإبداعى لذاته وليس طمعاً فى النجاح

(*) القاهرة - الأهرام ١٩٩٦/٨/٢٤ ص ١٠ .

أو خوفاً من الفشل . لقد اتضح أن فلسفة الترغيب والتخويف لا تنتج مبدعين حقيقيين، وإنما أصحاب مهن تجارية أو أكاديمية أو فنية ، يكسبون أو يخسرون في ساحات المنافسة على الجوائز المادية أو الأدبية .

إن الإبداع الحقيقي مثل الإيمان الحقيقي ، يحدث للإنسان بلا طمع في شيء أو خوف من شيء ، وأصدق من عبرت عن ذلك هي رابعة العدوية في إبداعها الإيماني دون طمع في الجنة أو خوف من نار الجحيم .

إن فلسفة الترغيب أو الترهيب تؤدي في كثير من الأحيان إلى تشويه الإنسان . وكم رأيت تلاميذ وتلميذات تشوهوا بسبب الخوف من الامتحان أو الجرى وراء الجوائز ، وفي دورة أتلانتا الأولمبية الأخيرة رأيت شباباً وشابات ضمرت أجسامهم وعقولهم من جراء ذلك التنافس المجنون على الجوائز . بعضهم لا يعيش الحياة الطبيعية الصحية بل انحرفاً ومبالغة في الحرمان من الطعام أو النوم إلى حد ابتلاع الأقراص المهدئة . إحدى الفتيات الفائزات بجائزة ذهبية قالت بعد أن صفق لها الملايين : عدت إلى بيتي وحيدة أشعر بالضعف والحزن . هذه الفتاة لم تحزن لأنها لم تجد العريس كما تصور بعض الناس ، أو لأن الرياضة الجسمية أفقدتها الأنوثة أو الأمومة أو القدرة على الحمل أو سهولة الولادة أيضاً ، بل إن آلام الولادة أصبحت تتلاشى تماماً بالرياضة الجسمية والعقلية الصحيحة . أصبح هذا معروفاً في علم الطب الحديث .

وقد أصبح أطباء الجسم والنفس في العالم اليوم يقاومون هذه الظاهرة التنافسية الخطيرة الكامنة في المدارس التعليمية ، والظاهرة في المباريات الرياضية . ونحن في أشد الحاجة إلى إعادة النظر أو نقد هذه السياسة القديمة القائمة على التخويف والترغيب . وقد أثبتت الدراسات العلمية النفسية عن الإبداع أن التربية القائمة على الخوف لا تنتج شيئاً مفيداً ، كذلك أيضاً التربية القائمة على الترغيب في المكافأة . إلا أن الأمر طويل وشاق ، يحتاج إلى جهود كثيرة في جميع المجالات التربوية والتعليمية والثقافية والإعلامية .

كلما شهدت مباراة من مباريات كرة القدم على شاشة التليفزيون أقول لنفسى : كم تتحول هذه اللعبة الجميلة إلى معركة قبيحة . إلا أن المشكلة ليست في المباريات الرياضية فحسب ، ولكنها أيضاً في المباريات الأخرى في أى مجال منذ نولد حتى نموت .

حديث مع توفيق الحكيم(*)

١ - حوار فكري أم مونولوج داخلي ؟

درج القراء في بلادنا على الإنصات « صامتين » إلى أحاديث الكتاب الكبار في مجالات الفكر ، وبذلك يبدو الكاتب أو المتكلم وكأنه يتحدث مع نفسه (أو مع الله) . فالفرق الوحيد بين الحديث مع النفس (أو مع الله) ، والحديث مع القراء هو أنه في الحالة الأولى لا يكون هناك « رد » . ويظل الحديث على شكل مونولوج دائم ، أما في الحالة الثانية فلا بد أن يكون هناك « رد » ليتحول المونولوج إلى « حديث مع » أو « حوار » بالمعنى الصحيح .

لكن علاقة الكاتب بالقارئ في بلادنا لا تزال تأخذ شكل الكلام من جانب واحد . إنها تشبه العلاقة بين الفرد والإله . أو علاقة المحكوم بالحاكم .

والمفروض على الأقل في مجال الفكر والكتابة أن يكون « التبادل » هو أصل العلاقة ، حتى يمكن أن يتحول القارئ من آلة استقبال إلى إنسان يتفاعل ثم يفكر ، ثم يشارك في صياغة الفكر ، وتطويره .

بغير هذا التحول ؛ بغير أن يصبح « الصامت » ناطقاً لا يمكن أن يحدث حوار فكري في بلادنا . هذا شعار الذي نردده طوال الوقت ، مما يؤكد غيابه طوال الوقت . لذلك فإنني مازلت أطلب من كبار الكتاب في بلادنا أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم للقراء ، وأن يشجعوا القراء على أن يخرجوا من مجال الصمت إلى مجال النطق .

إنهم بذلك يسهمون في زحزحة أكبر حجر تقوم عليه أزمة الفكر في بلادنا . وربما لو فعل ذلك كاتب كبير مثل توفيق الحكيم منذ بدأ الكتابة في الثلاثينيات

(*) مجلة أكتوبر - ٢٤ ديسمبر ١٩٩٥ ص ٧٢ .

لما اضطر إلى إعادة نشر ما كتب منذ أربعين عاماً . ذلك أن فكره كان لابد أن يتغير ويتطور من خلال التفاعل مع آلاف العقول الأخرى على مدى نصف قرن أو أقل أو أكثر.

٢ - الثقوب الواسعة في غريال العلم :

سوف أسهم بدورى كقارئة لما نشره الحكيم ، وسأحاول الرد على بعض أفكاره :
كتب الحكيم مؤيداً نظرية أ . م . جود عن عجز العلم للتوصل إلى فهم شخصية الإنسان ، أو الصداقة ، والحب ، ويقول فى هذا الحديث :

« فالإنسان ليس هو مجموعة الدقائق التى يتكون منها تركيبه المادى والحيوى والنفسانى . إنه أكثر من هذه المجموعة . إنه شخصية ! .. الشخصية شىء يفلت دائماً من غريال العلم ومن وسائله .. هى شىء لا تحسه إلا إذا كنت لهذا الإنسان صديقاً . والصداقة والحب من الأشياء التى لا يمكن أن يحسها العلم » .. ويستمر الحكيم قائلاً :
« ويمضى » جود « بعدئذ يحدثنا عن نتائج التحليل العلمى لنكتة فكاوية فيقول إن السير « آرثر أونجتون » حاول أن يبحث فى طبيعة « النكتة » وقد رأى أنها قابلة للتحليل شأن أى مركب كيمائى . ففك أجزاءها . وقرر ما ينبغى أن يكون التركيب والنموذج لنكتة فكاوية . وكان المنطق يقضى أن نضحك لهذه النكتة . ولكننا لم نضحك . شىء فيها تبخر عند التحليل . هذا الشىء أسميه أنا « الروح » ..

كان يمكن لمثل هذا الكلام أن ينشر خلال الثلاثينيات ، أو قبل إدراكنا لحقائق العلوم الحديثة ، وخاصة علم الاجتماع الحديث وعلم النفس . لقد أدرك العلماء الجدد ومنهم « رونالد لينج » فى إنجلترا « وتوماس زاس » فى أمريكا (وغيرهما) خطأ السير آرثر أونجتون و أ . م . جود . ذلك أن الذى تبخر فى المعمل الاختبارى لم يكن هو « روح » النكتة ، ولكن شىء آخر أطلق عليه اسم « المناخ الثقافى والاجتماعى العام » .

فقد اتضح لهم أثناء البحث أن النكتة التى ضحك عليها الإنجليز فى سنة ١٩٣٢ ليست هى النكتة التى ضحكوا عليها سنة ١٩٤٢ كما وجدوا أيضاً أن النكتة التى ضحك

عليها الإنجليز سنة ١٩٤٢ اعتبرها غير نكتة غير مضحكة أو باردة تماماً (نكت الإنجليز تبدو لنا باردة) .

وبذلك اكتشف العلماء الجدد أن الذى غاب عن « وعى » السير أرثر أونجتون ليس هو « روح » النكتة ، وإنما هو المناخ الثقافى والاجتماعى العام الذى يلعب دوراً أساسياً فى عملية فهم النكتة وبالتالى الضحك أو عدم الضحك .

وبالمثل أيضاً اكتشف هؤلاء العلماء الجدد ومنهم « رولو ماى » (فى جامعة هارفارد) وغيره من أساتذة علم النفس الحديث ، أن « الحب » ليس أعمى كما تصور العلماء السابقون . وأنه ليس هناك ما يسمى « الوقوع فى الحب من أول نظرة » . وأن ما يبدو فى « الوعى » النظرة الأولى ، ليس فى الحقيقة إلا عدداً يحصى أو لا يحصى من الصور المتشابهة والمتراكمة فى الذاكرة أو اللاوعى منذ الطفولة ومراحل العمر المختلفة . إن الثقوب فى غريال العلم الحديث أصبحت أضيق مما كانت منذ ثلاثين عاماً ، وهى تضيق على الدوام .

٣ - المرأة المصرية العاجزة عن التفكير !

كتب توفيق الحكيم تحت عنوان « المرأة ومواهبها » يقول : « هذان النوعان بالذات « التفكير والتركيز » لم أجد للمرأة فيها أثراً بارزاً .. كل شيء قد برزت فيه وسادت فيه الرجل ... نعم كل شيء استطاعته المرأة خلا شيئين : أن تكون « فيلسوفة » وأن تكون « مؤلفة تمثيلية » . أترى التفكير والتركيز صفتين ناقصتين عند المرأة ؟ أما « الرواية » فالمرأة توشك أن ترفع عليها علم السيادة . فالمرأة تمسك « بالقلم » لتصنع قصة روائية كما تمسك « بالإبرة » لتصنع ثوباً من « التريكو » .

فالقصة النسوية بما فيها من تفاصيل لشئون الحياة اليومية ومن إسهاب لتفاهات الحياة المنزلية .. « كل هذا ليس فى حقيقة الأمر سوى نوع من شغل الإبرة » .

وماذا نفهم من هذا الكلام ؟ أيقول الحكيم إن التأليف الروائى لا يحتاج إلى تفكير ؟ أم يقول إن الرجل الروائى يفكر ، أما المرأة الروائية فهى عاجزة عن التفكير ،

وإنتاجها ليس إلا نشاطاً غير فكري أو نشاطاً آلياً مثل « التريكو » وحياسة تفاهاات
الحياة المنزلية ؟ ومن هى المرأة العاجزة عن التفكير ؟

هل هى المرأة المصرية أو المرأة بصفة عامة فى العالم كله ؟

وهل قرأ الحكيم إنتاج النساء فى العالم ليصدر حكماً عاماً على المرأة ؟ وإذا كان
حكمه يخص المرأة المصرية فقط ، فهل قرأ الحكيم إنتاج المرأة المصرية من
الروايات خلال نصف القرن الأخير ؟

ونفهم من الجزء الأخير فى مقال الحكيم أنه يخص المرأة المصرية فحسب بتلك
الصفة « العجز عن التفكير » .

٤ - تمجيد المرأة الأوروبية !

فى ختام مقالة يقول الحكيم تحت عنوان أثر المرأة فى أدبائنا : « وهناك أدباء
أثرت فى تكوين ثقافتهم نساء فضليات ، أن يجرى على أقلامهم وصف لامرأة .. من
بين هؤلاء الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ومنهم أيضاً « أحمد أمين » وقصته عجيبة .
فإنى أسأل نفسى : كيف استطاع هذا الباحث الجاد فى تاريخ العقلية الإسلامية أن
يكون أديباً تتم كتاباته أحياناً عن فهم للقلب والعواطف ؟ فتحررت منه فكشف لى الأمر
عن حقيقة أدهشتنى . نعم هو أيضاً قد أثرت فى حياته امرأة .. استغفر الله ! بل
امرأتان هما سيدتان إنجليزيتان ، إحداهما فى ذهنه وتفكيره بثقافتها الواسعة ،
والثانية أثرت فى قلبه ومشاعره بجمالها ونبلاها ! وأخيراً أقول إن المرأة التى أثرت فى
عمل أدبائنا المعاصرين هى فى أغلب الأحوال امرأة أوروبية فرنسية أو إنجليزية . ولنا
أن نتساءل : أين المرأة المصرية ؟ مشغولة أين ؟ وبماذا عن صنع العقول وقيادة القلوب
واللعب بمصائر الرجال وأقدار المشاهير .

وماذ نفهم من هذا الكلام ؟ ها هى ذى المرأة التى سبق أن وصفها الحكيم
بالعجز عن التفكير تصبح هى التى تؤثر فى تفكير الرجل وفى ذهنه بثقافتها الواسعة .
لكنها هنا هى المرأة الأوروبية ، والرجل هنا هو الرجل المصرى وليس الرجل
الأوروبى .

وماذا يقصد الحكيم ؟ هل يقصد أن المرأة المصرية لا تؤثر في عقل الرجل المصرى لأنها أقل منه ثقافة وفكراً ، وأن المرأة الأوروبية أكثر ثقافة وفكراً من الرجل المصرى ، وبالتالي يمكنها التأثير في عقله وذهنه ؟

وهل تؤثر المرأة الأوروبية في عقل الرجل الأوروبى بمثل ما فعلته بالرجل المصرى ؟

من الحقائق المعروفة اليوم أن نساء أوروبا (وأمريكا أيضاً) قد بدأن الثورة على الرجل في منتصف هذا القرن لسبب أساسى هو : عدم الاعتراف بعقل المرأة (واعتبارها جسداً فحسب مثل حواء) . وبقراءتى لمعظم كتابات النساء (فى أوروبا وأمريكا) خلال العشرين عاماً الماضية وجدت أن المرأة الأوروبية (والأمريكية أيضاً) تتقد كتابات الرجل الأوروبى ، الذى اتهمها بالمعجز عن التفكير ونقصان العقل والتركيز ، وأنه كان يهرب منها إلى بلاد أفريقيا وآسيا ، سعياً وراء امرأة تؤثر في عقله وقلبه ! يا ترى ما المشكلة ؟ أهى مشكلة الرجل ؟ أم المرأة ؟ أم كليهما ؟!

٥ - المفهوم الجديد للمرأة والإبداع الفكرى !

لم تعد الفروق البيولوجية أو الجنسية بين الرجل والمرأة هى التى تحدد مفهوم الإبداع الفكرى عند كل منهما . لقد وجد أن إنتاج النساء الأدبى فى أوروبا سنة ١٩٤٢ يختلف عن إنتاج النساء فى مصر فى العام نفسه . ولا يرجع ذلك إلى اختلافات بيولوجية بين المرأة الأوروبية والمرأة المصرية ، ولكنه يرجع إلى أن الضغوط الثقافية والأخلاقية على المرأة الأوروبية كانت أقل ، وكانت المرأة الأوروبية تمارس من الحريات الاجتماعية والشخصية ما يسمح لها بمخالطة الرجال الأجانب ، مصريين وغير مصريين ، وبالتالي القدرة على التأثير في عقولهم وقلوبهم .

أما المرأة المصرية فى سنة ١٩٤٢ فكانت حريتها أقل ، ولم يكن فى إمكانها مخالطة الرجل المصرى ، فما بال الرجل الأجنبى .

لهذا فإنى أرى أن الحكم على المرأة المصرية دون مراعاة الظروف الاجتماعية والثقافية فى البيئة التى تعيشها يصبح حكماً غير صحيح ، أو حكماً خطأ . وبالتالي غير مفيد بل ضار .

لأنه يشعر المرأة المصرية بالنقص ، أو العجز عن التفكير والتركيز . ويبدو
النقص لها كأنه صفة طبيعية خاصة بها وحدها ، أو بسبب عيب فيها هي بالذات ،
وليس لأسباب ثقافية واجتماعية هي تعاني منها أصلاً ، وتحاول التخلص منها . فهل
يساعدها الرجل المصري على هذا ؟

ويحكم توفيق الحكيم على الرجل المصري بالنقص في التفكير بالنسبة للمرأة
الأوروبية . بمثل ما يقول إن أوروبا هي « العقل » والشرق هو « النفس » أو الروح .
وكانما الشرق ليس له عقل . وهذا الحكم أيضاً غير مفيد لأنه يشعر الرجال في بلادنا
أن عقولهم أقل من عقول النساء في أوروبا ، وأن العقل المصري أو العقل العربي يعاني
نقصاً بالطبيعة وليس بالضغط الاجتماعي والثقافي والسياسي .

إن التشخيص الخطأ لأسباب أى مشكلة يقود بالضرورة إلى العلاج الخطأ . ولهذا
لا نزال نعاني الأزمة الفكرية بين رجالنا ونسائنا معاً .



الفرق بين الراقصة الشقراء والراقصة المحجبة(*)

لا يمكن أن نرى الشيء . أى شيء ، إلا من مسافة ما .
نطبق هذا القانون العلمى على كل الأشياء . حتى النفس والوطن .
إذا أردنا أن نرى أنفسنا ، فلا بد من وجود مسافة تفصلنا عن أنفسنا .. « العين لا ترى نفسها » .
هذه حقيقة علمية معروفة ، ولهذا كم رأيت الوطن أكثر وضوحاً وأنا بعيدة هناك فيما وراء البحر الأبيض المتوسط .
هناك فى أوروبا ، حيث يطلقون على بلادنا اليوم اسم « جنوب المتوسط » .
كانوا يطلقون علينا اسم الشرق الأوسط ، إنهم يغيرون أسماءنا حسب مصالحهم أو موقعهم فى خريطة العالم ، وليس حسب موقعنا نحن . وكم يتغير موقعنا حسب قوتنا ، أو ضعفنا ، وفى القاموس الجديد اليوم يعتبر « الشمال » هو السيد الأعلى و « الجنوب » هو التابع الفقير المطيع .
« التبعية » و « الطاعة » صفتان متلازمتان فى حياة الدول ، وفى حياة الأفراد ، إذا تمرد التابع ولم يطع الأوامر عوقب ، وتختلف درجات العقاب ابتداءً من قطع المعونة إلى الضرب بالقوة العسكرية .
كيف حدث أن أصبح طعامنا فى يد غيرنا ؟ لماذا لا ننتج ما نأكل فى بلادنا ؟
كيف تحول اقتصادنا من إنتاج زراعى وصناعى إلى اقتصاد تابع يعيش على المعونات والقروض ، أو على ما يدفعه السياح الأجانب ؟ سؤال يجب أن يفكر فيه كل إنسان فى بلادنا .

(*) نشر بمجلة روزاليوسف ١٩٩٢/١/٤ .

تجولت فى بلاد أوروبا خلال الأربعة الشهور الماضية (سبتمبر - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٢) . زرت عشرة بلاد هى : (إنجلترا - فرنسا - أسبانيا - إيطاليا - ألمانيا - السويد - النمسا - هولندا - بلجيكا - سويسرا) .

فماذا رأيت فى هذه البلاد العشرة ؟ رأيت سياحاً من كل بلاد العالم يزورون الأماكن التاريخية أو الآثار القديمة . متحف « اللوفر » وحده فى باريس يزوره فى اليوم الواحد أكثر من مليون شخص ، بل إن أكثر من عشرة آلاف سائح كل يوم يركبون قوارب الفرجة على معالم مدينة امستردام فى بلد أوروبى صغير جداً هو هولندا ، لكن هولندا تعيش على إنتاجها الزراعى والصناعة الزراعية الغذائية ، وليس على السياحة ، مع أنها أقل من بلادنا خصوبة ، وأنهارها الصغيرة أقل من أنهارنا طولاً وعرضاً .

إن وادى نهر النيل مثلاً من أخصب الوديان ، ويعتبر نهر النيل أطول أنهار العالم بعد « المسيسبى » ، فكيف لا نعتمد على الإنتاج الزراعى ، وعلى الصناعة الغذائية الزراعية ، وكيف يهاجر الفلاحون تاركين الأرض ليعملوا فى الفنادق كطباخين للسياح الأجانب ؟

لا أظن أن أحداً عاقلاً يمكن أن يكون ضد السياحة ، فالسياحة مشروعة ، ليس فقط من أجل الحصول على المال أو العملة الصعبة ، ولكن أساساً لتعريف العالم بحضارتنا وتاريخنا العريق القديم .

لكنى أعتقد أن العقلاء أيضاً لا يمكن أن يكونوا سعداء بتلك الحال التى وصلنا إليها ، وأنا نمد أيدينا للأجانب كي نحصل على طعامنا .

فى صحف أوروبا وحينما سافرت إلى أى بلد كنت أقرأ عن هذه السائحة الأجنبية التى قتلت فى مصر . وفى الصحف المصرية قرأت المقالات الطويلة عن هذا الموضوع ، بل رأيت مسئولاً كبيراً يرتدى بدلة بابا نويل ، ويستقبل السياح فى مطار القاهرة ويوزع هدايا أعياد الميلاد على أطفالهم .

وعدد من المقالات بأقلام كبار الكتاب فى مصر تستشهد بأقوال بعض السياح الأجانب أو زوجاتهم ، (كأنما هى شهادة قدسية) على سلامة الوطن وعشق السياح لمصر ، ومقالات تفتق عنها ذهن كبار الكتاب عن كيفية جذب السياح إلى مصر ، ومنها أن يترك المسئولون والوزراء مكاتبهم ويوزرون السياح حيث يكونون .

لا أظن أن أحداً عاقلاً ضد تنشيط السياحة ، لكن لماذا يكون هذا التنشيط على حساب كرامة الوطن وصورته في الخارج .

لا شيء يسىء إلى سمعة الوطن قدر هذا التهافت على إرضاء السياح الأجانب بأى شكل .

إن مقتل سائحة أجنبية في مصر ، قد حظى بالاهتمام المحلى والعالمى أكثر من مقتل كاتب مصرى ، أو التهديد بقتل خمسين كاتباً ، بل لو قُتل جميع الكتاب في مصر والوطن العربى ، لما اهتمت الصحافة المحلية أو العالمية بالخبر ، كما اهتمت بخبر مقتل هذه السائحة الأجنبية .

وأنا كاتبة مصرية ، أشعر بالغربة في وطنى لأن السائح الأجنبى يحظى باحترام واهتمام أكثر من أى مصرى أو مصرية ، وأشعر بالغربة أيضاً في أوروبا .. لأن أى أوروبى يحظى بالاحترام والاهتمام من أى أجنبى أو أجنبية مثلى .

ما الفرق بين راقصة أجنبية وراقصة مصرية ؟ لماذا يصبح فن الراقصة المصرية رخيصة غير محترم يحتاج إلى التوبة والندم ، على حين يصبح فن الراقصة الأجنبية فناً عظيماً يستحق الإشادة والإعجاب باعتبار أن (الرقص أقرب إلى الطبيعة وأول الفنون التى عرفها الإنسان وأقدرها على تحقيق الانسجام بين الجسم والنفس والعقل والقلب ، وأروعها في إذابة فوارق اللون أو الطبقة أو الجنس أو الدين أو السن أو الجغرافيا أو التاريخ) ، (على حد قول أحد الكتاب المشجعين للسياحة ، والذي استشهد في مقاله بأحد المفكرين الذى قال : أرنى الرقص في أى بلد ، وأنا أعرف إن كان شعباً صحيح الجسم سليم العقل محباً للسلام أو الجمال أو الحرية) .

كيف يهبط الرقص من عليائه الفنية ليصبح خطيئة وعملاً لا بد أن يندم عليه الإنسان لمجرد أنه امرأة مصرية أو عربية وليست ألمانية أو روسية أو أمريكية ؟

في محاضرة لى بجامعة برن في سويسرا سألتنى أحد الرجال : هل يمكن أن تكون المرأة مسلمة دون أن ترتدى الحجاب ؟ وقلت له : ما علاقة تحجيب النساء بالإسلام ؟ لقد كان أبى رجلاً مسلماً درس في الأزهر والقضاء الشرعى ودار العلوم ، ولم يطلب

منى فى يوم من الأيام أن ارتدى الحجاب ، بل أرسلنى إلى الجامعة ، حيث تعلمت وسط الطلبة وتخرجت طبيبة واشتغلت مع الرجال . أتظن أن المرأة المسلمة لا يشغل عقلها إلا عيون الرجال التى يمكن أن تتجه نحوها ١٩

المرأة المسلمة فى بلادنا مثل المرأة فى أى بلد من بلاد العالم مشغولة بأمور كثيرة فى حياتها الخاصة والعامة ، ابتداء من لقمة العيش اليومية إلى السياسة الدولية والديون الأجنبية والاستعمار الجديد والحب وعش الزوجية .. إلخ .. إلح .

جوهر الأخلاق فى نظر أبى وأمى كان هو الصدق واستقلال الرأى وانشغال المرأة ببناء شخصيتها والمساهمة فى خلق مجتمع أفضل وأكثر عدلاً وحرية واستقلالاً .. هكذا علمنى أبى وأمى ، ولهذا فأنا لم انشغل فى حياتى بالرجل أو الأزياء أو الموضات أو الماكياج أو التبرج أو الحجاب ، وانشغلت بالطب والأدب ، والسياسة والتاريخ والفنون والعلوم ، وأصبحت إنسانة لها عقل ليس مجرد أنثى وظيفتها الوحيدة فى الحياة هى الجنس أو الزواج أو الطلاق أو الندم على فقدان الرجل أو عائلها الوحيد ..

المرأة ، مثل البلد ، إذا لم تطعم نفسها بنفسها أصبحت تابعة وعالة على غيرها بلا إرادة ولا كرامة . هكذا علمنى أبى وأمى ، وفى بلاد أوروبا المتعددة وقفت أمام السبورة فى الجامعات والمعاهد ، وقلت لهم : اسمعوا أيها الناس فى أوروبا . إنكم لا ترون فوق شاشتكم إلا صورتين اثنتين للمرأة العربية ، إما المحجبة أو نصف العارية ممن تسموهن راقصات البطن ، أو الرقص الشرقى فى ملاهى السياح الأجانب .

اسمعوا أيها الناس فى أوروبا : إن المرأة العربية لا تتعري ، ولا تخفى وجهها .. أنا أكشف عن وجهى بكل فخر واعتزاز بنفسى وهويتى ، والمرأة العربية إنسانة ، وهى عقل وليست مجرد جسد يُعرى أو يغطى .

فى نهاية كل محاضرة كانت تأتىنى النساء والفتيات العربيات المهاجرات إلى أوروبا ، يأتين رافعات رؤوسهن فى اعتزاز وفخر ، فخورات أنهن عربيات ، فخورات أنهن مسلمات ، يُقدمن لأوروبا نموذجاً مشرفاً للمرأة العربية والمرأة المسلمة ، يقدمن صورة إيجابية للإسلام ، إنه دين يحترم شخصية المرأة وعقلها ، لا ينشغل بالقشور عن جوهر الأخلاق .



الحنين إلى الدفاء والعدل (*)

فى أعماقى حنين إلى دفاء العلاقات ، إلى الصدق فى الحب ، إلى جمال العدل بين البشر . أجلس خلف نافذتى الزجاجية أطل على أشجار غابة جامعة ديوك . غابة ضخمة من الشجر يختفى داخله أعداد من الباحثين فى علم الغابات ، والباحثين عن الحب أيضاً شباب كلهم وشابات .

منذ أيام عثروا على جثة فتاة ، قُتلت داخل الغابة منذ أسابيع دون أن يعرف البوليس . قالت لى فينيسا (إحدى طالباتى فى فصل المرأة والإبداع) : ربما اغتصبها رجل ثم قتلها . حوادث الاغتصاب تطفو على سطح الأحداث . هل زادت هذه الحوادث عن ذى قبل ؟ وترد فينيسا : لا ، ولكن التبليغ عنها أصبح أكثر . فينيسا تركب دراجتها وفوق ظهرها حقيبتها وتخترق الغابة فى النهار وفى الليل دون خوف تذكرنى بابنتى ملامحها ، وشجاعته .

شمس يناير فى مدينة ديرهام قوية دافئة تذكرنى بالشمس فى الوطن . تذيب برودة الغربة والبعد عن الأهل والأصدقاء ، أشعر بالألفة مع هذه الأشعة الذهبية ذات الملمس القطيفى الدافئ . يسمونها فى أمريكا شمس الجنوب . ولاية نورث كارولينا تعتبر من الجنوب . بينى وبين كلمة « الجنوب » نوع من الود . الجنوب هو الوطن ، حيث الحرارة والحب والصدقة والبشرة السمراء مثل أهلى الفلاحين والفلاحات فى قرىتى على شط النيل وسط الدلتا . الشمال هو الصقيع ، واحمرار الأنف ، والاستعمار ، امتداد الأنف للتدخل فى شئون الغير ، الاعتداء المسلح علينا لاغتصاب الأرض أو القطن أو البترول أو المواد الخام .

(*) نشر بمجلة روزاليوسف ١٥ أبريل ١٩٩٣ .

بالأمس رأيت الرئيس الأمريكى الجديد بيل كلينتون ، فوق شاشة التلفزيون يتكلم بصوت رقيق عن إسرائيل التى تخرق قرارات الأمم المتحدة ، فلا يعاقبها أحد ، بل تحاول الولايات المتحدة حمايتها . ويغضب واحد من الطلبة السود فى جامعة ديوك ويقول فى أحد الاجتماعات : صدام حسين يقذف بضع رصاصات فى الهواء لا تصيب أحد فإذا بالقنابل الأمريكية تدك بغداد ، وحاكم الصرب (سلوبودان) يقتل الآلاف من شعب البوسنة فلا يتحرك أحد . هكذا يتشكل النظام العالمى الجديد !

• راحة نفسية !

الجوهنا فى الجامعة يتيح للطلبة نوعاً من الحرية الفكرية . وكذلك يمكن للأساتذة أن يعبروا عن آرائهم فى محاضراتهم دون خوف من الطرد ، أشعر بنوع من الراحة (النفسية على الأقل) أنتى أستطيع أن أنقد السياسة الأمريكية داخل جامعة أمريكية .

وتقول فينيسا : عندنا حرية فكرية بشرط عدم تهديد النظام السائد . من يهدد النظام قد يتعرض للقتل مثل مارتين لوثر كينج .

كان اليوم هو ١٥ يناير ١٩٩٣ . اليوم إجازة فى جميع الجامعات والمصالح فى الولايات المتحدة . إنه اليوم الذى ولد فيه مارتين لوثر كينج أصبح إجازة رسمية قومية ، للاحتفال بذكرى هذا الزعيم الأمريكى الأسود ، الذى دفع حياته ثمناً لتحرير إخوانه من الأفارقة السود فى أمريكا . أصبح رمزاً من رموز النضال ضد العنصرية ومن أجل العدالة والحرية .

« هايدى » واحدة من طالباتى ، سوداء البشرة ، تكشف عن أسنانها البيضاء فى ابتسامة عريضة وتقول : أنا مدينة بحريتى لمارتن لوثر كينج . لولا نضاله ونضال غيره من الزعماء السود أمثال مالكولم إكس ما استطعت دخول جامعة ديوك . قبل خريف عام ١٩٦١ لم يكن بجامعة ديوك أى طالب أو طالبة من السود . كانت جامعة ديوك للطلاب البيض فقط . وفى خريف ١٩٦١ دخل أول طالب أسود فى هذه

الجامعة يحصل على الدكتوراه . وفى خريف ١٩٦٣ دخل أول طالب أسود يحصل على البكالوريوس . واليوم كم ترين من الوجوه السوداء بين الطلاب والطالبات ؟ رغم تزايد العدد إلا أن السود هنا فى الجامعة مازالوا أقلية بالنسبة للبيض ، ومازال أيضاً بعض الانفصال ، على الأقل النفسى أو الاجتماعى . لا توجد اليوم قوانين فى الجامعة (كما كانت) تفصل بين السود والبيض . لكن جذور العنصرية لاتزال عالقة بالتقاليد والثقافة ، تطفو على السطح أحياناً ، بعد أحداث مثل تلك التى وقعت فى لوس أنجلوس منذ عامين .

• ذكريات !

اليوم الجمعة ١٥ يناير ١٩٩٣ . إجازة ذكرى مارتن لوثر كينج . أتمشى بين الأشجار داخل غابة جامعة ديوك . مساحات من الخضرة لا نهائية . أتوقف عند ملاعب التنس . أرى طالبة سوداء تلعب مع طالب أبيض . يتعانقان تحت أشعة الشمس . فى المساء دعتنى « هايدى » لمشاهدة مسرحية عن مارتن لوثر كينج وماكولم إكس ، كتبها جيف ستيتسون ، شاب مسرحى جديد ، استلهم فكرته من لقاء بين مارتن لوثر كينج وماكولم إكس فى فبراير عام ١٩٦٥ ، قبل مقتل ماكولم إكس بأسبوع واحد . التقى الزعيمان السودان فى غرفة فقيرة فى فندق بحى هارلم بمدينة نيويورك . (عشت فى هذا الحى بعض الوقت فى خريف ١٩٦٥ ، حين كنت أدرس فى جامعة كولومبيا) وبعد ثلاث سنوات من هذا اللقاء قتل مارتن لوثر كينج . أطلق عليه الرصاص وهو يخطب . تماماً مثلما أطلق الرصاص على ماكولم إكس وهو يخطب بين الناس .

فى اليوم التالى دعتنى فينيسا لمشاهدة فيلم ماكولم إكس ، من إخراج « سبايك لى » وهو مخرج أمريكى أسود ، اشتهر فى السنين الأخيرة . يتبنى أيضاً قضايا السود ويناضل عن طريق السينما ضد العنصرية والتفرقة بين البشر . جزء من الفيلم تم تصويره فى مصر ، شارك فيه بعض شباب المخرجين المصريين . قرأت اسم ابنى ، ضمن المشاركين فى الفيلم . ورأيت الأهرامات وشوارع الوطن . وحرارة الناس فى

بلادنا ، ودفع العلاقات ، ومالكولم إكس في زيارته لمكة للحج بعد أن أصبح مسلماً ، يناضل مع الأفارقة السود المسلمين في أمريكا ضد الظلم والقهر . في شبابه الأول كان مالكولم إكس ضائعاً مثل عدد كبير من الشباب السود من الطبقات الفقيرة في أمريكا . أصبح مهرجاً في البارات والحانات يتعاطى المخدرات إلى أن دخل السجن . وهناك بدأ يفيق ويدرك الظلم الواقع عليه وعلى أمثاله من السود الفقراء .

قاعة السينما كانت مليئة بالوجوه السوداء نساء ورجال وأطفال . رأيت طفلة تبكي حين انطلقت الرصاصات وسقط مالكولم إكس وانهمر دمه غزيراً فوق الأرض وراء المنصة ، واندفعت نحوه زوجته وأطفاله ، ثم تجمع من حوله الناس الذي كان يخطب فيهم عن الحرية والعدل .

• ليس حزينا !

في اليوم التالي فوق شاشة التليفزيون رأيت امرأة سوداء تخاطب بيل كلينتون في اجتماع عام . كانت تناديه باسمه عارياً من الألقاب وتقول له : بيل ، ماذا ستفعل يا بيل من أجل أمثالي من الفقراء العاطلين بلا عمل ؟ إنك تحاول عدم التفرقة بين الشباب لدخول الجيش ، بصرف النظر عن ميولهم الجنسية ، فماذا ستفعل يا بيل لتلغى التفرقة بين الناس على أساس طبقاتهم الاجتماعية ؟

يضحك بيل كلينتون . يحاول بالضحك إخفاء الحرج . ربما لأنه يبدو مرحباً بالسؤال، ويسهب في الإجابة : « أنا مشغول طول الوقت بالخططة الاقتصادية لأعالج هذه المشاكل الاقتصادية الحادة التي نتجت عن سياسة الحزب الجمهوري السابق ، وعلى رأسها البطالة ، ومشكلات الصحة والتعليم والمخدرات والإيدز » .

يفضب أحد أعضاء الحزب الجمهوري ويقول : ليس حزينا هو سبب هذه المشاكل، ونحن في انتظار ماذا ستفعله يا بيل كلينتون، فالمهم هو العمل وليس الكلام . انتعشت « لورا » بهذا الحوار . إنها شابة بيضاء تنتمي إلى حزب الجمهوريين .

تعدى حزب الديمقراطيين وعلى رأسهم بيل كلينتون وتقول : تكلف حفل تتويج بيل كلينتون ليجلس على عرشه فى البيت الأبيض ٢٥ مليون دولار ، كان من الممكن إنفاقها لتوفير المساكن أو الوظائف أو الطعام للفقراء داخل الولايات المتحدة نفسها ولا أقول الصومال أو إثيوبيا أو غيرها من بلاد أفريقيا أو آسيا أو حتى يوغوسلافيا فى أوروبا ، أو البرازيل فى قارتنا الأمريكية فى الجنوب . نحن نعيش تحت ضغط اقتصادى كبير ، وأصبح الناس فى أمريكا يعملون ساعات أكثر نظير أجور أقل فأقل .

- قلت لها : وهل كانت سياسة جورج بوش أفضل ؟

قالت : بالطبع .

- قلت : وماذا عن حرب الخليج ؟

قالت : كسبنا الحرب ولم نخسر شيئاً .

- قلت : قتلتم نصف مليون عربى فى الخليج من أجل السيطرة على البترول .

أتسمين هذا مكسباً ؟

قالت : نعم ، مكسب لنا فى أمريكا ، وخسارة لكم فى بلادكم العربية ، لكن هذه

هى الحرب .

إن « لورا » واحدة من أستاذات علم الجيولوجيا ، هى ضد حركات تحرير المرأة ، وترى أن المرأة (حسب الإنجيل ومبادئ المسيحية) يجب أن تكون زوجة مطيعة لزوجها متفرغة لشئون البيت والأطفال .

- قلت لها : ولماذا تعملين أستاذة جيولوجيا ؟

قالت : لأننى غير متزوجة وليس عندى أطفال .

تذكرنى « لورا » بزميلة لى مصرية تعمل أستاذة فى الطب الباطنى بجامعة القاهرة . تذكرنى بعدد غير قليل من النساء المتعلمات فى الجامعات ، واللائى لم يلعب التعليم دوراً كى يفتح عقولهن على الثقافة أو الوعى بحقوقهن الإنسانية .

وفى فصل المرأة والإبداع قالت فينيسا الشابة التى تجاوزت العشرين بقليل :
الطاعة نقيض الإبداع لأنها تقتل القدرة العقلية على النقد . إذا تربت النساء على
الطاعة فقدن الإبداع ، ولهذا يقل عدد النساء المبدعات أو العبقريات عن عدد الرجال
العباقرة .

وصاح طالب جالس فى مؤخرة الفصل : لو كنت امرأة لفضلت أن أكون زوجة وأما
عن أكون عبقرية . العبقرية تسلب من المرأة أنوثتها وتحولها إلى رجل !
وردة فينيسا : ولماذا تتكلم عن المرأة ؟ تكلم عن نفسك ودعنا نحن النساء نتكلم
عن أنفسنا .



لماذا لا يكون فى بلادنا وزيرة للعدل؟(*)

اليوم ١١ مارس ١٩٩٣ ، وغداً تبدأ إجازة الربيع فى جامعة ديوك . شهر « مارس » له فى « ديرهام » شمس عبقرية ، هذه الشمس التى تصل أشعتها إلى الرأس والجسم ، فتحدث الإنارة ، أو النور ، أو الضوء أو المعرفة . « مارس » بداية الربيع ، وتفتح الزهور للشمس والحب والخصوبة فى التاريخ القديم . قبل الإله « مارس » كانت الإلهة الأنثى « عشتار » تجلس على عرش الشمس والخصوبة . ومن قبلها كانت الإلهة « نون » ترمز إلى الأرض والسماء والكون كله قبل انقسام الكون إلى أرض وسماء ، أو جسد وروح ، فى مصر القديمة كانت الإلهة الأنثى « نوت » هى إلهة السماء ، وزوجها « جيب » كان إله الأرض . كانت المرأة ترمز إلى الروح أو العقل ، والرجل يرمز إلى الجسد . ثم انقلب الوضع ، تغير النظام فى مصر القديمة بعد الحرب بين الأسياد (الفراعنة) والعبيد (الشعب المصرى من النساء والرجال) ، وانتصر الأسياد بقوة السلاح واعتلى « فرعون » الإله الذكر العرش ، وأصبح الإله « رع » يرمز إلى الشمس ، وهبطت المرأة لترمز إلى الجسد ، ومن ثم أصبح الجسد يرمز إلى الخطيئة والغرائز الدنيا ، والشيطان .

هذه معلومات قديمة عرفتھا منذ كنت فى المدرسة الابتدائية . لكن الأستاذة الدكتورة « مارى ميز » تصيح فيما يشبه الفرحة أو النشوة : أوه ماى جوض ! وتدون فى مذكراتها اسم نون ، ونوت ، وأضيف إليهما « إيزيس » إلهة المعرفة ، و « معات » إلهة العدل ورئيسة القضاة فى مصر القديمة .

منذ أعلن « بيل كلينتون » عن تعيين امرأة وزيرة للعدل (جانيت رينو) ، وأنا أشهد

(*) نشر بمجلة روزاليوسف ٢٢/٤/١٩٩٣ .

تغيراً ملحوظاً ، فى النساء والفتيات هنا فى جامعة ديوك . ارتفاع الرأس أو القامة أو ربما هو العنق أصبح أكثر طولاً . زميلتى الأستاذة الدكتورة « ميريام كوك » لها ابتسامة تذكرنى بدفاء الابتسامات فى الوطن . ملامحها أيضاً تشبه ملامح النساء فى لبنان . لماذا لبنان ؟ لأنها تتكلم اللغة العربية بلكنة لبنانية ، حين قابلتها لأول مرة فى جامعة ديوك سألتها : لماذا تعلمت العربية وأنت امرأة أمريكية ؟ إنها قصة طويلة تبدأ فى الطفولة ربما أو الشباب ، أشبه ما تكون بعلاقة الحب . « أنا حبيت العربية ، وعشت فى لبنان » يا سلام أنا حبيت بحر بيروت ، أنا عشقت البحر والسماء ، والناس فى بيروت !

الدكتورة « ميريام كوك » تجاوزت الأربعين بعامين أو ثلاثة . لكنها تبدو كالفتاة العذراء . تجذب الطفلة داخلى ، لازلت أحتفظ بطفولتى (رغم كل شئ) وأضحك من كل قلبى ، وأقول لها : لا بد أنك وقعت فى الحب وأنت فى لبنان ! وتضحك ميريام حتى يصعد الدم إلى وجهها وتقول : ربما لكن أكثر من أحببت من الكتاب العرب هو يحيى حقى . أجل ، كنت أعرف ذلك ، وقرأت كتابها عن أدب يحيى حقى ، تذكرت يحيى حقى ، كان يجمع (شأن الأدباء الفنانين) بين القوة والرقعة ، أو بين الذكورة والأنوثة (أو ما درجنا على أن نعتبره ذكورة أو أنوثة) . تذكرت أن يحيى حقى قد كتب مقدمة لأول مجموعة قصص نشرت لى عام ١٩٥٧ . تذكرت أيضاً أنه أول من كتب عنى فى الصحف المصرية ، أذكر أنه كتب مقالاً طويلاً فى إحدى الصحف (لا أذكر الأخبار أو الجمهورية) عن روايتى الأولى «مذكرات طيبة» عام ١٩٥٩ أو ١٩٦٠ لا أذكر تماماً . وقالت ميريام كوك : إنا اعتبر يحيى حقى من أعظم الأدباء الذين قرأت لهم ، ليس بين العرب فقط ، ولكن بين أدباء العالم .

إن الدكتورة ميريام كوك أستاذة متخصصة فى الأدب العربى ، وهى تدرس الأدب العربى فى جامعة ديوك ، وتقدم لقراء اللغة الإنجليزية الأدباء والأديبات من عالمان العربى ، ومن مختلف الأجيال ابتداءً من يحيى حقى إلى حنان الشيخ وفادية فقير

وغيرهم . تذكرت « فادية فقير » شابة أردنية فرضوا عليها العزلة والحجاب في عمان، لكنها استطاعت أن تثور وتكتب ، قابلتها عدة مرات في الأردن ، وفي أكسفورد ، إنها تدرس الأدب العربي في أكسفورد ، وصدرت لها رواية بعنوان « نيسانيت » ، تقول عنها ميريام كوك : إنها من أجمل الروايات التي قرأتها بالعربية ، رواية تصف حياة شاب فلسطيني اسمه « شهيد » يتعرض للتعذيب داخل أحد السجون الإسرائيلية .

قرأت رواية « فادية فقير » وبكيت وأنا أقرأها . رغم عدم براعتها إلا أنها تمس الأحاسيس وهذا هو الفن .

الفن ليس البراعة وليس العبقرية في الأداء ، ولكن الفن هو اللا براعة إلى حد الوصول إلى شغاف القلب . تذكرت بعض كلمات يحيى حقي حين التقيت به لأول مرة عام ١٩٥٦ ، قصة قصيرة نشرت لي لأول مرة في مجلة روز اليوسف ، كان قد دعاني يحيى حقي إلى فنجان قهوة ، وقال لي : قرأت قصتك وتأثرت بها كثيراً لأنها مكتوبة بذلك السهل الممتنع دون براعة !

لم أكن في مصر حين مات يحيى حقي . ولم أحزن حين مات . لأنه في رأيي لم يمت . فالموت لا يعرف طريقة إلى الفنان الحقيقي ، لكن حزنت لأنى لم أكن في الوطن لأمشي مع الشعب المصري في جنازته ، وأنا لا أمشي في الجنازات إلا نادراً ، حين أدرك أن المحمول فوق الأعناق لم يمت . هكذا مشيت في جنازة أبي ، وأمي ، وجدتي أم أبي « مبروكة » ، التي رأيته وأنا طفلة تشوح بيديها المشققتين في وجه عمدة « كفر طحلة » وتقول له غاضبة : إحنا مش عبيد ! ، والتي سمعتها تغنى ضد الملك والإنجليز وتقول : « يا عزيز يا عزيز كبة تاخذ الإنجليز » .

وضحكت « ميريام كوك » حين تذكرت جدتي الفلاحية الفقيرة ، وقالت لي : « جدتك لا تزال تعيش داخلك » قلت لها : « مهما ابتعدت فالأهل والوطن داخل القلب » . ودب صمت طويل أشبه بالحزن . لماذا يرتبط الوطن دائماً بالحزن ؟!

فوق الشاشة الأمريكية رأيت صورة المقهى فى ميدان التحرير فى القاهرة ، ورأيت حطام القنبلة التى انفجرت ، والدم الذى فوق الأرض ، وتساءلت : « من يفجر القنابل فى الوطن ؟ » . تذكرت وأنا تلميذة بالمدرسة الثانوية (عام ١٩٤٩) حين انفجرت قنبلة فى سينما مترو . ولم يعرف أحد من وضع القنبلة . بعض الصحف قالت : « الإنجليز » وبعض آخر قال « السراى » أو « الحكومة » أو « المباحث » . وبعض قال « الإخوان المسلمون » .. إلخ .

واليوم أيضاً لم يعرف أحد من وضع القنبلة ، بعض الصحف قالت : إسرائيل ، وبعض آخر قال : الحكومة أو المباحث ، وغيرها قال « الأصوليون الإسلاميين » .. إلخ .

فى اليوم نفسه رأيت على الشاشة الأمريكية مشهد حطام القنبلة التى انفجرت فى نيويورك ، فى المبنى الضخم المسمى () وحتى الآن رغم انقضاء الأيام والأسابيع لم يكتشف بعد من وضع القنبلة ، لكن أصابع الاتهام تتجه إلى بعض الأشخاص ، أسماءهم ترن فى أذنى بصوت المذيع الأمريكى ، أسماء عربية أو باكستانية ، أو أسماء مسلمة بوجه عام .

وتقول إحدى زميلاتى الأستاذة فى جامعة ديوك : « هذه هجمة جديدة ضد العرب والمسلمين . بعد سقوط الشيوعية (البعيع القديم) أصبح « الإسلام » أو العرب هو « البعيع الجديد » . اسمها كاترين وهى متزوجة من فلسطينى ، وهى ترى أن التيارات الأصولية الدينية مثل « حماس » فى إسرائيل ، لم تنشأ إلا بتشجيع من الحكومة الإسرائيلية لضرب منظمة التحرير الفلسطينية ، ومع ذلك هى تشترك فى الحملة من أجل إعادة هؤلاء المبعدين الفلسطينيين وتقول : نعم ، كلهم أعضاء فى حماس ، لكنى ضد طردهم بهذا الشكل !

وتتبرى لها امرأة أمريكية ترتدى الحجاب ، (متزوجة من رجل سودانى) ، وتقول لها : لماذا لا ترتدين الحجاب وأنت متزوجة من رجل مسلم ، ألسنت مسلمة ؟ تبتسم كاترين فى هدوء وتقول لها : أنا فهمت الإسلام على أنه كفاح ضد الظلم وضد الاحتلال الأجنبى ، وليس قطعة قماش أغطى بها شعرى !

كنت أستمع إلى حوار بين امرأتين أمريكيتين وكأنتى أستمع إلى حوار بين امرأتين عربيتين . واحدة تفهم الدين وجوهره ، وأخرى لا تهتم إلا بالقشور . كلتاهما حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة نورث كارولينا ، لكن « التعليم الأكاديمي » لا يقود إلى المعرفة أو « الإنارة » هكذا تقول كاترين .

أعجبتني كلمة « الإنارة » إحدى طالباتي في فصل « المرأة والإبداع » اسمها « إنارة » () . أهو اسم أمريكي أم عربي ؟ أهى كلمة مشتقة من النور ؟ لكن إنارا أكدت لى أنها أمريكية مائة فى المائة واسم « إنارا » أمريكى مائة فى المائة .

لكن ليس هناك شىء اسمه مائة فى المائة خاصة فى اللغات . وفى كل لغة هناك كلمات مأخوذة من لغة أخرى ، فى الهند ، حين سمعت لأول مرة اللغة الإردية أدركت أذناى الكلمات والحروف العربية ، ثم عرفت أن ١٢٪ من الحروف فى اللغة الإردية عربية ، وفى إيران أيضاً تعرفت أذناى على الحروف العربية ، وفى اليونان ، وفى أسبانيا وفى تركيا ، بل فى اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية هناك حروف وكلمات مأخوذة عن العربية ، وعن اللغة العبرية أيضاً . تعتبر اللغة العبرية من أقدم اللغات ، لأنها لغة التوراة ، وتعتبر اللغة العربية أيضاً من أقدم اللغات ، لأنها لغة القرآن ، أما اللغة الهيروغليفية (لغة المصريين القدماء) ، فهى أقدم اللغات جميعاً ، لكن أستاذة اللغويات فى جامعة ديوك تقول : إن اللغة السومرية فى العراق وسوريا وفلسطين سبقت اللغة الهيروغليفية فى التاريخ، والتي اكتشفت هذه اللغة امرأة اسمها « نيدابا » .

أجل ، كنت أعرف « نيدابا » من قبل ، وكتبت عنها فى أحد كتبى . كنت أفخر دائماً بأن امرأة فى التاريخ البشرى هى التى اكتشفت اللغة ، وهى امرأة مصرية أو عراقية أو سورية أو فلسطينية ، سيان ، فهى امرأة عربية ، تلك التى يصورونها اليوم على أنها امرأة بلا وجه . مجرد كتلة سوداء تتحرك فوق قدمين اثنتين وليس أربعة أرجل .

أرى وزيرة العدل الأمريكية « چانيت رينو » لا تختلف فى شخصيتها القوية وعقلها اليقظ عن أى امرأة مصرية . لماذا لا يكون فى بلادنا وزيرة للعدل ؟ لا يوجد فى بلادنا قاضية واحدة !

لقد اختار « بيل كلينتون » خمس وزيرات فى الوزارة الجديدة ، وزوجته هيلارى ترأس لجنة الصحة . إنه يتحدث عن أهمية دور المرأة الأمريكية فى بناء المجتمع الجديد . إنه (على خلاف ريجان وبوش) ، لا يشجع التيارات المسيحية الأصولية ، إنه يساند حقوق المرأة ، وعلى رأسها حق الإجهاض . إنه يحاول علاج الأزمة الاقتصادية ، وخلق نصف مليون فرصة عمل جديدة للعاطلين . إنه يحاول أن يأخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء ١٩ فهل هو مخلص فيما يقول ربما لا ، سيكشف المستقبل عن الحقيقة .



خمسمائة رسالة إلى النخبة الثقافية (*)

أصبحت الكتابة فى الصحف بالنسبة لى مثل شربة زيت الخروج ، لكنى مدفوعة لكتابة هذا المقال بسبب ما هو أشد مرارة ، وهى أزمة النخبة الثقافية فى بلادنا . وفى رأى أن هذه النخبة (أو ما تسمى النخبة) هى أحد الأسباب الرئيسية وراء أزمة الفكر أو الصحافة أو الإعلام أو الثقافة ، أو الاقتصاد أو السياسة أو الديمقراطية ، لأن هذه المجالات كلها مترابطة ، ولا يمكن الفصل بينها . ومنذ نشوء الدولة المصرية القديمة ، مروراً بالعهد الملكى إلى عهد عبد الناصر والسادات ومبارك ، تلعب هذه النخبة المثقفة دوراً مزدوجاً بحكم كونها الطبقة العازلة بين الحكم والشعب . ولا يمكن أن ننكر أن هناك أفراداً من هذه النخبة المثقفة لا يلعبون هذا الدور المزدوج ، لكن هؤلاء يعيشون فى معظم الأحوال بعيداً عن منابر الإعلام والصحافة ، وبالتالي لا ينطبق عليهم تعبير « النخبة » إن كلمة « النخبة » هنا تعنى هؤلاء المعترف بهم من قبل السلطة القائمة كرموز للفكر والثقافة فى بلادنا ، تتردد أسماؤهم .

هؤلاء فى رأى هم السبب الرئيسى وراء الأزمة الثقافية والصحفية التى نعيشها وليس السبب ارتفاع نسبة الأمية ، أو الناس البسطاء العاديون . إن هذه النخبة هى السبب وراء ظهور قوانين معادية للفكر وحرية الصحافة مثل قانون ١٤٨ لعام ١٩٨٠ الذى ينظم الصحافة فى مصر ، أو غيرها من القوانين المقيدة للحريات ، هذه النخبة شاركت فى صنع هذه القوانين بسكوتها ، وصمتها ، أو هروبها من التصدى أو النقد الصحيح وليس بعد موت الحاكم أو فوات الأوان ، هذه النخبة هم الكهنة القدامى فى عهد الفراعنة الذين كانوا يمثلون الطبقة العازلة أو الوسيطة بين الشعب والإله . هؤلاء

(*) نشر بجريدة الأهالى فى ١٤ مارس ١٩٩٠ .

أنصاف الآلهة الذين رأيتهم بعيني خلال الثلاثين عاماً الماضية . هم هم لا تتغير الوجوه إلا قليلاً حين يفتح الباب قليلاً لبعض الوجوه المحتجبة . رأيتهم جالسين في هذه الاجتماعات فما أن ينطق حاكم مصر بكلمة ما حتى تتحول إلى نظرية عظيمة ، وفلسفة جديدة ، اسمها الناصرية أو الساداتية أو المباركية .

ينكفئون فوق وجوههم حتى يحظى الواحد منهم على المصافحة أو مجرد ملامسة أطراف الأصابع ، رأيتهم يتبارون في الكلام وإلقاء قصائد المدح ، أو قصائد النقد ، لكن أى نقد ؟ إنه النقد الذى يدغدغ الأذن دون أن يؤلم ، أو النقد الذى يصيب أحداً من الوزراء الذين لا حول لهم ولا قوة .

إن الملك يشعر بالحرج حين يرى أمامه ملكيين أكثر منه . كذلك يشعر بالحرج أى رئيس حين يرى أن كل ما يقوله وإن كان خاطئاً عابراً يتحول هكذا بقدرة قادر إلى نظرية فلسفية ، وأى قرار عادل يصدره ، وإن كان نقل موظف يصبح معجزة من المعجزات تستحق الإشادة والإطنا ب والنفخ فى الأبواق والمزامير ، ويحدث الشيء نفسه فيما يتعلق بحرم رئيس الدولة ، أو أى شخص آخر له علاقة وثيقة بالرئاسة أو يعمل بالقرب من رئيس الدولة ، هذه النخبة من أنصاف الآلهة لا يعتبرون هذا السلوك نفاقاً ولهم تبريراتهم الفلسفية العميقة لموضوع النفاق هذا . يقولون لابد من حماية الحكم القائم ، أو رئيس الدولة الحالى . لأن البديل غير موجود أو أسوأ . فى كل عهد يكررون هذه الفلسفة ، وهم يدركون تماماً أن النفاق لا يحمى الحاكم أبداً . بل العكس هو الصحيح .

وهناك أربعة أضرار رئيسية لهذه النخبة الثقافية .

أولاً : أنهم يضربون مثلاً سيئاً للأجيال الجديدة القادمة . سواء من الحكام أو المحكومين . يصبح النفاق كالدم يتوارثه الصغار عن الكبار .

ثانياً : إنهم يروجون القيم الازدواجية فى السلوك ، التى تتمثل فى الخضوع أو الطاعة أو امتهان النفس مع الأقوى ، والغطرسة أو التسلط أو الإهمال مع الأقل قوة . وهكذا تضيع حقوق الناس .

ثالثًا : إنهم باحتلالهم معظم المنابر الفكرية والصحفية والثقافية والإعلامية فى بلادنا يحجبون الآخرين ذوى العقول الأعمق والأكثر فكرًا وإبداعًا ، حيث إن مثل هؤلاء يفضلون حياة العزلة مع العمل الهادئ .

رابعًا : هذه النخبة من أنصاف الألهة لا يحتملون النقد ، وإذا نقدهم أحد أخرجوا أظافرهم وأنيابهم ومالأوا الصحف والإعلام صراخًا ودفاعًا عن أنفسهم ، وفى ظل هذه الضوضاء يختلط الحابل بالنابل ، ولا يبقى إلا صوتهم العالى يطن فى آذان الناس .

ماذا يفعل الآخرون بعقولهم التى تفكر وتبدع ، ومع ذلك عاجزون عن السير فى موكب النفاق ؟ ليس أمامهم إلا إصدار منابرهم الخاصة ، وهنا يقف لهم قانون الصحافة يسد الطريق . قانون أصدره السادات منذ عشرة أعوام مع قوانين أخرى تقيد الحريات . فى ظل قانون الصحافة منعت مجالات وحرمت من الترخيص ، ومنها مجلتنا « نون » وأرسلنا خمسمائة رسالة إلى هذه النخبة المثقفة فى مصر ليتكلموا وكان ردهم كالعادة هو الصمت والسكوت . بعضهم قال لنا أذهبوا إلى قبرص وخذوا الترخيص من هناك ثم تعالوا واطبعوها فى مصر ، كما تفعل بعض المجالات . تعتبر مكتبها فى القاهرة ممثلًا لشركة أجنبية .

وقال آخرون : إذهبوا إلى أحد الأحزاب وادفعوا مبلغًا من المال أو أعطوهم نسبة من إيرادات الإعلانات على أن تنشروا أخبار الحزب فى مجلتكم . وبالطبع لم نقبل كل هذه الحلول . لأنها ليست حلولاً وإنما نوعاً من التحايل والالتواء والمشاركة فى الإبقاء على قانون الصحافة الذى كان يمكن أن يتغير بالمواجهة بدلاً من التحايل والدخول من نافذة وليس الباب الصحيح .

فى هذا الخضم من النفاق هناك أقلام نادرة شجاعة وقفت وكتبت وهاجمت قانون الصحافة من جذوره ، لكن كل ذلك يتم على نطاق ضيق ، وفى مجالات محدودة ، ذلك أن المجالات الواسعة والطرق المفتوحة على الجماهير العريضة كلهم محتكرة بواسطة هذه النخبة .



التمرد وثقافة الصابون(*)

١ - القيم الإيجابية منذ الطفولة :

فى طفولتى وأنا فى السادسة من عمرى رأيت أبى يمزق ورقة كتبها أحد جيراننا يتعهد برد مبلغ من المال (أظنه كان عشرة جنيهات) أخذه من أبى على سبيل السلفة . وسمعت أبى يقول لهذا الجار الفقير العجوز : عيب يا عمى ، كلمتك عندى أكبر من أى كمبيالة وأنت جارنا ، وقد أوصانا النبى بسابع جار . ورد الجار قائلاً لأبى : ولكنى رجل فقير عجوز وقد لا أستطيع أن أرد لك المبلغ أول الشهر ولهذا كتبت لك الكمبيالة لأفرض على نفسى السداد فى الوقت المحدد . وقال له أبى هو يريت على كتفه : لا تقلق يا عمى ، إنى واثق من أنك سوف ترد المبلغ حين تستطيع ، وإن لم تستطيع فما بين الخيرين حساب ، وأنت عندى أهم من أى مال !

وفى طفولتى كنت أسمع أمى تقول لى : اسمعى يا ابنتى . الغنى غنى النفس ، فكونى غنية بنفسك وليس بجيبك . وكانت جدتى الفلاحه الفقيرة شامخة عزيزة النفس رغم قلة المال .

انحفرت هذه القيم فى أعماق الوعى واللاوعى منذ طفولتى وأصبحت أوؤمن أن قيمة الإنسان تعلو على قيمة المال ، وأن العلاقات الإنسانية تعلو على العقود والأوراق والكمبيالات .

ولم يكن فى طفولتى « تليفزيون » ينقل إلى ثقافة الصابون الشائعة اليوم التى تقلب هذه القيم رأساً على عقب وتضع الدولار أو الدينار فوق الإنسان ، وقطعة من الورق المختومة فوق الصداقة والحب .

حين دخل التليفزيون إلى مصر عام ١٩٦٠ كنت قد أصبحت شابة ناضجة محصنة ضد ثقافة الصابون الواردة إلينا من الخارج . وعلى مدى ثلاثين عاماً ورغم الإعلانات

(*) القاهرة فى ٢١ سبتمبر ١٩٩٠ .

المتكررة في التليفزيون عن البضائع المستوردة من الغرب ، وغسول الشعر الأمريكى ، لم أستخدم إلا الصابون المصرى الذى أحببته منذ طفولتى ، والذى أشم فى رائحته نكهة أمى حين كانت تضحك ، وصوت أبى حين كان ينادينى ، ورائحة النيل حين كنا نتمشى على شاطئه فى قريتى كفر طلحة . وأنا لست ممن يقدسون ما يسمى بالثقافة التقليدية ولست ممن يتغاضون عن السلبيات فى القيم التى توارثناها من الماضى . بل إننى استطعت أن أنقد تراثنا دون خوف ، وأن أسقط منه فى حياتى ما هو متخلف أو عنصرى أو غير إنسانى ، أو تلك القيم التى جاءتنا منذ نشوء العبودية والغزو الاستعماري وسيطرة الملكية والطبقة المالكة على الأغلبية الساحقة من الشعب، وسيطرة الذكور على النساء .

لكن فى تراثنا أيضاً إيجابيات توارثناها منذ عصور ما قبل العبودية وما قبل الاستعمار ، حين كانت المرأة فى بلادنا إنسانة كاملة الأهلية ، وحين ارتفعت قيمة الإنسان على قيمة المال والأشياء ، وكانت علاقات الصداقة والحب والتعاون تلو على علاقات الحروب والقتل والجشع والطمع من أجل الاستعمار وتراكم رؤوس الأموال .

لكن ثقافة الصابون خلال النصف الأخير من هذا القرن وعبر هذا الجهاز الإعلامى الثقافى الخطير استطاعت أن تشوه الثقافات والقيم الإيجابية ، وتبرز على السطح الموروثات السلبية ، وتضيف إليها القيم الجديدة غير الإنسانية القائمة على عبادة المال والسلاح وتشجيع الاستهلاك لدى الطبقات الأدنى المسحوقة ..

٢ - استهلاك العقل :

جهاز خطير فى العالم أصبح يهدد عقل الإنسان وقدراته الإبداعية الخلاقة ، جهاز يستهلك عقول البشر ويصيبها بالشلل والتوقف عن النمو ، جهاز يطلق عليه اسم « التليفزيون » ، جذاب شديد الجاذبية للأغلبية الساحقة من النساء والرجال والشباب والأطفال ، خاصة هؤلاء الذين لا يقرأون لأنهم لا يعرفون القراءة ، أو لا يقدرّون على شراء الكتب أو لا يجدون الوقت أو الجهد للقراءة . مجهدون طوال النهار فى العمل المضنى من أجل لقمة العيش وتوفير ضرورات الحياة ، وليس أمامهم وسيلة للترفيه أو التسلية آخر النهار أو الليل إلا هذا الجهاز الذى ينقل إليهم وهم راقدون فى غرف

النوم مسلسلات وأفلام وحلقات تمثيلية من وراء البحار والمحيطات من الولايات المتحدة الأمريكية أو تلك البلاد البعيدة ، التي تسمى بالعالم الجديد ، والتي سيطرت على العالم بالدولار وتكنولوجيا السلاح والإعلام .

استطعت من خلال رحلاتي المتعددة إلى بلاد كثيرة في الغرب والشرق أو الشمال والجنوب إن أدرك خطورة جهاز التلفزيون وغيره من أجهزة الإعلام على عقول الناس . سيطرة الثقافة الأمريكية السطحية السريعة من خلال الشاشة الصغيرة والأجهزة الإلكترونية الأخرى على الثقافات المحلية في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية وأستراليا .

ويزداد هذا الأثر في بلادنا العربية ، وخاصة البلاد التي ترتبط سياسياً واقتصادياً بالولايات المتحدة الأمريكية .

وقد أصبح معروفاً أن السيطرة السياسية من أجل الاستغلال الاقتصادي لا تكون بغير سيطرة على العقول من خلال الإعلام . لقد حل الإعلام محل السلاح .

لكن أزمة الخليج العربي التي بدأت أوائل أغسطس ١٩٩٠ وتبعها نقل القوات الأمريكية المسلحة إلى الخليج العربي والقوات المتعددة الجنسيات فرنسية وبريطانية وغيرها أثبتت أن الاستعمار الغربي الاقتصادي لثروات العالم الثالث (ومنها البترول العربي) لا يزال يحتاج إلى السلاح العسكري ولا يكفيه سلاح الإعلام . وإن كان سلاح الإعلام يخدم على الدوام مصالح الغرب مدعماً النظام الاقتصادي العالمي بنظام إعلامي عالمي قائم على الاستغلال والتجهيل لأغلب سكان الكرة الأرضية الذين لا يملكون إلا القليل من تكنولوجيا الإعلام أو السلاح العسكري .

يلعب الإعلام والثقافة العالمية السطحية المسماه Soap Culture دوراً حاسماً في تجهيل الشعوب بحقوقها أو غسيل مخها بالصابون ، ليصبح مخاً أملس يستهلك ما يعطى له غير قادر على إنتاج الفكر . يردد ما يقدم له مثل الببغاء يستسلم بلا مقاومة لهذه المعلومات والثقافة التي تسقى له بالملعقة ، ثقافة مرة كاللقم ، معادية للإنسان في جوهرها ، لكنها تزين نفسها بالقشور البراقة ، والألوان الزاهية ، وبعض المشهيات الجنسية التي تحول فيها جسد المرأة إلى أداة للإعلان والإغراء الجنسي .

٣ - الجنس :

يلعب « الجنس » الرخيص غير الإنساني القائم على التجارة والربح دوراً كبيراً في ثقافة الصابون . يدرك خبراء هذه الثقافة في الغرب أن الملايين من الشباب في ذلك العالم المسمى بالعالم الثالث أو فقراء العالم محرومين من ضرورات الحياة المادية والمعنوية ومنها « الجنس » والحرية أو الديمقراطية . يقدمون لهم هذا « الجنس » على شكل أحلام مستحيلة أو مخدرات تجعل العقل يعيش في الوهم وليس الحقيقة ، أو حرية فردية زائفة تشجع فيهم الأثرة والأنانية على العلاقات الإنسانية أو التعاون فيما بينهم أو الحب الصحيح القائم على التبادل المتساوي أخذاً وعطاءً .

٤ - الجريمة والعنف :

وتلعب « الجريمة » دوراً كبيراً في ثقافة الصابون ، يدرك خبراء هذه الثقافة في الغرب أن « العنف » أو « الاغتصاب » أو « القتل » الذي يراه الشباب فوق الشاشة بنفس الغضب الكامن في أعماقهم بسبب الظلم الواقع عليهم ، ويعطيهم إحساساً مزيفاً بالمشاركة في هذا العنف عن طريق الانفعال .

يصبح الانفعال بديلاً عن الفعل ، ويعيش الشباب حالة من اللافعل والسلبية رغم إحساسهم الموهوم بالفعل .

٥ - الإعلانات والاستهلاك :

من أهم مقومات ثقافة الصابون تلك الإعلانات المتكررة الجذابة عن البضائع الكمالية المستوردة من الغرب التي تؤجج خيال رجال ونساء محرومين من ضرورات الحياة . وتدفعهم إلى شراء ما لا يحتاجون إليه . وتخلق عندهم حاجات وهمية لأشياء غير ضرورية . مثلاً في قریتی كفر طحلة على شاطئ النيل في الدلتا رأيت امرأة فلاحه تحمل فوق رأسها غسالة كهربائية أمريكية وتسير بها نحو الترعة لتغسل ملابسها ، ورأيت شابة ترتدي رموشاً صناعية وتصبغ شفتيها « بروج » أحمر ، في الوقت الذي ترتدي فيه حجاباً يخفي شعرها عن أعين الرجال منعاً للفتنة ! لقد شاهدت هذه المرأة في التلفزيون إعلاناً أمريكياً عن رموش صناعية وروج أحمر

للشفيين ، وشاهدت أيضاً أحد المشايخ الإسلاميين ينصح النساء المسلمات بارتداء الحجاب . واستطاعت أن تطيع الاثنين دون أن تشعر بالتناقض .

رأيتها تمشى بخطوة تقلد بها إحدى بطلات مسلسل دالاس وتحلم بالزواج من رجل ثرى يملك بئر بترول فى الخليج العربى .

إن ثقافة الصابون السائدة تخلق هذا النمط التفكيرى السطحي القائم على الرغبة فى الاقتناء والامتلاك والخضوع لسطوة المال ، وعدم الوعى بالتناقضات الصارخة ، والفصل بين الظواهر وأسبابها .

يصبح العقل مثل العين العمياء لا يرى التناقض الواضح وضوح الشمس . وهذه هى عملية التجهيل العالمية التى تبثها وسائل الإعلام وثقافة الصابون الدولية . ثقافة مزدوجة تناقضية تخدم النظام الطبقي الأبوى المزدوج المتناقض ، يعرى جسد المرأة باسم القيم التجارية وترويج البضائع ، ويغطفى رأسها باسم القيم الأخلاقية والدينية .

يلهب خيال الشباب بمشاهد الجنس والجريمة والاغتصاب فيصرفه عن التفكير فى مشاكل البطالة والفقر ، ويشجعه على الحياة الوهمية فى ضباب المخدرات . يشتت ذهنه بثقافة استهلاكية رخيصة ، يعطيه إحساساً وهمياً بأن الحياة تخلو من المشاكل . يضيع وقته بالساعات مبجلقاً فى الشاشة المضئية .

تلعب ثقافة الصابون دوراً فى طمس الإيجابيات ، والحكم الموروثة من التراث الشعبى ، وتفرض على الناس قيماً مصطنعة مشوهة لبيئتهم وحضارتهم الأصلية .

كان الرقص فى قرى كفر طحلة على إيقاع الطبللة والرق وغناء النساء بتلك الألحان الشعبية نوعاً من الجمال والفن العريق الممتد فى التاريخ المصرى القديم . لكن ثقافة الصابون الأمريكية عبر التليفزيون شوهت هذا الفن الفلكلورى الشعبى الجميل ومسخته ، فلم نعد نرى رقصاً وغناء شعبياً حقيقياً وإنما مزيجاً مختلطاً غير أصيل وغير أخاذ ، رقصاً ركيكاً وغناء أشد ركاقة ، مثل فلاح مصرى ينسى لغته العربية الأصلية ويتكلم بلغة إنجليزية ركيكة .

كانت العروس فى القرى فى بلادنا ترتدى جلباباً من القطن المصرى الناعم المزين بالألوان البديعة الزاهية وتركب جواداً . فإذا بها اليوم تركب عربة نقل وترتدى ثوباً من النايلون المستورد الذى يجعلها تتصبب عرقاً ، وترتدى حذاء له كعب عال رفيع يدخل فى حفرات الشوارع والحوارى ويجعل خطواتها بطيئة متعرجة .

امتلات القرى المصرية بضجيج الميكروفونات المركبة فوق الجوامع وأجهزة التلفزيون التى تذيع الأغانى التافهة والألحان السطحية والأفلام والمسلسلات الأمريكية من نوع دالاس وفالكون كريست ونشرات الأخبار التى تنقلها وكالات الأنباء العالمية وتشوه الحقائق الدينية السياسية وتبترها بما يدعم مصالح الغرب الاقتصادية ، وتفصل بين الفقر وأسبابه الكامنة فى سوء توزيع الثروة محلياً وعالمياً .

كنت أجا إلى قريتي الهادئة لأكتب وأفكر بعيداً عن ثقافة الصابون التى تنتشر فى العاصمة . فإذا بالقرية أيضاً تصبح ضحية هذه الثقافة الصاخبة الضحلة بعد دخول أجهزة التلفزيون والفيديو إلى القرى .

٦ - طمس الإيجابيات :

تتجسد خطورة ثقافة الصابون فى أنها تحاول طمس الإيجابيات العريقة فى الثقافات المحلية الأصلية ، فى الوقت التى تشجع فيه التقاليد البالية التى تؤخر الشعوب ، إنها تقضى على الأصالة المناسبة لكل شعب ، فى الوقت الذى تحافظ فيه على التقاليد المزدوجة ، والقيم المتناقضة النابعة من العبودية القديمة ، وخضوع المرأة للرجل وارتفاع قيمة المال على قيمة الإنسان ، وتبرير الاعتداء والحرب ، وإخفاء الظلم الكامن فى النظام المحلى والعالمى .

إنها ثقافة مزدوجة وسطحية فى آن واحد . تسمى نفسها ثقافة مع أنها محاولة للتجهيل وإبطال عمل العقل .

تزداد خطورة هذه الثقافة فى بلادنا العربية حيث ترتفع نسبة الأمية بين النساء وحيث لا توجد ديموقراطية تساعد الناس على التفكير ، وحيث يكون رأى العام ضعيفاً غير مؤثر ، وحيث تكون المنظمات الشعبية والأحزاب السياسية والمعارضة هزيلة بلا قدرة على الحركة والامتداد وسط الجماهير ، حيث يسود حكم الفرد الواحد ،

والسلطة المستبدة ، وتحول القوانين غير الديمقراطية دون إنشاء الأحزاب أو المنظمات أو إصدار الصحف والمجلات الحرة المستقلة غير التابعة للسلطة القائمة .

تصبح ثقافة الصابون عبر أجهزة الإعلام المركزية هي الوسيلة الوحيدة للثقافة في البلاد ، يتحول أغلب الناس إلى مستهلكين لهذه الثقافة لا يشاركون في إنتاجها .. يجلسون أمام جهاز التليفزيون وهم بلا حول ولا قوة . يشعرون أنهم مجرد أجهزة استقبال ، ولا حيلة لهم إزاء هذه الإخطبوط العالمي الذي يدخل إلى غرف نومهم ويستولى على عقولهم ، دون أن يكون لديهم أي وسيلة للمقاومة أو المشاركة .

خلقت ثقافة الصابون جماهير من النساء والرجال سلبية عاجزة عن تذوق الفن الرفيع والأدب العميق ، ولهذا انعزل المفكرون والأدباء والأديبات ممن ينشدون العمق والجودة ، وساد الكتاب والكاتبات الذين ينشدون السرعة والسطحية والكسب السريع .

في بلادنا العربية لعب النفط أو البترول دوراً في تشجيع ثقافة الصابون والمسلسلات الأمريكية . ساد الفكر النفطي الاستهلاكي الكسول الأكل على الفكر الإنتاجي النشط الأصيل . سادت مسلسلات الخيانة الزوجية ، الاغتصاب ، حفلات ملكات الجمال ، جرائم سياسية وجنسية ، صفقات ومؤامرات ومقالب وقصص غارقة في خيال مريض سقيم . سيطر برميل البترول المحكوم بالقوة العسكرية للاستعمار العالمي الجديد على الفكر والكلمة المكتوبة والصورة المرئية في السينما والتليفزيون ، وتزاوجت الثقافة البدوية الصحراوية النفطية المتخلفة مع الثقافة الأمريكية السطحية من رعاية البقر ، ونتج عن هذا التزاوج في بلادنا العربية هذه الثقافة السائدة التي يتغذى بها الجماهير ليل نهار . فإذا بهم عاجزون عن التمرد أو الثورة في وجه أعدائهم الذين يسلبون منهم لقمة العيش ويفرضون عليهم الفقر والبطالة والمرض والجهل ، إذا بهم كالمخدرين ، شبه غائبين عن الوعي ، عقلهم شبه مشلول ، لا يعرفون العدو من الصديق ، ولا الخير من الشر .. يتصورون أن أمريكا التي تقتلهم بسلاتها هي الصديقة والأم الحنون ، وراعية حقوق الإنسان ، تتجسد ثقافة الصابون وإعلامها فيما يذاع علينا منذ نشوب أزمة الخليج .

تلعب ثقافة الصابون في بلادنا دوراً في أن تقلب الحقائق رأساً على عقب . فلا تعرف الشعوب ماذا تفعل إزاء ما يواجهها من أزمات حادة . تستسلم بلا مقاومة ، تحمق بالساعات في الشاشة المضيئة بأفواه مفتوحة وعيون ناعسة وعقول متوقفة عن العمل ثم ينامون برؤوس مهدودة تعاني الصداق والإحباط واليأس .

ويصبح العدو داخل الإنسان ذاته . داخل عقل الإنسان ذاته . يصبح الإنسان عدو نفسه فلا يعرف حقوقه ولا يعرف كيف يتمرد وضد من ؟

يتصور أن التمرد ضد الفقر والمرض إنما هو تمرد ضد الله .

وهكذا يصبح « الله » في هذه الثقافة الصابونية هو النظام السياسي العالمي وما ينتجه من إعلام وثقافة .

ولهذا ليس غريباً أن تنتشر التيارات السياسية الدينية المتطرفة . سواء كانت إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو بوذية أو هندوكية .. إلخ .

وبمثل ما تلعب ثقافة الصابون بورقة السياسة تلعب أيضاً بورقة الدين ، ولا تعدم أى وسيلة لغسل مخ البشر من أى فكر منطقي يبحث عن الأسباب الحقيقية لأى أزمة دون أن يلقي بالمسؤولية على الله أو الشيطان .

في هذه الأيام الأخيرة ومنذ احتشاد القوات العسكرية الأمريكية (والمتعددة الجنسية) على أرض السعودية تقوم ثقافة الصابون والإعلام التابع لها بإيهام الشعوب العربية أن هذه القوات الأجنبية جاءت من أجل حمايتها ومن أجل تأكيد الديمقراطية وحقوق الإنسان . وهكذا تعيش الشعوب العربية الوهم بأن أعداءها هم حمايتها وحين يصبح العدو هو الحامي يتأكد معنى الاستعمار ، ألم تحتل بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ تحت اسم الحماية البريطانية ؟



التناسب العكسي (*)

إن الوصول إلى قمة الشهرة في الصحافة أو الأدب أو الفكر أو الفن لا يعنى دائماً الكفاءة النادرة والعبقرية الخارقة للعادة . خاصة في بلادنا العربية حيث تهيمن السلطة على معظم منابر الصحافة والأدب والفكر والفن . ويتمتع الشعب المصرى رغم مشاكله المتعددة بذاكرة لا بأس بها ، وهو يعرف الرجال والنساء الذين حملوا القلم في أشد الأزمات وعبروا عن رأيهم وفكرهم غير هيايين وغير خائفين من تشريد أو فصل أو سجن ، ويعرف أيضاً الذين تراجعوا أو صمتوا وآثروا السلامة داخل الوطن أو خارجه .

بالطبع لسنا في زمن البطولات الفردية ، ولابد من أحزاب سياسية قوية لها قواعد شعبية قادرة على حماية أصحاب الرأى والقلم ، لكن هناك فرقاً بين مَنْ يواجه العاصفة وبين الذى ينتظر حتى يهدأ الجو . هناك فرق بين من يواجه الخطر وبين الذى ينتظر الأمان .

هناك فرق بين من لا يكتب إلا إذا أعطته السلطة الضوء الأخضر وبين من يكتب تحت أى ضوء من أجل أن يعبر عن رأيه وبصرف النظر عن النتائج .

ولأن زمن البطولات الفردية لم يعد موجوداً ، ولأن الأحزاب السياسية عندنا ضعيفة وبغير قواعد شعبية قوية قادرة على حماية أصحاب الرأى . لذلك يشفق الشعب المصرى على الذين يحملون القلم ويرحلون إلى الداخل أو الخارج في عز الأزمات ، يشفق على الذين يتراجعون سواء بالصمت أو بالكلام ، ويقول : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

(*) القاهرة في ١٩٩٠ .

الإشفاق مطلوب ومرغوب ، ولا يمكن لأى إنسان أن يخلو من نواحي الضعف . لكن ما هو غير مطلوب وغير مرغوب هو ذلك التباهى والزهو المبالغ فيه إلى حد الغرور وتعظيم النفس . إن الشخص العظيم لا يقول عن نفسه إنه عظيم . لكن الناس هي التي تقول عنه . وعلى الذى يتحدث عن نفسه كثيراً أن يحذر شيئاً هاماً هو أن هناك تناسباً عكسياً بين الثقة بالنفس وكثرة الحديث عنها .

هذا تعليق عام على ما أقرأه هذه الأيام من مساجلات ومعارك على صفحات الصحف والمجلات . وقد قرأت أخيراً لأحد كبار الكتاب كتب عما سماهم « جيله » من الكتاب والأدباء والفنانين ، وذكر ثلاثة عشر اسماً من الرجال . ومن النساء ذكر امرأتين فقط وكلاهما من أهل الغناء . وقال عن نفسه وعن جيله هؤلاء إنهم : « أثروا حياة مصر ثقافياً وسياسياً وفنياً وصنعوا إحدى مراحل الإشعاع الباهر فى العالم العربى .. وشكلوا عقل مصر وفؤادها ووجدانها لأجيال طويلة آتية .. » .

أردت أن أتوقف قليلاً عند هذه الكلمات لأنها تعبر عن إحدى مشاكل الفكر والثقافة فى بلادنا ، وتكشف عن الطريقة التى يفكر بها معظم رجالنا الذين حققوا شيئاً من النجاح والشهرة . ولست بصدد تقييم الأعمال الفكرية أو السياسية أو الفنية التى قدمها كل أو بعض هؤلاء الأسماء من ذلك الجيل . فلكل منهم ما قدمه من أعمال ولكل منهم إيجابياته ومواقفه الوطنية المعروفة أو غير المعروفة ، وهناك أيضاً السلبيات والمواقف الضعيفة المتراجعة ..

إلا أننى لم أكن أتصور أن يكتب كاتب عن نفسه وأصدقائه بهذا الأسلوب المتعالى . بحيث يعتبر أن الإشعاع الباهر فى العالم العربى من صنع أفراد قلائل هو أحدهم .

من المعروف أن الإنسان كلما عظم قدره زادت ثقته فى نفسه وقل غروره . بالإضافة إلى أن الإشعاع الباهر فى العالم العربى إن كان هناك إشعاع باهر يرجع إلى عدد من العوامل وجهود أجيال وأجيال وليس جيلاً واحداً أو مجموعة قليلة فى جيل واحد .

وهناك أيضاً من يتساءل عن ذلك الإشعاع الباهر في العالم العربي . أين هو ؟ وهل هو إشعاع ثقافي فقط ؟ وهل هناك إشعاع ثقافي بدون إشعاع ديموقراطي ؟ وإذا كان الجميع يتكلمون عن التدهور الثقافي فهل معنى ذلك أن هذا الجيل العظيم المشع قد توقف عن الإشعاع ؟ ولماذا ؟ وإذا كان قد توقف عن الإشعاع فلماذا التباهي بالماضي والهروب من الحاضر ؟ .

ولماذا يفتقر هذا الجيل العظيم المشع إلى النساء المشعات إلا امرأتان من عالم الغناء . كأنما المرأة المصرية لم يكن لها نصيب في الإشعاع إلا عن طريق الغناء . فالرجل يكتب ويؤلف ويشع فكرياً لكن المرأة تغنى وترقص . وهذا يكشف لنا عن نوع التفكير الذي يسود ويعبر عن الأزمة الثقافية والفكرية التي يعاني منها بعض أصحاب القلم في مصر . إنهم لا يتابعون إنتاج المرأة أو الثقافة ولكنهم يتابعون الأغاني والرقصات . إنهم لم يتعودوا بعد على تذوق أو تفهم إنتاج المرأة الفكرى ، وقد درجوا على ألا يعرفوا من المرأة إلا الغلاف الخارجى ، الصوت المسموع في الغناء أو الحركات المرئية في الرقص أو التمثيل .

لاشك أن الغناء والرقص والتمثيل فنون عظيمة مثل الأدب والصحافة والسياسة ، لكننى ألاحظ أن بعض رجال الفكر والثقافة في بلادنا لازالوا واقفين في نظرتهم للمرأة عند مرحلة التذوق الحسى ، أى تذوق ما يُسمع بالأذن من صوتها وما يُرى بالعين من حركات جسمها .



على موسيقى الشعر.. ترقص الخيول(*)

بدأ الأدباء والفنانون والصحفيون فى بلادنا يناقشون موضوعات لم تكن محل نقاش مثل : هل الموسيقى حرام ؟ ومنذ خمسين عاماً حين كنت طفلة فى الخامسة كان أبى (وهو أستاذ دين وفقه ولغة) يقرأ لى أبيات الشعر ويهز رأسه على أنغام موسيقى الشعر . والناس جميعاً وعلى رأسهم الشعراء يعرفون أن الكلمات حين ترتب بشكل متسق منسجم العبارات الصحيحة لها موسيقى تطرب لها أذان الناس . وآذان الخيول أيضاً تطربها الموسيقى ، فتهاز رؤوسها وتحرك أرجلها بحركات راقصة متسقة مع النغم . وقرأ لى أبى وأنا طفلة من كتاب الأغاني للأصفهاني ، وقال لى إن أجود الخيول كانت تعرف عند العرب والمسلمين بقدرتها على تذوق الموسيقى والرقص على الأنغام بحركة متقنة ليس فيها حركة نشاز .

وإذا كان أسلافنا القدامى قد حكموا على الجواد الجيد بقدرته على تذوق الموسيقى والرقص على أنغامها فهل نحكم اليوم على الإنسان الذى يتذوق الموسيقى بأنه إنسان فاسد أو خليع .

لقد اتضح لأسلافنا أن الجواد الذى يتذوق الموسيقى أكثر تهذيباً من الجياد الأخرى ، بمعنى أنه قادر على التحكم فى حركة جسمه العشوائية الفوضوية لتصبح حركة محكمة بإيقاع الموسيقى وهى حركة عقلية تماماً ، فإن خلايا المخ هى التى تتحكم فى حركة الجسم حين تصلها الموسيقى عن طريق الأذن ، ويتحول النغم فى خلايا المخ إلى إحساس بالسعادة، وترسل هذه الخلايا الشفرة عبر الأعصاب وتبدأ عضلات الجسم فى التعبير عن السعادة بتلك الحركات المنسجمة مع إيقاع الموسيقى.

منذ ولدنا من بطون أمهاتنا ونحن نطرب لسماع الموسيقى . بل إن الجنين فى بطن أمه يطرب للصوت المنغوم . فالأصوات تمشى مع دم الأم إلى جسم الجنين وأذنيه

(*) نشر بجريدة الأهرام فى ١٩/٥/١٩٨٨ - ص ١٢ .

الناشئتين ويولد الطفل من بطن أمه عاشقاً للموسيقى ، حاملاً في خلاياه الإحساس بالطرب كشفرات إلكترونية داخل الجينات والكروموسومات . وكشفت الأبحاث الأخيرة عن الغموض الذى كان سائداً حول عبقرية بعض الأطفال . إن جزءاً من القدرة الإبداعية أو العبقرية تورث مع الجينات فى خلايا الجسم ، والجزء الآخر يكتسب عن طريق التعليم والتدريب والشجاعة والحرية فى الكشف عن الإبداع الجديد .

وقد نجح أسلافنا فى تدريب الخيول على تذوق الموسيقى والرقص على أنغامها . وفى التجارب الحديثة استطاعت بعض أنواع القروود العزف على البيانو ، والتميز بين النغمة الموسيقية والنغمة النشاز . ويمكن للإنسان المدرب على سماع الموسيقى أن يفرق بين اللحن الموسيقى وبين اللحن النشاز بصرف النظر عن الآلة التى يعزف عليها اللحن . طبله كانت أو مزماراً أو بيانو أو جيتاراً أو كمنجة . فاللحن الموسيقى الجميل لا يفرق بين آلة شرقية أو آلة غربية ، والأذن الإنسانية الفنانة تلو فوق الآلة وفوق تضاريس الجبال والحدود الجغرافية التى تقسم البشر إلى شرق وغرب أو شمال وجنوب أو يسار أو يمين . فهل نتهم فناناً بالعمل لحساب الغرب إذا تذوق لحناً يعزفه البيانو أو الجيتار ؟ أو نتهمه بالعمل لحساب المعسكر الشرقى لأنه تذوق لحناً تعزفه آلة شرقية من هناك ؟

إننا نعرف الله فى جمال الطبيعة . لم ير أحد منا الله بعينه ، ولا سمعه بأذنه . ولكننا عرفنا الله بعيوننا حين رأينا جمال الزرع الأخضر تحت أشعة الشمس . وعرفنا الله بأذاننا حين سمعنا موسيقى المياه فى النهر وغناء العصافير فى الصبح ..



حول جائزة نوبل (*)

لا يمكن لأحد أن يتجاهل القيمة الأدبية لبعض الأدباء الذين فازوا بجائزة نوبل أمثال نجيب محفوظ وبابلو نيرودا وجابريل جارسا ماركيز إلا أن مثل هذه الاختيارات الصائبة أحياناً لا تجعلنا ننسى أن هذه الجائزة تبتعد عن الصواب في معظم الأحيان ، فهي مؤسسة يتحكم فيها مجموعة قليلة من الرجال لا يزيد عددهم عن مجموع أصابع اليد ، وكلهم من بلد أوروبى صغير هو السويد ، ولهم بالطبع ميولهم الخاصة التى تؤثر على اختياراتهم ، ولهذا السبب لم ينل هذه الجائزة أعظم كتاب العالم أمثال ليون تولستوى وإميل زولا وأنطوان تشيكوف وجيمس جويس وبيرتولت بريخت ومارسيل بروسست وتوماس هاردى وجراهام جرين وغيرهم من قدموا أكثر الأعمال الأدبية قيمة إنسانية . لكن جائزة نوبل تجاهلتهم لأسباب سياسية مختلفة .

إن هذه القلة من الرجال التى تسيطر على جائزة نوبل داخل الأكاديمية السويدية لهم فلسفتهم ومزاجهم السياسى فى الحكم على الأدب . إنهم رجال ، ولذلك لا يقدرّون إبداع النساء ، إلا نادراً ، ولأسباب أغلبها سياسى ومنذ إنشاء جائزة نوبل (١٩٠١) لم يفز بها من الأدبيات إلا كاتبات العالم الأول : هن من السويد والنرويج وإيطاليا وأمريكا وألمانيا ، وفى عام ١٩٤٥ حصلت عليها الكاتبة التشيلية جابرييلا ميسترال ، وفى عام ١٩٦٦ حصلت عليها كاتبة تعيش فى السويد اسمها نيللى ساكسن ، وشاركها الجائزة كاتب آخر اسمه أجنون المقيم بالقدس ، وجاء فى حيثيات منحهما الجائزة هذه العبارة : « إنهما يمثلان رسالة إسرائيل فى عصرنا هذا » .

أول أديب عالمى رُشح لهذه الجائزة عام ١٩٠١ هو إميل زولا . لكن « ألفريد نوبل » لم يكن يحب إميل زولا . أو لم يفهمه . كان الأدب عند ألفريد نوبل (مخترع الديناميت) نوعاً من التحليق فى الخيال والأحلام الرومانتيكية بعيداً عن الواقع المادى الذى يعيشه

(*) القاهرة فى ١٩٨٨ .

الفقراء . كان ألفريد نوبل يعيش في مجتمع طبقى أبوى (رأسمالى) ورث الفلسفة المثالية المفرقة في الخيال والغيبيات ، تلك الفلسفة الموروثة عن فلاسفة اليونان القدامى الذين تصوروا العبودية والفقر نظاماً سماوياً . ولهذا السبب لم يشعر ألفريد نوبل بالآلام أبطال إميل زولا المادية ، ولم يدرك إنسانية هذا الأديب الفرنسى العظيم . ومنحت الجائزة إلى شاعر عالم محلق في سماء بلا أرض اسمه سولى برودوم . لقد اندثر اسم سولى برودوم ولم يعد أحد يذكره اليوم رغم أنه حصل على جائزة نوبل ، لكن إميل زولا وأعماله لا تزال تعيش حتى يومنا هذا .

إن الأدب العظيم في غير حاجة إلى جائزة نوبل ، بل إن جائزة نوبل هي التي في حاجة إلى أدب عظيم (من حين إلى حين) كي تبقى وتحافظ على كيائها .

وفي عام ١٩٠٢ . كان تولستوى مرشحاً للجائزة لكن لم يحصل عليها مثل إميل زولا ، وحصل عليها في ذلك العام مؤرخ يسمى « مومسن » على كتابه « تاريخ روما » . هل يذكر أحد منا اسم مومسن ؟

وفي ذلك العام خاض رئيس لجنة جائزة نوبل حرباً ضارية ضد تولستوى ووصف أبطاله بأنهم منحطون ينتمون إلى الدرجات الدنيا في الحياة الاجتماعية .

وقد اشتهرت جائزة نوبل وأصبح لها قيمة كبيرة وخاصة في البلاد الرأسمالية الصناعية ، فهي تؤكد فلسفة هذه البلاد ، ومن خلفها تقف أموالها وسياستها تدعمها وتكسيبها قوة عالمية .

وأغلب الذين حصلوا على الجائزة ينتمون إلى هذه البلاد (فيما يسمى اليوم بالعالم الأول) أما عالمنا الثالث فلا يحظى بها إلا القليل النادر ممن لا تتعارض أفكاره وفلسفته مع أفكارهم وفلسفتهم . وهذا أمر طبعى ، فهل يمكن أن تمنح أكاديمية سويدية جائزة أدبية لمن يعارضها ويختلف معها اختلافاً جذرياً ؟

وهكذا فإن حصول نجيب محفوظ هذا العام (١٩٨٨) على جائزة نوبل ليس مكسباً له ولبلادنا بقدر ما هو مكسب للجائزة وللأكاديمية السويدية ومحاولة لإضفاء نوع من العدل أو الموضوعية على حكمها .

ولهذا شعرت بالنفور من تلك المبالغة في الاحتفالات بفوز نجيب محفوظ بالجائزة، واعتبارها نصراً باهراً للأدب العربي وعبوراً لهذا الأدب من المحلية إلى العالمية .

إن الأدب العربي في غير حاجة إلى جائزة سويدية ليصبح عالمياً . إننا نبالغ في تمجيد الجائزة السويدية بقدر ما نبالغ في تحقير أنفسنا . لم أسمع عن أديب سويدي يسعى إلى الفوز بجائزة عربية ليصبح عالمياً ! فلماذا نسعى إلى مثل هذه الجائزة لنصبح عالميين ؟

إن الأدب المحلى الصادق الجيد المعبر عن آلام الناس في الواقع هو أدب عالمي بالضرورة ، لأن إنسانية الأدب هي عالميته .

في جريدة الأهرام يوم ٢٤ فبراير (١٩٩٩) في الصفحة الأولى نُشرت هذه الفقرة تحت عنوان « شبهات حول جائزة نوبل » تقول الآتى :

« كشفت مجلة ماريان الفرنسية للمرة الأولى عن أسرار من ملفات مؤسسة نوبل.. الفريد نوبل الذى تحمل الجائزة إسمه اقترح على الحكومة الفرنسية إنشاء المؤسسة لمساعدة المرضى (الميئوس من شفائهم) على الموت دون ألم ، ولكن الحكومة رفضت الاقتراح مما دفع نوبل إلى تخصيص جزء من ثروته لإنشاء الجائزة ... اختيارات اللجنة للفائزين شابهها بعض الغموض ، فلم تمنح لعالم مثل « فرويد » أو الأديب « مارسيل بروست » ... من أخطاء اللجنة منحها الجائزة للعالم ألبرت اينشتاين لملاحظاته عن الطاقة المحركة للكهرباء وليس على نظرية النسبية ... وسرت شائعات بأن اللجنة لم تفهم فكر اينشتاين ... والغريب أيضاً أن بعض العلماء حصلوا على الجائزة دون أن يكون لهم جهد في مجال الجائزة ، مثل الجائزة التى منحت عام ١٩٢٣ لكل من فريدريك بانتينج وچون ماكليود لاكتشاف الأنسولين ، وظهر بعدها أن چون ماكليود لم يشارك في التجارب الأخيرة على الأنسولين . (جريدة الأهرام ٩٩/٢/٢٤ ص ١) .

الكاتب الكبير والكاتب الحر(*)

كتب الأستاذ بدر الديب فى الأهرام (١٩٨٧/٩/٢٥) ما معناه أن ليس هناك « مفكر حر » فى تاريخنا الحديث ، وأن ما قدمه المفكرون من أول رفاعة حتى الحكيم ولويس عوض سلسلة من التراجعات عن الدعوات الفكرية الحرة . وأرجع السبب فى هذا إلى أن المؤسسات تُبنى دائماً من السلطة ، ولم نعرف المؤسسات التى يملكها رأى العام القادرة على حماية الفكر الحر .

وكنت أتوقع من بدر الديب أن يتطرق إلى مكن الداء الحقيقى . فلماذا يتراجع كبار الكتاب فى بلادنا أمام السلطة ؟ ولماذا لم تنشأ هذه المؤسسات الشعبية البعيدة عن السلطة ؟ وهل يمكن أن نعتبر النقابات المهنية ومجالس التمثيل الشعبى والجامعات والإدارة الحكومية والتعليم ضمن هذه المؤسسات كما كتب بدر الديب ؟ هل يملك هذه المؤسسات رأى العام ، أم أن السلطة هى التى تبنيها ؟ لقد عشت تجربة العمل النقابى داخل نقابة الأطباء واشتغلت فى وزارة الصحة ، ولم أجد أى فارق يذكر بين الاثنين فى علاقتهما بالسلطة . وأعتقد أن هذا القول ينطبق على معظم النقابات والجامعات ومجالس التمثيل الشعبى وغيرها .

أما الجمعيات غير الحكومية الأهلية فهى تابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية . ويمكن لمن يشاء أن يخوض بنفسه تجربة إنشاء جمعية ثقافية أو اجتماعية ليدرك العلاقة الوثيقة بين السلطة والجمعيات الأهلية . والأحزاب السياسية فى بلادنا هل هى مستقلة عن السلطة ؟

أما السؤال الثانى فهو خاص بتراجع كبار الكتاب أمام السلطة . أنا أتساءل : هل يمكن لكاتب فى بلادنا أن يحصل على لقب « كاتب كبير » دون أن تكون له علاقة بالسلطة أو إحدى مؤسساتها الصحفية ؟

(*) سبتمبر ١٩٨٧ .

يقول بدر الديب أن الازدواجية كانت دائماً الطابع العام لكبار المفكرين والكتاب في بلادنا ، فهم يعبرون عن جزء فقط مما يعتقدون ، وإذا حدث وعبروا بصراحة كاملة فإنهم يتراجعون بسرعة . والسؤال المهم : لماذا يحدث ذلك ؟

والإجابة بسيطة . فإذا كان الكاتب في بلادنا لا يصبح « كاتباً كبيراً » إلا إذا باركته السلطة أو جلس على مقعد في إحدى مؤسساتها فكيف يمكن له أن يصطدم بالسلطة دون أن يفقد مقعده أو المساحة التي ينشر فيها . ويدرك الكاتب أنه لا يستطيع أن يكون « كاتباً كبيراً » و « كاتباً حراً » في الوقت ذاته .

ويفضل معظم الكتاب في بلادنا أن يكونوا « كباراً » على أن يكونوا « أحراراً » ذلك أن حرية الفكر في بلادنا ثمنها باهظ ، ابتداء من السجن والفصل والتشريد والنفي . إلى الإهمال والتجاهل والصمت ، والمشكلة أن معظم الكتاب الكبار في بلادنا لا يحتملون الصمت . لا يحتمل الواحد منهم أن يقرأ الصحف والمجلات فلا يجد شيئاً عنه . كاتب كأن السكوت عنه نوع من القتل . هكذا كتب يوسف إدريس عن توفيق الحكيم . وكتب عنه أيضاً أنه كان يتقن لعبة الإفلات من الموقف الصعب الحرج ، فلا هو مع التقدم ولا ضده ، ولا هو مع الديمقراطية ولا ضدها ، ولا هو مع الثورة ولا ضدها . ورد فتحى العشرى على يوسف إدريس في الأهرام (١٩٨٧/٩/٢٠) قائلاً : إن الحكيم ليس وحده في هذا ، وأن يوسف إدريس شبيه بالحكيم .

ورغم اتفاقى مع بدر الديب في كثير مما جاء في مقاله إلا أنني أختلف معه في إنكاره التام لأى دعوة للتفكير الحر في تاريخ الدين أو اللغة أو مؤسسات مجتمعنا الأساسية . وقد أشار في هذا الصدد إلى محاولة لويس عوض في فقه اللغة واعتبرها محاولة مكبوتة قاصرة .

ولا أدري لماذا لم يبحث بدر الديب عن المفكرين الأحرار خارج « كبار الكتاب » الذين حكم عليهم من قبل بالتراجع السريع أمام السلطة ؟ لقد قرأت في السنين الأخيرة عدداً من الكتب بأقلام رجال ونساء من ذوى الفكر الحر . لكن هذه الكتب لم تسلط عليها الأضواء (فالأضواء تملكها السلطة) ولم يحصل أصحاب هذه الكتب

على لقب « كاتب كبير » . لكن هذه الكتب موجودة . ويقرأها الناس ويتحدثون عنها في البيوت .. والمشكلة أن أحداً لا يحاول دراسة مثل هذه الأفكار الحرة ، لأن أصحابها من المغمورين الذين لا تتحدث عنهم الصحف ، أو لأن أصحابها من المفضوب عليهم الذين لا علاقة لهم بالسلطة .

إن أعظم الكتاب والمفكرين في العالم ماتوا وهم مغمورون مسكوت عنهم طوال الوقت . ومع ذلك عاشوا ولم يقتلهم السكوت عنهم . أما في بلادنا فإن « كبار الكتاب » يموتون إذا سكنت عنهم الصحف والمجلات بضعة أيام متتالية . وربما لهذا السبب يقل إنتاج الواحد منهم بإزدياد الحديث عنه ، ولم يستطع أى كاتب من هؤلاء الكبار أن ينشئ مؤسسة فكرية جديدة غير تابعة للسلطة ، أو يكون جمعية ثقافية أو اجتماعية تشجع الأفكار الجديدة أو المواهب الشابة .

إن الشباب في بلادنا يفتقد القدوة والنموذج لدى كبار الكتاب . فإذا أصبحوا هم القدوة والنموذج جاءت الأجيال الجديدة كالقديمة وتكرر هذا النمط الذى يتقن لعبة الإفلات من الموقف الصعب الحرج . فلا هو مع التقدم ولا ضده ، ولا هو مع الحق ولا ضده . وبالتالي يفلت من كل الأزمات ولا تصيبه الضربات ، ويظل طافياً فوق السطح مستمتعاً بمكانه العالى ولقب « الكاتب الكبير » .



تعليق على مقال الدكتور يوسف إدريس

الكاتب المبدع والفصل بين السلطة والمسؤولية^(*)

فى مقاله « ليس الفتور ولكنه الغضب » (الأهرام ١٢ يناير ١٩٨٧) كتب الدكتور يوسف إدريس عن دور الكاتب فى بلادنا . قال إن الكاتب يضع إصبعه على مكان الألم فى جسم المجتمع . وإذا صرخ الناس فى وجهه فهذا دليل على أنه كشف عن نوع ومكان المرض . مثل الطبيب الذى يعمل « المجسات » محاولاً تشخيص الداء . لكن دور الكاتب فى رأى أكبر بكثير من دور الطبيب المعمل أو طبيب الفحوص والاختبارات . بل هو أكبر من دور الطبيب الذى يعالج . فالطب العلاجى لا يهتم إلا بالأعراض .

أما أسباب الأمراض فنحن لم ندرسها فى كلية الطب . لأن التعليم قائم على فصل الأسباب عن النتائج . إن كلمة لماذا ؟ من الكلمات المحرمة فى طفولتنا وشبابنا وكهولتنا . كلمة لماذا تعنى البحث العميق عن الأسباب الحقيقية لأى مشكلة . وهذا يعنى العودة إلى التاريخ ودراسة الماضى . وهذا أمر يقتضى الكثير من الجهد والتعب والصبر . ويقتضى أيضاً تجاوز حرمة الماضى .

إن دراسة التاريخ عندنا شبه محرمة ويطلق عليها نبش الماضى . كما أن التاريخ فى جامعاتنا مفصول عن العلوم الأخرى . الذين يدرسون الأسباب لا يدرسون النتائج والعكس صحيح . ثم إن التاريخ الرسمى هو الذى يدرس فحسب . وفى هذا التاريخ الرسمى تختفى الأسباب الحقيقية للأزمات والأمراض والهزائم . بل إن الهزيمة تتحول إلى نصر وقرارات الملوك والرؤساء الخاطئة تتحول إلى قرارات صائبة شبه إلهية .

كتب الدكتور يوسف إدريس عن ظاهرة الوساطة والمحسوبية والكوسة وغياب العدل . لم يكتب لنا لماذا يغيب العدل ؟ كتب عن عجز الدخول التقليدي عن مواجهة الأعباء وغلاء الأسعار . عن غياب استراتيجية متكاملة أو خطة شاملة للعمل السياسى

(*) هذا المقال أرسل إلى جريدة الأهرام فى ١٤ يناير ١٩٨٧ لكنه لم يُنشر .

والتعليمى والدفاعى والصحى والتطبيق الاشتراكى والديمقراطية . ولم يكتب لنا لماذا يغيب كل هذا ؟ قال إن الأطباء الاجتماعيين التقليديين ينشغلون بمشاكل فرعية مثل مشكلة الانفجار السكاني التى لا تشغل بال إلا ١٪ من السكان فى مصر .. إلخ .

وينسى الدكتور يوسف إدريس أن الأطباء الاجتماعيين التقليديين يركزون دائماً على المشاكل التى يركز عليها رئيس الدولة فى مصر . إذا تحدث رئيس الدولة فى خطبته عن المشكلة السكانية اختفت كل المشاكل ولم نقرأ أو نسمع إلا عن المشكلة السكانية . إذا تحدث الرئيس عن الصحوة الكبرى تبارت الأقلام فى الحديث عن الصحوة الكبرى .. إلخ .

مَنْ ذلك الكاتب الذى يقول لرئيس الدولة فى بلادنا أنت أخطأت . يقولها فى حياته وليس بعد موته ؟ إن رئيس الشركة قد يحاسب والوزير قد يحاسب ورئيس الوزراء أيضاً قد يحاسب على خطئه ويعزل من منصبه . لكن رئيس الدولة عندنا لا يحاسب ولا يعزل إلا بالموت . مع أن الواجب هو أن المسئول الأول يحاسب أولاً . ورئيس الدولة عندنا هو المسئول الأول لأنه يمسك فى يده على السلطة . فهو ليس كالمملك يملك ولا يحكم . إنه يحكم كل شئ . ويصدر جميع القرارات ابتداءً من قرار الحرب إلى قرار نشر خبر فى جريدة . أو إيقاف كاتب أو كاتبة عن النشر . وفى يده إصدار القوانين ابتداءً من قانون الانتخاب إلى قانون الزواج والطلاق إلى قوانين الاعتقال والسجن . رغم هذه السلطة شبه المطلقة فهو لا يحاسب . وبالتالي فهو غير مسئول عن الهزيمة العسكرية مع أنها نتيجة قراره . وهو غير مسئول عن الديون أو التبعية للرأسمالية العالمية مع أنها النتيجة الطبيعية لقراره الاقتصادى ، إنه غير مسئول عن الشر مع أن هذا الشر وقع بإرادته وقراره .

الرئيس عندنا مثل الإله مسئول عن الخير فقط . مَنْ المسئول إذن عن الشر ؟ عن الخلل فى ميزان المدفوعات ؟ عن الفساد والكوسة والاختلاس ؟ عن الردة وتعديل القوانين إلى الوراء ؟ عن اعتقال الناس بلا جريمة ؟

المسئول ليس هو صاحب السلطة والقرار . وإنما شخص آخر أصغر . كبش فداء . لا يملك السلطة ولا القرار . يقدم إلينا على أنه الشيطان . يطرد أو يلعن . ويظل الإله فوق عرشه بعيداً عن المساءلة . فوق الحساب . إلا أمام الله بعد الموت .

هذه هي الحقيقة التي لا يقول الدكتور يوسف إدريس إنها مطلوبة لحل مشاكلنا ابتداءً من الاحتلال حتى مشكلة الديمقراطية والعدل وحقوق المرأة والطفل والديون والتبعية .. إلخ .

هل يمكن الفصل بين مشاكلنا العامة والخاصة ؟ هل يمكن الفصل بين الدولة والأسرة ؟ هل يمكن أن يمارس الأب الدكتاتورية في بيته ثم يفتح الباب ويخرج فينقلب ديمقراطياً ؟

إن أسس العدل والديمقراطية تقوم على عدم الفصل بين السلطة والمسئولية . لكن السلطة عندنا منفصلة عن المسئولية في الدولة وفي الأسرة . الأب في العائلة يملك السلطة لكنه غير مسئول إذا طلق زوجته بلا سبب أو تزوج أربع نساء بلا سبب إلا للنزوة الشخصية . والرئيس في الدولة يملك السلطة لكنه غير مسئول إلا بعد موته .

لماذا لم يقدم مجلس الشعب على عزل أحد الرؤساء في الدولة المصرية ؟ ألم يتسبب واحد منهم في هزيمة أو ديون أو تبعية ؟ لماذا يكون نقد الرئيس صعباً ؟ والأسهل منه نقد الناس والفقراء الذين لا يملكون إلا الفتور أو اليأس أو الغضب اليائس بلا فعل .

ويقول الدكتور يوسف إدريس : إن المصري أصبح يحارب المصري وإن الأحقاد الشخصية تفصل بين الزميلين في حزب واحد . وهذه ظاهرة مرضية فعلاً . لكن لم يقل لنا لماذا يحدث ذلك ؟

ثم ما الفرق بين الغضب والحقد ؟ إذا كان صاحب الكفاءة الأدبية لا يستطيع النشر . والموظفون في الدولة يشغلون معظم الصفحات في الجرائد والمجلات . فهل إذا غضب صاحب الكفاءة من هؤلاء نقول إنه حاقد عليهم لأنهم يملكون الصحف وهو لا يملك ؟ إذا امتلكت امرأة عاطلة بلا عمل أربعة سيارات وافتقدت امرأة عاملة مقعداً في الأتوبيس فهل إذا غضبت المرأة الثانية نقول إنها حاقدة ؟

إن الظلم يؤدي إلى الغضب . والغضب المكتوم بغير فعل يؤدي إلى الإحباط

والشعور بالفشل . والإحباط إذا استمر طويلاً يؤدي إلى الحقد . وهذه كلها مشاعر إنسانية لها أسبابها . وقد يحقد كاتب فاشل بلا مواهب على كاتب ناجح موهوب . لكن إذا حقد الكاتب الموهوب على كاتب بلا موهبة يملك سلطة النشر أو عدم النشر . فهل يكون الحقد الأول مثل الحقد الثاني ؟

إن المقاييس عندنا عكسية مزدوجة ومتناقضة . كلما ازداد الإنسان صدقاً وعمقاً في التفكير وموهبة في الإبداع ازدادت المشاكل من حوله والمصاعب . النجاح في بلادنا لا يعتمد على العمل والجهد والخلق والصدق . وإنما يعتمد على الصلات بذوى السلطة وأصحاب الصحف .

التشر في الصحف سلطة . ويتبارى الناس للكتابة والنشر . لماذا يترك أساتذة الجامعات الطلبة والمحاضرات ويدورون على الصحف لنشر مقالاتهم ؟ لأن النشر في الصحف سلطة تقرب الكاتب من السلطة . سواء السلطة في الحكومة أو السلطة في الحزب الحاكم أو الحزب المعارض . ولهذا لم يعد الناس يقرأون ما يكتب في الصحف . فالكتابات مكررة مملة خالية من الأفكار الجديدة . خالية من الصدق والإبداع . كتابات هدفها السلطة وأصحاب النفوذ في الدولة أو الحزب .

ولهذا تختفى الكتابات الحقيقية المبدعة سواء في صحف الحكومة أو المعارضة . إن الكتاب المبدعون الحقيقيون لا ينشر لهم أحد . فلا أحد مستعد للتضحية بصلاته الطيبة بأصحاب السلطة فما بال إغضابهم ؟

إن دور الكاتب هو الإبداع وتقديم الفكر الجديد الذي يضيء الطريق للناس . دور الكاتب هو تفتيح عيون الناس على أسباب الظلم وغياب العدل . هذا الضوء هو السبيل الوحيد لتحويل الغضب أو الحقد أو اليأس إلى طاقة جديدة نحو العمل لإزالة أسباب الظلم . هنا يصبح للكلمة الصادقة دوى يهز القلوب والعقول فتسقط عنها الفشاوة والسحابة وترى المشاكل في ضوء جديد . وهذا لا يحدث في بلادنا . لماذا ؟ وندور في الحلقة المفرغة .



ماذا يقول هؤلاء الكتاب؟(*)

[فى الأسبوع الماضى قال الأديب مصطفى محمود إن الوقت قد حان لأن تعود المرأة إلى البيت .. وإن المرأة عندما خرجت للعمل دمرت بيتها ونفسها .. أثارت آراء د. مصطفى محمود ردود فعل كثيرة ومتباعدة خاصة بين المثقفات .. وينشر هذا الأسبوع المقال الذى ترد فيه د. نوال السعداى على آراء د. مصطفى محمود] ..

فى هذه الفترة العصيبة التى يحاول فيها العقل المصرى المتحضر مواجهة التيار السلفى الذى حاول العودة بنا إلى ما قبل ظهور البوصلة أو الساعة الشمسية وإلى عصر الحريم لتكون المرأة إما جارية أو غانية . يخرج علينا كاتب مثل د. مصطفى محمود ليعلن فى صفحة شبه كاملة بأخبار اليوم (٢٤ أغسطس ١٩٨٥) أن عمل المرأة إهانة وإن كانت وزيرة . وما الذى تعنيه الوزيرة ؟ .. كانت المرأة تحكم العالم من غرفة النوم ! لم يعد للرجل سلطات .. وأصبحت المرأة تحكمه بالإيراد .. وعليها أن تعود إلى البيت لينفق عليها الرجل ..

وهكذا يستمر مصطفى محمود فى حديثه الطويل يتحسر على العصر الذهبى القديم لملوك القرن السادس عشر حين كانت المرأة تحكم الملوك من غرف النوم .. والمشكلة عند مصطفى محمود ليس أن تحكم المرأة العالم ولكن من أين تحكمه ؟ ..

ويعترض مصطفى محمود على أن تحكم المرأة من مكتب فى وزارة أو من علم فى رأسها ، وإنما مجالها الوحيد هو الفراش .

ولا يستخف مصطفى محمود بعقل المرأة وحدها ولكنه يستخف بعقل الرجل ، ثم إنه يدعو المرأة والفتاة المصرية إلى الفساد . بدلاً من أن يقول لها إقنعى العالم بعقلك

(*) : أخبار اليوم ١٩٨٥/٨/٣١ .

وأفكارك يقول لها : تدربى فى الفراش وكونى غانية .. لا تخرجى من غرفة النوم إلى العمل ، فالعمل إهانة . وإذا خرجت فاعلمى أن عيون الرجال تحاصرك ولا بد من الاختباء وراء حجاب .

وليس غريباً أن تتخبط الفتاة بين التناقضات ، فنراها تلف شعرها بحجاب وتكشف خصرها تحت حزام ضيق مشدود وتترك دراسة الماجستير لتتفرغ لعرض أزياء المحجبات (جريدة الجمهورية ٨ أغسطس ١٩٨٥) .

• هل تعود زينب إلى البيت ؟

زينب هى ابنة عمتى فى كفر طحلة وهى تخرج من بيتها فجر كل يوم إلى الحقل لتزرع وتقلع ثم تعود عند غروب الشمس لتطبخ وتغسل وتعجن وتخبز . وحين ينادى مصطفى محمود بعودة المرأة إلى البيت فهل يوجه دعوته إلى زينب ومثيلاتها ؟

إن أغلب النساء المصريات فلاحات يخرجن من بيوتهن كل يوم للعمل بالزراعة والتجارة فى السوق ، ويعتمد دخل الدولة المصرية فى جزء كبير منه على الإنتاج الزراعى للفلاحات حيث أن نسبتهن فى قوة العمل الزراعية ٤٥ ٪ .

كما أن مسئولية الإنفاق على الأسرة والأطفال فى الريف المصرى اليوم تقع على عاتق النساء فى كثير من العائلات وفى المدن أيضاً . لم تعد هناك أسرة مصرية قادرة على مواجهة الغلاء دون مشاركة النساء . بل الأطفال أيضاً اللهم إلا فى محيط الأثرياء الذين يقبضون رواتب ومكافآت بالدولار أو الدينار أو البترو دولار .

• الحاجة إلى الطعام والخضوع الجنسى :

ويعترض د . مصطفى محمود على عمل المرأة خارج البيت لأن سلطة الرجل تسلب منه لأنه لا ينفق على المرأة ، والمرأة حين تعمل تكون لها « الغلبة » وعلى المرأة أن تعود إلى البيت لينفق عليها الرجل .

وهكذا فإن المشكلة عند مصطفى محمود تتلخص فى عبارة واحدة : من يحكم من؟ والعلاقة داخل الأسرة بين الزوجين ليست إلا علاقة حاكم بمحكوم ، وغالب

ومغلوب ، والغلبة للرجل لا تكون إلا بفلوسه ، وإنفاقه على المرأة ، وفي هذا المعنى عودة بمفهوم الزواج إلى عصور الانحطاط وهبوط بالعلاقة الزوجية إلى علاقة أشبه بالبيع والشراء . وبدلاً من أن تتطلع المرأة إلى رأس الرجل وعقله تهبط عيناها إلى جيبه ، وبدلاً من أن ترتفع عين الرجل إلى رأس المرأة وعقلها تهبط إلى نهديها وساقها .

وتؤدي مثل هذه الأفكار إلى الربط بين الفلوس والجنس في عقول النساء والفتيات ، أو الربط بين الحاجة إلى الطعام والحاجة الجنسية . وأن تخضع المرأة للرجل لأنه ينق عليها ويطعمها . وهذا يناقض القيم الأخلاقية والإسلامية التي يرددها مصطفى محمود . لأنه يحول الرجل إلى كيس نقود ويحول المرأة إلى جسد في الفراش .

وبذلك يحرم مصطفى محمود المرأة والرجل من الشرف الحقيقي الإنساني ، وهو يشجع الرجل على إغواء المرأة بنقوده ، ويشجع المرأة على أن تأكل عن طريق الجنس وبذلك يناقض الفكرة السائدة في تراثنا الأخلاقي : تموت الحرة ولا تأكل بثدييها !

• الأمهات الأحرار يلدن أطفالاً أحراراً :

ويحاول مصطفى محمود أن يجعل من الأم التي تشقى لتطعم أطفالها أو لتطعم نفسها السبب الرئيسي لجميع المظالم في العالم بما فيها الحرب والقتل ويقول : إن الناس يقتلون لأنهم حرموا في طفولتهم من حنان الأم (لخروجها إلى العمل) .

ومثل هذا الكلام لا يساعد الناس على فهم الأسباب الحقيقية للحرب والقتل أو العنف المتزايد في بلادنا وفي العالم كله . إن القتل والعنف ينبع من إحساس الناس بالظلم والاستعمار . أن تستولى دولة على دولة بالسلاح ، بالقوة والعنف . وأن يمرض بالتخمة قلة من الناس وأن يمرض بالجوع أغلبية ساحقة . أن يتخرج الشاب فلا يجد العمل . أن يبحث الإنسان عن سكن فلا يجد ، وهناك مثل يقول إن الجوع كافر ، وقد يتحول الإنسان إلى قاتل بسبب الجوع ، والجوع قد يكون مادياً أو فكرياً ، أزمة الطعام في عالم غير عادل تؤدي إلى ازدياد معدلات القتل . وأزمة الفكر تؤدي إلى القتل أيضاً في العالم وتقدم له بدل العدو الحقيقي كبش فداء بريئاً . ثم إن أخطر أنواع القتل والعنف في عالمنا تقوم به القوى الاستعمارية دولياً ، والحكومات المحلية التابعة لها .

● وماذا يقول يوسف إدريس ؟

وبالرغم من الاختلاف الفكرى بين رؤية مصطفى محمود ويوسف إدريس للعالم والدولة والكون ، ورغم أن مصطفى محمود يستعين فى الحكم على العالم بالقانون الدينى الإسلامى ، ويوسف إدريس يستخدم القانون الاجتماعى والسياسى والاقتصادى إلا أنهما فى حكمهما على المرأة يستخدمان قانوناً واحداً وهو القانون البيولوجى .

وبالرغم من أن يوسف إدريس لا ينادى بعودة المرأة إلى البيت بل يطالبها أحياناً بتكوين حزب سياسى إلا أن نظريته للمرأة لا تختلف كثيراً فى أساسها عن نظرية مصطفى محمود .

يقول يوسف إدريس (فى مجلة صباح الخير ١٥ أغسطس ١٩٨٥) : « المرأة التى تبداع وتخلق فناً فهى تخلقه بالجزء الرجالى الموجود فيها .. قضيب ضامر ، والرجل أيضاً فيه رحم صغير جداً يكتب به الأدب والفن .. » .

وأساس هذه الفكرة النظرية العلمية القائلة بأن الإنسان مزدوج الجنس . وإن الفنان الخلاق هو الذى يستطيع أن يتجاوز القيود الاجتماعية ويتعامل مع الحياة بكيانه الكلى ، ويلغى ذلك الانقسام الموروث على مدى القرون بين الجسم والعقل والوجدان أو الشعور ، ويتجاوز بذلك أيضاً التناقض المفروض بين ما عرف بالرجولة والأنوثة .

وقد ساعدت هذه الفكرة على إلغاء كثير من الفروق الاجتماعية بين الرجل والمرأة والتى كانت تغلف بالفروق البيولوجية .

لكن يوسف إدريس لا يأخذ من هذه الفكرة إلا خارجها . ولا يسوقها لتشجيع المرأة المصرية على الإبداع بكيانها الكلى ، وإنما ليحدد إنتاجها الأدبى والفكرى ويجعل مصدره الوحيد الجزء الذكري فيها . والرجل أيضاً لا يكتب إلا بالجزء الأنثوى فيه ، الرحم والمبايض . وهكذا يتحول الفكر الخلاق إلى مجرد إفرازات الأعضاء الجنسية .

ولا أحد ينكر أن الهرمونات الجنسية لها تأثير على بعض مراكز المخ . لكن يوسف إدريس يحاول أن يفرض على الأعضاء الجنسية وظيفة فكرية ، ولا يقول كلمة واحدة

عن علاقة الفكر والأدب بذلك العضو في الجسم الذي يسمى « المخ » وهكذا وقع في الخطأ الذي وقع فيه « فرويد » في أواخر القرن التاسع عشر حين تصور أن لا شيء يحرك الإنسان إلا الجنس ، وأن « الأنا العليا » عند المرأة أو إبداعها الأدبي ليس له من مصدر في كيانها إلا العضو الذكري الضامر وهو البظر . حسب مفهوم فرويد .

● الذئب والحمل :

وبرغم أن « فرويد » غير أفكاره في بداية القرن العشرين وأعلن عن شكوكه في كل ما كتبه عن المرأة إلا أن يوسف إدريس لا يشك ولا يعرف الشك ، وهو يؤكد ويكاد يقسم بالله العظيم قائلاً : لا توجد صداقة بين الرجل والمرأة إطلاقاً .. إطلاقاً ، مفيش صداقة بين الرجل والمرأة .. وهل هناك صداقة بين ذئب وحمل .. الصداقة دائماً بين النوع الواحد .. الذي ينعدم فيه الفارق الجنسي .

وهل هناك اختزال لعلاقة المرأة والرجل أكثر من هذا الاختزال ؟ وكأنما الرجل حين يقابل امرأة يتحول فجأة إلى عضو واحد هو العضو الجنسي . والمرأة حين تقابل رجلاً تتحول بقدرة قادر إلى مجرد رحم أو مبيض .

وهكذا يلتقى يوسف إدريس مع مصطفى محمود في النهاية .. ونذكر سبب الأزمة الفكرية في بلادنا . فإذا كانت هذه الأفكار هي التي تفرض علينا كل يوم ، وتحمل الصفحات تلو الصفحات فهل يمكن أن تكون هناك فرصة لأفكار أخرى . وإذا كانت العقول المستتيرة أو المتقدمة تلتقى مع الفكر السلفي فهل نلوم الشباب على تخبطهم الفكري .



طفل الأنبيوت وصراع العصر(*)

فى كل عصر من العصور البشرية كان هناك صراع بين علماء الطبيعة والكيمياء والبيولوجى والفلك وغيرها من العلوم الطبيعية وبين علماء الفلسفة والأخلاق والاجتماع وغيرها مما تسمى الآن بالعلوم الإنسانية .

حيما اكتشف علماء الطبيعة أن الأرض كروية ثار علماء الفلسفة لأنهم كانوا يتصورون أن الأرض مسطحة. لكن التصور الفلسفى شئ والحقيقة الموضوعية المجسدة شئ آخر . وفى كل العصور انتصرت الحقيقة الموضوعية المجسدة على التصورات الفلسفية .

ويحدث الصراع دائماً عقب أى اكتشاف علمى جديد ينقل البشرية من مرحلة إلى مرحلة . ويكمن الصراع فى أن العلوم الطبيعية تتطور وتتغير وتكتشف الجديد بأسرع وأجراً من العلوم الإنسانية . فالعلوم الطبيعية دوافعها للتقدم أكثر إلحاحاً لأنها تلبى الحاجات الضرورية عند الإنسان وتعوضه عن نقصه أو ضعفه البيولوجى فى مواجهة الحياة واحتياجاتها .

إن الإنسان من الناحية البيولوجية أضعف من بعض الحيوانات مثلاً فى الجرى أو السمع . الغزال مثلاً يجرى أسرع من الإنسان ، ولتعويض هذا النقص فى ضعف عضلات الساقين اكتشفت العجلة والسيارة والقطار . والإنسان لا يطير كالطيور ، وقد عوض عن هذا النقص البيولوجى أو عدم وجود الجناحين باكتشافه الطائرة والإنسان له قدرة محدودة جداً على السمع أو الرؤية . وعوض عن هذا النقص البيولوجى باكتشاف الأجهزة السمعية والبصرية كالتليسكوب والميكروسكوب .

ولعل أهم قصور اعترض الإنسان هو قصوره البيولوجى فيما يخص الحمل والإنجاب . منذ فترة غير بعيدة كان الإنسان لا يستطيع أن يحدد نسله . وبسبب ذلك

(*) أخبار اليوم ١٩٨٢/٧/٢ .

كان يمكن أن ينبج عددًا من الأطفال أكثر من طاقتة واحتياجاته يمثلون عليه عبئًا نفسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا لا يعرف كيف التخلص منه . كذلك مثلت الزيادة السكانية في بعض المجتمعات مشكلة ملحة . لذلك سعت العلوم الطبيعية ومنها علم البيولوجي حتى اكتشفت حبوب منع الحمل التي نقلت البشرية من مرحلة العبودية البيولوجية للنسل المفروض على الإنسان أو المجتمع إلى مرحلة أكثر تحررًا وتقدمًا .

فكرة « التبنى »

وبالمثل أيضًا كان الإنسان منذ فترة قريبة لا يستطيع أن يعالج عقمه ، ظل الرجل أو المرأة العاقر أسيرًا لقصوره البيولوجي ، يمنعه هذا القصور من ممارسة عواطف الأبوة أو الأمومة . إن عواطف الأبوة أو الأمومة في الإنسان عواطف طبيعية تحتاج إلى إشباع ، ولهذا جاءت فكرة « التبنى » كحل اجتماعي لمشكلة نفسية إنسانية وهي الرغبة في إشباع عواطف الأبوة أو الأمومة . ثم نجحت العلوم الطبيعية أخيرًا في علاج عقم الرجال والنساء بواسطة طفل الأنبوبة وإنشاء بنوك الأجنة ، وأصبح في مقدور أي رجل أو امرأة عاقر أن يكون لهما طفل .

لكن العلوم الإنسانية وأهمها علم الفلسفة والأخلاق والأديان كانت دائمًا تصارع أي اكتشاف جديد . لكنها كانت دائمًا تنهزم وتضطر إلى تطوير نفسها لتواكب التقدم السريع في العلوم الطبيعية . والسبب في ذلك أن العلوم الإنسانية علوم نظرية تعتمد على الفكر النظري أو الكلمة المجردة . لكن العلوم الطبيعية تلبى حاجة الإنسان اليومية العملية .

صراع حول الحبوب

لم يحدث في تاريخ البشرية أن تراجع علم بيولوجي أمام علم الفلسفة أو الدين . مثلاً فيما يخص حبوب منع الحمل حدث صراع شديد وحاولت العلوم الإنسانية ومنها علم الفلسفة والأخلاق سد الطريق أمام حبوب منع الحمل . لكن سرعان ما انتشرت الحبوب في جميع الدول والبلاد حتى تلك البلاد الشديدة التزمّت والتي رفضت الحبوب وصارعت طويلاً كالبلاد الكاثوليكية . أيضاً حينما أنشئت بنوك الدم وبنوك اللبن ، ثم

أخيراً بنوك العيون وبنوك القلوب وغيرها من أعضاء الإنسان التي نجح الطب الحديث في تخزينها في البنوك ونقلها من إنسان إلى إنسان حدث الصراع نفسه وثار علماء الفلسفة والأخلاق والدين . لكن الصراع انتهى كما كان ينتهي دائماً بانتصار العلوم الطبيعية التي تلبى حاجة الإنسان الصحية الكاملة جسماً ونفساً وعقلاً ، وما زالت العلوم الطبيعية تسعى لإنشاء بنوك لمخ الإنسان بأمل نقل المخ أيضاً . وأحدثت هذه الفكرة أيضاً صراعاً فلسفياً وأخلاقياً ودينيّاً إلا أنه لم يكن في مثل ضراوة هذا الصراع القائم الآن حول طفل الأنبوبة وبنوك الأجنة .

كان من المنطقي فلسفياً أن يثير إنشاء بنوك القلوب أو بنوك المخ صراعاً أشد من إنشاء بنوك الأجنة، وذلك أن المخ أو القلب أهم عضو في جسم الإنسان وليس له بديل . أما البويضة أو الحيوان المنوي فهي تفرز في جسم الإنسان بأعداد كبيرة جداً . لكن نقل القلب مثلاً من إنسان إلى إنسان لن يؤدي إلى تكوين إنسان آخر أو جنين أو طفل . مشكلة بنوك الأجنة أنها تقود إلى ولادة أطفال جدد من غير طريق رحم المرأة وعن غير الطريق البيولوجي المعتاد . وقد سبق لحبوب منع الحمل أن فصلت بين الممارسة الجنسية أو البيولوجية وبين الإنجاب . لم يعد من الضروري أن كل ممارسة بيولوجية تقود إلى ولادة طفل . كذلك بعد بنوك الأجنة وطفل الأنبوبة لم يعد من الضروري أن كل ولادة طفل تنتج عن ممارسة بيولوجية أو جنسية .

انتصار إنساني

إن فصل الإنجاب أو التناسل عن العلاقات البيولوجية والجنسية انتصار إنساني على كثير من المشاكل النفسية والبيولوجية والعاطفية ، كما أنه يحرر الرجل والمرأة أحياناً من كثير من المشاق أو المخاطر البيولوجية من أجل الحصول على طفل وإشباع عواطف الأبوة أو الأمومة .

لكن علماء الفلسفة والأخلاق والدين لا يصارعون من أجل هذا . إن الصراع الأساسي الدائر في العالم الآن حول مشكلة « النسب » . إن طفل الأنبوبة لا ينتسب بيولوجياً لأب معين أو أم معينة . بمعنى أنه نتج عن اتحاد بويضة امرأة مجهولة بحيوان منوي لرجل مجهول . إذ يستطيع أي رجل عاقر أو امرأة عاقر أن يذهب إلى بنك

الأجنة . ويحصل على طفل من سلالة ممتازة . ينمو بشكل طبيعي وصحى ، مثل الأطفال الآخرين الذين تلدهم الأمهات فى ظل العلاقات الزوجية الطبيعية والمصابون بالعقم لا يهتمهم معرفة النسب البيولوجى ، ولكن كل ما يهتمهم هو أن يكون لهم طفل وأن يمارسوا عواطف الأبوة أو الأمومة . فالأبوة والأمومة الإنسانية ليست مجرد بيولوجياً فقط أو نسب بيولوجى ولكنها مشاعر نفسية وعاطفية . وكم رأينا كثيراً من الأسر العواقر تتبنى أطفالاً تحبهم وترعاهم بحنان أكثر من آبائهم أو أمهاتهم البيولوجيين . وكم رأينا زوج الأم مثلاً الذى أحب أطفال زوجته بمثل ما أحب أطفاله البيولوجيين .

الأبوة والأمومة

الصراع الدائر بين علم البيولوجى وعلم الفلسفة والأخلاق والدين ليس صراعاً من أجل العواطف الإنسانية أو المحبة الأبوية أو الأمومة وذلك أن إنشاء بنوك الأجنة أو طفل الأنبوبة لن يقضى بحال من الأحوال على عواطف الأب أو الأم . بل بالعكس إنه سيجردهما من الأنانية البيولوجية ، ويتدرب الإنسان على أن يرعى ويحب أطفالاً لم يلداهم بيولوجياً .

لكن المشكلة الفلسفية والأخلاقية تدور حول « التوريث » فالنسب البيولوجى أبوياً كان أو أموياً كان مطلوباً فى التاريخ البشرى من أجل الميراث . وكانت الأنانية البيولوجية البدائية تمنع الإنسان من أن يورث أطفالاً لم يلداهم بيولوجياً . لكن التطور الإنسانى وازدياد درجة الإنسانية فى الإنسان جعلت بعض الناس قادرين على توريث أطفال لم يلدوهم ، مثلاً زوج الأم الذى يورث أطفاله بمثل ما يورث أطفال زوجته . وأنا شهدت حالات من هذا النوع فى بلادنا وفى بلاد أخرى . ثم هؤلاء الآباء أو الأمهات الذين ليس عندهم ما يورثونه هل يمثل لهم طفل الأنبوبة مشكلة ؟

إن التقدم البيولوجى دائماً فى صف الإنسان والإنسانية . أى تقدم علمى لابد أن يكون فى صف الإنسان والتقدم بما فى ذلك اكتشاف الذرة . إن الذرة فى مجتمع إنسانى عادل تصبح فى خدمة الإنسان ، ومن أجل صحته وعلاجه وتلبية حاجاته .

لكن الذرة فى مجتمع غير عادل تصبح وسيلة للحرب والقتل . كذلك أيضاً إن حبوب منع الحمل أو بنوك الأجنة يمكن أن تكون فى المجتمع الإنسانى العادل من أجل الإنسان المرأة والرجل ، ومن أجل صحته وعلاجه وتلبية حاجاته النفسية والعاطفية والبيولوجية . لكنها فى المجتمع غير العادل يمكن أن يساء استخدامها .

الوراثة البيولوجية

لاشك أن العالم البشرى يتقدم نحو الإنسانية سواء على مستوى الفرد أو مستوى المجتمع . فى الأنظمة الملكية القديمة (وفى بعض البلاد اليوم) كان العرش يورث بيولوجياً . بمعنى أن الأولاد البيولوجيين هم الذين يرثون آباءهم أو أمهاتهم فى الحكم لكن العالم تقدم وأصبح الحكم فى النظام الجمهورى مثلاً لا يورث عن طريق الأبناء أو البنات ، وإنما عن طريق الانتخاب ويصل إلى الحكم الشخص الأكفأ وليس الابن البيولوجى .

وإذا كانت الدولة فى النظام الجمهورى قد تخلصت من الأنانية البيولوجية فمن الطبيعى أيضاً أن يتخلص الإنسان الفرد من أنانيته البيولوجية . فى الأسرة ويشعر بالحب والأبوة أو الأمومة للأطفال جميعاً . إلا أن نشوء النسب الأبوى فى التاريخ قد جفف العواطف الإنسانية وربطها بالجنس والتناسل البيولوجى فقط .



أيتها السنة .. كوني جديدة (*)

أنا أضحك .. فقد ملأ نفسي الغم والحزن .

أنا أكل .. فقد كرهت اللحم والخبز .

أنا أفكر .. فقد تهاوى عقلى وانهار .

أنا أحب .. فقد خنقت عاطفتى خنقاً .

أقول هذا الكلام وأنا أتمتع بلا وعى كامل يعرف ما يقول ولا يعرفه .

أقول هذا الكلام للعالم المجنون الذى لا يزيد جنوناً على جنونى ، وعلى جنون أى إنسان يريد أن يكون مجنوناً .

ولكن العالم يريد أن يصنع من الجنون معجزة ، كأنما المجانين هم الذين يفهمون الحياة ويحسونها ، أما العقلاء - إذا كانت هذه التسمية واقعية - فليسوا إلا حثالة ، مكانهم الوحيد هو صفيحة الزبالة (ولا أقصد صفيحة زبالة صمويل بيكيت) أو كأنما أصبح الجنون شيئاً صعباً عسير المنال ، لا يبلغه إلا الصفوة القليلة النادرة الممتازة من الفنانين والأدباء .. وأصبح العقل صفة الدهماء .. مع أن الجنون كما يقول أطباء العالم النفسيون إنما هو نوع من التدهور يصيب العقل الواعى فينطلق العقل الباطن من عقالة ليفعل ما يشاء ، وأنى شاء . يخلع ملابسه ويمشى عارياً فى الطريق كما كان يفعل إنسان الغابة الأول ، ويغتصب كل امرأة يقابلها على قارعة الطريق ..

ولكن الفن الحديث يحاول أن يثبت لنا أن الجنون هو نوع من الارتفاع فوق منطقة الوعى .. فوق جاذبية المنطق .. سمو فوق المعقول إلى اللامعقول ، اللاوعى ، الجاذبية اللامنطق ، اللامفهوم . اللاشئ .

(*) مجلة الجيل ١٩٦٢/١٢/٣١ .

وما هو هذا اللاشيء ؟ لا أحد يدري .. كل منهم يمصمص شفتيه ويقول لك : لا أدري .. وقد كنا قديماً نعتقد أن الذي يقول لا أدري لا يدري حقاً ، ولكننا أصبحنا اليوم نعتقد أن الذي يقول لا أدري هو الذي يدري ، والذي يقول أدري هو الذي لا يدري ..

إن صفة الثقافة الرفيعة والفن الرفيع في يومنا هذا هي أن تكتب كلاماً لا معنى له ، فتقول مثلاً : أنا أمشي على رأسي ، وأنا أفكر بقدمي . أنا أشم بأذني ، وأنا أسمع بشفتي .

وإذا سألك سائل : ماذا تقصد بذلك ؟ قلت له لا أدري .. إنك بذلك قد وصلت إلى صفوف أدباء العالم .. وإنني أهنتك على نبوغك .

وإذا تشاغل عليك ثقل وقال لك أنا لا أفهم ماذا تقول فانظر إليه نظرة مرحة حزينة وقل له : وهل من الضروري أن تفهم ؟ .. وإنك بهذا الرد قد قفزت إلى قمة الفن والأدب الرفيع ، وإنني أهنتك مرة أخرى على عبقريتك .

أما إذا كنت لا تجد بينك وبين كلمة أديب تجاوباً وتفضل عليها كلمة ناقد فعليك أن تظهر فهمك وعدم فهمك بما تقرأ من أدب رفيع .. وإذا سألك سائل رأيك فانظر إليه نظرة واسعة ضيقة وقل له : إنه شيء جميل قبيح ، إنه شيء لذيذ شنيع ، إنه شيء بديع مقرف ..

إنك بذلك تثبت قدراتك في النقد التي تفوق كل وعي وإدراك . وإذا تشاغل عليك الثقيل وسألك مزيداً من التفاصيل فقل له في شجاعة وخوف : إن الكاتب على ما أظن يريد أن يصور تلك الأعجوبة العجيبة التي لا يعرفها أحد .

- وما هي ؟

- أن الإنسان يولد ثم يموت .

- ولكن هذه ليست عجيبة . لقد كنت أعرف أن الإنسان يولد ثم يموت .

- هل كنت تعرف ذلك حقاً ؟ هذا شيء عجيب .. غير معقول .. لقد كنت أظن أن أحداً لا يعرف ذلك .

قل له ذلك فى منتهى البساطة والتعقيد ثم أخرج منديلاً من جيبك وامسح دموعك التى بدأت تسيل من عينيك وأنت تدرى أو لا تدرى ثم قل لنفسك فى تفاؤل وتشاؤم .

أنا أبكى ؟ إذن فأنا موجود . وافرحته ! وامصيبتها !

ثم حرك ذراعيك وساقيك فى الهواء وقل لنفسك :

أنا أرقص ؟ إذن فأنا موجود .

أنا مجنون ؟ إذن فأنا موجود .

أنا أنا ؟ إذن فأنا موجود .

- ماذا تقول ؟

- تسألنى ماذا أعنى بأنا أنا ؟

- لا تسأل .

- لماذا تريد أن تفهم ؟

- عليك أن تستمع فقط .

- هل تعرف ما معنى كلمة تستمع ؟

- وهل لابد أن يكون لها معنى يا أخى ؟

- استمع بلا معنى .

- ماذا تقول ؟

- لا تستطيع أن تستمع بلا معنى ؟

- إذن فأنت لست فناناً .

- إذن فأنت لست مجنوناً .

- إذن فأنت لست موجوداً .

معلش .. عوضك على الله فى الوجود .

أنا لا أكتب هذا الكلام لأقلل من قيمة الأدب اللامعقول ، فإن السخرية بمعناها

اللامعقول هى اللاسخرية .. أنا أسخر من شيء .. إذن فأنا لا أسخر منه ..

- ماذا تقول ؟
- هذا عبث ؟
- براهوا ! وجدتها .. وجدتها .. وجدتها ..
- ما هذا الذى وجدتها ؟
- عبث يعبث عبثاً فهو عابث .
- ما معنى العبث ..
- العبث معناه العبث .
- ولماذا تعبث بى يا حبيبى ؟
- ولماذا لا أعبث بك ؟
- يادماك ! ياسم !
- هل تحبنى ؟
- لا تسألينى شيئاً أرجوك .
- ولكنى أريد أن أعرف هل تحبنى أو لا .. ؟
- لا داعى لأن تعرفى ..
- ولماذا ؟
- لا أحد يعرف .
- كيف ؟
- لا تتكلمى كثيراً ، أعطنى شفقتك .. اقتربنى منى أكثر ..
- ولكن ..
- لا تفكرى .. لا تتكلمى ..
- ولكن ماذا بعد هذا الحب ؟
- لا أدرى ! ..
- ما نهاية هذه العلاقة التى بينى وبينك ؟
- وما نهاية أى شىء ؟

- أخبرنى ! أخبرنى !
- لا أدرى ! لا أدرى !
- لماذا لا تتزوجنى ؟
- ولماذا أتزوجك ؟
- أنت مخادع ! مخادع !
- أنا مفكر ! مفكر !
- ثم يتزوج هذا المفكر ...
- لماذا تزوجت يا عزيزى ؟
- ولماذا لا أتزوج ؟
- ولكنك اخترت فتاة فى السادسة عشرة وأنت فى الخامسة والأربعين ؟
- ولم لا ؟ ..
- ولكنك كنت تنادى بتعليم المرأة وتحريرها .. فكيف تتزوج فتاة لا تعرف القراءة والكتابة ؟
- ولم لا ؟
- لماذا تتزوج - أنت المفكر الذى كان يفكر للناس جميعاً - هذه الطفلة الأمية ؟
- حتى أكون على يقين من أنها لن تقرأ أفكارى التى أكتبها لكم أيها المفضلون !
- أنا منافق ؟ إذن فأنا موجود ..
- هذا هو العالم الذى نعيش فيه .. وهؤلاء هم الناس الذين يعيشون فيه ..
- لقد أصبحت صفة التناقض هى صفة الكمال والفن والنضوج ..
- أنا متناقض ؟ إذن فأنا موجود .
- أنا لا أفهم ؟ إذن فأنا مفكر .
- أنا أحب ؟ إذن فأنا لا أتزوج .
- أنا أتزوج ؟ إذن فأنا لا أحب .
- أنا أعيش ؟ إذن فأنا أموت .

إلا فليذهب إلى الجحيم أو إلى الفردوس هذا العالم الجميل القبيح . ما أقبحه !
وما أجمله !

بل ما أسخفه !

سخف يسخف سخفًا فهو سخي . أنا سخي ؟ إذن فأنا موجود .

واحسرتاه !

أيتها السنة المقبلة .. ماذا عندك ؟ أهو مزيد من هذا الجمال القبيح السخي
الذي المؤلم ؟ أم عندك شيء آخر ؟ وما هو هذا الشيء الآخر ؟

أمل أن يكون عندك شيء آخر !

كفى .. كفى .. لا تكرري السنة الماضية .. لا تكرريها ! فقد قتل التكرار عقل
العالم حتى هرب إلى اللا عقل .. وخنق التكرار عاطفة العالم حتى أصبح ترسًا في آلة
تدور بلا وعي ..

أيتها السنة القادمة .. أرجوك غيري طعام الأكل في فمي .. غيري رائحة الهواء في
أنفي .. غيرية ولو إلى أسوأ .. ولكن غيريه ! كوني جديدة .. ولا تكوني لاجديدة فقد
قتلتني كلمة لا ..

أيتها السنة الجديدة ارحمينا من ذلك الشقاء الممتع .. ارحمينا من ذلك المورفين
المعنوي الذي يطيح بعقلنا الواعي .. ارحمينا من ذلك المخدر . بل ذلك المنبه الذي
ينبها إلى حد التحذير .. ارحمينا من ذلك العذاب اللذيذ ..

ارحمينا ! هل ترحمينا ؟

أنا أطلب الرحمة ؟ إذن أنا موجود ..

• • •

سلسلة

٢٨ مقالا

عولمة من قاعدة الهرم .. والوعى النسائى العربى (*)

خلال النصف الأخير من القرن العشرين كسرت المرأة العربية حواجز فكرية كثيرة ، وناقشت قضايا لم يكن من الممكن النطق بها فى بداية القرن . ربطت الباحثات والكاتبات العربيات بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية ، أزلى الحواجز بين علم السياسة وعلم الاجتماع والفلسفة والدين والطب ، والأدب والتاريخ .

لعل أهم مساهمة قدمها الخطاب النسائى العربى هو محاولة القضاء على الأحادية الفكرية التى ترى الأشياء بعين واحدة (عين الرجل) أو تتكفىء على الذات دون رؤية الآخر ، أو تلك الثنائية الفلسفية التى تفصل ما هو شخصى عما هو اجتماعى أو سياسى .

تجاوزت قضية المرأة العربية حدود الأحوال الشخصية أو الشؤون الاجتماعية لتشمل الشؤون السياسية . على رأسها تحرير الأرض والاقتصاد والتاريخ والعقل والجسم . كان أغلب المؤرخين رجال لم يروا مساهمات النساء الفكرية منذ نشوء الحضارة ، وكان للمرأة دور رائد فيها ليس كزوجة وأم فقط وإنما كفيلسوفة وكاتبة وشاعرة وباحثة وطبيبة وقائدة سياسية ، نذكر منهم « سخمت » المصرية التى كانت نقيبة للأطباء فى مصر القديمة ، و « نيدابا » العراقية مكتشفة الحروف فى الحضارة السومرية ، ورئيسة القضاة « معات » إلهة العدل المصرية ، وصاحبة الفكر الفلسفى « إزيس » الذى امتد أثرها من مصر إلى أوروبا وعاش حتى القرن السادس الميلادى .

وقد ظهرت مؤرخات عربيات أعدن قراءة التاريخ وكشفن النقاب عن أفكار النساء التى اندثرت تحت سطوة النظام الهرمى (الطبقي الأبوى) خلال الألفية الأولى والألفية الثانية حتى منتصف القرن العشرين .

(*) نُشر بجريدة الأهرام ١٠ يناير ٢٠٠٠ .

الاستشراق النسائي الجديد :

منذ أيام قليلة وجهت إلى مذيعة أمريكية هذا السؤال : ألا يوجد في الإسلام ما يعوق تحرير المرأة ؟ وجاءت إجابتي عليها بسؤال آخر : ألا يوجد في المسيحية ما يعوق تحرير المرأة ؟

لم تعرف المذيعة الإجابة على سؤالى لأنه لم يخطر ببالها من قبل ، ولأنها قرأت كثيراً عن علاقة المرأة والإسلام ، ولم تقراً شيئاً عن علاقة المرأة والمسيحية .

لقد انتشرت في السنين الأخيرة ظاهرة انتشار الكتب عن المرأة العربية والإسلام بأقلام النساء الأمريكيات المستشرقات ، وكلها باللغة الإنجليزية أغلبها يحبس موضوع المرأة العربية داخل إطار الثقافة ، أو الدين أو اللغة ، دون أن يربطها بالاقتصاد أو السياسة الدولية أو المحلية .

يعتمد هذا الخطاب الاستشراقى الجديد على الفكر الليبرالى الرأسمالى الذى اشتهر فى الثلث الأخير من القرن باسم فكر ما بعد الحداثة ، تبرز فيه أسماء أمريكية وفرنسية (ميشيل فوكو ، جاك ديريدا ، جوليا كريستيفا ، صمويل هانتجتون ، فرانسيس فوكاياما وغيرهم) .

ويقوم هذا الفكر على دعائتين أساسيتين هما :

١ - الفصل بين الثقافة والاقتصاد ، وبين الشكل والجوهر ، واعتبار أن الشكل هو الأساس (أو لا يوجد جوهر) .

٢ - الصراعات الدولية والمحلية تقوم بسبب الاختلافات الثقافية والدينية والأثنية ، (وليس الاقتصاد والسياسة) .

إشتد انتشار هذا الفكر فى الغرب كرد فعل ضد الفكر الماركسى التقليدى الجامد الذى جعل الاقتصاد كل شيء وأهمل الثقافة ، ومع سقوط حائط برلين والاتحاد السوفياتى خلال العقد الماضى طغى هذا الفكر على العالم ، وعلى المفكرين فى بلادنا العربية . سواء فيما يخص القضايا العامة أو قضية المرأة ، إلى حد أن قامت حملة نشطة لترجمة هذه الكتب إلى اللغة العربية ومنها كتب النساء الأمريكيات عن المرأة والإسلام .

خطاب الهيمنة الأمريكية

يتبنى الخطاب الاستشراقى النسائى الجديد الأفكار التى تشجع النساء العربيات على العودة إلى البيت والأمومة تحت اسم التمسك بالقيم الدينية أو الثقافية المحلية أو الهوية الأصلية ، وهو نفسه خطاب الهيمنة الأمريكية الذى رفع الشعارات الدينية فى العالم كله (سواء الشعارات المسيحية أو الإسلامية أو الهندوكية أو اليهودية أو البوذية أو غيرها) كرمز لمقاومة الغرب . هكذا تصورت أعداد متزايدة من النساء فى العالم أن مجرد تغيير الزى أو غطاء الرأس يجعل المرأة منهن مناضلة ضد الغرب والتغريب . وهذه هى المقاومة الوهمية أو النضال الشكلى الذى وضع قواعده المفكرون فى الغرب (من الرجال والنساء) ووجدوا فيه القدرة المستمدة من الروحانيات الغامضة على تحويل المقاومة الشعبية من الجوهر إلى الشكل .

إن تصاعد التيارات الدينية فى العالم (التى أطلق عليها اسم التيارات الأصولية) لم تكن إلا الوجه الآخر للفكر الليبرالى الرأسمالى الحديث وما بعد الحديث ، وهو فكر الاستعمار الأمريكى الجديد ، لهذا لم تتجح هذه التيارات الدينية الأصولية إلا فى قتل الأبرياء من النساء والرجال ، على حين انطلقت قوى الاستعمار العسكرية والاقتصادية تفتك بأرواح الشعوب ومواردهم ، سواء بالحروب الواضحة السافرة ، أو القوانين التجارية السرية أو المعلنة داخل منظمة التجارة الدولية وغيرها من المؤسسات المسيطرة ، بل أصبحت قيادات هذه التيارات الدينية جزءاً من هذه المؤسسات الاقتصادية رغم غضبها الشديد على الغرب ، ورغم نضالها تحت عباءة الدين ، ولم تثمر عن شئ إلا المزيد من التبعية للتفوق الغربى والعولمة .

ربما كانت خطابات الإصلاح الدينى فى بداية القرن العشرين أكثر تقدماً فيما يخص قضية المرأة عن الخطابات الدينية فى نهاية القرن العشرين .

يكفى أن نقارن الافغانى والشيخ محمد عبده بما نقرأه اليوم لبعض المفكرين الدينيين ، رغم ما يقال عن أنها رغم اختلافها كانت جزءاً من الخطابات الاستشراقية التى تؤمن بالتفوق الغربى ولم تربط بين الثقافة والاقتصاد .

وأصبح العالم الضخم كأنما قرية صغيرة ، وكنت أتلقى كل ساعة تقريباً الأخبار من سياتل كأنما أعيش في المدينة رغم أنني في فلوريدا ، بل قبل قيام المظاهرات جاءتني رسائل الإنترنت والبريد الإلكتروني من النساء العربيات في سياتل اللائي اشتركن في التنظيم والتخطيط لهذه المظاهرات . بعضهن تركن العمل أو الدراسة وشاركن في غرفة العمليات متفرغات لهذا العمل الكبير أكثر من ثمانية شهور .

وقد نجحت مظاهرات سياتل ١٩٩٩ في أشياء متعددة إلا أن أهم ما نجحت فيه هو كشفها للصراع الحقيقي في العالم ، وأنه صراع ضد القوانين الاقتصادية والتجارية غير العادلة ، ضد قوانين منظمة التجارة الدولية وغيرها من المؤسسات .

إنه صراع اقتصادي أساساً وليس صراعاً ثقافياً أو دينياً أو إثنيّاً ، لأن المظاهرات جمعت النساء والرجال والشباب والشابات من مختلف البلاد والثقافات واللغات والأديان والألوان ، تجعت كلها في مسيرة واحدة ضد عدو واحد هو النظام الاقتصادي العالمي أو العولمة من أعلى من القمة حيث يتربع الفرد أو قلة من الأفراد ، ينهبون عرق الملايين تحت اسم حرية السوق أو الديمقراطية أو الليبرالية الرأسمالية .

كانت نسبة النساء في المظاهرات تبلغ نسبة الرجال ، ونسبة العمال تبلغ نسبة المهن الأخرى في مجالات العلم أو التعليم أو الثقافة ، لم يتخلف عن هذه المظاهرات الشعبية الدولية إلا الأحزاب التقليدية التي فوجئت بما يحدث ، فهي مظاهرة تكسر الحواجز التي جعلت الأحزاب السياسية التقليدية شبه معزولة عن الناس ، يجلس على قممتها الهرمية فرد واحد أو أفراد قلة ، يتوارثون السلطة المطلقة (الأبوية الطبقية) في ظل انتخابات شكلية أو ديمقراطية زائفة ، تحت اسم اليسار أو اليمين ، تحمل اسم المعارضة مع أنها جزء من النظام ، وتكاد لا تفعل شيئاً إلا الكلام تحت قبة البرلمان .

الوعي النسائي العربي

بعد عودتي إلى مصر في منتصف ديسمبر ١٩٩٩ جاءتني الدعوة من النساء العربيات الطالبات في جامعة كليفورنيا (جامعة ديفيز) ، جاءتني عبر شاشة الإنترنت ، وقد أصبح لهن قناة خاصة في الويب / الإنترنت ، تحمل اسم تضامن النساء العربيات في أمريكا الشمالية ، إنهن ينظمن مؤتمراً نسائياً عربياً في أبريل القادم سنة ٢٠٠٠ ،

يحرصن فيه على دعوة الباحثات والكاتبات العربيات اللائي يعشن في الوطن العربي ويكتبن باللغة العربية ، ويعرفن الواقع والحقيقة التي تعيشها النساء في بلادنا أكثر من النساء المستشرقات الأمريكيات . في أحد هذه الرسائل تقول طالبة أردنية تدرس في سان فرانسيسكو : « كيف يمكن أن تكون مراجعنا عن المرأة العربية هي كتابات الباحثات الأمريكيات ، لم أسمع عن امرأة عربية أو نساء عربيات أصبحن هن المرجع لحياة النساء الأمريكيات ! أليس هذا هو المنطق الاستشراقي القديم يعود إلينا في ثوب جديد تحت اسم الاستشراق النسائي ؟

لقد شاركت الشابات العربيات فى مظاهرات سياتل وأدركن أن الشعوب المقهورة نساءً ورجالاً ، داخل أمريكا وأوروبا أو خارجهما فى القارات الأخرى ، قد بدأت تدرك أهمية الاتحاد والتضامن بصرف النظر عن الحدود التى تضعها القلة الحاكمة فى كل مكان ، بدأت الشعوب تكسر الحواجز المصنوعة بين البشر حسب اللون والعرق والجنس والجنسية والعقيدة والإثنية وغيرها . بدأت تدرك أن هذه الفروق بين البشر مصيرها إلى الزوال ، وسوف تبقى القيم الإنسانية الكبرى القائمة على العدالة والمساواة والحرية والوعى .

أصبح النضال العالمى أكثر نضجاً ووعياً بأهمية التضامن رغم الاختلافات ، وفى بلادنا العربية أيضاً هناك حركة نسائية ذات وعى جديد تتجمع وتتضامن وتدرى أن التضامن العربى الشعبى جزء لا يتجزأ من التضامن العالمى الشعبى ، ربما تحاول قوى سلطوية متعددة ضرب هذا التضامن النسائى الشعبى إلا أن التاريخ يعلمنا أن الفوز فى النهاية لهؤلاء المدافعين والمدافعات عن الحرية والعدالة .



تأملات على شاطئ فلوريدا(*)

كان أبى يقول للسفر فوائد لا يراها إلا المحرومون من السفر ، كالصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى . لهذا السبب أحببت السفر منذ الطفولة . كنت أحلم بالسفر منذ ولدتنى أمى . فى النوم أرانى أطيّر بدون طائفة ، أحرك ذراعى فإذا بى أطيّر فى الجو ، وأندهش فى الحلم من قدرتى على الطيران ، والسباحة فى السماء مثل العصافير والحمام .

أكتب الآن وأنا أتمدد على شاطئ النخيل تحت شمس الخريف الذهبية فى الجنوب الشرقى لولاية فلوريدا بأمريكا الشمالية . غادرت القاهرة فى نهاية أغسطس وسط غارة صحفية قادها بعض المسئولين فى وزارة الشؤون الاجتماعية ضد الاجتماع التمهيدى الكبير الذى عقد فى ٢٢ أغسطس ١٩٩٩ للإعداد لتكوين الاتحاد النسائى المصرى . ما الذى أفزع الحكومة فجأة من تكوين اتحاد نسائى ؟ رغم أن وزيرة الشؤون سبق أن تحمست وأيدت وأرسلت إلينا قائمة بأسماء وعناوين الجمعيات الأساسية التى تعمل فى ميدان المرأة ، عددها ٢٢ جمعية ، وقالت إنه حسب القانون الجديد يكفى أن تتجمع عشرة جمعيات عاملة فى ميدان المرأة لتكوين اتحاد نسائى ، يطلق عليه اسم اتحاد نوعى . حضر اجتماعنا مع الوزيرة وكيل وزارتها الأول ، بالطبع لم يتكلم كثيراً فى حضور الوزيرة ، إلا أنه لم يعترض على شىء ، ولم يقل لنا أن ليس هناك شىء اسمه ميدان المرأة ، ولم يقل لنا أن ٢٠٠ جمعية تعمل فى ميدان المرأة تفكر فى إنشاء اتحاد نسائى وبالتالى يستحيل علينا إنشاء اتحاد آخر . كان موافقاً على كل ما تقوله الوزيرة ، وخرجنا إلى ساحة العمل والنشاط العملى وسط الجمعيات العاملة فى ميدان النهوض بالمرأة والأسرة ، وتحمس الجميع لإنشاء الاتحاد النسائى المصرى من محافظة أسوان إلى الإسكندرية وبورسعيد وتزايد عدد الجمعيات النسائية التى طالبت بالانضمام إلى الاتحاد النسائى إلى أكثر من سبعة وعشرين جمعية فى أقل

(*) ولاية فلوريدا ، أكتوبر ١٩٩٩ .

نشر بالأهالى ١٧ نوفمبر ١٩٩٩ تحت عنوان « قبل أن تغرب الشمس » .

مبادرة شعبية

من أجل الديمقراطية التي نسمع عنها كل يوم فى الإذاعات قررنا أن اجتماع ٢٢ أغسطس هو اجتماع شرعى وقانونى رغم كل ما يحدث ، وأن هذا الاجتماع لابد أن ينعقد فى المكان نفسه وفى الموعد نفسه الذى تقرر ، وأنا لن نخضع أبداً لهذا المنطق غير الديمقراطى ، وإن أغلقت القاعة أبوابها أمامنا فسوف نجتمع فى الشارع . لم يكن هذا قرارى وحدى وإنما قرار ١٠٩ من النساء والرجال الذين حضروا الاجتماع يوم ٢٢ أغسطس ١٩٩٩ بقاعة النادى الثقافى المصرى بمدينة القاهرة . حضر الاجتماع مائة وتسعة من النساء والرجال ، والمندوبات والمندوبين عن الجمعيات التى أرادت الانضمام إلى الاتحاد النسائى ، جاء بعضهن من أسوان وأسيوط والمنيا وبنى سويف والإسكندرية وبورسعيد وغيرها من المحافظات . دفعت بعضهن تذاكر السفر فى قطار الصعيد وبحثت بعضهن عن أماكن للمبيت فى القاهرة بعد انتهاء الاجتماع . طالبت بعضهن بعمل مظاهرة فى الشارع ضد وزارة الشئون . كان الاجتماع أشبه ما يكون بمظاهرة تأييد لتكوين اتحاد نسائى مصرى بمبادرة شعبية وليس اتحاداً نسائياً حكومياً .

نشرت بعض الصحف ما حدث فى اجتماع ٢٢ أغسطس ١٩٩٩ بأمانة وصدق . بعض الصحف تجاهلت الحدث تماماً . بعض الصحف نشرت أن الاجتماع كان فوضى ولم يحضره إلا قلة منحرفة لاتزيد عن خمسين شخصاً .

استعيد هذه الذكريات وأنا أصبح فى المحيط الأطلسى تحت الأشعة الذهبية فى جنوب ولاية فلوريدا . نحن فى شهر أكتوبر أجمل شهر فى السنة ، فهو الربيع فى نظرى وليس الخريف ، أشعر فى شهر أكتوبر بنشاط جديد لا يحدث فى أى شهر آخر . هل لأننى ولدت فى هذا الشهر ؟ أم لأن حرارة الصيف تذهب وبرد الشتاء لم يأت بعد ؟ أنا أحب هذا الدفء الناعم الرقيق ورائحة الماء تشبه بحر الإسكندرية ، وطفلة تصرخ بالفرح تذكرنى بطفولتى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وكنا نسميه فى طفولتنا البحر المالح .

العودة للجذور

أحرك ذراعى وقدمى فى الماء وأصبح كالسمكة ، أستعيد الفرحة بالعودة إلى الجذور الأولى للبشرية حين كنا نعيش فى البحر ، كيف تحولنا إلى كائنات برمائية

طلبت إحدى الصديقات في نورث كارولينا أطمئن عليها ، وقالت لي عبر أسلاك التليفون : « ماذا تفعل مع الهوريكين ، مصيرنا في يد الله ، ولا شيء أمامنا إلا الصلاة » .

تعصب أعمى

كانت أنباء الهوريكين فلويد في العالم كله ، لابد أنها وصلت بلادنا في أفريقيا والشرق الأوسط ، الذي كان يسمى « العالم العربي » أيام الوحدة العربية أو الحلم بالوحدة العربية ، أصابتني غفوة وأنا جالسة أمام شاشة التليفزيون ووجدتني أمشي في مظاهرة كبيرة في شوارع القاهرة تهتف بالوحدة العربية ، ثم أفقت على صوت المذيع في التليفزيون يتحدث باللهجة الإنجليزية الأمريكية الجنوبية تخرج بعض الكلمات من الأنف : نحن الآن أيها المشاهدون والمشاهدات مع الزعيم المسيحي لولاية فلوريدا ، وظهر أمامي وجه رجل غريب الشكل ، له أنف مقوس يشبه المرأة ، شفتاه رفيفتان مشدودتان صوته أخنف ، يقول عن نفسه المندوب السماوي على الأرض ، يرفع يديه نحو السماوات العليا بين يديه الكتاب المقدس : « يا إله السماوات لا تجعل الهوريكين فلويد تحطم أسقف بيوتنا أو تقطع عنا مياه الشرب أو تزود الحزب الديمقراطي بقصة جديدة يكذبون بها على الناس ، لكن يارب إذا شئت أن تنزل غضبك علينا فأرجو أن تبت الرعب في قلوب الكفرة من اليهود والمسلمين والبوذيين والهندوكيين حتى يعرفوا الله ويؤمنوا بالمسيح » .

وضحكت زميلتي « جين » الأستاذة في جامعة فلوريدا وقالت ، هذا الرجل يخرف ، لكن يتبعه الآلاف هنا في الجنوب ، معهم أموال طائلة ، يدفعون الملايين من الدولارات لكسب الحملة الانتخابية وإنجاح مندوبيهم من اليمين الأمريكي ، أليس مضحكاً أن إله السماء الذي يؤمنون به قد قرر أن يغرق سكان ولاية نورث كارولينا ؟ لماذا هم يفرقون وليس نحن ؟ ربما هو اختبار إلهي عشوائي حسب المزاج مثل دار النشر في ميامي ، رفضوا نشر كتابي ووافقوا على كتاب سوزان كلارك زميلتنا في الجامعة ، كم هي غبية ولا تعرف شيئاً عن الكتابة ، لكن رئيس دار النشر هو الإله الذي يقرر ، أو ربما كان الإله هو رئيس فريق كرة القدم في فلوريدا الذي قرر تأجيل المباراة في ميامي ، ولماذا

رحلة الصيف إلى الجنوب الإفريقي (*)

اندهشت صديقتي الكاتبة المصرية البارزة حين قلت لها إنني مسافرة إلى الجنوب الإفريقي ، كانت هي تعد حقائبها للسفر إلى الساحل الشمالى حيث الفيلا الكبيرة على بحيرة مارينا . إن الحر في القاهرة لا يطاق في شهر أغسطس مع زيادة الرطوبة . لم تكن الكاتبة البارزة (الحاصلة على درجة الدكتوراه في الجغرافيا أو التاريخ) تعرف أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس ، كما اعتقد بعض الآلهة القدماء ، وأن المدار الذي تدور فيه الأرض له شكل بيضاوى مائل ، وحين تكون الشمس رأسية حامية فوق أرض مصر خلال شهر أغسطس فإنها تصبح فوق الجنوب الإفريقي مائلة حانية حنان الأم أو الأب الذي يفهم معنى الأبوة الحديثة ، قلت لصديقتي الكاتبة البارزة التي تُدرّس لطلاب الجامعة الجغرافيا أو التارسخ : « أغسطس هو شهر الشتاء في الجنوب الإفريقي وليس الصيف » ، اندهشت الكاتبة وقالت : « أهكذا تتقلب فصول السنة فوق القارة الواحدة ؟ » .

كانت الدعوة قد جاءتني لحضور معرض الكتاب الدولي الذي يعقد في زيمبابوى كل عام خلال أجمل الشهور في الشتاء وهما يوليو وأغسطس ، لم تكن صديقتي (الأستاذة الجامعية والكاتبة المعروفة) تعرف أن « هارارى » هي عاصمة زيمبابوى ، وأنها تقع في أقصى الجنوب الإفريقي شمال مدينة جوهانسبرج . نطقت كلمة هارارى بطرف لسانها وقلبت الراء إلى غين (مثل بنات الأرستقراطية المصرية الفرنسية القديمة) وقالت : يا عزيزتى لن يكون لإفريقيا وجود فوق خريطة العالم في القرن الواحد والعشرين ، إنها تفرق في الجهل والمرض والحروب الأهلية . قلت لها : « وماذا عن مصر ؟ » ، انتفضت وصاحت : « لا ! مصر حاجة ثانية ! مصر ليست في إفريقيا يا عزيزتى ! مصر في الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط ! » .

(*) هارارى - زيمبابوى ١٩٩٩/٨/٣ .

قالت الكاتبة الأفريقية من غانا واسمها « أما آتا أودو » ، « لقد تفرقنا يا نوال وتبعثرنا في القارات من أمريكا الشمالية إلى استراليا ، وكندا ، هرباً من الحكومات الدكتاتورية في بلادنا الإفريقية » . إنها « أما آتا أودو » إحدى الكاتبات الشهيرات الأفريقيات التي كانت وزيرة للثقافة في غانا ، وبانقلاب الحكم اضطرت إلى الرحيل إلى أمريكا الشمالية حيث أصبحت أستاذة زائرة في جامعة بولاية نيويورك . وأيضاً الكاتبة الأفريقية من كينيا واسمها « ميشيرى موجو » التي هربت من الاضطهاد في كينيا وبحثت عن عمل خارج وطنها في كندا واستراليا ثم استقر بها الحال في جامعة سيراكيوس بالولايات المتحدة ، والكاتبة « سينديو ماجونا » من جنوب إفريقيا التي هربت من حكومة الأبارتايد العنصرية وحصلت على وظيفة بالأمم المتحدة في جنيف ، وغيرهن الكثيرات من الأدبيات المبدعات في أفريقيا اللائي أنقذن حياتهن من براثن الاضطهاد في أوطانهم ، وهاجرن إلى بلاد العالم ، حيث أثبتن كفاءتهن الأدبية أو العلمية وحققن شهرة عالمية أو مكانة بارزة في العالم ، لم يحظ بها بعض حكامهن .

قلت لأما آتا أودو ومشيرى موجو وسينديو ماجونا : « لماذا لا نعيد تأسيس جمعيتنا القديمة للكاتبات الأفريقيات ؟ » ، وفعلاً جلسنا في القاعة ذاتها التي جلسنا فيها منذ أربعة عشر عاماً وأعلننا قيام جمعية الكاتبات الأفريقيات ، عدد المشاركات في التأسيس الجديد خمسة وستون كاتبة والتاريخ ٢ أغسطس ١٩٩٩ .

تلقت حولي أبحاث عن كاتبات من أفريقيا الشمالية فلم أجد كاتبة من المغرب أو تونس أو ليبيا أو الجزائر ، ومن مصر لم يكن هناك إلا أنا .

وقلت : « أين الكاتبات في الشمال الأفريقي ؟ » ، وقالت ميشيرى موجو : « المشكلة أن الكاتبات في شمال أفريقيا يكتبن باللغة العربية وقليل جداً منهم من تترجم أعمالهن إلى الإنجليزية أو الفرنسية » .

كانت الكاتبة « تسي تسي داجاريمبو » (من زيمبابوي) قد قدمت بحثاً في إحدى الندوات عن « مشكلة اللغة في التواصل بين الكاتبات الإفريقيات » . إن معظم الكاتبات من إفريقيا اللائي يشتهرن عالمياً يكتبن باللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، أما اللائي يكتبن باللغات الإفريقية المحلية فلا مكان لهن فوق خريطة العالم . بعض آثار الاستعمار القديم والجديد .

لمناقشة أى كتاب من كتبى ، ولم يسمح شيئاً عن سيرتى الذاتية أو غيرها من مؤلفاتى ، وقد رفض عقد ندوة أتحدث فيها لرواد معرض الكتاب من الشباب والشابات ، وقال أحد المسئولين عن إقامة المعرض : ياخبر إسود ندوة لنوال السعداوى ١٩ دى كاتبة خطيرة !

أجمل ما شهدت فى مدينة هارارى هذا العام هم أطفال المدارس الذين تجمعوا فى مسرح « شيباوو » الإفريقى يوم ٣ أغسطس ١٩٩٩ ، فوق خشبة المسرح صعدت طفلة فى الثانية عشر من عمرها وراحت تقرأ بعض الفقرات من أحد كتبى المترجم الى اللغة الإنجليزية ، ثم شاركها بعض الأطفال من البنات والأولاد وراحوا يقدمون مسرحيات قصيرة مأخوذة من روايات الأدبيات الإفريقيات ومنها بعض رواياتى .

وسط التصفيق الذى ملأ القاعة الفسيحة التى تضم أكثر من ألف طفل وطفلة وقفت وقلت : « هذا يوم من أجمل أيام حياتى ، لأنه يقع فوق أرض إفريقية ، ولأنى أرى أمامى وجوهاً نضرة سمراء البشرة عيونها تلمع بالفرح وتذكرنى بطفولتى فى قريتى على ضفاف النيل » .



أشياء صغيرة .. مفسدة للفرح (*)

توقفت سيارتى ذات يوم فوقفت فى الشارع لأركب « تاكسى » إلى الجيزة .. كنت أعرف أن الأجرة خمسة جنيهات إلا أن صاحب التاكسى أراد أن يأخذ عشرة جنيهات . رفضت الركوب وجاء تاكسى آخر ، قال لى السائق ادفعى ما تشائين . حين ناولته الجنيهات الخمسة رفض وقال أريد ثمانية جنيهات . ضيعت وقتاً فى الجدل مع السائق الذى كان غليظ الصوت يستخدم لغة غير لائقة مما أصابنى بالغضب . لم يكن عندى وقت ولا طاقة نفسية لأواصل الجدل فأعطيته الجنيهات الثمانية . كنت أعلم أنه يستغل كونى امرأة مثقفة ووقتى ثمين وكرامتى أثمن ، لا أريد أن أهدرها فى الشارع مع سائقى التاكسيات . لهذا حصل منى على مبلغ لا يستحقه . رغم أن هذا المبلغ ثلاثة جنيهات فقط إلا أن يومى كله تعكر ، وسؤال ظل يلح علىّ : « كيف تركت هذا السائق يستغلنى رغم ثقافتى ودفاعى الدائم عن العدل ١٩ » تضايقت من نفسى لأنى تنازلت عن حقى . كنت أعرف أن الاستغلال لا يمكن أن يحدث دون أن يتنازل الإنسان عن حقوقه ، سواء كان فرداً أو جماعة .

خطوة نحو الاستبداد

الشعب الذى يتنازل عن حقوقه يخلق الحاكم المستبد الظالم فى الدولة . المرأة التى تتنازل عن حقوقها تخلق الزوج المستبد الظالم فى الأسرة . الراكبة التى تتنازل عن حقها تخلق صاحب التاكسى المستبد الظالم فى شوارع المدينة .

تعكر اليوم بسبب هذه الأفكار التى تراحمت فى رأسى . كنت أحضر اجتماعاً فى جامعة القاهرة أتحدث فيه عن الديمقراطية ، ووجدتنى أبدأ الحديث بأن أقول إن الإنسان أو الشعب الذى يتنازل عن حقه فى الحرية لا يمكن أن يعيش الديمقراطية ،

(*) جريدة الأهالى ٢٣ يونيو ١٩٩٩ .

إلا أن الشمس قد بدأت تشتد حرارتها وبدأ الطريق من الجيزة إلى شبرا طويلاً .
وجمعت شجاعتي وهبطت إلى مترو الأنفاق .

أصابتنى ما يمكن أن يسمى « صدمة حضارية » كأنما أصبحت فى أجمل المدن
وأنظفها وأكثرها احتراماً للشعب ، ربما هى مدينة فى سويسرا أو السويد ، ليست أبداً
هى مدينة نيويورك أو لندن حيث أصبحت القطارات تحت الأرض ومحطاتها من أقدّر
الأمكنة وأكثرها خطورة ، أذكر أن قطاراً احترق فى نيويورك ، وقطاراً فى لندن
اصطدم بقطار آخر واشتعل الحريق حتى كدت أختنق مع الآلاف تحت الأرض لولا
حضور بوليس النجدة والإسعاف .

تصورت أننى أصبحت خارج مصر ، لكنى تذكرت أننى داخل محطة مترو
الأنفاق ، وأننى واقفة على الرصيف النظيف أتطلع إلى الأسهم والعلامات التى
ترشدنى إلى حيث أذهب .

من حسن حظى أن خط الجيزة يذهب مباشرة إلى شبرا ، رأيت فوق الرصيف
زحاماً من طلبة الجامعة والطالبات ، وفلاحات وخادمات منازل يحملن سبت الخضار ،
وموظفين وريبات بيوت ، فقراء ومن الطبقة الوسطى وفوق الوسطى ، رأيت بعض
أساتذة الجامعة ، بعض السيدات الأنيقات من الطبقة العليا ، ونساء بالطرح والحجاب
والنقاب ، ورجال بالجلاليب وملابس العمال .. كل طبقات الشعب المصرى واقفة فوق
الرصيف الطويل تنتظر القطار ، فوق رأسي رأيت جهاز تليفزيون مصرى يتحدث باللغة
الإنجليزية . اندهشت لماذا الإنجليزية مع أن جميع الركاب من المصريين
والمصريات ؟ جاء القطار وهبط الناس وصعد الناس فى طابور منظم جميل ذكرنى
بأوروبا ، عيون الشباب تتطلع إلى المحطة والقطار بفرح وزهو ، أو ربما هى عيونى التى
ملأها الفرح والزهو فتصورت أن كل العيون مثل عيونى . أجمل شئ أن إحدى الطالبات
فتحت كتاباً وراحت تقرأ رغم أنها كانت واقفة وليست جالسة فى مقعد . تذكرت كم
كنت أعجب بالناس فى أوروبا حين أراهم يقرأون فى القطارات ولا يضيعون الوقت .
قلبنى يخفق بالفرح والحب لهذه الوجوه المصرية الجميمة ، البشرة السمراء بلون
بشرتى ، العيون السوداء بلون عيونى ، إلا أن الفرح والفخر يملأها وليس الحزن القديم
أو الهوان المزمّن .

النقط السوداء

هبطت في محطة شبرا القريية من بيتي ، قبل أن أصعد إلى الشارع ذهبت إلى ناظر المحطة لأطلب خريطة لخطوط القطارات .

لا يمكن لأحد أن يعرف طريقه تحت الأرض دون خريطة . وفي كل مدن العالم يمكن الحصول على هذه الخريطة من شبك التذاكر .

فوجدت بأن ناظر المحطة ليس لديه خريطة ، وأن شبابيك التذاكر ليس بها خرائط . لماذا ؟ لم يكن لي أن أعود إلى بيتي دون خريطة استرشد بها في رحلاتي القادمة داخل مترو الأنفاق . بعد نصف ساعة تقريباً وبعد أن قلت : إنني كاتبة مهمة جداً استطاع ناظر المحطة أن يحصل لي على خريطة . إنها مطبوعة بالألوان فوق ورق مصقول لامع ثمين . اندهشت كثيراً ، لأن خريطة مترو الأنفاق في أغنى بلاد العالم تطبع على ورق عادي ، لتكون في متناول الناس دون ثمن .

سألت ناظر المحطة فقال لي ما أدهشني .. قال : نحن لا نعطي هذه الخريطة إلا للسياح الأجانب ، ولذلك لا بد أن يكون مظهرها براق جميل . قلت له : هذا المشروع « مترو الأنفاق » للشعب المصري وليس للسياح الأجانب ، جميع الركاب والراكبات من المصريين والمصريات فكيف تطبع الخريطة ، فقط للأجانب ؟

وكيف تكون الإذاعة في التليفزيون على الأرصفة باللغة الإنجليزية ؟

ابتسم الناظر برقة وقال : والله مش عارف !

أشياء صغيرة قد تفسد جمال الأشياء ، مثل النقط السوداء فوق القلب الأبيض المملوء بالفرح ، قاومت هذه السلبيات القليلة التي يمكن أن تعالج عن طريق الكتابة والنقد من أجل أن يفرح الشعب المصري بمشروع جديد يحرره من عبودية المواصلات فوق الأرض ومنها التاكسيات .

وبدلاً من أن أدفع ثمانية جنيهات لصاحب التاكسي دفعت خمسين قرشاً (نصف جنيه فقط) ثمن التذكرة من الجيزة إلى بيتي في شبرا .

أدخلت سيارتي الجراح وأخرجت أصحاب التاكسيات من حياتي وقررت ركوب المترو تحت الأرض كل يوم .



فى ذكرى مرور نصف قرن على الإعلان العالمى لحقوق الإنسان حق الحياة(*)

كنت تلميذة صغيرة فى المدرسة الثانوية حين صدر الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ بمدينة باريس . لم أسمع شيئاً عن هذا الإعلان فى مدرستى . لم يحدثنا أحد من المدرسين أو المدرسات عنه . ربما كتبت الصحف الصادرة من القاهرة شيئاً عنه . إلا أننا لم نكن نقرأ الصحف فى المدرسة . وهى مدرسة داخلية للبنات فى مدينة صغيرة جنوب القاهرة اسمها « حلوان » ، ومن نافذة عنبر النوم كنت أطل على الصحراء وتلال من الرمال ، ومن الناحية الأخرى كانت ثكنات الإنجليز العسكرية ، تبدو فى الليل كالأشباح السوداء ، تنطلق منها كشافات الضوء ، تفحص السماء والأرض ، وتستقر على وجوهنا نحن البنات الواقفات فى النافذة مثل السجينات وراء القضبان ، ونختفى منها وراء الشيش ، إلا أنها تتفقد إلينا من الشقوق أو الفتحات فى النوافذ ، وإن اختبأنا تحت الأسرة تسرى إلينا ومعها أصوات العساكر الإنجليز العالية ، وضحكاتهم الساخرة وكلمات غزل باللغة الإنجليزية لا نفهمها . إلا أننا ندرك أنها كلمات نائية قبيحة المعنى ، من الطريقة التى ينطقونها بها ، وقهقهاتهم الخشنة الفجة ، تهتك سكون الليل ، فى مدينة حلوان الصغيرة الراقدة فى حضن الصحراء ، الممدودة كبحر من الرمال حتى نهر النيل .

لم يحدثنا أحد فى المدرسة عن حقوق الإنسان ، سواء كان هذا الإنسان رجلاً أو امرأة ، شاباً أو طفلاً أو تلميذاً أو تلميذة ، وفى طابور الصباح قبل أن ندخل إلى الفصول كانت الناظرة تمر علينا بوجه غاضب متقبض العضلات ، من خلفها وكيالاتها أو ضابطات الداخلية مثل العساكر الإنجليز ، يدبون فوق الأرض بكعوب حديدية ، فوق

(*) القاهرة فى : ديسمبر ١٩٩٧ .

أمى الوحيد هو : « لأنه ولد وأنت بنت » وسألت أبى السؤال نفسه ، وكان رده مشابهاً لرد أمى ، وأضاف عليه قائلاً : هذا هو أمر الله وعليك الطاعة دون مناقشة . إلا أن عقلى لم يكن يقتنع بالطاعة العمياء ، خاصة إذا كان الأمر ليس عادلاً . فكيف اجتهد فى المدرسة طوال السنة الدراسية ثم أعمل فى الأجازة فى المطبخ وتنظيف البيت ، أما أخى فهو يلعب فى المدرسة ويلعب فى الأجازة ولا يعمل فى البيت مثلى ، بل لا يرتب سريريه ولا ينظف غرفته ولا يغسل الصحن الذى أكل فيه ، وأقوم أنا بكل هذه الأعمال بدلاً منه ! هل يمكن أن يأمر الله بالظلم ؟

سألت الله هذا السؤال فى أحلامى وصلواتى إليه ، إلا أن الله لم يرد على . وقال أبى إن الله ليس له لسان ، وليس له أذن ، وليس له جسد . وسألت أبى : بلسان من يتحدث الله حتى نسمعه عن البشر ؟

وقال أبى : يتحدث الله بلسان الأنبياء والرسل وأولى الأمر .

وفى المدرسة عرفت أن أولى الأمر هم الآباء ، أولياء أمور التلميذات ، وعرفت الصلة بين الله وأبى ، فإن أبى هو الذى يتحدث بلسان الله فى البيت ، مثل ما يتحدث الناظرة فى المدرسة ، وأن عصيان الأب يعنى عصيان الله ، يعنى عصيان الناظرة ، وهذا كله يعنى عصيان الملك والوطن .

بعد أن بلغت سن الرشد وتخرجت من المدرسة الثانوية وأصبحت طالبة فى كلية الطب بدأت أفهم العلاقة التاريخية بين هذه القوى فى السماء ، وفوق الأرض ، فى المدرسة أو البيت أو الوطن .

ولأن أبى مسلم يؤمن بكتب الله الثلاثة (القرآن والإنجيل والتوراة) فقد ورثت عنه هذا الإيمان وقرأت كتب الله الثلاثة ، ودهشت للتشابه الكبير بينها ، خاصة فيما يتعلق بحقوق النساء والرجال واكتشفت أن حقوق المرأة أقل من حقوق الرجل فى الأديان الثلاثة ، إلا أن كتاب التوراة أشد ظلماً منه للنساء من كتاب الإنجيل ومن كتاب القرآن . مثلاً هناك آية فى التوراة تقول أن نجاسة « دم الأم » التى تلد أنثى تكون ٦٤ يوماً يعنى ضعف نجاسة « دم الأم » التى تلد الذكر ، وهى ٣٢ يوماً فقط ، وتؤكد آيات التوراة

العسكري لأى بلد فى العالم . وكنت أعرف منذ الطفولة أن بريطانيا العظمى قد احتلت مصر عسكرياً عام ١٨٨٢ ، وأنها حوّلت مصر إلى مزرعة للقطن لحساب بريطانيا وضد مصالح الشعب المصرى ، خاصة الفلاحين الفقراء ، وكنت منذ الطفولة أسمع جدتى الفلاحة الفقيرة تغنى مع نساء القرية : « يا عزيز يا عزيز كُبةً تاخذ الإنجليز » وكنت أتصور أن البند الثالث من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان سوف يحرم المقاييس المزدوجة التى تحكم عالمياً بين الدول المختلفة ، والتى تحكم محلياً داخل الدولة الواحدة ، والتى تحكم عائلياً داخل الأسرة الصغيرة .

فى مقدمة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان قرأت كلاماً عاماً عن المساواة بين البشر بصرف النظر عن اللون أو العرق أو الجنس أو الجنسية أو الدين .. إلخ . إلا أن هذا الكلام العام لم يُترجم إلى بنود وحقوق واضحة محددة ، وجاء كلاماً مرسلاً عاماً مثل الآيات فى الكتب الدينية أو الدساتير الحكومية .

رغم النص الذى يؤكد المساواة بين الرجل والمرأة إلا أن لغة الإعلان ذكورية تستخدم كلمة الإنسان بالمذكر كأنما الإنسان هو الرجل فقط . وهناك نص واضح يؤكد أن الأسرة هى الوحدة الأساسية التى يقوم عليها المجتمع ولا بد من حمايتها بواسطة المجتمع والدولة . إلا أن كلمة الأسرة تعنى الأسرة الأبوية السائدة فى العالم ، حيث يسيطر الرجال على النساء ، وحيث تحرم المرأة من حقوق الإنسان الأساسية وأولها أنها إنسان كالرجل ولا بد أن يكون لها الحقوق نفسها داخل الأسرة .

ولم أجد فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان أى شئ يرد لى حقوقى الإنسانية المسلوبة كزوجة وأم ، وكنت فى نهاية عام ١٩٥٦ قد عشت تجربتى الأولى فى الزواج والأمومة .

أدركت أن « الأم » محرومة من حقوق كثيرة يتمتع بها « الأب » لمجرد أنه ذكر . يكفى أن الأطفال لا يحملون اسم الأم ، ولا يحق لهم الحصول على جنسية الأم . يتمتع الزوج بحق الطلاق المطلق وحق الزواج بأكثر من امرأة ، وحق حضانة الأطفال بعد سن

وفى أوروبا وأمريكا حتى وقت قريب لم يكن للنساء الحقوق الإنسانية داخل مؤسسة الأسرة أو الزواج ، ولم يشمل الإعلان العالمى لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨ حقوق المرأة فى حياتها العامة أو الخاصة .

وقد أعدت قراءة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى مراحل مختلفة من عمرى ، حتى كتابة هذه السطور فى شهر ديسمبر ١٩٩٧ ، وقد مضى على الإعلان نصف قرن من الزمان . وأعتقد أن هذا الإعلان فى حاجة إلى تطوير يواكب حركات تحرير الشعوب والنساء ، وأن تضاف بنود جديدة تعكس حقوق الشعوب فى مواجهة الحكومات والدول كما تعكس أيضاً حقوق الأطفال والنساء داخل أسرة متطورة أكثر عدالة وأكثر سعادة .

لابد أن يشمل الإعلان على بند أساسى يمنع ازدواجية المقاييس بين الدول أو بين الأفراد ، وأن يكون « الحق » هو الأساس وليس « القوة » وأن تلتزم جميع الدول فى العالم بنزع السلاح النووى والكيميائى وسائر أسلحة الدمار الشامل بما فيها سلاح الحصار الاقتصادى ، أو العقوبات الاقتصادية ، التى تنفذها الدول الكبرى ضد الدول الصغرى ، والتى يروح ضحيتها الأطفال والنساء والفقراء وليس الأقوياء فى الدولة أو الحكومات .

مثلاً لماذا تفرض الولايات المتحدة الأمريكية على مصر وغيرها من الدول العربية والإفريقية نزع السلاح النووى والتوقيع على الاتفاقيات الخاصة بذلك ، على حين لا يُفرض على دولة إسرائيل أن تنزع سلاحها النووى ، ولا يفرض عليها التوقيع على المعاهدة ذاتها ؟ ولماذا لا تنزع الولايات المتحدة الأمريكية سلاحها النووى فتكون قدوة لغيرها ؟

مثل آخر لماذا يُفرض على دولة العراق الحصار الاقتصادى كعقوبة لأنها لم تنفذ قرارات الأمم المتحدة ، وتترك دولة إسرائيل دون عقوبات على الإطلاق ، رغم أنها لا تنفذ قرارات الأمم المتحدة ؟

فهل هذا الإنسان في نظر العالم هو الرجل الأبيض في الشمال وحده ١٩
ألا يحق للشعوب من الأطفال والنساء في عالم الجنوب أن يكون لهم حقوق
الإنسان ١٩ أن يكون لهم حق الحياة وعدم الموت ١٩



اختلاف الآراء ضرورة(*)

قرأت ما كتبه الأستاذ صلاح منتصر (فى الأهرام ١٥/٦/١٩٩٨) عن كتاب مكسيم رودنسون (محمد) ، وما سبق أن كتبه عن هذا الموضوع ، وقرأت أيضاً ما كتبه الأستاذ سلامة أحمد سلامة ، وله رأى يختلف عن رأى صلاح منتصر ، ولاشك أن اختلاف الآراء ظاهرة صحية وإيجابية ، بل ضرورة لظهور الحقيقة أو الاتجاه الأقرب إلى الصالح العام وتقدم المجتمع ، بالإضافة إلى تشجيع الناس على إبداء آرائهم حتى تتحول الأغلبية الصامتة فى بلادنا إلى قوة متحركة مشاركة فى الحوار الدائر بين عدد قليل من أصحاب الأعمدة فى الصحف .

لهذا أعتقد أن كل إنسان وكل إنسانة فى مصر من حقها (أو من حقه) أن يعبر عن رأيه (أو رأيها) فى كل ما ينشر فى الصحف وأجهزة الإعلام ، بهذا يشمل الحوار الجميع وليس فقط عدداً محدوداً من الصحفيين .

وأنا أتفق فى رأى مع ما كتبه سلامه أحد سلامة ، وأعتقد أن القرار الذى صدر بوقف تدريس الكتاب لم يكن مفيداً ، ولم يكسب منه إلا التيار السياسى الدينى الذى يستخدم عبارة « إهانة الدين » وسيلة لتخويف ذوى الأفكار المختلفة، وهى عبارة مطاطة تتحول إلى سيف يسلط على رقاب بعض الناس دون البعض الآخر ، والحكم يكون دائماً للأقوى ، فالقوة هى التى تحدد كل شئ وليس المنطق ، يكفى أن يكتب صحفى له نفوذ كلمة صغيرة ضد كتاب ما حتى تسرع السلطة بمنعه أو تحويل الكاتب إلى المحاكمة ، وربما يدخل السجن ، ولا أنسى هذا الكاتب المصرى (علاء حامد) الذى قضى فترة غير قصيرة فى السجن وبين المحاكم لأن أحد الصحفيين من ذوى النفوذ كتب فى عموده اليومى أنه أهان الدين ، وقد تم تكفير عدد من الأدباء والمفكرين

(*) الأهرام ١٦/٦/١٩٩٨ .

من الرجال والنساء بتهمة إهانة الدين أو تشويه صورة الإسلام ، وتم تنفيذ الحكم بالإعدام عليه (جسدياً مثل فرج فودة) واجتماعياً وإعلامياً مثل آخرين كثيرين وأنا منهم .

وإذا كان كتاب مكسيم رودنسون قد مضى عليه أكثر من سبعة وعشرين عاماً وهو موجود فى المكتبات المصرية وفى مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة منذ ١٩٧١ ، أى أنه فى متناول أيدي الطلبة بل والشباب العادى من خارج الجامعات . فما الذى حدث فجأة حتى يصبح هذا الكتاب خطراً على الدين الإسلامى ؟

يقول صلاح منتصر إن المشكلة هى تحول هذا الكتاب من قراءة اختيارية إلى مرجع عليه ٣٠٪ من درجات المادة لبعض الطلاب فى الجامعة الأمريكية ، فهل هذه مشكلة تستحق أن يصدر الوزير قراراً بمنع الكتاب ؟ وهل المنع هو الحل ؟ إلا نعرف أن كل ممنوع مرغوب ، وكم من كتب انتشرت وتنافس على شرائها الناس لمجرد أنها ممنوعة .

وهذا بالضبط هو ما حدث بالنسبة لكتاب مكسيم رودنسون ، الذى كان كتاباً مجهولاً لا يعرف عنه إلا قلة من الأساتذة فى الجامعات وبعض طلابهم ممن يدرسون الفلسفة أو نقد الفكر الدينى ، فأصبح هذا الكتاب اليوم مثل حبوب « الفياجرا » يباع فى السوق السوداء ، وكان فى مكتبى نسخة منه باللغة الإنجليزية قرأتها منذ عشرين عاماً ، فأخذت أبحث عنها بين مئات الكتب عدة أيام حتى عثرت عليها ، وما أن عثرت عليها حتى سرقها منى أحد الأصدقاء ، لأن النسخة اختفت تماماً بعد أن جاءنى فى زيارة قصيرة . وحدث الشيء نفسه بالنسبة لرواية علاء حامد الممنوعة ، والكتب الأخرى التى مُنعت إلى حد أن أصبح الإعلان عن منع كتاب هو أنجح الوسائل للدعاية له . وإنى أعتقد أن القرار الحكومى بمنع أى كتاب (جيد أو ردىء) لا يفيد أحداً إلا مؤلف الكتاب وناشره .

أما الضرر الناتج عن مثل هذا القرار فهو كبير ، لأنه ينسف فكرة الحرية أو الديمقراطية أو حقوق الإنسان أو التنمية أو الإصلاح أو غيرها من الكلمات الكثيرة المتداولة فى بلادنا اليوم .

ويتساءل صلاح منتصر في مقاله عن العلاقة بين قرار منع كتاب رودنسون وانخفاض مستوى التعليم الجامعي أو انهيار تقاليد البحث العلمي ، ويؤكد أن لا علاقة بينهما . وأنا أختلف معه في هذا . لأن التعليم الجامعي أو البحث العلمي إن لم يقيم على حرية التفكير وحرية نقد أي شيء بما فيها الموروثات العلمية أو الدينية فإنه لا يكون تعليمًا صحيحًا ولا بحثًا صحيحًا . لعل آفة التعليم في بلادنا أنه يقوم على الخوف أو التخويف من السلطة الأعلى سياسيًا ودينيًا . ربما لهذا السبب تخلفت بلادنا في مجال الاختراعات العلمية والإبداعات الحضارية والأدبية ، وقد قمت بالتدريس في بعض الجامعات خارج الوطن وأدركت لماذا تفتقر بلادنا إلى المخترعين من الرجال والنساء في مجالات الحياة بما فيها العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية ومنها علوم الدين والفقه والفلسفة ، خاصة الفلسفة فهي علم العلوم ، وهي مفتاح العقل للتفكير ، لأنها تعلم الإنسان كيف يفكر ، ونحن في بلادنا لا نتعلم كيف نفكر ، بل نتعلم كيف نتفادى التفكير حتى لا نقع في الخطأ أو الخطيئة ، وحتى لا يتهمنا أحد أننا مسسنا المقدسات .

في طفولتي قال لي أبي : جادلي في كل شيء وتشككي في كل شيء حتى الدين ، فالإيمان بالوراثة لا يكون إيمانًا . وقد تخرج أبي من الأزهر ودار العلوم إلا أنه كان ناقدًا للتعليم في الأزهر ودار العلوم ، وكان يردد دائمًا هذا المثل القديم : « علمني كيف اصطاد ولا تعطيني سمكًا » . كان يقول : « علمني كيف أفكر ولا تعطيني معلومات » .

إن العقل الذي يعرف كيف يفكر يخلق المعلومات ويصبح ثريًا بالأفكار الجديدة ، أما العقل الذي لا يعرف كيف يفكر فإنه يظل فقيرًا وإن تم حشوه بالمعلومات الكثيرة .

طلاب الجامعات في العالم اليوم يناقشون بحرية وشجاعة بعض الاختراعات العلمية التي تناقض كثيرًا من الأفكار الدينية التي وردت عن نظرية خلق الكون والإنسان ، وفي أيديهم كثير من الكتب الجديدة التي يقول عنها « التيار المسيحي اليميني » إنها إهانة للدين أو هدم للإنجيل ، إلا أن أحدًا لا يمنع هذه الكتب بقرار حكومي ، ويتعلم الإنسان هكذا كيف يفرز الغث من السمين وكيف يخترع ويُقدم على الابتكار والخلق .

ثلاث رحلات إلى بغداد(*)

« إذا تحمس ذوو السلطة لعمل شيء أفقد حماسي » هذه العبارة سمعتها من أبي وأنا في السابعة من العمر . لهذا السبب انسحبت من المبادرة الشعبية لمناصرة الشعب العراقي بعد أن تنافس من حولها أصحاب المال والسلطة ١٩ منذ عشرين عاماً كانت زيارتي الأولى للعراق . كنت في طريقي من الهند إلى مصر . قررت الهبوط من الطائرة في بغداد . أردت أن ألقى نظرة على الأرض التي خرجت منها إلهة اللغة والكتابة ، امرأة سومرية اسمها « نيدابا » (هي قرينة الإلهة إيزيس في مصر) ، اكتشفت الحروف الأبجدية منذ سبعة آلاف عام .

نقلت البشرية من حدود الاتصال عبر الإشارات الجسدية والهمهمات ، إلى حرية الانطلاق اللا محدود عبر اللغة والكلمات . « في البدء كانت الكلمة » ، ولولا الكلمة ما وصلت إليكم في بيوتكم الآن عبر هذا المقال .

مع ذلك اختفى اسم « نيدابا » في التاريخ المكتوب ، فهو تاريخ طبقى أبوى ديكتاتوري يحذف اسم الرائدات من النساء كما يحذف المبادرات الشعبية ، ولا يسلط الضوء إلا على الأباطرة والفرعنة من الرجال ، وزوجاتهم المصونات الحرمات في بيوت الزوجية ، أو عشيقاتهم الراقصات والمطربات في بيوت الهوى والبغاء . أما « نيدابا » وغيرها من النساء المبدعات في مجال الفكر أو الكتابة فقد اختفت أسماؤهن تماماً من التاريخ المكتوب ، واختفى « اسم الأم » في المؤسسات الجديدة التي نشأت مع النظام الطبقي الأبوى ، أنها مؤسسة الدولة والعائلة ، فقدت المرأة أم أهليتها وحققها في منح اسمها لأطفالها أو جنسيتها أو دينها أو لغتها . تحولت المرأة إلى أجيرة بلا أجر تعمل في البيت أو في الأعمال الجسدية التي لا تتطلب الفكر أو الكتابة . فرض عليها الصمت ، وإن تكلمت فهي لا تتكلم بلسانها وإنما بلسان الرجل ، أصبح

(*) نشر بجريدة الأهالي ، ١٢ فبراير ١٩٩٨ .

وصدر القرار الحكومى بإغلاق جمعية تضامن المرأة العربية فى مصر ، وتطوع للدفاع عنها ثلاثة عشر محامياً ، رفعوا قضية عاجلة بمجلس الدولة ، إلا أنها لم تخرج من سراديب المحكمة حتى اليوم ورغم مرور سبعة أعوام كاملة !

الزيارة الثالثة

كانت الزيارة الثالثة لبغداد فى الأسبوع الأخير من ديسمبر ١٩٩٧ . كانت جزءاً من الحملة الشعبية للتضامن مع الشعب العراقى ضد الحصار الأمريكى المفروض عليه باسم تطبيق الشرعية الدولية وخلف واجهة الأمم المتحدة رغم أنه يخالف ميثاقها .

بدأت الحملة بعرض فيلم يصور مآسى الأطفال العراقيين تحت الحصار . كان ذلك يوم ١٢ أكتوبر ١٩٩٧ أثناء انعقاد المؤتمر الدولى الخامس لجمعية تضامن المرأة العربية ، والذي عقد فى مكتبة القاهرة الكبرى من ١١ - ١٣ أكتوبر الماضى . أثار الفيلم غضب المشاركين والمشاركات فى المؤتمر ضد هذا الحصار اللا إنسانى الذى يقتل ألف طفل كل يوم وأكثر .

فى اليوم الأخير من المؤتمر تكونت اللجنة الشعبية لمناصرة الشعب العراقى ورفع الحصار عنه . كانت اللجنة مبادرة شعبية تماماً انضم إليها الكثيرون من الأفراد والهيئات غير الحكومية ، ونجحت خلال أربعة شهور فى جمع مليون توقيع لرفع الحصار ، وفى تنظيم سفر الوفد الشعبى إلى بغداد فى الفترة من ٢٧ حتى ٣١ ديسمبر ١٩٩٧ .

لم يكن الهدف من السفر إرسال مساعدات أو معونات . فهذه المعونات ليست إلا قطرة فى بحر احتياجات اثنين وعشرين مليوناً من الأطفال والأمهات والآباء المحرومين من أبسط الأشياء الضرورية للحياة ، ولأن الشعب العراقى شديد الاعتزاز بكرامته ، لا يريد أن يتحول إلى شعب يعيش على المعونات ، بل هو شعب يناضل ضد السياسة الأمريكية الإسرائيلية فى المنطقة .

كان الهدف من الحملة الشعبية والسفر هو إثبات أن الشعوب العربية ليست شعوباً ميته تماماً ، وأنها رغم انقسام الحكومات فهى قادرة على المبادرة والحركة والتضامن .

سيطرة أصحاب المال والسلطة

كانت تجربة هذه الحملة والوفد الشعبى الذى سافر إلى بغداد من أكثر التجارب ثراء ، من الناحية الأدبية . فقد أوحى لى بكتابة مسرحية أو رواية جديدة تحت عنوان « ثلاث نساء وعشرون رجلاً » .

كان أكثر المتحدثين عن التضامن العربى أقلهم تضامناً مع الوفد المسافر معه ، مع الذين بدأوا العمل وتحملوا أعباءه منذ السفر حتى العودة .

وانقسم الوفد قبل أن يغادر مطار القاهرة إلى قسمين :

ركاب الدرجة الأولى من الطبقة العليا ذوى المال والشهرة والصداقة بأصحاب السلطة فى القاهرة وبغداد ، والأغلبية من الوفد من الطبقة الأدنى الذين تكدسوا فى الأتوبيس من عمان إلى بغداد ، سبع عشرة ساعة قضوها فى مقاعدهم على الطريق الصحراوى الطويل .

أما القلة القليلة من الطبقة العليا فقد استقلوا سيارة خاصة صغيرة قوية مثل النفثة اختصرت المسافة إلى النصف .

كانوا ينظرون إلينا شذراً من عليائهم ، يترفعون عن الحديث إلينا ، كأنما نحن العبيد وهم الفراعنة .

فى طفولتى سمعت جدتى الفلاحة تقول : سألوا فرعون مين فرعنك ؟ قال مالمقتش حد يصدنى .. ربما لهذا السبب كنت أتصدى للفراعنة ، فى بلادنا ما أن يرأس أحد مؤسسة وإن كانت مؤسسة دواجن تحول إلى فرعون .

ثمن الحرية الغالى

لأن الحرية تؤخذ ولا تعطى فإن المدافعين والمدافعات عن الحرية والكرامة يدفعون ثمناً باهظاً من حياتهم ومن سمعتهم . بعد عودتى من بغداد فى الرحلة الأخيرة ، وقبل أن يجف عرق السفر والإجهاد بدأت حملة صحفية لتشويه صورتى وقلب المبادرة الشعبية التى بدأتها للتضامن مع الشعب العراقى إلى محاولة تطبيع مع

الصحف الإسرائيلية (هكذا تنقلب الأشياء رأساً على عقب في بعض الصحف المصرية كما انقلبت في التاريخ ، وبعد أن كانت « نيدابا » هي رائدة اللغة والكتابة والمعروفة أصبحت هي رائدة الجهل والشر ترمز إلى الشيطان وتستحق العقاب .

تصدرت إحدى المجلات الأسبوعية هذه الحملة ، ونشرت خبراً مكدوباً في ١٢ يناير ١٩٩٨ يدعى أنني أعطيت حديثاً صحفياً (عن الختان) لصحيفة إسرائيلية لا أعرف اسمها ولم أقابلها في حياتي ، وفي الصفحة المقابلة نشرت خبراً آخر عن الوفد الشعبي الذي سافر إلى بغداد ، حذفت اسمي من الوفد ، ووضعت اسم نائب رئيس التحرير مع أنه لم يسافر معنا إلى بغداد ، ثم فوجئت بجريدة حزبية تردد الخبر نفسه في عمود لأحد الكتاب .

هكذا لجأت إلى القضاء ووكلت أحد المحامين لاتخاذ الإجراءات القانونية ضد هؤلاء الذين نشروا هذا الخبر الكاذب .

وانتهت رحلتي الأخيرة إلى بغداد ، وحزنت على غياب الضمير عند بعض الناس ، وتحولت الحملة الشعبية للتضامن مع الشعب العراقي إلى تبرعات من رجال المال والأعمال وتسابق أصحاب الشركات والأفلام .



تحت عيون الجميع(*)

- كانت لى طفلة اسمها شجاعة .
- تركتها مريضة فى بغداد .
- ترتجف فى برد الشتاء .
- بلا غذاء ولا دواء ولا غطاء .
- فتحت الصحف بالأمس .
- رأيت الأمريكى المريض بالجنس .
- يتهمها بعدم الطاعة .
- لقانون الشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن ولجنة التفيتش .
- ضربها بصواريخ كروز .
- تحت عيون الجميع .
- يتابعون المشهد بقلق أو غير قلق .
- وأنا مربوطة فى سريرى بالقيود .
- منزوعة السلاح مكتومة الصوت .
- وطفلتى شجاعة تموت .
- تحت عيون الجميع .

• • •

(*) الأهالى ١٢/٢٣/١٩٩٨ .

حول الحوار الفكرى مع الرئيس (*)

كانت هى المرة الأولى التى أحضر فيها هذا اللقاء الفكرى مع السيد رئيس الجمهورية (يوم السبت ١٨ يناير ١٩٩٧ بأرض المعارض) . دهشت حين دخلت القاعة فوجدت الصفوف الأمامية قد حجزت معظم مقاعدها للوزراء وكبار رجال الدولة وكبار الموظفين فى المؤسسات الثقافية والصحفية ، وهى مقاعد حمراء كبيرة تشبه مقاعد الدرجة الأولى فى الطائرات .

بعد ذلك تأتى مقاعد الدرجة الثانية والتى حجزت لعدد كبير من الأدباء والأدباء الذين يشغلون مناصب كبيرة فى المؤسسات الصحفية من درجة رئيس تحرير أو نائب رئيس تحرير أو مدير تحرير . بعد ذلك تأتى مقاعد الدرجة الثالثة وهى للأدباء والمفكرين الذين بلا منصب فى الدولة أو أى مؤسسة صحفية ومنهم أساتذة كبار لهم مؤلفات فكرية ذات قيمة محلياً وعربياً وعالمياً .

كان المفروض (حسب التنظيم) أن أجلس فى هذه الصفوف الخلفية ، إلا أننى رأيت أن اللقاء الفكرى يستوجب جلوس المفكرين والأدباء والعلماء فى الصفوف الأولى حتى يدور الحوار بينهم وبين السيد الرئيس ، لأن الحوار معهم وليس مع الوزراء أو كبار رجال الدولة . كما حدث فى المؤتمر الاقتصادى فى الخريف الماضى ، فقد جلس رجال الأعمال فى الصفوف الأولى على حين جلس رئيس الوزراء والوزراء فى الصفوف الخلفية ، حينما سألوا الأستاذ « أحمد عز » أحد رجال الأعمال عن انطباعه عن المؤتمر أشار إلى أن رجال الأعمال أصبح لهم احترامهم والدليل على ذلك جلوسهم فى الصفوف الأمامية - وجلوس الوزراء فى الصفوف الخلفية .

لا أدري لماذا لم يطبق هذا المبدأ الوجيه على المفكرين والأدباء والعلماء فى الاجتماع الفكرى مع السيد الرئيس ؟ وهل رجال الأعمال أكثر احتراماً من المفكرين والأدباء والعلماء والمبدعين ؟

(*) الأهالى الأربعاء ٢٩ / ١ / ١٩٩٧ .

ربما لهذا السبب ، ولأننى أعتقد أن الإبداع الفكرى أهم من النشاط التجارى أو « البزنيس » فقد رفضت الجلوس فى المقاعد الخلفية وجلست فى مقعد أحد الوزراء فى الصفوف الأمامية . واقتنع المسئولون عن التنظيم بوجهة نظرى ، إلا أننى كنت أود أن يكون ذلك هو القاعدة وليس الاستثناء .

وقد توقعت أن يكون الحوار مفتوحاً بيننا وبين الرئيس إلا أن المسئولين عن التنظيم طلبوا منى أن أكتب سؤالاً على ورقة / وقد تم تجميع هذه الأوراق عند المسئولين ولا أعرف هل فرزوا هذه الأوراق وقدموا للرئيس ما شاءوا من الأسئلة ، لأن الاجتماع انتهى دون أن يحدث أى حوار فكرى مع الرئيس ، وتركزت معظم الأسئلة التى أجاب عنها فى الأمور السياسية الجارية حول السودان وإسرائيل وأمريكا ولم يكن هناك سؤال واحد حول الفكر أو الإبداع الفكرى ، وكنت قد قدمت سؤالاً من هذا النوع ، يتناول مشكلة مهمة للغاية ، كنت أود أن يدور جزء من الحوار حولها ، فهل عندنا مشكلة تتعلق بالفكر والمفكرين أم لا ؟ هل يمكن للنظام التعليمى الحالى أو التربوى أو الثقافى أو الإعلامى أن ينتج المفكرين ؟ وما الفرق بين المفكرين والموظفين ورجال الأعمال إلى آخر هذه الأسئلة أو الجدل الذى كنت أنتظره فى هذا اللقاء الفكرى مع السيد الرئيس إلا أن الاجتماع دار وكأنه مؤتمر صحفى .

هل يمكن أن يبدأ حوار فى الصحف من هذا النوع يشترك فيه الجميع وليس فقط الأسماء التى دُعيت للاجتماع ، وإنما جميع الذين يفكرون فى بلادنا وتؤرقهم مشكلة الفكر والمفكرين والذين لا يُدعون إلى اللقاء الفكرى مع الرئيس ؟



رسالة مفتوحة إلى رئيس الدولة (*)

تاريخ اليوم هو ٢٣ نوفمبر ١٩٩٧ . وأنا واحدة من الشعب المصرى ومن حقى أن أخاطب رئيس الدولة مباشرة دون المرور بالطبقة العازلة التى تحوطه من الوزراء وكبار المسئولين أو رؤساء التحرير .

وهذه هى الرسالة الثانية فى حياتى كلها التى أبعث بها إلى رئيس الدولة . كانت الرسالة الأولى منذ ستة عشر عاماً بالضبط ، يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٨١ ، كتبتها فى زنزانة سجن النساء بالقناطر الخيرية ، وطلبت فيها التحقيق فى جريمة اعتقالى واعتقال الأدباء والمفكرين من الرجال والنساء دون تحقيق ودون ذنب فعلوه . خرجنا من السجن ذلك اليوم ٢٥ نوفمبر ١٩٨١ إلى بيت رئيس الدولة فى اجتماع طويل معه ، خرجنا بعده إلى بيوتنا ، بعد أن وعدنا بأن بابہ مفتوح للشعب ، ولا يمكن للطبقة العازلة أن تسد هذا الباب . إلا أن هذا سرعان ما أصبح مسدودا .

وقد انقضت ستة عشر سنة كاملة لم أحاول فيها اختراق الطبقة العازلة ، ولم أكتب رسالة ثانية إلى رئيس الدولة . مفتوحة أو غير مفتوحة حتى وقعت مذبحة الأقصر المروعة فى معبد الدير البحرى منذ أيام قليلة . رأيت أن الأمر جد خطير ، وأن المذبحة هى مذبحة لنا نحن الشعب المصرى قبل أن تكون مذبحة للسياح الأجانب . إنها ليست مذبحة ستين شخصاً جاءوا إلى مصر فى سياحة عابرة ، لكنها مذبحة ستين مليوناً من البشر داخل مصر كلها ، تتزف قلوبهم ألماً وحزناً ، ليس على دولارات السياحة التى يمكن أن تضيع ، ولكن على الإنسانية والكرامة والأخلاق والرحمة بالنساء والأطفال والشباب والرجال الأبرياء ، على هذه الأرواح البريئة والدماء التى لطخت قلوبنا وليس فقط أعمدة المعبد الفرعونى والتماثيل من الحجر . إن القلوب التى تتزف الدم وتتألم أهم من الأحجار وإن كانت أحجار كريمة أو آثاراً نفيسة . فلا شئ يعلو على حياة الإنسان ودمه وجسده وكرامته .

(*) القاهرة ١٩٩٧/١١/٢٣ .

إن عملية سفك الدماء قد تكون باليد التي تمسك السكين وتذبح ، وقد تكون باليد التي تصفق لمن يسفك الدم ، وقد تكون باليد التي تمسك القلم وتحكم بالكفر أو الفساد على غيرها ممن يؤمن بعقيدة أخرى ، أو دين آخر ، وربما لا يختلف في الدين ذاته وإنما في بعض التفسيرات له ، أو يندرج تحت بند « العلمانيين » ، اللقب الغامض ، لا أحد يعرف التعريف الصحيح له ، ولا يساويه في الغموض إلا كلمة « الهوية » .

لقد عرف الصعيد في بلادنا ما يسمى « الإعدام حسب الهوية » . وكانت كمائن الإرهابيين توقف سيارات الميكروباس وتفتش في بطاقات الركاب عن الهوية ثم تطلق الرصاص على غير المسلمين ، فهل هوية الشخص هي الدين الذي يعتنقه ؟ هل نحكم على الأقباط في بلادنا أنهم بلا هوية مصرية ؟ ولماذا يحدث هذا الخلط بين الهوية والدين ؟ لصالح مَن ؟

لقد لاحظت في السنين الأخيرة أن كثيراً من كبار الأساتذة في بلادنا قد تأسلموا وادعوا أن الهوية هي الدين ، وأصبح كل شيء عندهم إسلامي حتى أباريق الفضة والذهب في بيوتهم على الشكل الإسلامي ، وأعمدة غرف الصالون والمصحف المذهب الموضوع فوق المائدة الإسلامية المحلاة بنقوش من الحجاز ، والأثاث الفاخر الموزاييك المستورد ، والشبابيك والمشربيات ذات الخروم المطرزة المطعمة بخيوط ذهبية مقدسة ، وأصبح الدفاع عن ترميم المساجد الأثرية وتغطية رؤوس النساء بالطرحة أو « البونية » أهم من ترميم عقول البنات والأولاد والمراهقين والشباب .

وأصبح كثير من القيادات الفكرية في بلادنا تخلط الوطنية بالدين ، وتخلط الضمير النقي أو الأخلاق الحميدة بالهوية الدينية أو العرق أو العقيدة أو الجنس أو الجنسية أو اللون أو النسب . أصبح صاحب الهوية الصحيحة كل من ارتدى الزي الإسلامي أو أمسك في يده سبخته ، أو كل من لفَّت حول رأسها طرحة . ويندرج تحت بند الكفرة الفاسدين أو العلمانيين كل من لا يبسمل أو يحوقل أو لا يعلن أن الإسلام هو الحل أو لا يؤمن بالمطلق الثابت .

والسؤال الهام هو : مَن المسئول عن هذا الفكر في بلادنا ؟ مَن الذي يملأ أدمغة الشباب في بلادنا بهذا الفكر الذي يقسم البشر إلى كفره ومؤمنين ، ويحكم عليهم بأغطية رؤوسهم أو شكل ذقونهم ؟ أليسوا هم نجوم الفكر الديني في الصحف وأجهزة الإعلام . على رأسها التليفزيون ؟

كيف يحدث التزوير فى التاريخ(*)

منذ عشر سنوات تقريباً دُعيت إلى مؤتمر أدبى دولى فى جنوب أسبانيا (قرطبة) حضره عدد من الأدباء والنقاد فى العالم . لم يكن هناك من المصريين إلا الدكتور لويس عوض وأنا . سررت لوجود الدكتور لويس عوض رغم اختلاف وجهات النظر الأدبية أو النقدية . ألقى كلمتى فى المؤتمر ورأست إحدى الجلسات . ألقى الدكتور لويس عوض كلمته ورأس جلسة أخرى . حظيت مشاركتى بالتقدير وكذلك أيضاً مشاركة الدكتور لويس عوض .

بعد أن عدنا إلى الوطن ، بينما أتصفح إحدى الصحف غالباً جريدة الأهرام وجدت مقالاً كبيراً عن مؤتمر أسبانيا بقلم الدكتور لويس عوض . أدهشنى أنه ذكر جميع المشاركين فى المؤتمر إلا أنا . لم يشر بكلمة واحدة إلى المشاركة التى قدمتها ولا الجلسة التى رأستها ، وأصبح هو المصرى الوحيد الذى دُعى إلى المؤتمر أو شارك فيه .

أرسلت إلى الصحيفة مقالاً أرد به على الدكتور لويس عوض إلا أن هذا المقال لم ينشر ، وكان مقالى تحت عنوان : كيف يحدث التزوير فى التاريخ ؟

حين كنت تلميذة بالمدرسة الابتدائية كنت أصدق ما أقرأه فى الصحف أو كتب التاريخ . لكن أبى كان يحذرنى دائماً ويقول لى إن الصحافة تكتب عن الملك فاروق اليوم لأنه يملك الحكم ، وحين يزول الحكم تتغير الحقائق وتظهر حقائق أخرى ، وفى كتب التاريخ أيضاً هناك بطولات كثيرة تنقلب إلى العكس بعد فترة طويلة أو قصيرة .

جاءتنى مجلة الهلال (عدد نوفمبر ١٩٩٦) من أيام قليلة ، إذ كنت خارج الوطن حين صدرت وأدهشنى مقال بقلم الأستاذة صافيناز كاظم عن زميلاتها بالسجن خلال

(*) نُشر بمجلة الهلال / القاهرة ١٩٩٧/٢/١٩ .

سبتمبر ١٩٨١ ، كيف يحدث التزوير في التاريخ وكيف تغيرت الحقائق بمثل هذه السهولة ؟ مثلاً حين دخلت العنبر لأول مرة لم أكن في حالة ذهول كما حاولت أن تصوّرني ، بل ابتهجت كثيراً لرؤيتها ورؤية زميلات وصديقات أخريات ، ومددت يدي لها لأصافحها كما صاحفت الأخريات في سعادة وود كثير ، إلا أنها رفضت أن تمد يدها بالمصافحة وقالت : أنا لا أصافح الكافرين والكافرات ! هذه العبارة كانت أشد قسوة من قضبان السجن لا تختلف في نبرتها عن صوت السادات وهو يهدد في الإذاعات : سأضربهم ! سأفرمهم في السجن لأنهم خانوا الوطن .

هكذا عشت في السجن عذاب النارين : الإدانة بالكفر أو الإلحاد والإدانة بالخيانة الوطنية . إلا أن الإدانة بالكفر كانت أشد إيلاًماً لأنها تأتي من داخل العنبر ذاته من داخل السجن ذاته من داخل الزميلات اللاتي يعانين مثلي آلام السجن وآلام الإدانة بالخيانة الوطنية .

صديقتي عواطف عبد الرحمن قالت لي : يا نوال أنت طبيبة نفسية / وصافيناز كاظم لا تعنى ما تقول ، فهي تمر بأزمة نفسية وتتناول أقراص التريتيروزول ، وبدأت ابتسم في وجه صافينتا كاظم وأقول لها « صباح الخير » إلا أنها كانت تكشر في وجهي ولا ترد .

وفي يوم رأيتهما توجه لعواطف عبد الرحمن من عبارات السباب والالتهامات ما لا يمكن السكوت عنه أو اللامبالاة ، وكانت صافيناز كاظم تتماذى في إهانتها لنا باعتبارها مؤمنة بالله والرسول وتقرأ القرآن ، أما نحن فقد حكمت علينا بالكفر والزندقة . هكذا قررت مقاطعتها ، ولم أعد أقول لها صباح الخير ، والغريب أنها اعتبرت ذلك عدواناً عليها أو تآزراً مع عواطف عبد الرحمن ، في حين أنني وجدت أن التسامح أو الود لا ينفع معها ، وقد جعلت الحياة بالنسبة لنا جميعاً نوعاً من الجحيم ، وبالإضافة إلى السباب والإهانات والالتهامات بالكفر فهي تفرض علينا الصمت حين نقرأ القرآن بصوت عال ، ونحن نحترم قراءة القرآن بالطبع ، إلا أنها اتخذت من القرآن وسيلة لإرهابنا ، وفرض الصمت علينا طوال النهار ، وفي الليل هي تصحو في أي وقت

يحلوا لها وتقرأ القرآن بصوت عال يوقظ الجميع ، وهي تفرض علينا أن ننام ونور الكهرباء مضاء في العنبر ، لأنها تخاف من الصراخ ، وإذا اعترضت واحدة منا وضعتها في القائمة السوداء . لقد خلقت صافيناز كاظم جواً إرهابياً داخل السجن لجميع الزميلات ، حتى هؤلاء المنقبات والمحجبات مثلها ضاقوا منها حين كانت تفرض عليهم الطريقة التي تصلى بها والطريقة التي تفسر بها الإسلام والطريقة التي تحكم بها على الأخريات . إلى حد أنني طلبت من إدارة السجن أن يضعوني في زنزانة منفردة بعيداً عن جحيم العنبر ، عن المشاجرات اليومية (بل كل ساعة) بين صافيناز كاظم وإحدى المسجونات .

بالطبع رفضت إدارة السجن طلبى ، وعشت في العنبر عدة أيام أو أسابيع ، حتى أصيبت إحدى الزميلات بانفيار عصبى حاد إثر مشاجرة بينها وبين صافيناز ، مما أجبر إدارة السجن على نقل صافيناز كاظم من العنبر .

تألمت كثيراً وأنا أقرأ في مجلة الهلال ما كتبه صافيناز كاظم في مقالها ، حاولت أن تقلب الحقائق رأساً على عقب ، وهي تتهم زميلات بالأناية لمجرد أنهن كن يعترضن على الاستبداد أو السلطة المطلقة التي حاولت أن تفرضها علينا باعتبار أنها الوحيدة فينا التي تعرف الله والباقيات مارقات في الكفر أو جاهلات بالدين .

وهي تمزج الجدية بالسخرية حتى لا يحاسبها أحد ، وتلاعب بالكلمات ، وأى اختلاف في الرأي بين الزميلات لا تفهمه إلا أنه نوع من الحقد أو الغيرة ، وإن بكت لطيفة الزيات حزناً على أخيها المريض المحبوس (في طره) فهي لا تفهم هذا البكاء ، تتهم عليه بأغنية سطحية ، وإن أخطأت أمينة رشيد في نطق العربية الصحيحة قالت عنها « غرانكوفونية » وأنها تحب نفسها في السر ، أما الأستاذة صافيناز كاظم فكانت الإله الذي لا يخطئ أو يبكي أو يحب ذاته !

حين مرضت صافيناز كاظم بمرض الجرب الجلدي كنت أنا التي شخّصت المرض ، وهو تشخيص سهل لأي طبيب ، وكان يتردد علينا طبيب السجن وهو شاب وإنسان صادق ، قلت له : هذا جرب يا دكتور ؟ قال : نعم يا دكتورة نوال وسوف أبلغ

الصمت جريمة... ومعا نكسر باب السجن(*)

قضيت ليلة الثلاثاء أول يوليو ١٩٩٧ جالسة فى مقعد خلفى داخل الطائرة النفاثة . تجتاز المحيط الأطلسى ، تمر الساعة وراء الساعة ، اثنتا عشرة ساعة ، رأسى يسقط فوق صدرى حين يغلبنى سلطان النوم ، قدماى تتورمان تؤلمان ، لا أستطيع أن أمدهما أمامى ، فليس هناك مساحة ، حين كنت شابة لم يكن السفر مرهقاً بل إنه المتعة ، وإن ركبت فوق ظهر قطار ، أو فوق ظهر سفينة أو حتى فوق الطائرة ، وكان الأمل كبيراً فى تغيير العالم بحيث يختفى الظلم ، ويصبح الناس سواسية كأسنان المشط ، بصرف النظر عن اللون أو الجنس أو العرق أو العقيدة .

وأنا فى العشرين من عمري تصورت أن الثورة ستقوم بعد أيام قليلة ، وفى الثلاثين من العمر تصور أنها ستأخذ عدة شهور ، وفى الأربعين تصورت أنها تحتاج إلى بضع سنين ، وبعد أن تجاوزت الستين عاماً أصبحت الثورة بعيدة تحتاج إلى قرن من الزمان أو قرون .

مع ذلك ، أجد نفسى داخل الطائرة المتجهة إلى نيويورك ، فقد وصلتني دعوة للمشاركة فى مظاهرة يقودها أطفال العالم ، للاحتجاج على الظلم الواقع على ملايين الأطفال من الشعوب المقهورة ، (وعلى رأسها شعب العراق) المحاصرة اقتصادياً ، لأسباب سياسية ، يحكمها مبدأ واحد هو البطش بالضعفاء ، وأولهم الأطفال وثانيهم الأمهات .

الإرهاق الجسدى يضاعف حالة اليأس من حدوث أى ثورة تغير النظام العالمى الجديد القديم ، فما بال ثورة أطفال ؟

تحركت فى مقعدى كأنما أفك حزام المقعد ، كأنما أهم بالنزول من الطائرة والعودة من حيث أتيت ، لقد قبلت هذه الدعوة الطفولية فى لحظة طفولية من لحظات

(*) الأهالى - ٢٧/٨/١٩٩٧ .

الأمل الخارق لطبقات اليأس ، فالطفلة فى أعماقى لم تمت بعد ، قد تصحو فجأة وتدفع جسدى المرهق اليأس إلى الاندفاع نحو مجالات الأمل الجنونية ، والتخليق فى السماء حتى الهبوط فوق المريخ .

حينئذ أحبها رغم جنونها ، هذه الطفلة العنيدة غير القابلة لمنطق الكهولة ، وآلام العمود الفقري ، فهي تأخذنى بعيداً (ولو مؤقتاً) عن العيون الذابلة والأجسام البطيئة الحركة والعقول الملفوفة بالحجاب أو الوجوه المغطاة بالمساحيق وأقنعة التكر .

وصلت إلى نيويورك الساعة ١١,٥ صباحاً ، مطار كيندي هو أفضل مكان يفقد الإنسان فيه نفسه ، لا يكاد يلتقط أنفاسه حتى يجد نفسه داخل ما يسمى بالسيارة الصفراء تتطلق مثل نحلة مجنونة نزع عنها ذنبها ، وكل شيء يلهث ، وأنا ألهث وأقول للسائق الهندي :

بسرعة جداً جداً إلى المظاهرة أرجوك لأنها ستبدأ الساعة ١٢ ظهراً ، أمامك
نصف ساعة فقط تصل إلى تقاطع شارع ٤٧ مع الأفينيو الأول ، رصيف أمام مبنى
الأمم المتحدة ، أرجوك أسرع إلى المظاهرة !

صوتى يلهث . يتهدج بالانفعال ، يشتد الانفعال العاطفى والحماس الثورى حين يكون الجسد مرهقاً ، والرجل الهندى ذو الوجه الناحل الشاحب رمقنى بلا انفعال ، مثل جميع سائقى التاكسى فى نيويورك صوت هادىء تماماً لا تهمة ثورة ولا تغيير العالم ، وسمعتة يقول بلكنة أمريكية هندية إنجليزية : (إيه ؟ مظاهره إيه ؟) .

صوته بارد مثل دش الماء الصاقع ينزل فوق رأسى الساخنة الملتهبة بالتعب ،
وعدم النوم ، الحماس الطفولى ، الذى صور لى مظاهره الأطفال كأنما تشمل جميع
أطفال العالم ، بمن فيهم الأطفال الهنود الذين يعيشون فى الهند وأمريكا وكل البلاد ،
تصورت أن شوارع نيويورك من مطار كينيدي حتى مبنى الأمم المتحدة سوف تمتلئ
بالأطفال ، يهتفون ضد الحصار الاقتصادى ، وضد الأمم المتحدة ، التى أصبحت
خاضعة للولايات المتحدة الأمريكية ونطلق عليها اليوم اسم « الأمم المتحدة
الأمريكية» .

إلا أن هذا السائق الهندي الأمريكي لم يسمع عن المظاهرة ورمقني بإشفاق كمن يرمق شخصاً هبط من المريخ ولا يعرف شيئاً عن النظام العالمي الجديد فوق الكرة الأرضية ، ودفعه الإشفاق إلى الإسراع بى إلى مكان المظاهرة ، فوصلت فى الساعة ١١,٥ ظهراً ، قبل موعد المظاهرة بنصف ساعة ، وكانت هناك مظاهرة أخرى من المهاجرين المقهورين فى أمريكا وبعض الزوج وبعض النساء وبعض الرجال والأطفال أيضاً ، فهذا المكان فوق الرصيف أمام مبنى الأمم المتحدة هو ساحة المظاهرات الشعبية ، وعلى كل فئة مقهورة أن تحجز المكان فوق الرصيف بالساعة أو الساعة والنصف ، فإذا انقضى وقتها لمت عزالها من المنشورات والكراسى والمنصة والميكرفون وانصرفت لتخلى المكان لمظاهرة أخرى. لا تكف المظاهرات الشعبية فى أمريكا ، يحرسها البوليس لإعطاء صورة ديمقراطية فالمطلوب هو الصورة فقط ، نحن نعيش فى عالم من الصور ، أما العالم الحقيقى فهو يمضى فى طريقه دون أن يهتز له جفن .

ونكسر معاً باب السجن

بدأت الوجوه العربية تتدفق على الساحة ، نساء وأطفال ورجال ، يحملون اللافتات ضد الحصار ، بدأت استرد الحماس والأمل ، اللغة العربية تسرى فى أذنى مثل الموسيقى ، الأطفال يتجمعون على شكل صفوف حاملين اللافتات : أنقذوا الأطفال من الموت ..

- اكسروا الحصار فهو جريمة ..

- أوقفوا بطش الولايات المتحدة الأمريكية بالشعب العراقى .

- حرروا الأمم المتحدة من النفوذ الأمريكى ..

ثم انطلق الأطفال يغنون فوق المنصة ، والجميع يغنى معهم ، حتى المارة فى الشوارع توقفوا يستمعون إلى الغناء ، ثم انخرطوا فى المظاهرة ، رجال ونساء وأطفال ، من مختلف الجنسيات والألوان واللهجات ، يغنون بصوت واحد دون أن يفهموا الكلمات لكن اللحن الموسيقى مفهوم بصرف النظر عن اللغات :

برامجها عبر محطات التلفزيون لأول مرة منذ ٧ سنوات ، إلا أن شرطة نيويورك قبضت أثناء المظاهرة على بعض النساء والرجال والشباب ، أحد الشباب رقد فوق أسفلت الشارع أمام سيارة البوليس ليوقف تحركها بالمعتقلين والمعتقلات ، إنه شاب أمريكي اشترك في المظاهرة ، وراح يهتف ضد الحكومة الأمريكية ، ورجل عربى عجوز يتقدم نحو الشرطة ويقول لهم فى غضب :

- اعتقلوني معهم يا مجرمون ! يمسكه رجال الشرطة ويحملونه فى الهواء ثم يلقون به داخل السيارة البوكس .

كل هذا رأيته بعينى وشهدته أكلوبة الديمقراطية ، وازدواجية المقاييس ، وقد حصل المسئولون عن المظاهرة على تصريح من الأمن بعمل المظاهرة ، إلا أن الأمن الأمريكى لم يأبه بهذا التصريح ، واعتقل بعض النساء والرجال دون أن يخرجوا عن حدود القانون .

فى لقائنا مع الأمين العام المساعد للأمم المتحدة (كان الأمين العام خترج نيويورك) قدمنا احتجاجاً رسمياً على هذا الاعتقال غير القانونى ، والذي لم يحدث إلا لهذه المظاهرة دون غيرها من المظاهرات ، لمجرد أنها مظاهرة عربية ، يتصاعد العداء للعرب فى الولايات المتحدة الأمريكية .

دام اللقاء مع الأمين العام المساعد حوالى الساعة ، اسمه « إبراهيم فال » وهو سنغالى ، استمع جيداً لكل أعضاء وعضوات الوفد العالمى الذى قابله ، كانت مطالبتنا الأساسية للأمم المتحدة كالآتى :

أولاً : أن تتحمل الأمم المتحدة مسئوليتها أمام الشعوب التى أنشأتها ، وأن تمنع الدول الأعضاء فرادى أو مجتمعين من اتخاذ أى قرار لا يتفق مع ميثاق الأمم المتحدة أو الاتفاقات المودعة فى أمانتها مثل اتفاقية جنيف وغيرها .

ثانياً : على الأمم المتحدة أن تمنع استخدام الحصار كسلاح ضد الشعوب بسبب قرارات سياسية اتخذتها حكوماتهم ، هذا الحصار جريمة ، وخرق للقانون الدولى ، لا يدفع ثمنه إلا الأبرياء من الشعوب . خاصة الأطفال الذين لا يشاركون فى أى قرار سياسى .

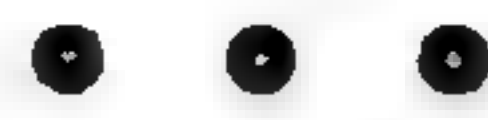
خوفاً من الاتهام بالفساد أو انعدام الأخلاق أو انعدام الكرامة أو تأييد الغرب أو الولايات المتحدة الأمريكية . أغرب ما قرأت في الصحف هو التهديد الأمريكى بقطع المعونة عن مصر إن لم يصدر قانون يمنع ختان الإناث !!

شر البلية ما يضحك . إن الولايات المتحدة الأمريكية تتعاطف مع الأطفال البنات المصريات ضحايا الختان ، لكنها لا تتعاطف مع الأطفال فى بلاد أخرى الذين يموتون جوعاً بسبب الحصار الأمريكى لهم لا تؤيد الولايات المتحدة الأمريكية سياسة إسرائيل التى تسفك الدماء فى فلسطين كل يوم منذ تسعة وأربعين عاماً .

أمر مضحك مؤلم لا يدفع ثمنه إلا الأطفال الذكور والبنات اللائى يتخلى عنهن الكبار لمجرد إثبات الوطنية أو الهوية فى ساحة الصراعات السياسية .

عالم السياسة لا تحكمة المبادئ أو القيم الإنسانية بل تحكمه القوى المهيمنة والمصالح الآنية وغير الآنية ، يروح ضحية هذه الصراعات الدولية والمحلية الشرائع الضعيفة فى المجتمع وعلى رأسهما الأطفال البنات .

إلا أن هؤلاء النساء والرجال الواقفون فى وطنيتهم والواقفات فى وطنيتهن لا يابهن ولا يابهن لهذه المناورات السياسية ويرفضون الصمت . لأن الصمت اشتراك فى الجريمة سواء كانت حصاراً اقتصادياً أم ختاناً جسدياً أو عقلياً .



الاستخراب وليس الاستعمار(*)

فى جريدة الأهرام الصادرة ١٨ أبريل ١٩٩٧ قرأت مقالاً بقلم الأستاذ/ فهمى هويدى تحت عنوان « لا سلام مع الاستيطان » ، وأتفق معه فى أن من واجبنا أن نسقط القناع من على فكرة الاستيطان والمستوطنات وأن نصحح اللغة السياسية والمصطلحات المستخدمة فى الصراع العربى الإسرائيلى ، ويقول فهمى هويدى عن لسان إحدى الباحثات الألمانية (فيكتوريا فالس) إن كلمة مستوطنة ليست سوى بدعة صهيونية تعطى انطباعاً بأن المسألة لا تخرج عن محاولة إعمار أراض خالية ، بينما الأمر عكس ذلك تماماً ، فهذه المستوطنات تقام فوق حيازات مصادرات الأهالى ، وعلى أنقاض بيوت الفلسطينيين أو زراعات يملكونها .

كثيرون من الناس فى الشرق والغرب يؤيدون هذا القول . فهذه باحثة ألمانية تكشف المشروع الصهيونى السياسى والعسكرى ، إلا أنها تستبدل كلمة مستوطنات بكلمة أخرى هى مستعمرات ، ويقول الأستاذ/ فهمى هويدى فى مقاله على لسانها : المستوطنات فى حقيقتها ليست سوى مستعمرات ، إذ هى نوع من الاستعمار ، وهنا نتوقف قليلاً لنذكر أن كلمة « استعمار » أيضاً لا تصلح لكشف الخراب أو الاستخراب الذى قام به الاستعمار القديم ويقوم به الاستعمار الجديد بمختلف أشكاله العسكرية والاقتصادية والثقافية والإعلامية ، إن كلمة استعمار ليست إلا بدعة أوربية (بريطانية فرنسية وغيرها) أعطت انطباعاً بأن الاحتلال العسكرى الأجنبى هو نوع من الحماية والدفاع عنا ، ونوع من الإعمار والتنمية والتقدم لبلاد من الهمج والبرابرة ، بينما الأمر عكس ذلك تماماً ، فقد تم إفقار البلاد التى احتلتها الجيوش الأجنبية فى مصر والهند وجميع البلاد الآسيوية والأفريقية والعربية وغيرها ، لقد تم استنزاف موارد هذه الشعوب الاقتصادية والحضارية لتنمية البلاد الأوربية وتطويرها .

لماذا إذن لا نغير كلمة « استعمار » أيضاً مادامنا بصدد تغيير اللغة السياسية والمصطلحات المستخدمة فى الصراعات الدولية ، إن كلمة « استخراب » تكشف أكثر عن المشروعات الاستعمارية القديمة والجديدة .

(*) أبريل ١٩٩٧ .

قد يقول بعض الناس : هذه مجرد قشور لا تمس جوهر المشاكل ، إلا أن « اللغة » هامة في عملية الفهم والمعرفة ، خاصة ونحن نعيش اليوم عصر ما يسمى عصر المعلومات ، تلعب فيه اللغة دوراً أساسياً في الإعلام السياسي الذي أصبح أخطر من السلاح العسكري في الحرب والسلم معاً ، مثلاً في حرب الخليج عام ١٩٩١ كان الإعلام الأمريكي يسبق السلاح الأمريكي في الضرب والتمويه وإطلاق الدخان لإخفاء الحقائق ، إن التمويه وخداع العدو من أهم وسائل الحرب العسكرية ، وفي الحروب الاقتصادية تصبح اللغة السياسية والإعلامية هي السلاح الأكبر في عمليات التمويه وقلب الحقائق .

المشكلة في كل هذا الصراع اللغوي والإعلامي أننا لا نكتشف الحقائق إلا بعد الهزائم ، وما نحن نكتشف أن كلمة الاستيطان تخفي الأساس الحقيقي الذي يقوم عليه الصراع العربي الإسرائيلي ، ومن كشف ذلك ١٩ باحثة ألمانية في الندوة العالمية لشئون القدس التي عقدت في روما تحت رعاية الحكومة الإيطالية على حد قول الأستاذ/فهمي هويدي في مقاله ، بالطبع أنا لست ضد أن نتعلم من الآخرين في الشرق والغرب ، فالنضال ضد الظلم ليس قاصراً على بلاد معينة أو جنسيات معينة أو أديان معينة ، أذكر أنني التقيت بمناضلة أمريكية من أصل يهودي اسمها « سالما جيمز » كانت أكثر من النساء العربيات كشفاً للمشروع الصهيوني في إسرائيل، وقفت « سالما جيمز » في المؤتمر الدولي للمرأة في نيروبي عام ١٩٨٥ وهاجمت الحكومة الإسرائيلية وقالت بالحرف الواحد : إن المشروع الصهيوني هو مشروع استعماري بريطاني أمريكي ، إلا أن بعض النساء الإسلاميات رفضن مصافحة سالما جيمز باعتبارها يهودية ، وبعض النساء العربيات رفضن الاستماع إليها أو الجلوس بجوارها .

نحن في أشد الحاجة إلى إعادة النظر في أشياء كثيرة ورثناها في اللغة والقيم والسلوك نتصور أنها صحيحة على حين هي خاطئة وضارة بنا وقد تسلفت إلينا عبر الإعلام المضلل والنظم التعليمية القاصرة .

نحن أيضاً في حاجة إلى أن نكتشف بأنفسنا نواحي النقص في اللغة السياسية والثقافية والإعلامية التي نستخدمها كل يوم ولا ننتظر حتى نسافر إلى مؤتمر دولي في روما أو باريس أو نيروبي لنسمع الباحثين والباحثات الألمان أو الأمريكيان ثم نبداً نكتشف الحقائق ، لماذا نكون دائماً رد فعل للآخرين ولا نبادر نحن بتغيير اللغة والكلمات التي نستخدمها دون أن ندري مثل كلمة الاستعمار ١٩

آلهة ورجال (*)

منذ نشوء النظام العبودى أو ما يسمى النظام الطبقي الأبوى أصبح الحاكم يتتكر فى زى الإله . لم تنفصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية فى التاريخ حتى يومنا هذا . وإلا فلماذا يتحدث بابا الفاتيكان فى أمور السياسة ويعقد الاجتماعات مع الملوك والرؤساء فى جميع أنحاء العالم ؟ وفى بلادنا لماذا يفعل شيخ الأزهر أو مفتى الديار أو كبار المشايخ ورجال الدين الإسلامى ما يفعله البابا فى العالم المسيحى ؟

وفى حرب الخليج أو حرب البترول الأخيرة فى يناير ١٩٩١ لماذا تمتم الرئيس الأمريكى (جورج بوش) بآيات من الإنجيل وهو يعلن الحرب على شيطان العراق (صدام حسين) ؟ ولماذا يردد حتى اليوم رئيس الحكومة الإسرائيلية (بنيامين نتنياهو) آيات التوراة عن الأرض الموعودة وهو يطلق النيران على الشعب الفلسطينى الأعزل ويستولى على أرضه وخيرات بلاده ؟ ولماذا تنتشر الحركات المسيحية الأصولية فى الغرب وتحمل فى الولايات المتحدة اسم التحالف المسيحى ، الذى يقف مع أقصى اليمين فى الحزب الجمهورى ، ويشجع العودة إلى القيم التطبيقية الأبوية أو القيم العائلية التقليدية والتراجع عن حقوق المرأة وضرب عيادات الإجهاض وإطلاق الرصاص على من يعملون فيها ، مع المطالبة بإعادة الصلوات والتعليم الدينى فى المدارس ؟

ولماذا تصعد أكثر الأحزاب الهندوكية رجعية إلى السلطة فى الهند ، وتنتشر الاضطرابات الطائفية والمذابح فى كثير من الولايات ؟ وفى أوروبا فى ظل ما يسمى العلمانية أو فصل الدين عن الدولة (secularism) تبقى الكاتدرائيات وقببات الكنائس شامخة فى السماء تصلصل أجراسها كأحد الأعمدة الأساسية التى تقوم عليها الأنظمة الرأسمالية الحاكمة .

(*) من محاضرة فى لندن / ٤ نوفمبر ١٩٩٧ .

قد يختفى الترابط أو التحالف لأهداف سياسية قريبة أو بعيدة ، إلا أن التناقضات قد تظهر ، خاصة في حياة النساء ، هذا القطاع من البشر المحروم من القوة السياسية والاقتصادية والدينية ، إنه أول قطاع يضرب في الأزمات في الحرب وفي السلم ، ويعيش كبش فداء للازدواجية الثقافية والأخلاقية التي تقوم عليها الأنظمة السياسية والدينية علي حد سواء .

على شاطئ البحر في بلادنا أصبح مألوفاً أن ترى نساء مرتديات الحجاب أو النقاب يتمشين على البلاج ، وإلى جوارهن نساء عاريات داخل البكيني . بل إنني رأيت امرأة تسبح في البحر وهي مرتدية نقاباً أسود حول وجهها وعباءة سوداء وحذاء جلدياً أسود . كانت تقاوم الأمواج المتكسرة على الشاطئ ، تثبت كعبها في الرمال حتى لا تفرق ، وإلى جوارها زوجها يسبح بحرية داخل المايوه الكاشف عن جسده كله ما عدا جزء صغير أسفل البطن وما بين الفخذين .

وفي شوارع القاهرة أصبح مألوفاً أن ترى النساء المحجبات لا يظهر منهن إلا الوجه والكفان ، والنساء السافرات المرتديات الميكروجيب أو الفستان ما بعد الحديث الكاشف عن مساحات أكثر فأكثر من الصدر أو الظهر أو الفخذين .

وعلى شاشة التليفزيون المصري (مثل غيره في منطقة الشرق الأوسط) أصبح مألوفاً أن ترى الشيخ الإسلامي الوقور الذي يشجع النساء على التحجب درءاً للفتنة ، يعقبة على الفور راقصة شبه عارية يتلوى جسدها في إعلان عن بضاعة أمريكية جديدة أو سلعة مستحدثة من منتجات الشركات المتعددة الجنسيات .

لهذا لم يعد غريباً أن ترى في الشوارع نساء وفتيات يخفين شعورهن تحت الحجاب على حين يرتدين الرموش الصناعية ويلون وجوهن بالمساحيق وشفاهن بإصبع الروج وعيونهن بالكحل وأجسادهن داخل الثوب الإسلامي الطويل تتلوى في مشية مغرية فوق الكعوب العالية الرفيعة .

هذه المشاهد تبدو متناقضة ، وهي كذلك بالفعل ، إلا أنها مترابطة تمثل الوجهين أو الوجه المزدوج للنظام العالمي الجديد وما يسمى العولمة أو الكوكبة ما بعد الحداثة .

إنها رغم شعارها ما بعد الحديث لاتزال فى جوهرها نظاماً طبقياً أبوياً فى حاجة إلى الدين كسلاح سياسى وثقافى فى صراعها ضد الشعوب .

لماذا تحتاج العولمة إلى التيارات الأصولية الدينية ؟

أصبحت كلمة العولمة هى الشكل ما بعد الحديث للاستعمار الجديد ، وهى كلمة معقدة ، تزداد تعقيداً مع تعقد الحياة وتطور أساليب الاستغلال الاقتصادى فى عالم سريع التغير تحت وطأة الاكتشافات العلمية والتكنولوجية الحديثة . سأحاول تبسيط هذه العولمة وحاجتها إلى الأديان فى هذه النقاط التالية :

١ - تعنى العولمة أن الثروة والقدرات الإنتاجية والتجارية والعسكرية تتركز أكثر وأكثر فى يد القلة الأقل فالأقل من الأفراد والشركات ، مثلاً يوجد اليوم فى العالم ٤٣٥ فرداً يملكون نصف الثروة فى العالم ، ويوجد ٥٠٠ شركة متعددة الجنسيات تسيطر على ٨٠٪ من التجارة العالمية و ٧٥٪ من الاستثمارات .

٢ - لا يمكن للقلة القليلة أن تواصل جنى أرباحها واحتكاراتها إلا عن طريق السيطرة بالعنف ، بالحروب العسكرية ، أو بالضغط السياسى والاقتصادية التى تتخفى تحت اتفاقات دولية أو شعارات حرية السوق والليبرالية والديموقراطية .

٣ - لكن هذا كله لا ينجح دون السيطرة على العقول وإفراغها من المعرفة وحشوها بالمعلومات الكاذبة المضللة ، لهذا أصبحت الوسائل الإعلامية والثقافية أهم من أى وقت مضى فى هذا العصر الذى يشهد ما يسمى الثورة المعلوماتية ، وهنا يأتى دور الأديان والحاجة إلى إحيائها وتفسيرها على نحو يخدم مصالح الأقلية الحاكمة .

٤ - رغم الاختلافات بين الأديان إلا أنها تتفق فى فرض الطاعة المطلقة للرب فى السماء ومندوبه فوق الأرض . سواء كان الحاكم فى الدولة أو رب العائلة الكبيرة ، أو الأب فى الأسرة الصغيرة التى هى نواة المجتمع شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . فى مصر مثلاً كان رئيس الدولة أنور السادات يعطى نفسه لقب رب العائلة الكبيرة، ولقب آخر هو الرئيس المؤمن ، إن سلطة الأبوة مع الإيمان الدينى يشكلان الدعامة

الأساسية للنظام الطبقي الأبوي الذي بدأ في العهود العبودية واستمر في قهر النساء والفقراء ، ولا يزال حتى اليوم يحكمنا دولياً ومحلياً بأشكال سياسية واقتصادية وثقافية ودينية مختلفة . لهذا السبب تؤيد الولايات المتحدة الأمريكية أنظمة دينية أصولية مثل تلك السائدة في المملكة العربية السعودية وبلاد الخليج ، ولذلك أيضاً ساندت الولايات المتحدة حكومة السادات في مصر وساعدته على تقوية التيارات الأصولية الدينية لضرب القوى العلمانية المصرية الناصرية والاشتراكية والوطنية الديمقراطية ، كما تعاونت الولايات المتحدة الأمريكية مع بعض الحركات الأصولية الإسلامية في حرب أفغانستان ضد النظام المحلي المتحالف مع الاتحاد السوفياتي . ومن المعروف أن منظمة حماس (وهى تيار إسلامي أصولي) قد لقيت التشجيع من الحكومة الإسرائيلية لضرب منظمة التحرير الفلسطينية ، وما أن تحقق لها ذلك حتى بدأت حربها ضد حماس والرغبة في القضاء عليها .

- ٥ - تعنى العولمة أن تسيطر القلة الثرية الحاكمة دولياً على السوق العالمية ، يتم ذلك عن طريق إلغاء الحدود بين البلاد أو إلغاء حماية الدول للإنتاج المحلي مثل رسوم الجمارك أو الضرائب . إن العولمة في جوهرها نوع من الاستعمار الاقتصادي المباشر وغير المباشر وضرب الإنتاج المحلي الزراعي والصناعي والثقافي والفني .
- ٦ - تحاول الدول والشعوب في عالمنا الذي يسمونه العالم الثالث أن تدافع عن استقلالها الاقتصادي لتخرج من قبضة القوى الدولية إلا أنها تفشل في هذه المهمة ، لأسباب متعددة ، منها فساد الحكومات المحلية وتعاونها المعلن أو غير المعلن مع القوى الرأسمالية العالمية ، وبطشها بالشعوب إن حاولت المقاومة بشكل منظم فعال ، لهذا لا يبقى أمام هذه الشعوب المقهورة محلياً وعالمياً من سبل المقاومة إلا الانغلاق على الذات ، والعودة إلى الماضي ، والتمسك بالتراث القديم بسلبياته وإيجابياته ، ومن هنا الردة الثقافية والفكرية التى نشهدها في بلادنا اليوم ، والأصوات المتزايدة التى تطالب بالعودة إلى الهوية الأصلية أو الخصوصية الثقافية أو الدينية أو القومية أو العرقية . إنه نوع من الدفاع عن

أمريكية فى الجامعات والمعاهد مثل صمويل هانتنجتون وبرنار لويس وفراسيس نوكويا وما غيرهم ، وانتقال هذه الأفكار عن طريق العدوى أو التقليد إلى عدد من المثقفين فى بلادنا .

١١ - تحتاج عمليات العولمة الاقتصادية إلى عولمة ثقافية وإعلامية من أجل تصريف بضائعها وسط الشعوب الفقيرة ذات القيم الثقافية والدينية المتخلفة ، لذلك تسعى القوى العالمية لخلق أنماط استهلاك موحدة عالمياً ، وقيم شرائية وأخلاقية ونفسية واحدة ، وقيم جمالية للنساء متشابهة ، وهى تسعى لتشجيع الاستهلاك ، وخلق حاجات مزيفة غير ضرورية لدى البشر ، فهى تثير غرائز الشباب عن طريق أفلام الجنس والجريمة والتنافس ، وتشعل غيرة النساء بالإعلانات التجارية وتدفعهن لشراء الرموش الصناعية ، والمساحيق ، والحلقان فى الأذان ، وأدوات الزينة ، والكموب العالية ، وتنتشر الفلسفة الاستهلاكية القائمة على الشراء النهم للكماليات وسط شعوب محرومة من الضرورات .

فى قرى كضر طحلة فى دلتا النيل أصبح مألوفاً أن تتأرجح الفتاة الريفية الفقيرة على الكعب العالى الذى ينفرز فى حفر الشوارع الزراعية أو أكوام السباح ، وتشترى زجاجة عطر مستورد تخفى به رائحة العرق بدلاً من قطعة صابون محلى تستحم به .

لقد نجحت العولمة الثقافية فى تخريب العقول وتخريب الاقتصاد المحلى سواء بسواء .

١٢ - إلا أن الشعوب تقاوم هذا الاعتداء على مواردها المادية والفكرية ، إنها مقاومة طبيعية إنسانية من أجل البقاء ، وهى ترى أمامها الآلاف من الأطفال يموتون جوعاً أو مرضاً ، والآلاف من الشباب يعيشون حياة أشبه بالموت فى ظل البطالة واليأس والمخدرات ، إلا أن المقاومة الشعبية فى غيبة الوعي أو التنظيم السياسى الواعى تتحرف فى أحيان كثيرة عن الطرق الكفيلة بإنجاحها ودفعها إلى الأمام ، فإذا بها تقاوم ثقافة العولمة السوقية الاستهلاكية بالعودة إلى الماضى أو تراثها القديم

النظام العبودي ثم الإقطاعي حتى الرأسمالي الحديث وما بعد الحديث . لهذا السبب كان الدين سلاحاً سياسياً في جميع العصور حتى اليوم ، فالدين في جوهره إيديولوجية سياسية بالإضافة إلى تعاليمه الخاصة بالحياة الشخصية للرجال والنساء وقيوده الجنسية على النساء فحسب ، تأكيداً للسلطة الأبوية وسيطرة الذكر في العائلة ، فوق الأرض ، وفي السماء .

١٣ - إلا أن الدين سلاح ذو حدين ، قد يخدم الآلهة والقلّة الحاكمة في استبدادها وظلمها ، وقد ينقلب ضدها إلى سلاح في يد المقهورين من الفقراء والمقهورات من النساء . ذلك لأن الكتب الإلهية تحتاج دائماً إلى البشر كي يفسروها ، وإلا تتعطل عن العمل أو التأثير في حياة الملايين الذين لا يقرأون هذه الكتب السماوية . فما بال أن يفهموا ما بها من طلاسّم أو رموز ترمز إلى حياة بشر عاشوا منذ آلاف السنين في الصحراء يركبون الإبل ويشربون من الآبار ليس عندهم ثلاجات ولا سيارات ولا طائرات ولا كمبيوتر وإنترنت !

من هنا المشكلة الرئيسية في الدين ، وهي التفسير ، مَنْ يفسر آيات الله للشعوب ؟ وقد مرت ببلادنا مراحل متقدمة سياسياً ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية وانهزام القوى النازية والفاشستية ، وضعف الاستعمار البريطاني ، بدأت الحركة الوطنية الشعبية في مصر تزدهر ، يحدوها أمل جديد في التخلص من الاحتلال البريطاني والحكم الملكي المحمى بهذا الاحتلال . انتشرت حينئذ التفسيرات المتقدمة المستتيرة للإسلام ، والتي بدأها من قبل الرواد الإسلاميين في أوائل هذا القرن مثل الشيخ جمال الدين الأفغاني ومصطفى عبد الرزاق والشيخ محمد عبده وغيرهم ممن فسرُوا الإسلام على نحو يدعو إلى إعمال العقل والاجتهاد والسعى إلى الحرية والعدالة واستقلال الوطن ، كما أنهم دافعوا عن حقوق المرأة واعتبارها إنساناً كالرجل حسب آية القرآن التي تقول ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ (الأعراف - ١٨٩) ، كما حاربوا تعدد الزوجات . واعتباره ممنوعاً في الإسلام حسب آية القرآن التي

تشتراط العدالة بين الزوجات كأساس لحق التعدد ، وأن هذه العدالة مستحيلة .
لذلك لابد من الاكتفاء بـ زوجة واحدة فقط ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ (النساء - ٣) هكذا قال الله في القرآن .

١٤ - إلا أن هذا الاتجاه الوطنى الإسلامى المتقدم كثيراً ما يضرب من القوى الحاكمة دولياً ومحلياً ، فهو خطر عليهما معاً . لأنه يحول الإسلام من سلاح للاستبداد والاستغلال وتقسيم الشعوب إلى سلاح للعدالة والوحدة والاستقلال فى يد الشعوب .

ويحاول الإعلام العالمى فى ظل العولمة أن يطمس الفروق بين هذا الاتجاه الوطنى الإسلامى المستنير والتيارات الأخرى الأصولية الإسلامية ، كما أنه يشجع الأخيرة ويصورها على أنها هى الإسلام وهى العرب ، وأنهم ليسوا إلا عصابات إرهابية تطلق الرصاص على الأبرياء وتفرض الحجاب والختان على النساء .

لاشك أن هذه العصابات الإرهابية موجودة فى بلادنا وهى تعمل تحت اسم الإسلام ، وتفسره تفسيراً يخدم أغراض التخلف والتمزق ، وتنشغل بحجاب المرأة وعزلها عن الحياة العامة أكثر مما تنشغل بالنهب الاستعماري الاقتصادي ، وتقتل المفكرين المستنيرين أو تضع أسماءهم فى قوائم الموتى ، ويرتفع صوتها ضد القلة من الأقباط ، وتصمت صمماً كاملاً عن عمليات التخريب الاقتصادي التى تتم تحت اسم مشروعات التنمية التى يفرضها البنك الدولى وصندوق النقد العالمى ، وما يندرج تحت اسم الإصلاح الاقتصادى أو التكامل أو التعاون أو التكيف الهيكلى وغيرها من المشروعات التى أثقلت بلادنا بالديون الأجنبية ، وأدت إلى مزيد من الفقر والبطالة والجوع للفقراء والنساء والشباب .

الطريق إلى مستقبل أفضل

رغم أن القوى العالمية الاستعمارية تزداد ضراوة وسلاحاً ، وأن إمكاناتها العلمية تتطور بسرعة فى المجال العسكرى النووى والاقتصادى والإعلامى ، إلا أننا نعتقد أن قوة الشعوب هى الباقية وهى التى هزمت فى الماضى العبودية والإقطاع والاستعمار

القديم ، وسوف تهزم فى المستقبل الاستعمار الجديد والعولمة الاستغلالية من أعلى الهرم وتستبدلها بعولمة أخرى شعبية إنسانية من أسفل الهرم ، تسعى إلى العدل والحرية والسلام والمساواة بين البشر بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو العرق أو الدين أو غيرها .

إن وجودى هنا فى لندن اليوم وإسماع صوتى هذا للعالم كواحدة من الشعب المصرى يؤكد أن أصوات النساء والرجال والشباب والأطفال المنادين بالحرية والعدالة الحقيقية سوف تسمع أكثر وأكثر ، وأن الوعى الجديد كالضوء يمكن أن يقضى على الظلام ، وسوف تتجمع هذه القوى الشعبية المتقدمة فى كل بلد من بلاد العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، تشكل قوة عالمية جديدة أو عولمة شعبية تقاوم العولمة من أعلى التى تفرضها القلة الحاكمة عالمياً ومحلياً .

لقد بدأت أصوات جديدة تنطلق من بلادنا العربية والإفريقية تطالب بعدالة التجارة العالمية ، وترفض المعونات . انطلق هذا الشعار : « تجارة عادلة وليس معونات (Fair Trade and not Aid) وفى مصر بدأت الأصوات ترتفع أكثر وأكثر ضد المعونة الأمريكية ، التى اتضح أن فوائدها تعود إلى الولايات المتحدة الأمريكية وليس إلى مصر ، وقد أشاعت الولايات المتحدة أن مصر وغيرها من البلاد التى تتلقى هذه المعونات لا يمكن أن تعيش دون هذه المعونات الاقتصادية والعسكرية ، وراحت تهدد بقطعها لفرض الضغوط السياسية والاقتصادية ضد مصالحنا ، ولصالح الاستعمار الرأسمالى عالمياً ودولة إسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط ، هذه الضغوط تتخفى أحياناً تحت شعارات إنسانية نبيلة مثل حقوق الإنسان أو حقوق المرأة ، وفى هذا العام ١٩٩٧ تحمست الولايات المتحدة الأمريكية فجأة لموضوع ختان البنات فى مصر واشترطت تحريمه قانوناً لصرف المعونة الأمريكية لمصر ، مما أضر ضرراً بليغاً بالحركة النسائية المصرية المطالبة بتحريم الختان ، الذى أصبح فجأة كأنما هو لصالح الاستعمار الأمريكى أكثر مما هو لصالح النساء المصريات بل المجتمع المصرى كله .

إن قضية التحرير الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في منطقة الشرق الأوسط قد أصبحت قضية معقدة صعبة بسبب تزايد القوة العسكرية والاقتصادية والإعلامية للاستعمار الجديد وحليفته في المنطقة دولة إسرائيل ، ومما أدى إلى هذه الأزمات الاقتصادية والثقافية والدينية التي نعانى منها ، والتي يروح ضحيتها أضعف شرائح المجتمع وهن النساء والفقراء .

وليس أمامنا نحن الشعوب نساء ورجالاً داخل مصر أو خارجها في بلاد العالم أجمع إلا أن نوحّد صفوفنا وأن نسلح أنفسنا بالحقوق والوعى والتنظيمات السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية لخلق قوة عالمية شعبية جديدة يكمن دورها الفعال في التصدي لهذه القوى العالمية الاستعمارية الجديدة وكشف طرقها الحديثة ومابعد الحديثة لتضليل العقول ونهب الموارد .



عودة إلى الوطن (*)

إذا كانت فكرة إخلاء عالمنا الإنسانى من الأسلحة المدمرة فكرة عظيمة حقاً ،
فلماذا لا تسبقنا الدول النووية فى نزع سلاحها ؟ وكيف نسبق نحن مع أننا
لا نملك أى سلاح نووى ؟

إن الخطر النووى لا يأتى من داخل بلادنا وإنما من الخارج ، لأننا لا نملك السلاح
والآخرون فى الخارج هم الذين يملكونه !

رائحة الوطن تعيدنى إلى طفولتى ، فإذا بى أدندن بأغنية أم كلثوم « على بلد
المحبيب ودينى » .. أهز رأسى مع اللحن كطفلة السابعة من العمر ، يخفق قلبى
بالحنين ، قدمى تدق الأرض بالإيقاع الجميل ، ينتبه الرجل الأمريكى الجالس إلى
يمينى فى الطائرة النفاثة المتجهة جنوباً من نيويورك إلى القاهرة ، يرمقنى باندھاش ،
امرأة شعرها الكثيف الأبيض بلون الثلج يوحى بالكهولة . لكن هزات رأسها مع صوت
غنائها يكشفان عن الطفولة .

الرجل الفرنسى الجالس إلى يسارى يمد أذنه ليلتقط كلمة الأغنية . ويسألنى
الأمريكى فى استطلاع : بأى لغة تغنين ؟ وقلت : بلغة الأم « العربية » . منذ طفولتى
أزهبها . سمعت من الناس أنها إلهية خلقها الله . أما اللغات الأخرى ، ومنها
الإنجليزية ، فهى لغات بشرية ، من صنع بنى آدم ، أو الأصح بنى حواء ، وإلا فلماذا
يقولون دائماً لغة الأم ، وليس لغة الأب ؟

ومددت عنقى كالعنقاء أتباهى بانتمائى إلى الأم حواء ، ولأننى أعرف أكثر من
لغة ، لكن الرجل الأمريكى لا يعرف إلا الإنجليزية ، ينطقها بلكنة أمريكية تؤذى آذان
الأساتذة الإنجليز ، من ذوى الثقافة العالية ، يقولون عن الأمريكيين إنهم أفسدوا كل

(*) الأهالى ١٥/٥/١٩٩٦ .

أسميتها « الإبداع والتمرد » ، فالإبداع هو القدرة على التمرد منذ الطفولة ضد الظلم أو القهر أو التفرقة بين البشر بسبب الجنس أو العرق أو العقيدة أو الطبقة أو اللون . حقيقة بديهية لا تحتاج إلى عبقرية .. فالعبقرية هي القدرة على الاحتفاظ بالحقائق البديهية أو الأسئلة الطفولية .

في السابعة من عمري كنت أسأل أمي كلما تطلعت إلى السماء في الليل : مين اللي خلق النجوم يا ماما ؟ ربنا يا بنتي . ومين اللي خلق ربنا يا ماما ؟ سؤال بديهي يسأله الأطفال جميعاً ذكوراً وإناثاً ، سوداً وبيضاً ، من الطبقات العليا أو الدنيا ، لا فرق .

يكبر الأطفال ويُفرض عليهم النسيان ، نسيان هذه الأسئلة البديهية البسيطة بساطة الإبداع أو العبقرية ، يولد بها جميع البشر ، يعيش بها الإنسان الطبيعي مبدعاً متجدداً أو يموت بها الإنسان المكبوت عاجزاً متجمداً .

بعد الغربة تصبح العين حساسة لكل جديد في الوطن تلتقط الجميل والقبيح معاً ، تنسى القبيح لتحفظ بالفرح والتفاؤل . ربما هو التفاؤل الطفولي الساذج لا يفارقني ، أردد لنفسى المثل الشائع : رُبُّ ضارة نافعة ، وأقرأ في الصحف عن منافع بيع الشركات المصرية ، قرأت في السنين الماضية كثيراً في علم الاقتصاد والقطاع العام والخصخصة والسوق الحرة ، لكن عقلي عاجز عن طرد السؤال الطفولي : لماذا يحدث هذا البيع للشركات في بلادنا ولا يحدث في أمريكا ؟ ويشهق الناس كيف تقارنين مصر بأمريكا ؟

كنت أسأل نفسى في السابعة من عمري : لماذا تظهر صورة الملك في الصحف ولا تظهر صورة أمي ؟ ولماذا يكتبون عن الشاعر أحمد شوقي ولا يكتبون عن أبى الشاعر السيد السعداوى ؟ وينقضى أكثر من نصف قرن والأسئلة نفسها تراودنى . لا يقبل عقلى هذه التفرقة بين الأفراد أو الدول بسبب النفوذ أو الفلوس .

وأصابتنى الدهشة الطفولية حين وقعت مصر على اتفاقية نزع السلاح النووى ، وتساءلت : لماذا لم توقع أمريكا أيضاً ؟ وضحك الناس : ياه أمريكا كلها ! دى إسرائيل رفضت التوقيع ! يملأنى الغضب الطفولى الجامح أقوى غضب وأنقى غضب هو غضب

وأفتح مجلة أدبية ، منذ أكثر من شهرين أرسلت إليها نسخة من كتابي الأخير «أوراقى .. حياتى» لكن مثل هذا العمل الأدبى ليس له مساحة فى تلك المجلة أو غيرها من المجلات الأدبية ، فالمساحة كلها يشغلها الرجال فوق الستين أو الشباب الأدبيات تحت الثلاثين أو غير الأدبيات ، أرى صورهن بشعورهن الطويلة المرسلة ، وعيونهن المسدلة الجفون كالقطط المغمضة ، وتحت كل صورة خبر أدبى أو غير أدبى: « عادت فلانة من رحلتها الباريسية ، حيث زارت مصانع المكياج الأنثوى الحديث » ، أو « وقعت فلانة وهى تتزحلق على جليد سويسرا » ، أو « انخطبت فلانة بعد قصة حب .. الخ .

وسألت الناس عن سبب هذه الظاهرة ، فقالوا : إن معظم رؤساء تحرير المجلات والصحف فى مصر وكذلك مالكي الصفحات الأدبية أو النقد الأدبى ، معظمهم رجال تجاوزوا الستين من العمر وأكثر ، وهم بالطبيعة ينجذبون إلى الشباب بحكم مقاومة الفناء .

لهذا السبب يتم تجاهل الأدبيات أو المفكرات أو الأستاذات اللائى تجاوزن الأربعين أو الخمسين ، فما بال من تجاوزت الستين من العمر ؟



على ساحل المحيط الأطلنطى كنت أرى الرجال العجائز فوق السبعين يتطلعون إلى الفتيات الشابات ، تتجذب عيونهم إلى الأجساد العارية داخل البيكينى ، لكن عيون الفتيات تتجذب إلى جيوب هؤلاء الرجال أكثر مما تتجذب إلى أجسادهم أو وجوههم . لا يفيق الرجل من الوهم إلا عند الإفلاس أو ضياع الفلوس والحب معاً .

ربما هو توفيق الحكيم الذى قال ما معناه : إن المرأة المفكرة لا يمكن أن تكون شابة جميلة ، والشابة الجميلة لا يمكن أن تكون مفكرة .

هذه الفكرة الطبقيّة الأبوية تسود العالم منذ نشوء العبودية وطرد النساء من مجالات السياسة أو الفكر ، وكانت المرأة فى الحضارات القديمة السابقة على النظام العبودى هى إلهة العقل أو المعرفة أو الذكاء . فى مصر القديمة كانت « إيزيس » إلهة

المواطنون سواء في الظلم (*)

يذكرنى قانون الصحافة الجديد بقانون العيب الذى دخلنا به السجون فى
سبتمبر ١٩٨١ .

تذكرنى كلمة « تكدير » و « إزدراء » فى قانون الصحافة الجديد بكلمات من
نوع « العيب » والتقاليد العائلية وأخلاق القرية ، والتي دخلنا بها السجون منذ
أربعة عشر عاماً ثم تغير العهد وخرجنا من السجون أبرياء وبريئات بلا ذنب ولا جريمة
ولا يحزنون .

قضينا فى السجن ثلاثة شهور ثم خرجنا دون تعويض أدبى أو مادى عن الظلم
الذى وقع علينا .

وهذا هو الحبس الاحتياطى الذى يتم جزافاً وتعسفاً والذى يدافع عنه المسئولون
فى مجلس الشعب اليوم تحت اسم المساواة والعدل . لأن توزيع الظلم على المواطنين
بالتساوى هو العدل .

والمفروض رفع الظلم والغاؤه وليس تعميمه .

لقد تم اكتشاف مادة فى الدستور (رقم ٤٠) تنص على أن المواطنين متساوون
أمام القانون .

لهذا يجب تطبيق مبدأ الحبس الاحتياطى التعسفى على الجميع دون تفرقة بين
حملة الأقلام وحملة المطاوى قرن غزال أو الجنازير .

وأنا بالطبع مع الدستور وخاصة هذه المادة التى تساوى بين البشر بصرف النظر
عن الجنس أو الطبقة أو العقيدة .. إلخ وأطالب بتطبيق هذه المادة على الجميع فعلاً
وليس من يكتبون فى الصحافة فقط .

(*) جريدة العربى ١٣/٦/١٩٩٥ .

المفروض أنه كلما زادت السلطة زادت المسؤولية والمحاسبة والعقوبة على الأخطاء أو المعلومات الخاطئة المنشورة على الناس .

ونحن نعرف أن الصحافة ليست إلا السلطة الرابعة ، وهناك ثلاث سلطات أخرى وهي السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية ، والمفروض تطبيق الحبس الاحتياطي على هذه السلطات الثلاث قبل تطبيقها على سلطة الصحافة .

المفروض أيضاً تعديل جميع القوانين في مصر لأنها كلها غير دستورية ولا تنطبق عليها المادة ٤٠ التي تساوى بين المواطنين . فهل يساوى قانون الزواج والطلاق بين المواطنين بصرف النظر عن نوع الجنس ؟

وهل يساوى قانون الجنسية بين الأب والأم في منح الجنسية المصرية لأطفالهم ؟ لماذا لا يدافع المسئولون في مجلس الشعب عن هذه المساواة الدستورية لجميع المواطنين وليس فقط لفئة واحدة من الناس ؟

المفروض أن القانون خلق ليحمى الشعب ضد أصحاب السلطة وليس العكس ، وأنه كلما زادت السلطة زادت المسؤولية والمساءلة وقلت الحماية والحصانة وليس العكس .

منطق معكوس يؤكد لنا أن العدالة في بلادنا عمياء معصوبة العينين .

وأن القوة هي التي تغير وتعديل القوانين وليس الحق .

إن قضية الصحفيين أصبحت اليوم هي قضية الساعة فالصحافة لها صوت عال وهي السلطة الرابعة في الدولة وهم قادرون على الدفاع عن حقوقهم بما لهم من مساحات كبيرة في الصحف .

لكن هناك فئات أخرى مظلومة في بلادنا ومنها « النساء » والزوجات والأمهات والأطفال في قوانين الأسرة والجنسية والعقوبات . إلا أن هذه الفئات « النساء والأطفال » مازالوا بلا حول ولا قوة في هذه الساحة التي تتصر فيها القوة على الحق دائماً .



بين الطب والأدب(*)

شمس فبراير هنا فى ديرهام تذكرنى بشمس مصر والهند فى الشتاء . قوية دافئة قادرة على تبديد السحب . شمس الجنوب كما يسمونها هنا . لكن السحب تتجمع من وراء نافذنى الزجاجية ، خلف أطراف الأشجار فى الغابة القريبة ، يسمونها غابة « ديوك » ، ويدوى صوت الرعد والبرق ، ويهطل المطر سيولاً تشبه سيول إثيوبيا وسرى لانكا ، والغابات الاستوائية ، ثم تسطح الشمس من جديد ، قوية دافئة . كم أحب القوة مع الدفء . والشمس أحبها كأنما هى أمى . أعانق شعاعها الممدود إلى عبر حواجز الزجاج والشجر .

أمامى فوق الشاشة أرى بيل كلينتون ، واقفاً فى اجتماع شعبى فى مدينة ديترويت . إنه يعقد هذه الاجتماعات الشعبية مع الناس ليظل على اتصال بناخبيه ، وأسمعه يقول : أدركت بعد أول ثلاثة أسابيع فقط من العمل فى مكتبى بالبيت الأبيض أن من السهل جداً أن ينعزل رئيس الولايات المتحدة عن الناس الذين انتخبوه . إنه يصبح أسيراً لبيروقراطية لا نهائية من الأوراق والاجتماعات واللجان . سوف أعلن حرباً على هذه البيروقراطية ، وسوف أخفض عدد اللجان والوظائف داخل البيت الأبيض . يمكن إلغاء - على الأقل - نصف هذه اللجان والوظائف دون أن يؤثر ذلك على العمل ، بل لعله يسرع بإنجاز العمل .

وقالت لى فينيسا إحدى طالباتى فى الفصل : يحاول بيل كلينتون تخفيض الإنفاق الحكومى وإلغاء حوالى ١٠٠,٠٠ وظيفة بيروقراطية فى البيت الأبيض . وإنه مشغول بالخطة الاقتصادية التى سوف يعرضها على الكونجرس يوم ١٧ فبراير ١٩٩٣ .

فوق الشاشة تقدمت امرأة بيضاء ترتدى معطفاً من الفرو وسألت بيل كلينتون : هل ستزيد نسبة الضرائب علينا نحن الذين يطلق عليهم الطبقة الوسطى ؟ وقال

(*) فبراير ١٩٩٣ .

بيل كلينتون : ربما ، وبادرتة المرأة غاضبة : لماذا ؟ ألم تعدنا فى حملتك الانتخابية أنك لن تزيد الضرائب ؟ قال : نعم ، ولكنى عرفت أن الدين القومى يزيد بمقدار ٥٠ بليون عما كنت أعرفه أثناء الانتخابات . على الجميع أن يتحملوا أعباء الأزمة الاقتصادية الناتجة عن سياسة الحزب الجمهورى السابقة . علينا أن نوزع العبء على القادرين من الطبقة الوسطى ، وعلى الشركات الصناعية الكبرى أن تدفع ضرائب أكثر لأنها تكسب أكثر . إنها تدفع الآن ٣٤٪ ضرائب فقط ، وربما تزيد قريباً إلى ٣٦٪ ، لابد أن يدفع الأثرياء ويتحملوا عبئاً أكثر من الفقراء .

وقالت فينيسا : يحاول بيل كلينتون عن طريق هذه الاجتماعات الشعبية أن يضغط على الكونجرس من أجل الموافقة على زيادة الضرائب وخفض الإنفاق الحكومى والاستهلاك .

قلت : أعتقد أن سياسته الداخلية أفضل من سياسة بوش السابقة ، خاصة بالنسبة للفقراء والنساء .

قالت : نعم ، لكن سياسته الخارجية أسوأ .

هناك تناقض بين السياسة الداخلية والخارجية ، لأنه ينظر إلى مصالح الأمريكيين الذين انتخبوه فقط !

وسمعت صوت أحد الشباب يسأله فوق الشاشة : كيف تعلن عن مبادرة سلام فى يوغوسلافيا ؟ هذه المبادرة لا تعنى إلا أنك مستعد للتفاوض مع مجرم الحرب فى الصرب ! لماذا توافق على مكافأة مجرمى الحرب من الصرب فى حين أنك رفضت من قبل صدام حسين ووجهت إليه الضربات الصاعقة ؟

ينقطع الإرسال التليفزيونى وتظهر سيارة أمريكية طويلة ترقص فوقها امرأة فى يدها كأس من النبيذ . لا أعرف إن كان الإعلان عن نوع جديد من النبيذ أو نوع جديد من السيارات . وتضحك هايدى وتقول : أو نوع جديد من المايوهات . (لاحظت أن المرأة كانت ترتدى مايوه من قطعتين) . ويقول « كريس » أحد الطلاب فى الفصل وهو أيضاً طالب بكلية الطب ، (ويدرس إلى جوار الطب الموسيقى والأدب والإبداع) ،

أنا أفضل بيل كلينتون عن جورج بوش ، إنه شاب على الأقل ، يبدو لى أقل خداعاً من غيره ، لكنه على الأقل أول رئيس أمريكى يُعين امرأة وزيرة للعدل .

قلت له : فى مصر منذ ستة آلاف سنة كان عندنا فى مصر وزيرة للعدل ورئيسة للقضاء اسمها « معات » (حاولت أن أتذكر أمجاد الماضى البعيد لأنسى أننا لا يوجد عندنا قاضية واحدة اليوم) .

وانتهت فترة الإعلانات ، وظهر بيل كلينتون يتحاور مرة أخرى مع الناس فى اجتماعاته الشعبية الجديدة ، دار الحديث حول مشاكل الصحة والأمراض . سألته طفلة فى التاسعة من عمرها بصوت واضح جرىء : كيف تضمن لى كرئيس للولايات المتحدة صحة جيدة بلا أمراض فى حين أن أبى وأمى عاطلين فقيرين ؟! صفق لها الناس بحماس . و صفق لها أيضاً بيل كلينتون ، وقال : سأجعل التأمين الصحى فى أمريكا يغطى جميع الناس .

لكن « كريس » طالب الطب والأدب قال لى : لا ، ليس هذا هو الحل . الحل الوحيد للقضاء على الأمراض وعلى رأسها مرض « الإيدز » أو « الدرن » (الذى يتزايد انتشاره مؤخراً بين الطبقات الفقيرة) هو أن تعطى الحكومة مزيداً من الاهتمام والإمكانيات للطب الوقائى وليس الطب العلاجى . الطب الوقائى يقضى على أسباب المرض فى المجتمع ، لكن الطب العلاجى يعالج المرض فقط ولا يقضى على الأسباب .

ذكرنى كلام « كريس » بالسنين الأولى حين تخرجت فى كلية الطب ، وشعرت أن الطب الوقائى هو الأساس وليس الطب العلاجى . لكنى كنت أرى أساتذة الطب العلاجى يركبون السيارات الفاخرة ، تبدو عليهم علامات الثراء والسلطة . أما أطباء الطب الوقائى فكنت أراهم يتشعبطون فى الترام (الذى كان يسير فى شارع القصر العينى) وتبدو عليهم علامات الفقر وشحوب الوجه .

وانفجرنا بالضحك . وقال « كريس » : تماماً ، الأمر هنا هكذا حتى اليوم ، وأنا سوف أتخصص فى الطب الوقائى رغم كل شيء !

وضحكت فينيسا قائلة : « كريس » غاوى فقر . وقال « كريس » : لا ، ولكنى أود أن أبذل جهداً لتغيير مهنة الطب هنا فى أمريكا ، وأن تتحول إمكانيات البحوث الطبية

من المجال العلاجي إلى المجال الوقائي . هذه معركة إذا لم نخوضها نحن الشباب فمن يخوضها ؟

تذكرت نفسي حين كنت شابة ، وحين بدأت أنشئ مع زملائي من الأطباء جمعية للطب الوقائي والثقافة الصحية ، وإصدار مجلة الصحة ، وعمل مشروعات ثقافية للفلاحين والفلاحات . هل كنت أنفخ في قرية مخرومة ؟ أجل ، من الأفضل أن أنسى سنين الشباب الأولى (وكوني طبيبة) لأتحدث عن الأدب .

كافيربوى فى أمريكا

إنه الروائى الأفريقى الأمريكى « مارك ماثابان » اسم ربما لا يعرفه أحد فى بلادنا . لكنه أصدر ثلاث روايات أصبح لها دوى فى الولايات المتحدة . جاء إلى هنا ، إلى جامعة « ديوك » يوم ١١ فبراير ١٩٩٣ ليلقى محاضرة عن العنصرية فى الولايات المتحدة . إن الروائيين فى أمريكا يعتبرون ضمن العلماء أو الأساتذة الذين يمكن لهم أن يلقوا المحاضرات فى الجامعات (وإن لم يحملوا أية شهادات) . ولد مارك ماثابان فى قرية فقيرة قرب جوهانسبرج فى جنوب أفريقيا . كان يلعب بالكرة الشراب فى الشارع مع الأطفال السود الفقراء . ثم بدأ يلعب بكرة التنس . ثم أصبح بطلاً رياضياً ، ثم هجر الرياضة ليكتب الروايات . وترك الحكم العنصرى فى جنوب أفريقيا وجاء إلى أمريكا . أصبح فى سنين قليلة من ألمع الروائيين هنا . أول رواياته بعنوان « كافيربوى » (Kaffir Boy) تحكى عن حياته الأولى فى جنوب أفريقيا . روايته الثانية جاءت بعنوان : كافيربوى فى أمريكا . تحكى عن تجربته فى أمريكا كرجل أسود . ويقول مارك ماثابان : مشكلة البيض والسود فى أمريكا أن كلاً منهم يتكلم عن الآخر وليس مع الآخر . إن أحداث لوس أنجلوس الأخيرة تدل على أن العنصرية فى أمريكا لاتزال موجودة . ربما أشد من العنصرية التى عرفتتها فى جنوب أفريقيا . هناك حكم عنصرى واضح المعالم . لكن العنصرية هنا تتخفى (مثل النظام العالمى الجديد) تحت شعار براق من الإنسانية والمساواة وحقوق الإنسان . إن البطل الأسود الذى أثر فى حياتى ليس مارتن لوثر كينج وليس مالكوم إكس ، ولكنه بطل التنس الأسود « آرثر آشى » الذى

مات منذ أسبوع واحد ، لكنه ترك بصماته على حياتي وغيرني إلى إنسان أعرف حقوقى وأدافع عنها .

ذكريات لها رائحة البنزين

أهدتني « إنارا » واحدة من طالباتي في قسم المرأة والإبداع كتاباً جديداً لمؤلف اسمه « ديفيد وونارونير الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية . قالت لي إنارا : قرأت الكتاب أربع مرات وبكيت كثيراً وأنا أقرأه . سيرة حياة رجل فقير يتعرض للاغتصاب وهو صبي في الخامسة عشر . يعتدى عليه رجل كبير . يعيش حياة مفعمة بالألم . يتعرض صديق عمره لمرض الإيدز . يراقبه وهو يموت يوماً وراء يوم . يقول المؤلف في نهاية الكتاب : الحب مثل الألم مثل القسوة يربط أحداث الحياة . لم أندم في حياتي على شيء سوى أنني ظللت صامتاً سنيماً طويلة . لم أنطق إلا مؤخراً عن طريق كتابة هذه السيرة الذاتية . أجل ، الصمت هو الموت ، وقد أعادت إلى الكتابة الحياة .



سمعة مصر (*)

بدلاً من أن نبحث عن الأسباب الحقيقية التي تسبب إلى سمعة بلادنا في الخارج ، فإننا نقدم كبوش فداء من الأدباء أو الأدبيات أو المخرجين السينمائيين أو المسرحيين أو أصحاب الدراسات العلمية .

المعروف في جميع أنحاء العالم أن الأعمال العلمية أو الأدبية ذات القيمة الإنسانية هي الأعمال الناقدة الكاشفة عن أمراض هذا المجتمع بهدف العلاج ، وإلا فلماذا يكتب الأديب أو الأدبية ، وعمَّ يبحث الباحث العلمى إذا كان كل شيء على ما يرام وليس في الإمكان أبدع مما كان ؟

وأعظم الأعمال الباقية في التاريخ الإنسانى هي أعمال هؤلاء الأدباء والأدبيات الذين أمسكوا القلم وكأنه مشرط الجراح ، وكشفوا عن عيوب مجتمعاتهم أو مشاكلها من فقر أو ظلم أو استبداد أو استغلال داخلى أو خارجى .

أعظم أعمال « طه حسين » هي « الأيام » التي كشف فيها عن عبودية الفقر والجهل في القرية التي عاش فيها وأعظم أعمال « ديستيوفيسكى » هي « الجريمة والعقاب » التي جعلت عيون الشعب الروسى تتفتح على الأسباب الحقيقية للجريمة وكيف كان الضحية يعاقب والجانى يطلق سراحه . وأعظم أعمال « يوسف إدريس » هي « الحرام » التي كشف فيها عن أن الحرام الحقيقى هو الظلم والفقر واستعباد النساء . وأعظم أعمال « فرجينيا وولف » هي « غرفة خاصة » التي أسقطت بها الزيف الاجتماعى الإنجليزى ، والقيم الأخلاقية المزدوجة التي عرفت « بالأخلاق الفيكتورية البيورتيانية » . وأعظم أعمال « يوسف شاهين » هي فيلم « باب الحديد » الذى كشف فيه عن الفساد الاجتماعى المتخفى تحت ستارة شفافة من النفاق والكذب ، وأعظم أعمال الشيخ على عبد الرازق هو أصول الحكم في الإسلام ، وغير ذلك من الأعمال الإبداعية الناقدة للفكر السائد .

(*) نشر بجريدة الأهرام - ١٨/٦/١٩٩٢ .

مأزق الصحافة الرسمية في مصر (*)

هذا المقال لم يشأ أحد أن ينشره في مصر . أغلقت جميع المؤسسات الصحفية أبوابها أمام أى نقد موضوعي للصحافة المصرية . إنها صحافة رسمية في جوهرها خاضعة لسلطة الدولة إلا تلك الصحف التي تملكها التيارات الدينية المتطرفة ، أو مجموعات يمينية أو يسارية تنشر لأعضائها أساساً .

وفي ٣ مارس ١٩٩٠ نشر صحفي في عموده اليومي بجريدة الأهرام مقالاً تحت عنوان : سلمان رشدي جديد في مصر - اتهم فيه أحد الكتاب (علاء حامد) بالإلحاد ، لأنه نشر رواية (مسافة في عقل رجل) تسخر من الأنبياء والأديان وطلب تقديمه للنيابة العامة .

أصابني غضب شديد ، ولم أكن أعرف الكاتب ولا الرواية ، وتصورت أن كثيراً من الأقلام سوف تكتب ضد هذا الصحفي بالأهرام وضد تقديم الكاتب للنيابة لكني لم أقرأ شيئاً يذكر . فأرسلت رداً إلى جريدة الأهرام قلت فيه إن عمل الصحفي هو الكتابة وليس استدعاء النيابة للكتاب . ولم تنشر الجريدة مقالتي بالطبع ، فقد دأبت هذه الجريدة وغيرها من الصحف على تجاهل المقالات الناقدة لكبار الصحفيين المعينين فيها بواسطة الدولة .

بعد ذلك ببضعة أسابيع فوجئت باستدعاء من محكمة أمن الدولة - طوارئ - بمصر القديمة - تطلبني لأدلى بشهادتي في قضية مرفوعة ضد هذا المؤلف بسبب هذه الرواية . وكان المؤلف هو الذي طلب شهادتي ، وأرسل إليّ الرواية ، فقرأتها ، ووجدت أنها في مضمونها ناقدة للأفكار والقصص أو الأساطير الواردة في الكتب الدينية ، لكن الأسلوب خال من الجاذبية الأدبية حسب ذوقي الخاص ، لكني رأيت أن

(*) القاهرة - ١٩٩٢/١/٢ .

من حق المؤلف أن يكتب ما يشاء على شكل رواية أو شعر أو أى عمل إبداعي آخر ، وعلى الآخرين المعارضين أن يردوا عليه بكتاب آخر ، ولهذا ذهبت إلى المحكمة وشهدت فى صف المؤلف وحرية الفكر والتعبير ، وقلت إن الأعمال الأدبية يجب ألا يحكم عليها بالمقاييس الدينية أو الأخلاقية السائدة ، وليس من حق مؤسسة الأزهر أن تتدخل فى مجال الفنون أو الإبداعات الأدبية .

ثم انقضى عامان ولم أسمع شيئاً ، حتى فوجئت بهذه الضجة فى الصحافة المصرية ، فقد تكلم أخيراً كبار الصحفيين فى الجرائد والمجلات الرسمية ، واعترضوا على قرار المحكمة بحبس المؤلف والناشر ٨ سنوات ، ودافعوا عن حرية التعبير ، وطلبوا من رئيس الجمهورية التدخل لإلغاء القرار حفاظاً على صورة الدولة المصرية فى الخارج كدولة ديمقراطية .

وقد اكتشفت أن هذا الحماس من قبل هؤلاء الصحفيين الرسميين لم يأت إلا بعد أن أذيع خبر حبس الكاتب والناشر في الإذاعة البريطانية وانتقل عبر الموجات الأثرية إلى العالم الواسع .

وكان المفروض أن تحدث هذه الضجة الصحفية منذ عامين ويتصدى كل الذين يكتبون الآن لزميلهم الصحفي بالأهرام الذى طلب استدعاء النيابة للمؤلف وحكم عليه بالإلحاد ، لكن هؤلاء جميعاً صمتوا ، وهذا الصمت نوع من التضامن غير المعلن مع زميلهم الصحفي الذى يملك عموداً يومياً في جريدة كبرى هى الأهرام ، والتخلى عن مسئوليتهم تجاه حرية التعبير وتجاه روائى غير معروف بلا روابط مع السلطة أو الشلل الصحفية الرسمية .

لكن الصحافة في بلادنا أصبحت لا تقل قسوة وقهراً عن محاكم أمن الدولة
طوارئ - وغابت عنها حقوق الإنسان الأساسية حتى في دفاعها عن هذه الحقوق .
ذلك أنه دفاع شكلي ليس غايته حماية الإنسان وتأكيد حقوقه ، بقدر ما هو دفاع عن
الدولة وصورتها الديمقراطية في الخارج ، وتدعيم موقع الصحافة وهؤلاء الصحفيين
الرسميين في علاقتهم بالسلطة القائمة .

لهذا السبب ساد الصمت عامين كاملين ، وكان الجميع يعرفون أن هذا المؤلف يتعرض للقهر فى المحاكم بل اعتقل فترة من الوقت دون أن يتكلم أحد .

وقد ساد الصمت أيضاً فى الصحافة الرسمية المصرية حين صدر قرار حكومى غير قانونى بإغلاق جمعية تضامن المرأة العربية فى مصر ومصادرة أموالها وتحويلها إلى جمعية أخرى اسمها « نساء الإسلام » .

وبدأت صحف التيارات الدينية المتطرفة تؤيد قرار الحكومة وتتهم جمعيتنا بالإلحاد ، وأرسلت ردوداً إلى هذه الصحف فلم تنشر ، وأرسلت مقالات إلى جميع الصحف الرسمية فى مصر . فلم ينشر شيء . حتى خبر إغلاق الجمعية لم تنشره جريدة الأهرام ، أما جريدة الأخبار فلم تنشر إلا بياناً حكومياً كاذباً ضد الجمعية .

ودافع عن حق الجمعية وعارض قرار الحكومة قلة قليلة من الصحفيين وصمت الباقون جميعاً .

إن الصحافة الرسمية فى بلادنا تلعب لعبة مزدوجة خطيرة . فهى تخشى التيارات الدينية المتطرفة المتصاعدة ، ولذلك تساندها أو تجاهلها على حساب حرية الفكر والتعبير ، وهى فى الوقت نفسه تريد الحفاظ على موقعها من السلطة القائمة وصورتها التى ترسمها لنفسها عن الديمقراطية وحرية التعبير والفكر .

إنه مأزق خطير تعيش فيه الصحافة الرسمية المصرية ، وهذا هو سر تناقضها الواضح ، أو تردها ما بين الصمت الكامل (أو التضامن الخفى) على إهدار حقوق الإنسان وحرية التعبير ، ثم هذه الهبات المفاجئة المؤقتة من الصراخ دفاعاً عن حرية التعبير وحقوق الإنسان . وهى هبات كلامية فحسب دون تحمل أى مسئولية ، ومن هنا ادعاء معظمهم أنهم لم يقرأوا الرواية ، أو أنها رواية تافهة هزيلة ، وأنهم إنما يدافعون فقط عن حرية التعبير بشكل عام .

وهم بذلك يعفون أنفسهم من التعرض لمضمون الرواية الذي ينقد الأديان ، وبصرف النظر عن قيمة الرواية الأدبية فإن مضمونها يستحق المناقشة ، لكنهم يخافون على أنفسهم من أى اتهام بواسطة التيارات الدينية المتطرفة .

وسوف تظل الصحافة الرسمية المصرية فى هذا المأزق لا تعرف الخروج منه (بسبب الخوف والتمسك بالسلطة) كما فعلت الصحافة الرسمية فى معظم البلاد العربية إلى أن تتولى التيارات الدينية المتطرفة الحكم بالانتخابات أو بغير الانتخابات .



أزمة الخليج والاستعمار(*)

كشفت أزمة الخليج العربى عن وجه الاستعمار القبيح . خلعت الولايات المتحدة الأمريكية كل الأقنعة الأيديولوجية التى كانت ترتديها فى غزوها العسكرى هنا وهناك وأرسلت جيوشها وطائراتها إلى الخليج العربى لتحارب من أجل بترولها ، نعم بترولها ، هكذا تعتبر أمريكا بترول العرب هو بترولها .

وكشفت البلاد الاستعمارية الأخرى مثل بريطانيا وفرنسا النقاب عن وجهها أيضاً .

مسمار جحا فى الوطن العربى هو بترول السعودية . والكويت ! مَنْ يكسب مِنْ بترول العرب ؟ إنها أمريكا وأوروبا واليابان . يعانى الملايين فى الوطن العربى من الفقر والجوع على حين تتدفق عائدات البترول فى بنوك الغرب وتثرى ثراءً فاحشاً قلة قليلة يعيشون فى باريس ونيويورك ولندن والرياض والكويت .

وانتظرنا من اجتماع القمة العربية بالقاهرة يوم الجمعة ١٠/٨/١٩٩٠ أن يشجب التدخل الأمريكى العسكرى فى الخليج بمثل ما يشجب التدخل العسكرى العراقى فى الكويت . لكن قرار القمة العربية لم يشجب إلا حاكم العراق ، أما حاكم أمريكا فقد صمت عنه الجميع .

كان المنطقى أن يطلب الرؤساء والملوك العرب خروج القوات الأجنبية الاستعمارية من الخليج وأن يتولى العرب حل مشكلة العراق والكويت ، بطريقتهم ومن أجل مصالح البلدين وليس من أجل مصالح أمريكا .

لكن هذا لم يحدث !

ويا لها من إهانة لنا جميعاً أن يصمت الرؤساء والملوك العرب عن إدانة التدخل الأمريكى فى شئوننا المحلية والإقليمية .

(*) القاهرة - ١٩٩٢/١/٢ .

الرأى السائد فى الصحف هو رأى الرؤساء والملوك العرب وليس الآراء الأخرى .
ليس من حق أحد أن يدين أمريكا ، الصحف ترحب بإدانة العراق فحسب ، وتتسابق
الأقلام لإدانة صدام حسين وحده .

وبالرغم من أن بعض المفكرين الأمريكيين ينقدون التدخل الأمريكى فى الخليج
العربى ، وتصل آراؤهم إلى الصحف ووسائل الإعلام ، لكن المفكرين العرب الذين
ينقدون التدخل الأمريكى لا يجدون وسيلة للتعبير عن رأيهم المخالف .

إن القرار الصادر عن القمة العربية فى رأى قرار غير صائب ، لأنه لم يطالب
بإجلاء القوات الأمريكية من الخليج العربى قبل التفاوض لحل مشكلة العراق والكويت ،
وهو غير صائب أيضاً لأنه وافق على إرسال قوات مسلحة عربية إلى السعودية دون أن
يصر على أن تخرج القوات الأمريكية منها أولاً ، وإلا فسوف تعمل القوات الأمريكية مع
القوات العربية لضرب العراق ، وهذه حرب كلها فى صالح أمريكا ، وإلا فلماذا تحارب
أمريكا برجالها وعتادها فى الخليج العربى ١٩

ومن هم هؤلاء الجنود العرب الذين سيحاربون مع أمريكا ضد إخوانهم
العراقيين ١٩

إن العاملين الأتراك فى القواعد الأمريكية بالأراضى التركية أضربوا عن العمل
ورفضوا أن يحاربوا مع أمريكا ضد إخوانهم فى العراق . فهل يضرب الجنود العرب عن
العمل إذا فُرض عليهم السفر إلى الخليج العربى للحرب مع الجنود الأمريكيين ضد
العراق ١٩

إن أمريكا تدعى أنها تحارب لأنها ترفض استيلاء دولة على دولة أخرى بالقوة
المسلحة . فلماذا لا تحارب أمريكا بعتادها ورجالها ضد إسرائيل لتحرر فلسطين
والأرض المحتلة بمثل ماتريد تحرير الكويت ١٩

كانت فرصة أن تخرج القمة العربية يوم ١٠/٨/١٩٩٠ بقرار قوى موحد يكشف
النقاب عن وجه الاستعمار الأجنبى فى عالمنا العربى ، يرفع رؤوسنا من المهانة
والإذلال ، وبالتالي يصبح قادراً على حل مشكلة العراق والكويت بما فيه صالح
البلدين .

لكن هذا الوضع وهذا القرار الذى جاء عن القمة لم يؤد إلا إلى ضعف الأمة العربية وخوفها من بطش أمريكا ، وخضوعها لتهديداتها ، وكشف أيضاً عن أن أزمة الوطن العربى هى هذه الدويلات النفطية التى هى محميات أمريكية فى الواقع والحقيقة .

أنا لم أسافر إلى العراق منذ عشرين عاماً ولم أمدح أبداً حاكم العراق فى أى يوم ولا أى حاكم عربى آخر ، ولست مع القوة المسلحة لحل أى مشكلة .

لكنى أرى أن قرار القمة العربية جاء مخيباً للأمال والشعور الوطنى العربى العام ، وكشف عن أن الشعوب العربية رغم صمتها وهوانها وعدم قدرتها على الإضراب مثل عمال تركيا ، لكنهم أكثر عروبة وأكثر شجاعة من ملوكهم وحكامهم وكتابهم ، على الأقل بسبب إحساسهم بالغضب والاستياء رغم تهليل الصحف والأبواق !



محاكمة جورج بوش (*)

كنت مستغرقة في روايتي الجديدة أصبح مع شخصياتها في عوالم من الخيال لا تخطر ببال الكثيرين حين أخرجني جورج بوش بالقوة المسلحة من عالم الفن العميق المدهش ، إلى عالم السياسة والكذب والمؤامرات . كان ذلك في الأسبوع الأول من أغسطس ١٩٩١ حين أصدر جورج بوش قراره المنفرد (دون عرضه على الكونجرس) بإرسال قواته العسكرية إلى الخليج العربي والتي بلغت ٢٠٠ ألف جندي خلال أسابيع قليلة ، وسمعته وهو يفتح شفتيه المتلاشيتين ويعلن بصوته المعدني أن الأمر ليس إلا للدفاع عن المملكة العربية السعودية ، ولم تكن السعودية قد طلبت منه الدفاع عنها ، أو أنه (كما اتضح فيما بعد) أرغمها على طلب الحماية الأمريكية من خطر العراق .

ومنذ أغسطس ١٩٩٠ حتى اليوم يوليو ١٩٩١ ، أي عشرة شهور كاملة ، وأنا أعيش عالم السياسة الدولية والعربية ، أشهد بعيني أقبح عالم يمكن أن يعيش فيه البشر ، عالم الكذب السياسي والإعلامي الفاضح قد يذهب بعقل الإنسان العاقل إلى ما يشبه الجنون ، وأي جنون !

رأيت في بغداد يوم ١٠ يناير (قبل الحرب بستة أيام) فتاة عراقية تبصق أمام السفارة الأمريكية في بغداد ، وتقول لأحد مصوري شبكة التلفزيون الأمريكي « كفى كذباً » فالعراق يريد الحل السلمي ، لكن جورج بوش يريد الحرب !

ورأيت في العاصمة عمان الأردنية يوم ١١ يناير شاباً فلسطينياً يحدث نفسه كالمجانين ويصرخ في الشارع قائلاً : « ياناس ياهوه إسرائيل تحتل أراضى ثلاثة بلاد عربية ، وتقتل الآلاف منا ، وتحتل فلسطين منذ أربعين عاماً ، ولا يرسلون إليها قوة عسكرية كتلك التي أرسلوها إلى الخليج » .

(*) نشر بجريدة الأهالي - ١٩٩١/٧/٣ .

الغضروفى شهدت على الشاشة احتفالات جورج بوش بالانتصار فى الحرب ضد العراق .. أى جنون هذا ؟

ثلاثون جيشاً ضد جيش واحد من جيوش العالم الثالث ١٩ خسر العراق أكثر من ١٢٠,٠٠٠ جندي وخسرت الولايات المتحدة ١٢٠ جندياً فقط ، هذا خلاف تدمير العراق اقتصادياً وعسكرياً ومقتل ما لا يقل عن ٢٥٠,٠٠٠ من المدنيين العراقيين وهدم جميع منشآت الحياة الضرورية من محطات توليد الكهرباء وتتنقية المياه وإنتاج الأغذية ولبن الأطفال والدواء والطرق والكبارى ووسائل الاتصال والمواصلات .

يفتح جورج بوش شفتيه المتلاشيتين ويضحك مزهواً بالنصر . وأكاد أفقد عقلى ، فأحمل حقيبتى وأعود إلى القاهرة ، لكن ما أن أفتح التليفزيون المصرى وأشهد تلك الاحتفالات بالنصر حتى يختلط على الأمر ، وأظن أننى لازلت فى الولايات المتحدة .

أضرب بقبضتى فى الهواء كالمجانين . أليس هناك من هيئة عادلة واحدة فى العالم قادرة على محاكمة جورج بوش ؟

بينما أنا أكلم نفسى كنزلاء العباسية دق جرس التليفون وجاءتنى دعوة رامزى كلارك لحضور جلسة الاستماع الأولى لمحاكمة جورج بوش على جرائم الحرب فى الخليج يوم السبت ١١ مايو فى مدينة نيويورك .

كنت عاجزة عن المشى فوق قدمى دون الشعور بآلام وعذاب يشبه عذاب القبر ، ولم يكن فى إمكان جسمى أن يسافر لولا الجنون ، وقد سافرت لا أعرف كيف حملتى قدمائى رغم الألم ولم أندم على ذلك وقد شهدت جلسة الاستماع التى استغرقت ثمانى ساعات متصلة يوم ١١ مايو ١٩٩١ بنىويورك . وأثلج صدرى صوت رامزى كلارك من فوق المنصة وهو يوجه إلى جورج بوش تسع عشرة تهمة يصفها بأنها أبشع جرائم الحرب فى تاريخ البشرية وتندرج التهم من التآمر والتخطيط لحرب الخليج منذ عام ١٩٨٩ إلى قتل الآلاف من الشعب العراقى واستخدام الأسلحة الممنوعة دولياً كالبالم، وإفساد الأمم المتحدة وتخريب ذمم الدول كلها عن طريق دفع بلاين الدولارات أو إرسال معونات سلاح أو طعام أو إعفاء من فوائد ديون ، أو تسهيل قروض من البنك الدولى أو .. أو .. أما تلك البلاد التى عارضت جورج بوش مثل « اليمن » فكان عقابها

تلقت الوفد هذا المقال من الدكتورة نوال السعداوى ، ولما كانت الكاتبة قد تعرضت فيه إلى شخصية دينية مرموقة هو فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، فإن الوفد تنشر المقال ومعه تعليق من الشيخ الشعراوى .

أيهما نلوم : الكبار أم الصغار ؟ (*)

فى الصفحة الأولى من جريدة الأهرام (١٧/٣/١٩٨٨) رأينا صورة كبيرة لرئيس الدولة وهو يضافح الشيخ متولى الشعراوى ويسلمه وسام الجمهورية من الطبقة الأولى وفى اليوم نفسه والأيام الثلاثة السابقة كانت الصحف والمجلات تنشر علينا قصة تحطيم الآلات الموسيقية وضرب الطلبة المشاركين فى الحفل الفنى داخل جامعة أسيوط . وفى تصريح لوزير الداخلية (المصور ١٨/٣/١٩٨٨) قال إن سلطات الأمن لم تدخل جامعة أسيوط إلا بناء على طلب رئيس الجامعة الذى استنجد بالبوليس بعد أن اقتحمت جماعة من الإسلاميين الحرم الجامعى والصالة التى أقيم بها الحفل الموسيقى ووصلت المعركة إلى حد إراقة الدماء .

ولايزال الناس يتحدثون عن هذا الحادث وقد راعهم أن تصل الأمور ببعض الجماعات الإسلامية إلى حد اعتبار الموسيقى حراماً ومن فعل الشيطان . وبدأ بعض الكتاب والصحفيين يعبرون عن غضبهم ويتساءلون : هل الموسيقى حلال أم حرام ؟ (جريدة الأهرام ١٦/٣/١٩٨٨) .

وتذكرت على الفور حديث الشيخ محمد متولى الشعراوى الذى نشر فى جريدة اللواء الإسلامى (١٦ يوليو ١٩٨٧) وقال فيه بالحرف الواحد : « إن هؤلاء الذين ينامون على صوت موسيقى بيتهوفن وليس على ترتيل القرآن لا يعرفون الله » . وقال أيضاً فى الحديث نفسه : « إن الفنانين والفنانات الذين تابوا على يديه واعتزلوا فن التمثيل لهم جنات النعيم لأنهم تابوا إلى الحق بعد ضلال » .

وكننت أتوقع أن تثير مثل هذه الأفكار (البعيدة عن الإسلام الصحيح) أقلام الصحفيين والكتاب فى بلادنا . لكنى لم أقرأ أى رد . فكتبت مقالاً فى هذا الشأن .

(*) جريدة الوفد ٢٢/٣/١٩٨٨ العدد ٣٢٦ صفحة ٦ .

وفى بلادنا عدد قليل من المفكرين والكتاب ذوى الشجاعة الأدبية والفكرية .
ومنهم من يؤلف كتباً عن الإسلام الصحيح غاية فى الأهمية . إلا أن هؤلاء لا
ينالون إلا الهجوم ، أو التجاهل والصمت ، وحين يجد الواحد منهم نفسه وحيداً فى
المعركة فإنه ينسحب بهدوء وقد يكف عن الكتابة تماماً . وقد آن الأوان أن يكف
أصحاب الأقلام عن صمتهم حين تكون الكلمة واجبة . وأن يكف المسئولون عن
تناقضهم وتراجعهم أمام هجمات البردة الحضارية . وأن يتكاتف كل من يهمله صالح
هذا البلد من أجل الدفاع عن الحق والمنطق وحماية الإسلام من الدجل السياسى
والتجارة باسم الدين .

إن أجهزة الإعلام وعلى رأسها التلفزيون أسلحة خطيرة يمكن أن تستخدم لتتوير
الناس ، ولا أدري لماذا يُفسح المجال بالساعات للشيخ محمد متولى الشعراوى دون أن
يُفسح المجال للآراء الأخرى التى ترد عليه ؟ والغريب أن الحكومة تصرخ الآن بعد
أحداث جامعة أسيوط ، فى حين أن أجهزة الإعلام الحكومية وعلى رأسها التلفزيون
لاتزال تمنع أكثر الآراء استتارة من الوصول إلى الناس .

تعليق الشيخ الشعراوى :

إن مجرد التعليق على كاتبة هذا المقال يرفعها كثيراً ، ولكن على أية حال ، هى
وجهة نظر تُحترم ، ويكفينى أن يكون هذا الهجوم الذى نالنى بالمقال مهوراً بإمضاء
صاحبته ، فذلك أبلغ رد لأن الكل يعرف لمن تعمل لحسابه ، ويعلمون لمن يعمل الشيخ
لحسابه ، وشتان بين من فى جانب حساب خالق ، ومن فى جانب رعونة مخلوق ، وأنا
أحمد الله ، وأعتبر ما يقال من هذا الصنف وساماً آخر ، لأنى لو لم أغضب هؤلاء
أعتبر نفسى فاشلاً فى مهمتى ، فزيدونى حملات لازداد بالله ثقات .



رحلة الأيام الستة(*)

رأيتها تسير ، حولها موكب من موظفى البلاط ، وجهها مشدود العضلات مثل كبار رجال الدولة ، جسمها فيه ارتخاء الراحة ونصف قرن من الطاعة بلا سؤال . عيناها فيهما انطفاء حزن دفين ، يعومان تحت سحابة مائية لونها أصفر . قدماها داخل حذاء جلدى ثمين تتحركان بوقار وهيبة أصحاب المناصب العالية ، لكن الكعب العالى يحدث على بلاط المطار صوتاً أنثوياً يصبح مع اهتزازة الردفين السمينين شيئاً جارحاً أو فتنة مستترة داعية للرذيلة ، ورأسها مرفوع ملفوف داخل الحجاب علامة امتلاك الفضيلة وقصر منيع فى الجنة .

كنت واقفة فى الطابور الطويل أمام باب الطائرة الخلفى مع ركاب الدرجة الدنيا ، وهى تهبط (أمام باب الدرجة الأولى) من سيارة أنيقة كتب عليها (VIP) وتعنى بالعربية « الأشخاص ذوى الأهمية الكبرى » .

والتقت عيوننا ، تجاهلتنى كعادة ذوى الأهمية الكبرى فى مواجهة الواقفين فى الطوابير ، كانت زميلة دراسة ، جلست إلى جوارى ستة أعوام متصلة ، وفى امتحان آخر العام تمد عنقها ناحية ورقتى لتتقل الإجابة .

داخل الطائرة رأيت المضيضة المصرية تبتسم وتحنى بأدب جم لكل من حادتها بلغة أجنبية . تلاشت الابتسامة الملائكية وحلت مكانها تكشيرة شيطانية حين تحدثت معها باللغة العربية ، وتجاهلتنى المضيضة الحسناء بمثل ما تجاهلتنى زميلة الدراسة .

محاولة جديدة لتفسير القرآن

ثلاثة أيام قضيتها فى مؤتمر دولى نسائى يضم خمسة وثلاثين امرأة من البلاد الإسلامية . فى بيت تحوطه جبال فرنسا وسويسرا ، فى عزلة كاملة عن

(*) نشر بجريدة الأهالى ١٩٨٨/١٠/٥ .

من الحديث النبوى ، وإذا اختلف الحديث مع الآية أخذت بالآية وترك الحديث ، ومن الضرورى فى كل الأحوال أن نُرجع الحديث أو الآية إلى ظروفها والبيئة التى صدرت فيها .

ذكرتلى د. رفعت حسن برابعة العدوية فى حماسها لجوهر الدين وحبها لله (رمز الحق والعدل) أكثر من خضوعها للطقوس المكررة الموروثة . ألم تقل رابعة العدوية أنها تريد حرق الجنة وحرق الجحيم حتى يحب الناس ربهم دون طمع فى جنته أو خوف من ناره ١٩ .

عبرت الجبال الفاصلة بين فرنسا وسويسرا ، ووجدت نفسى فى « چنيف » أطل على البحيرة اللؤلؤية يسبح فيها الأوز الأبيض وعصافير الجنة تزقزق ، وشباب فى عمر الزهر يتمشى بين خضرة الجبال وأشعة الشمس ، السيارة تتطلق بى إلى مبنى الأمم المتحدة الفخم فوق الربوة العالية . حشود عربية أمام الباب . إنه المؤتمر الخامس للمنظمات غير الحكومية حول القضية الفلسطينية .

على صدرى وجدت لافتة مشبوبة بدبوس تحمل اسمى واسم المنظمة الدولية غير الحكومية التى أمثلها : « جمعية تضامن المرأة العربية » (أكره تعليق اللافتات على الصدور وبعد أن مررت من بوابة الأمن نزعتها ووضعتها فى حقيبتى) .

تقلت بين القاعات حيث اللجان المختلفة . تعرفت على كثير من الوجوه العربية والفلسطينية : خالد الحسن ، إميل حبيبى ، عصام عبد الهادى ، فتحى عرفات ، منذر عنتباوى ، فاروق أو عيسى ، وثريا انطونيوس التى أهدتنى كتابها الأخير باللغة الإنجليزية ، وشابات كثيرات من الأرض المحتلة ، وشابات فلسطينيات من عرب ١٩٤٨ اللاتى لم يغادرن فلسطين منذ نشوء إسرائيل ، يقدن المظاهرات داخل تل أبيب والقدس تضامناً مع الانتفاضة ، تشترك معهن بعض النساء الإسرائيليات ، علقت أحدهن على صدرها فى المؤتمر لافتة كبيرة مكتوب عليها بالعربية والعبرية :

« يسقط الاحتلال الإسرائيلي » .. الانتفاضة هي الطريق إلى السلام .

شابة فلسطينية من أم الفحم اسمها « ريم » أشارت إلى هذه المرأة الإسرائيلية وقالت لى : اسمها « أرنا » وهى تخرج معنا فى المظاهرات حاملة العلم الفلسطينى وابنها أيضاً يشترك معها ، وفى مظاهرة « أم الفحم » (٢١ أغسطس ١٩٨٨) ضربها الجنود الإسرائيليون بكعوب البنادق ولم تكف عن الاشتراك معنا حتى اليوم .

اقتربت « أرنا » وجلست معنا وقالت : أنا أشترك فى المظاهرات ضمن حركة متصاعدة داخل إسرائيل لإنهاء الاحتلال . من حق الشعب الفلسطينى أن تكون له دولته المستقلة فوق أرض وطنه من خلال تنشيط الناس أقاوم فكرة الصهيونية ، ومن خلال النضال يدرك الناس عرب ويهود أن الانتفاضة هي الطريق إلى السلام العادل ، لقد أدت الانتفاضة إلى تحريكنا داخل إسرائيل لنتساءل عن أصل نشوئها منذ عام ١٩٤٨ ؟

ومن الجليل قابلت « امتياز » و « مها » وهما أول من ضربهما البوليس الإسرائيلى حين بدأت المظاهرات . ناولتني « مها » بعض الصور للمظاهرات تتقدمها النساء ، تحمل إحداهن طفلة خلعت عيناها اليسرى (بواسطة رصاصه مطاطية يستخدمها الجنود الإسرائيليون) وذراعها الأيمن مكسور داخل الجبس .

واقبلت نحونا الدكتورة شارلوت (وهى أستاذة جامعية نمساوية) وفى يدها بعض نماذج من الرصاص المصنوع من المطاط أو الزجاج . وضعت الرصاص فى يدي . إنها فى حجم الزيتونه شفاقة تشبه « الطساس » الذى كنا نلعب به ونحن أطفال ، ونضرب به البلى الصغير .

وقالت الدكتورة شارلوت : « تستخدم إسرائيل هذا النوع الجديد من الرصاص حتى لا يرى بالأشعة ويعجز مشرط الجراح عن إخراجه من الجسم ويظل كامناً مسبباً النزيف والالتهابات حتى الموت ، ومن ١٠ ديسمبر ١٩٨٧ حتى ١٧ إبريل ١٩٨٨ تسبب

هذا الرصاص المطاطي أو الزجاجي في خلع ٢٣ عيناً من عيون الشعب الفلسطيني ، أكبرهن امرأة عمرها ٧٣ عاماً ، وأصغرهن طفلة عمرها ٣ شهور .

وفي الاستراحة رأينا فيلماً بعنوان « الانتفاضة طريق الحرية » أخرجته المخرجة الإنجليزية « جيني مورجان » أدت مواقفها المؤيدة لقضية فلسطين إلى فقدانها منصبها في التليفزيون البريطاني ، وأصبحت الآن « حرة » تخرج ما تشاء من أفلام . حصلت على نسخة من الفيلم . طوله عشرون دقيقة فقط ، لكنه يصور الانتفاضة والمواجهة بين الشعب الفلسطيني الأعزل والجيش الإسرائيلي المدجج بالسلاح الأمريكي ، مشهد لا ينسى في الفيلم لأم فلسطينية تحمي بجسدها وذراعيها طفلها من قبضة الجنود ، التقوا حولها بالبنادق يحاولون انتزاع طفلها من بين ذراعيها وهي تقاومهم . حتى الموت.

وفي الردهة الواسعة خارج القاعات قال لي الدكتور فتحي عرفات شقيق ياسر عرفات : إذا امتدت الثورة إلى النساء والأطفال فلا شيء يوقفها إلا إحقاق الحق .

أعظم ما في المؤتمر أنه جمع بين الساعين والساعيات إلى الحرية والسلام العادل بصرف النظر عن الجنسية أو اللون أو الدين أو الجنس أو اللغة .

وفي الركن الآخر من الردهة كان يدور نقاش حاد أشبه بالسباب بين شابة فلسطينية من « نابلس » ورجل فلسطيني من عرب ١٩٤٨ . كان الرجل غاضباً يتهم الفتاة بأنها من الموساد وهي تقول عنه لا يجيد إلا الخطب الثورية في المؤتمرات ، ثم يعود إلى بيته في إسرائيل ليضرب كل من يحمل العلم الفلسطيني « تحت شعار » احترام القانون .

وهكذا وجدت نفسي وسط معركة وراء الستار بين فريقين من الفلسطينيين وزحفت سحابة قاتمة فوق السماء الزرقاء بين الجبال الخضراء واختلط رذاذ المطر فوق نوافذ الأمم المتحدة الزجاجية برذاذ المعارك الكلامية بين الأشقاء والإخوة .

المبالغة في مدح رئيس الدولة(*)

فى بداية توليه الحكم عام ١٩٨١ أعلن الرئيس حسنى مبارك أنه لا يريد أن تتشر صوره فى الإعلانات ، ولا يريد مقالات مدح وإطراء . وأن أهم ما يريده هو العمل والإنتاج والعدالة الإجتماعية .

ومنذ توليه الحكم زار الرئيس مبارك عدداً كبيراً من مواقع العمل والمؤسسات الإنتاجية ، والتقى بفئات مختلفة من الشعب . ولم تكن زيارته للمؤسسات الصحفية هى الزيارة الأولى للمؤسسات الإنتاجية (باعتبار أن الصحافة مؤسسة تنتج الكلام) . إلا أن الصحفيين صوروا هذه الزيارة وكأنها هى اللقاء الأول بين الرئيس والشعب .

ولا غرابة فى ذلك فالصحفيون هم أعلى الفئات صوتاً ولذلك تحظى أمورهم بحجم أكبر من حقيقتها .

ولاشك أن زيارة رئيس الدولة للجامعات مثلاً أو للمصانع لا تقل أهمية عن زيارته للمؤسسات الصحفية ، وقد تكون أكثر أهمية . وكلنا نعرف أن سلطة رئيس الدولة هى أعلى سلطة فى البلد ، ومن هنا الأهمية الكبيرة لنزول الرئيس إلى مواقع العمل وضرورتها ، إلا أننا ندرك أيضاً أن المشاكل فى بلادنا لن تحلها الزيارات الرسمية ولن يحلها فرد واحد . إنما هى تقتضى مساهمة كل فرد فى مصر .

إن المبالغة فى تضخيم دور الفرد الحاكم ليس إلا نتيجة تصغير دور الشعب . إن المبالغة فى مدح أى عمل يقوم به صاحب السلطة ليس إلا نتيجة المبالغة فى تجاهل أى عمل يقوم به من لا سلطة له ، كما أن المبالغة فى مدح الحاكم وهو فى السلطة ليس إلا الوجه الآخر للمبالغة فى ذمة حين يخرج من السلطة .

(*) جريدة الوفد ١٠/١/١٩٨٥ العدد ٤٤ - السنة الأولى صفحة ٤ .

واننى أتفق مع الرئيس مبارك فى حريه ضد الفساد والرشوة وتجار العملة . كما أننى أتفق معه تماماً فى أن الديمقراطية والعدالة الاجتماعية هما أساس الحكم . لكنى أختلف معه فى الطريقة التى يمارس بها الديمقراطية . ولايزال كثير من القوانين ومنها قانون الأحزاب وقانون الانتخابات وقانون الطوارئ وغيرها قيوداً على الديمقراطية الحقيقية . كما أن أغلب قطاعات الشعب وأكثرها عدداً لاتزال خارج الممارسة الديمقراطية (الشباب والنساء) . كذلك أرى أن هناك تفرقة بين الأحزاب ، وأن الحزب الحاكم يحظى بنصيب الأسد فى كل شئ ، وخاصة فى أجهزة الإعلام التى تدخل كل بيت . كما أن أسماء بعض الكتاب والمفكرين والأدباء والأديبات لاتزال ممنوعة من الحديث فى الراديو أو التليفزيون ، تضمهم القائمة السوداء ، أو القائمة « الرمادية » وهى قائمة جديدة لا سوداء ولا بيضاء وأصحابها ممنوعون أيضاً ولكن بقرار شفهي وليس قراراً مكتوباً .

وكنت أتوقع أن يزور الرئيس مبارك صحف المعارضة أيضاً بمثل ما زار الصحف القومية .

وقد قرأت ما نشر فى الصحف عن زيارة الرئيس لهذه الصحف ووجدت أن هناك بعض المقالات التى يمكن أن تتدرج تحت « المبالغة فى مدح الرئيس » ولا أحد ينكر أن الرئيس مبارك قد يستحق المدح أحياناً ، لكن المبالغة فى هذا المدح قد تضر ولا تفيد .

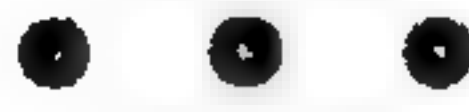
وفى جريدة « الأهرام » قرأت تصريحاً للأستاذ أحمد بهاء الدين يقول فيه : إن أهم حدث ثقافى فى عام ١٩٨٤ هو زيارة الرئيس مبارك للمؤسسات الصحفية . وتصريح آخر للدكتور يوسف إدريس يقول فيه : إن خطبة الرئيس مبارك كانت أهم حدث ثقافى لعام ١٩٨٤ . وقد يكون ذلك صحيحاً فى نظرهم ، إما لأن الساحة الثقافية خاوية تماماً ولا يتحرك فيها إلا فارس واحد هو رئيس الدولة ، وإما أنهم لا يبذلون الجهد الكافى للتعرف على أعمال الأفراد الآخرين .

وقد قرأت أيضاً أن الأستاذ توفيق الحكيم غادر فراش المرض حتى لا يتخلف عن لقاء الرئيس عند زيارته جريدة الأهرام ، وهذا حماس عظيم وشعور طيب تجاه رئيس

الدولة قد يشاركه فيه الكثيرون ، ولكنى كنت أود من أديب كبير مثل توفيق الحكيم أن يظهر شعوره الطيب أيضاً تجاه زميلة له فى اتحاد الكتاب أرسلت إليه رسالة من السجن بعد أن حبسها السادات دون تحقيق . لم يرد الأستاذ توفيق الحكيم على الرسالة ولم يكتب حرفاً واحداً يعترض على اعتقال عدد من الأدباء والأدبيات دون تحقيق .

لقد تأملت الصورة التى نشرت فى الصفحة الأولى لجريدة الأهرام بعد زيارة الرئيس مبارك لها . تأملت وجوه كبار الكتاب عندنا يتوسطهم الأستاذ توفيق الحكيم أكثر من ثمانين رجلاً (ليس بينهم امرأة واحدة) ولا يقل عمر الواحد منهم عن خمسة وخمسين عاماً (ليس بينهم شاب واحد) . تعرفت على معظم وجوههم وابتسمت فى أسى . لقد رأينا هذه الوجوه فى الصور من قبل جالسين أمام السادات وأمام عبد الناصر .

ظلوا صامتين أمام عبد الناصر ، ثم عاد إليهم الوعى بعد موته . وظلوا صامتين أمام السادات ، ثم تكلموا بعد موته ، وها هم أمام الرئيس مبارك . أيتكلمون ؟ أم يصمتون أيضاً حتى موته ؟



الطاعة والمعارضة في السياسة وغيرها(*)

يحظى الإنسان بالإعجاب إذا وقف أمام الحاكم وقال رأيه بصدق دون خوف ، لكن الناس لا تعجب بمن ينتظر موت الحاكم ليقول رأيه .

لا شك أن نقد الماضي وتقييمه أمر ضروري لكن الناس لا تعجب بمن لا يرى الأخطاء إلا بعد أن تصبح ماضياً .

ويعجب الناس بالكلمات الإنسانية الجميلة مثل العدالة الاجتماعية والحرية والإنتاج وطهارة اليد واللسان . لكن الناس لا تعجب بمن يحول هذه الكلمات إلى أسطوانات تدور ليل نهار أو ندوات لا تكف وحوار لا يكف .

الحوار كثير والعمل قليل .

ما أسهل الحوار إذا لم يؤد إلى فصل أو نقل أو سجن . وما أسهل الصمت إذا كان في الكلام ضرر . ألا أن الكلمة المنطوقة أو المطبوعة أصبحت وكأنها هي الوسيلة الوحيدة لإثبات الوجود . حتى في الأحزاب السياسية تحتل الجريدة أو الكتابة في الجريدة أهمية أكبر من العمل مع الناس أو ما نطلق عليهم الجماهير .

لا يمكن أن ننكر ما للصحافة أو الكتابة أو الحوار من تأثير لكن هل تصبح الكلمة هي الفارس الوحيد .

لاشك أن الأضواء تسلط على الكلمة أكثر مما تسلط على العمل . الذين امتطوا الكلمة عرفهم الناس واشتهروا ، أما الذين يعملون ويكدون في العمل فلا أحد يعرفهم . من يستغرق في عمل عميق جاد لا يجد الوقت للكلام ، ومن يتكلم كثيراً لا يجد الوقت للعمل أو التفكير المتعمق .

(*) نشر بمجلة الهلال / فبراير ١٩٨٢ .

هناك دائماً علاقة عكسية بين العمق والانتشار الواسع ، وهناك علاقة طردية دائمة بين كثرة الكلام وقلة الفعل . وقد أصبحت العادة أن ينتظر الناس ما يقوله رئيس الدولة ليرددوه ، ما أسهل التردد .

فى الماضى القريب ترددت كلمات مثل الأمن الغذائى ، والثورة الخضراء ، والحضارة ، والرخاء . وهذه الأيام أصبحنا نسمع كثيراً عن الجدية والعمل والقدوة والانفتاح الإنتاجى والنفاق . وأخشى أن نسمع قريباً عن ندوة جديدة بعنوان « طهارة اليد واللسان » .

لا يمكن أن ننكر أن المشاكل كثيرة ، مشكلة الشباب ، مشكلة العنف والإرهاب ، والمشكلة الاقتصادية ، الفساد ، الرشوة ، السلبية ، التسبب ، التسمم بالأطعمة الفاسدة ، والهواء الفاسد وتلوث البيئة .. إلخ .

هذه المشاكل كلها موجودة ، لكن المشكلة ليست فى وجود المشاكل ، ولكن فى نظرتنا إلى هذه المشاكل ، كيف نشخصها ونكتشف أسبابها الحقيقية وكيف نعالجها . ولا يشير أى واحد منا إلى نفسه وتتجه أصبعه دائماً متهماً الآخرين وينسى نفسه ، أو يتكلم كلاماً جميلاً فإذا شاهدنا ما يفعل وجدنا فعله مناقضاً لكلامه .

رأينا مفكراً كبيراً يرأس ندوة عن مشكلة الديمقراطية ، وسمعناه يقول إن المشكلة الأساسية هى مصادرة رأى الآخر ، ومع ذلك لاحظنا أن المفكر الكبير كان أكثر أعضاء الندوة مصادرة للرأى الآخر أثناء المناقشة .

مثال آخر ذلك المفكر الكبير الذى يفرقنا بكلمات عن المساواة والحرية فإذا رأيناه فى بيته نرى الأب المستبد برأيه والزوج المسيطر الذى لا يقبل المناقشة . ثم هذا الكاتب الكبير الذى ينقد سلبية الشعب المصرى لكنه ينتهى بأن يدعونا إلى انتظار ما سوف يفعله رئيس الدولة . أى يدعونا إلى السلبية .

لاشك أن رئيس الدولة فى مصر له من السلطات ما ليس لغيره . وفى يده تغيير

القوانين والسياسات والأشخاص ، وهذه مشكلة كبيرة تتعارض مع الديمقراطية ، لكن المشاكل التي نعانى منها ضاربة بجذورها في مجتمعنا وفي تاريخنا وفي بيوتنا وفي أنفسنا مما لا يكفى معه تغيير السياسات أو الأشخاص أو القوانين .

إن هذا الانتظار لما سوف يفعله أو يقوله الحاكم نوع من السلبية الجماعية التي تعودنا عليها في حياتنا العامة والخاصة . والحياة الخاصة ليست إلا نموذجاً مصغراً من الحياة العامة .

في حياتنا الخاصة يعتمد الأطفال والشباب والنساء على فرد واحد هو الأب « أو الجد في الريف » . قد يشغل الطفل أو الشاب أو المرأة في الحقل لكن العمل هنا لا يكسبهم الاعتماد على النفس أو حق إصدار الرأي أو القرار ، فالرأى والقرار لصاحب السلطة الأوحده ، الأب أو الجد .

إن حياتنا الخاصة ليست ديمقراطية . فكيف يمكن أن تكون حياتنا العامة ديمقراطية ؟ الطفل أو الشاب الذى لا يتعود مناقشة أبيه والاختلاف معه لا يمكن أن يناقش رئيسه أو يختلف معه ، والمرأة التى تفرض عليها الطاعة منذ الولادة لا يمكن أن يكون لها رأى مستقل عن أبيها أو زوجها أو رئيسها فى العمل .

يقول الأب : إن طاعة الله واجبة وطاعة الأب واجبة . وفى عصور قديمة تكرر الأب فى زى الإله ، وفى عصور حديثة ارتدى الحاكم رداء الأب ، وأصبحت الطاعة هى الفضيلة الأولى فى حياتنا .

العقل ينفى الطاعة ويوجب الجدل والمناقشة ، والطاعة تنفى العقل وتوجب الموافقة على آراء الآخرين .

والإنسان عقل . قوة الإنسان وطاقته هى العقل . إذا لم يجد العقل الطريق أمامه مفتوحاً خرجت قوة الإنسان وطاقته بغير عقل ، خرجت قوة مدمرة عدوانية إرهابية تضرب وتقتل .

دلت الأبحاث النفسية أن أكثر الأطفال عدوانية كان لهم آباء شديدي السيطرة والاستبداد بالرأى . ما معنى الاستبداد بالرأى ؟ معناه أن تنفى عقول الآخرين وتفرض رأيك .

الطفل إنسان له عقل كامل وليس ناقصاً كما يتصور البعض ، والمرأة أيضاً ليست ناقصة العقل . الإنسان فى طفولته أو شبابه له عقل يختلف عن عقل أبيه لأنه يعيش ظروفاً لم يعيشها أبوه . ويقدر ما يحتاج الطفل أو الشاب لتجربة أبيه يحتاج الأب أيضاً لتجربة ابنه ورأيه وإحساسه أو تجربة ابنته ورأيها وإحساسها .

كثير من الناس لا يتصورون إمكانية مناقشة فكرية عميقة بين أب وطفله أو طفلته . أذكر أننى ناقشت أبى حين كنت فى العاشرة من عمرى حول فكرة وجود الله ، وعدالته ، ولماذا يخاطب بلغة التذكير دائماً ، ولم يفزع أبى من أسئلتى ، ولم ينهرنى أو خوفنى من التفكير فى أى شىء . لم يضع سقفاً لتفكيرى لا أتجاوزه ، ولهذا تعودت أن أناقش كل شىء ، ولا أوافق على رأى ما إلا بإقتناع . إذا اقتنعت وافقت وإذا لم أقتنع اعترضت .

الاقتناع يعنى التفكير وتشغيل العقل، أى الجدل والمناقشة ثم الموافقة أو المعارضة.

كثير من الناس يتصورون أن « المعارضة » شىء يتعلق بالسياسة أو الأحزاب السياسية فقط . ولكن المعارضة أو القدرة على المعارضة أسلوب فى حياة الإنسان ، وقدرة عقلية ونفسية يكتسبها الإنسان فى الطفولة وتنمو معه كلما كبر ، أو تتكمش وتذبل .

المعارضة ليست عضواً ينبت فجأة للإنسان بدخوله حزب المعارضة ، أو بصدور قرار يدعو إلى الديمقراطية . ولا يمكن أن تخلو بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا ومكاتبنا وأعمالنا وحقولنا ومصانعنا من الديمقراطية ثم تظهر فقط تحت قبة البرلمان .

وقد طالب الكثيرون بالقضاء على النفاق . لكن ما هو النفاق ؟ أليس هو المحصلة

الطبيعية لفضيلة الطاعة ؟ الطفل الذى يطيع بغير اقتناع يتعلم أن يوافق أباه . والمرأة المطيعة منافقة . والمرءوس المطيع منافق . الطاعة هى الوجه الآخر للخوف . الخوف يؤدي إلى النفاق . لكننا لا نصل إلى جذور الأشياء ، والسبب هو الخوف ، الخوف من أن نصل إلى التناقض الصارخ أو الازدواجية المريضة فى القيم والتقاليد التى درجنا عليها . سنصل حتماً إلى اكتشاف أن النفاق والطاعة وجهان لعملة واحدة .

وأخطر الرذائل هو ما يرتدى ثوب الفضائل . وأخطر الفضائل ما يرتدى ثوب الرذائل . إذا أردنا علاج النفاق فلا بد أن نعيد النظر فيما نسميه فضائل أو رذائل . علينا أن نقول إن الطفل الفاضل هو الطفل الذى يناقش ويجادل وليس الطفل المطيع . علينا أن نقول إن الزوجة الفاضلة هى التى تناقش وتجادل وليست هى الزوجة المطيعة . لكننا مازلنا نقول عن الطفل المجادل إنه مشاغب والمرأة المجادلة تعتبر شاذة أو غير طبيعية أو مشاكسة . أما المرءوس المجادل فهو شخص حقوقه وغير أهل للثقة .

أى رئيس عادل لا يخشى الجدل . والأب أو الزوج العادل لا يخاف النقاش . والإله العادل يدعو إلى الحوار وتشغيل العقل .

إن غياب العدالة والمساواة بين البشر على اختلافهم هو الذى يحرم الجدل أو الحوار أو المعارضة . وهو الذى يحول الطاقة العقلية الإنسانية من البناء والخلق والتقدم إلى الضرب والعدوان والتأخر .

العدوان نوع من المقاومة الإنسانية الطبيعية ضد سد المنافذ أمام العقل . وقد يتجه العدوان إلى الإنسان نفسه ، فيقتل نفسه بنفسه . إن هذه السلبية الفردية والجماعية التى نتصف بها كأفراد وشعب ليست إلا نوعاً من المقاومة البطيئة ، أو الإضراب الدائم الخفى الخائف من أن يظهر ، إضراب عن بذل الجهد فى عمل أو لهو أو فرح ، أو حتى حزن .

السلبية هى الوجه الآخر من اليأس ، واليأس هو النهاية الطبيعية للخوف . حيثما يعيش الخوف يعيش النفاق . وحيثما تفرض الطاعة يفرض الخوف .

حدث في صباح ٢٥ نوفمبر ١٩٨١ (*)

أحملك في الظلام . لم يكن الفجر شقشق بعد . متكورة حول نفسي كجنين في بطن أمه . أتمسك الدفء من الجدران التي تحوطني . هل أنا مت وعدت إلى الرحم الأصلي أم أنني لم أولد بعد .

الصمت والظلمة يلتفان حولي كعباءة سوداء . كثافة مثلجة تضغط على أذني في صفير متصل لانهائي . أخرج رأسي من بين القضبان . أرقب أول نقطة ضوء . أول قطرة ندى . ظمأ شديد يلهب حلقى . ماذا تعيشت بالأمس . لا أذكر .

لا أذكر شيئاً . حتى ملامح طفلي نسيتها . أعظم صفات الإنسان أنه ينسى . وهل كنت أحياء في السجن إذا تذكرت ملامح طفلي . عيونه حين يصحو من النوم فلا يجدني ولا يعرف أين أنا .

ذلك الصباح هل فتح عينيه ، منذ متى ؟ ثمانون يوماً .. ثمانون عاماً .. ثمانون قرناً .. ربما .. فالزمن في السجن غير الزمن ، والساعة الواحدة تمتد أمامنا بغير نهاية كالدهر .

الصوت العذب الحزين يشق السكون ، الناي المنفرد في الظلمة تغريد كصوت الأم ، كالدعاء ، كالبكاء ، كالضحكة الطويلة يطلقها طفل ، أو صرخة وحيدة في الليل .

كل فجر أنتظره وأسمعه . وكل غروب أيضاً . لماذا لا يغرد الكروان إلا في السكون والظلام . لماذا لا يحلق إلا في هذه اللحظة الساقطة بين الليل والنهار . طائر وحيد في الكون .

أرفع رأسي إلى السماء . أريد أن أرى الكروان . لم أر في حياتي أي كروان . لكن السماء سقف أسود مسدود . والكروان يسمعه الإنسان في السجن دون أن يراه .

(*) نشرت بجريدة الأهرام ١٩٨١/١٢/٨ .

أسندت رأسى إلى مسند السيارة . أنا إنسانة ولست « طرداً » يحمل من مكان إلى مكان . أنا لست ريشة فى مهب الرياح . عيناى ترقبان الشوارع والناس . امرأة تسير فى الشارع وتحرك ذراعيها بحرية . يبدو أنها فى طريقها إلى بيتها . اتسعت عيناى بدهشة . السير فى الشارع أعجوبة والذهاب إلى البيت أمر خارق للعادة ، ضرب من المستحيل . لم أسمح لنفسى أن أحلم به . مثل هذه الأحلام قد تضعف الإنسان فى السجن وبالفريزة وحدها غابت عنى الأحلام البعيدة .

لمحت امرأة تقود سيارة وتنصرف فى طريق جانبى . كيف يتحرك الناس بهذه البساطة فى الشوارع . لكن الحرية تاج على رؤوس الناس لا يراها إلا المسجونون .

توقفت السيارة أمام قصر كبير لا أعرفه . فجأة تذكرت شكله واسمه وعادت إلى كل ذاكرتى دفعة واحدة ، حتى وجه طفلى رأيتة .

- قصر العروبة ؟

- نعم ، وستقابلين السيد رئيس الجمهورية الآن . خفقة قلب سريعة . وابتسامة حذرة . لازلت أحمل السجن داخلى ، والسجن هو أن تشك فيما تسمع حتى ترى بعينيك وتلمس بيديك .

فى البهو الأنيق رأيت الوجوه المتعددة . بعضها مندهش لا يصدق . بعضها فرح يغلبه الفرح . بعضها متألم يسترجع آلامه . الأصوات تتعانق . القلوب تخفق . الضوء قوى مبهر يؤلم العيون المرهقة . عيون شابة وعيون عجوز ، وعيون ليس لها عمر كأنما هى أكبر من الزمن ، لا تشيخ ولا تموت . عيون الإنسان المصرى البسيط يدخل بحدائه المترب وملابسه المعفرة ليقول كلمته أمام التاريخ .

كنت قد أعطيته كلماتى فوق ورقة السجن . وقرأها كلها ثم قلب الورقة وقرأ الوجه الآخر . وكان يمكن أن أكتفى وأمضى دون أن أقول شيئاً . لكنى رفعت يدي وقلت كلمتى ليسمعها فهل سمعها أم راحت هباء فى الهواء ؟ .





عربية للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043

قضايا المرأة والفكر والسياسة

بين دفتى هذا الكتاب بعض من نتاج عقل وفكر وإبداع الدكتورة نوال السعداوى ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أنه لم تحظ كاتبة باهتمام ، مع أو ضد مثل ما حظيت به د. نوال السعداوى ، فعلى مدى نصف قرن من الزمان ويزيد وهى تكتب وتبدع ، ولكن ليس كما يكتب معظم من يتصدون للكتابة ، فمقالاتها وحواراتها ولقاءاتها ، كلها معارك وجهاد ، وهى - كما تعلن - على استعداد أن تستشهد وتضحى بحياتها فى سبيل أن ينتصر العقل ، وأن يحتكم الناس للمنطق بغير مواربة ولا مجاملة ، ولأمازيدة ، فقضايا المرأة والدين والسياسة ، هى كل مفردات شئون حياتنا ، وتتساءل فى دهشة واستنكار ، بأى حق يستبيح كاتب أو ناقد أو ذو رأى أن يصنّف الناس ويحدّد أدوارهم ويجعل المرأة فى مرتبة أقل من الرجل ، وهى الأم والأخت والابنة والى أوصت بها كل الديانات خيراً بل وجعلت اللجنة تحت أقدامها ، وأى انغلاق هذا الذى يضربه البعض على مناقشة قضايا هى صلب حياتنا وسبب وجودنا كقضايا الجنس مثلاً والى لو قم التبصير بها بالعلم ، لما وصلت الأمور إلى ما نحن فيه من سوء . ربما لا يعلم كثيرون أن المؤلفة من إحدى محافظات ريف مصر ، حيث الالتزام الأخلاقى الذى يبلغ حد التزمّت ، وإذا أضفنا إلى ذلك - حفيذة أحد رجال الدين وشيوخ الأزهر ، لكان الأمر جديراً بالتأمل والاستحقت مسيرة الكاتبة أن تكون موضوعاً للدراسة كنم للاستنارة وللشجاعة الأدبية والعلمية .

الناش